



منهج ابن الضياء في تفسيره سورة طه أمودجًا دراسةً
وتحقيقًا

2023

أطروحة دكتوراه

قسم العلوم الإسلامية الأساسية

Musab ALSAFAR

المشرف

Doç. Dr. Tuğrul TEZCAN

منهج ابن الضياء في تفسيره سورة طه أمودجًا دراسةً
وتحقيقًا

Musab ALSAFAR

المشرف

Doç. Dr. Tuğrul TEZCAN

بخت أعدّ لنيل درجة الدكتوراه في قسم العلوم الإسلامية الأساسية بمعهد
الدراسات العليا بجامعة كارابوك في تركيا

كارابوك

تموز/2023

المحتويات

1	المحتويات
3	صفحة الحكم على الرسالة (باللغة التركية)
4	صفحة الحكم على الرسالة
5	DOĞRULUK BEYANI
6	تعهد المصادقية
7	مقدمة
10	ملخص الرسالة باللغة العربية
12	ÖZET
14	ABSTRACT
16	ARŞIV KAYIT BİLGİLERİ
17	بيانات الرسالة للأرشفة (باللغة العربية)
18	ARCHIVE RECORD INFORMATION
19	الاختصارات
20	موضوع البحث
20	أهداف البحث وأهميته
21	منهج البحث
21	مشكلة البحث
21	حدود البحث ونطاقه والمشكلات التي واجهت الباحث
22	الدراسات السابقة (إن وُجِدَتْ)
23	منهج الباحث في قسم التحقيق
25	الفصل الأول: مدخل إلى سورة طه
25	المبحث الأول: علوم القرآن المتعلقة بسورة طه
38	المبحث الثاني: موضوعات سورة طه والقيم التربوية منها
38	المطلب الأول: موضوعات سورة طه
41	المطلب الثاني: القيم التربوية في سورة طه
48	الفصل الثاني: التعريف بابن الضياء ومخطوطته
48	المبحث الأول: ترجمة ابن الضياء
48	المطلب الأول: حياة ابن الضياء الشخصية وتأثير البيئة المحيطة به في تكوينه
54	المطلب الثاني: حياة ابن الضياء العلمية والعملية

61.....	المبحث الثاني: التعريف بمخطوط ابن الضياء
61.....	المطلب الأول: قيمة الكتاب العلمية ومزاياه
63.....	المطلب الثاني: المآخذ على هذا التفسير
64.....	المطلب الثالث: التعريف بمخطوط ابن الضياء
65.....	المطلب الرابع: وصف المخطوط وصور من نسخته
70.....	الفصل الثالث: القسم المحقق
312.....	الفصل الرابع: مصادر ابن الضياء ومنهجه في (تفسير القرآن العظيم في سورة طه)
312.....	المبحث الأول: مصادر المؤلف في تفسيره
312.....	المطلب الأول: مصادر المؤلف في تفسيره
321.....	المبحث الثاني: منهج ابن الضياء في تفسيره
321.....	المطلب الأول: تفسير القرآن بالقرآن (عند ابن الضياء)
322.....	المطلب الثاني: تفسير القرآن بالحديث النبوي (عند ابن الضياء)
325.....	المطلب الثالث: تفسير القرآن بأقوال الصحابة والتابعين (عند ابن الضياء)
327.....	المطلب الرابع: موقفه من التفسير الإشاري
330.....	المطلب الخامس: منهجه في ذكر الإسرائيليات
332.....	المطلب السادس: منهجه في عرض القراءات
337.....	المطلب السابع: منهجه في تقرير مسائل العقيدة والرد على الفرق
341.....	المطلب الثامن: منهجه في المسائل الفقهية
342.....	المطلب التاسع: عنايته في المسائل اللغوية
347.....	المطلب العاشر: عنايته في المسائل البلاغية
350.....	المطلب الحادي عشر: التفسير التحليلي عند ابن الضياء
354.....	الخاتمة
355.....	النتائج والتوصيات
360.....	المصادر والمراجع
394.....	السيرة الذاتية

صفحة الحكم على الرسالة (باللغة التركية)

Musab ALSAFAR tarafından hazırlanan “İBNU'Z-ZİYA'NIN TEFSİRİNDEKİ METODU: TAHA SURESİ ÖRNEĞİNDE BİR İNCELEME VE TAHKİK” başlıklı bu tezin Doktora Tezi olarak uygun olduğunu onaylarım.

Doç. Dr. Tuğrul TEZCAN

Tez Danışmanı, Temel İslam Bilimleri

Bu çalışma, jürimiz tarafından Oy Birliği ile Temel İslam Bilimlerinde Doktora tezi olarak kabul edilmiştir. 04.08.2023

Ünvanı, Adı SOYADI (Kurumu)

İmzası

Başkan: Doç.Dr. Tuğrul TEZCAN (KBÜ)

Üye : Doç.Dr. Hossam Moussa Mohamed SHOUSHA (KBÜ).....

Üye : Doç. Dr. Aydın KUDAT (AYBÜ)

Üye : Dr Öğr. Üyesi. İbrahim İBRAHİMOĞLU (GOPÜ)

Üye : Dr. Öğr. Üyesi: Ali Ali Gobaili SAGED (UM)

KBÜ Lisansüstü Eğitim Enstitüsü Yönetim Kurulu, bu tez ile, Doktora Tezi derecesini onamıştır.

Doç. Dr. Zeynep ÖZCAN

Lisansüstü Eğitim Enstitüsü Müdürü

صفحة الحكم على الرسالة

أصادق على أن هذه الأطروحة التي أعدت من قبل الطالب مصعب السفر بعنوان "منهج ابن الضياء في تفسيره سورة طه أمودجاً دراسةً وتحقيقاً" في برنامج الدكتوراه هي مناسبة كرسالة الدكتوراه.

Doç. Dr. Tuğrul TEZCAN

مشرف الرسالة، العلوم الإسلامية الأساسية

قبول

تم الحكم على رسالة الدكتوراه هذه بالقبول بإجماع لجنة المناقشة بتاريخ.

04.08.2023

أعضاء لجنة المناقشة

التوقيع

رئيس اللجنة : Doç. Dr. Tuğrul TEZCAN (KBÜ)

عضواً : Doç. Dr. Hossam Moussa Mohamed SHOUSHA (KBÜ)

عضواً : Doç. Dr. Aydın KUDAT (AYBÜ)

عضواً : Dr Öğr. Üyesi. İbrahim İBRAHİMOĞLU (GOPÜ)

عضواً : Dr. Öğr. Üyesi: Ali Ali Gobaili SAGED (UM)

تم منح الطالب بهذه الأطروحة درجة الماجستير في قسم العلوم الإسلامية الأساسية من قبل مجلس إدارة معهد الدراسات العليا في جامعة كارابوك.

Doç. Dr. Zeynep ÖZCAN

مدير معهد الدراسات العليا

DOĞRULUK BEYANI

Doktora tezi olarak sunduđum bu alıřmayı bilimsel ahlak ve geleneklere aykırı herhangi bir yola tevessül etmeden yazdıđımı, arařtırmamı yaparken hangi tür alıntıların intihal kusuru sayılacađını bildiđimi, intihal kusuru sayılabilecek herhangi bir bölüme arařtırmamda yer vermediđimi, yararlandıđım eserlerin kaynakçada gösterilenlerden oluřtuđunu ve bu eslere metin ierisinde uygun řekilde atıf yapıldıđını beyan ederim.

Enstitü tarafından belli bir zamana bađlı olmaksızın, tezimle ilgili yaptıđım bu beyana aykırı bir durumun saptanması durumunda, ortaya ıkacak ahlaki ve hukuki tüm sonuçlara katlanmayı kabul ederim.

Adı Soyadı: Musab ALSAFAR

İmza:

تعهد المصادقية

أقر بأنني التزمت بقوانين جامعة كارابوك، وأنظمتها، وتعليماتها، وقراراتها السارية المفعول المتعلقة بإعداد أبحاث الماجستير والدكتوراه أثناء كتابتي هذه الأطروحة التي بعنوان:

"منهج ابن الضياء في تفسيره سورة طه أنموذجاً دراسةً وتحقيقاً"

وذلك بما ينسجم مع الأمانة العلمية المتعارف عليها في كتابة الأبحاث العلمية، كما أنني أعلن بأن أطروحتي هذه غير منقولة، أو مستلة من أطروحات، أو كتب، أو أبحاث، أو أية منشورات علمية تم نشرها أو تخزينها في أية وسيلة إعلامية باستثناء ما تمت الإشارة إليه حيثما ورد.

اسم الطالب: مصعب السفر

التوقيع:

الشكر والتقدير

الشكر موصول لسعادة الدكتور الأستاذ المشارك: توغول تيزجان المتكرم علي بإشرافه على هذا العمل، والذي كان متابعاً له بعناية واهتمام كبيرين، فجزاه الله عني كل خير. كما أتوجه بالشكر لفضيلة الدكتور المشارك: أيدين كودات والدكتور المساعد: حسام موسى محمد شوشة، الذين كان لهما الفضل في متابعة هذه الرسالة وإبداء ملاحظتهما القيمة، واللجنة العلمية المناقشة، فلا أنسى فضلهم وتوجيهاتهم القيمة، الدكتور المساعد: أويس إبراهيم أوغلو، والدكتور المساعد: علي جبيلي. أقول لهم جزاهم الله خيراً. وأهدي ثواب هذا العمل لمن كان دعاؤهما محيط بكل جوانب حياتي-أبي وأمّي-رحمهما الله تعالى، وأسكنهما فسيح جناته.

وأختتم شكري وامتناني لمن كان لها الأثر المباشر في متابعة التحصيل العلمي، والمعينة والمشجعة لي في مسيرتي، رفيقتي دربي، زوجتي د. فاتن الريمي، ولكل من ساعدني وساندني في هذه المرحلة، لهم مني كل المحبة والتقدير.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين ولا عدوان إلا على الظالمين، من يهد الله فهو المهتد، ومن يضل فلن تجد له ولياً مرشداً. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إله لا ضدَّ، ولا ندَّ، ولا والد، ولا ولد له، حكم فعدل، وأعطى فأجزل.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: 70-71].

وأشهد أن حبيبنا محمداً رسول الله، خاتم النبيين وإمام المرسلين، أرسله رحمةً للعالمين، اللهم صلي عليه وعلى آله وعلى أصحابه أجمعين. وبعد :

فقد شرف الله -تعالى- هذه الأمة بهذا الكتاب، ورفع به ذكرها، وأعلى به شأنها، ونصرها به على من عاداها. وقد تسارع أهل العلم وأصحابه وطلابه مجتهدين بكل حواسهم وقوتهم يفتنمون أوقاتهم بجِدِّ ومثابرة في تعلُّم القرآن وعلومه والغوص بين طبَّياته، فمنهم من فاق غيره في القراءات والتجويد، ومنهم من برع في التفسير، ومنهم من اعتنى بعلوم أخرى، فتركوا تراثاً جمًّا فيما يتعلق بالقرآن الكريم من العلوم والفنون. وكان من هؤلاء الأعلام من أهل القرن التاسع الهجري محمد بن أحمد ابن الضياء العمري الصاغاني، فكان له العديد من المصنفات المتعلقة بالقرآن وغيره، ومن أبرزها: تفسير القرآن العظيم (سورة طه - الأنبياء - الحج)، فرغبت في إثراء المكتبة الإسلامية بإخراج جزء من هذا المخطوط بحلة يستفيد منها إخواني من طلاب العلم من حيث الدراسة لهذا الكتاب وتحقيقه، ضمن مسار رسالة علمية لنيل درجة "الدكتوراه". هذا وقد كان هذا العمل في شعبة التفسير وعلومه في كلية الإلهيات في جامعة كارابوك-تركيا.

وقد اشتملت الدراسة على مقدمة وأربع فصول وخاتمة.

تناول الفصل الأول مدخلاً إلى سورة طه. وفيه: علوم القرآن المتعلقة بسورة طه، والدروس المستفادة

منها، والقيم التربوية فيها.

وتناول الفصل الثاني من الدراسة التعريف بابن الضياء ومخطوطته من ترجمة لابن الضياء حول حياة

ابن الضياء الشخصية، والعلمية والعملية وثناء العلماء عليه وكيف تأثر بالبيئة المحيطة به. وكذلك التعريف

بمخطوط ابن الضياء، من بيان اسم الكتاب وصحة نسبة إلى المؤلف، ووصف المخطوط وصور من

نسخته، وتناول الفصل الثالث القسم المحقق.

وتناول الفصل الرابع: مصادر ابن الضياء في تفسيره (تفسير القرآن العظيم في سورة طه)، ومنهجه

في تفسيره من تفسير القرآن بالقرآن والحديث النبوي، وأقوال الصحابة والتابعين، ومنهجه في ذكر

الإسرائيليات، وعرض القراءات، وتقرير مسائل العقيدة والرد على الفرق، ومنهجه في المسائل الفقهية

والأصولية، وفي القضايا اللغوية والبلاغية. كما تناول التفسير التحليلي عند ابن الضياء. وتناولت الخاتمة

النتائج والتوصيات التي وصل إليها الباحث.

ملخص الرسالة باللغة العربية

تنوعت المؤلفات العلمية في المكتبات الإسلامية بشكل كبير وملحوظ، فقد اجتهد العلماء من بداية عصر التأليف إلى البحث والتأليف في كل المجالات، وكان من هؤلاء العلامة ابن الضياء، فكتب في العديد من العلوم والفنون، وكان مما كتب فيه تفسير القرآن العظيم. وقد اعتنى هذا البحث بترجمة للعلامة ابن الضياء ودراسة لتفسيره وبيان منهجيته فيه، وتحقيق جزء من تفسيره المسمى تفسير القرآن العظيم وقد اشتملت الدراسة على مقدمة وأربع فصول وخاتمة. تناول الفصل الأول مدخلاً إلى سورة طه. وفيه: علوم القرآن المتعلقة بسورة طه، والدروس المستفادة منها، والقيم التربوية فيها. وتناول الفصل الثاني من الدراسة التعريف بابن الضياء ومخطوطته من ترجمة لابن الضياء حول حياة ابن الضياء الشخصية، والعلمية والعملية وثناء العلماء عليه وكيف تأثر بالبيئة المحيطة به. وكذلك التعريف بمخطوط ابن الضياء، من بيان اسم الكتاب وصحة نسبه إلى المؤلف، ووصف المخطوط وصور من نسخته. وتناول الفصل الثالث القسم المحقق. وتناول الفصل الرابع: مصادر ابن الضياء في تفسيره (تفسير القرآن العظيم في سورة طه)، ومنهجه في تفسيره من تفسير القرآن بالقرآن والحديث النبوي، وأقوال الصحابة والتابعين، ومنهجه في ذكر الإسرائيليات، وعرض القراءات، وتقدير مسائل العقيدة والرد على الفرق، ومنهجه في المسائل الفقهية والأصولية، وفي القضايا اللغوية والبلاغية. كما تناول التفسير التحليلي عند ابن الضياء. وتناولت الخاتمة النتائج والتوصيات التي وصل إليها الباحث.

وقد توصلت هذه الرسالة إلى مجموعة من النتائج، كان من أهمها: المكانة الكبيرة لابن الضياء في تأليف العلوم والفنون، ومناصرتة لمذهب أهل السنة والجماعة، ووسطيته البعيدة عن التعصب. واشتمال تفسير ابن الضياء على الكثير من الفوائد النفيسة والعلوم المفيدة. وقد جمع ابن الضياء في تفسيره بين

التفسير بالرأي والتفسير بالمأثور كما دة علمية، تنوع مباحث علوم القرآن في تفسيره من مناسبات والوجوه والنظائر والناسخ والمنسوخ وغيرها، حسن السبك والترتيب بين الأقوال التي يوردها في تفسير الآية، لكنه لا يتعقبها برأي له، مكتفٍ بالجمع والترتيب، أضف إلى ذلك وجود الإسرائيليات والروايات الموضوعة في تفسيره من دون أن ينبه على صحة الرواية أو أن الرواية المذكورة من الإسرائيليات، والحمد لله أولاً وآخراً.

الكلمات المفتاحية: أبو البقاء ابن الضياء، تفسير ابن الضياء، سورة طه، منهج، دراسة، تحقيق

ÖZET

Bilimsel çalışmalar İslam kütüphanelerinde önemli ve dikkate değer bir çeşitlilik sergilemektedir. Bilim insanları, yazılı eserlerin oluşturulduğu dönemden itibaren çeşitli alanlarda araştırma yapma ve eser yazma çabasına girişmişlerdir. Bu bilim insanlarından biri de İbnü'd-Dıyâ olarak bilinmektedir. O, çeşitli ilim ve sanat dallarında eserler kaleme almış ve büyük bir çabayla Kuran'ın tefsiri üzerine çalışmıştır. Bu çalışma, İbnü'd-Dıyâ'nın hayat hikayesini, tefsirini ve tefsir yöntemini açıklamayı amaçlamaktadır. Aynı zamanda "Tefsiru'l-Kur'ani'l-Azîm" isimli tefsirinin bir bölümünün tahkikini içermektedir.

Çalışma, giriş, dört bölüm ve sonuç bölümünden oluşmaktadır. Birinci bölüm, Taha Suresi'ne giriş niteliğindedir ve içerisinde Taha Suresi ile ilgili Kuran ilimleri, buradan çıkarılan dersler ve içerdiği eğitsel değerler ele alınmaktadır. İkinci bölüm, İbnü'd-Dıyâ'nın tanıtımını ve el yazmasının tanıtımını içermektedir. İbnü'd-Dıyâ'nın kişisel, ilmi ve iş hayatıyla ilgili bir biyografi sunulmakta, diğer bilginlerin ona yönelik övgüleri ve çevresel etkileri üzerine incelenmektedir. Aynı zamanda İbnü'd-Dıyâ'nın eseri olan el yazmasının ismi, yazarının doğrulanması, el yazmasının tanımı ve resimleri ile beraber sunulmaktadır. Üçüncü bölüm, metin düzenlemesini ele almaktadır. Dördüncü bölümde ise İbnü'd-Dıyâ'nın Tefsiru'l-Kur'anil-Azim fi Tefsiri Taha adlı eserinde kullandığı kaynaklar ele alınmaktadır. Ayrıca tefsir yöntemi incelenmekte yani Kur'an'ın Kur'an ve Hadislerle, Sahabe ve Tabiûn sözleriyle ve de İsrailî rivayetlerle tefsir yöntemi üzerinde durulmakta, yine kıraatların arzı, inanç konularının işlenişi ve farklı mezheplere yönelik eleştirileri, fikhî ve usûlî, belâgi ve lugavî meselelerdeki metodu ele alınmaktadır. Ayrıca İbnü'd-Dıyâ'nın tefsiri de tahlil edilmiştir. Sonuç bölümünde ise araştırmacının ulaştığı incelemeden elde edilen bulgular ve araştırmacılar için öneriler sunulmaktadır.

İnceleme neticesinde ulaşılan bulgulardan bazıları şöyledir:

İbnü'd-Dıyâ'nın bilim ve sanat alanında önemli bir yere sahip, Sünni mezhebini destekleyen ve aşırılıklardan uzak duran bir ilim insanıdır. Tefsiri, değerli ve faydalı ilimlerle doludur. Tefsiri, akli ve nakli kullanılarak bilimsel bir içeriğe dönüştürülmüştür. Tefsirinde İbnü'd-Dıyâ, Kur'an ilimlerini çeşitli yönleriyle ele almıştır. Bu ilimler arasında Vucûh ve Nezâir, Nasih ve Mensuh gibi konular yer

almaktadır. İbnü'd-Dıyâ, ayet tefsiri hususunda irad edilmiş görüşleri güzel bir tertip ve düzen içinde oluşturmuştur fakat kişisel düşüncelerini belirtmekten kaçınmıştır. Bunun yanı sıra, İbnü'd-Dıyâ'nın tefsirinde İsrailiyyat ve uydurma rivayetlerin yer aldığı gözlemlenmiştir, ancak bu rivayetlerin doğruluğuna dair herhangi bir uyarı veya bunların İsrailiyyat kaynaklarından olduğunu belirten bir açıklama yapılmamıştır.

Anahtar Kelimeler: Ebu'l-Bekâ İbnü'z-Ziyâ, Tefsir-i İbni'z-Ziyâ, Taha Suresi, Metod, İnceleme, Tahkîk

ABSTRACT

The scientific works in Islamic libraries witnessed significant and remarkable diversity. Scholars diligently engaged in research and writing across various fields since the beginning of the authorship era. One of these eminent scholars was Ibn al-Dhiyaa, who authored numerous works in different sciences and arts, including an extensive commentary on the Holy Quran. This research focuses on translating and studying the commentary of Ibn al-Dhiyaa, elucidating his methodology, and presenting a critical edition of a part of his commentary titled "Tafsir al-Quran al-Azim" (The Exegesis of the Noble Quran).

The study consisted of an introduction, four chapters, and a conclusion. The first chapter provided an introduction to Surah Taha, including the Quranic sciences related to it, the lessons derived from it, and the educational values it encompasses. The second chapter focused on introducing Ibn al-Dhiyaa and his manuscript, presenting a biography of Ibn al-Dhiyaa covering his personal, scholarly, and practical life, as well as the praise he received from other scholars and how he was influenced by his surrounding environment. This chapter also included information about the manuscript of Ibn al-Dhiyaa, including the title of the book, its attribution to the author, a description of the manuscript, and images of its copy.

Chapter three addressed the critical analysis section. In chapter four, the study explored Ibn al-Dhiyaa's sources in his commentary "Tafsir al-Quran al-Azim" on Surah Taha. This chapter discussed his methodology in interpreting the Quran, which involved using the Quranic verses, Prophetic traditions (Hadith), the statements of the Companions and the followers, his approach to mentioning Israelite narratives (Israiliyat), presenting different Quranic readings (Qira'at), and addressing matters of belief while refuting sectarian ideologies. Furthermore, the chapter examined his approach to jurisprudential, theological, linguistic, and rhetorical issues, as well as his analytical approach in interpretation.

The conclusion summarized the findings and recommendations reached by the researcher.

This thesis has arrived at several important conclusions, among them: the significant stature of Ibn al-Dhiyaa in the field of writing sciences and arts, his support for the school of Ahl al-Sunnah wa al-Jama'ah (the Sunni mainstream), and his moderate approach free from extremism. Ibn al-Dhiyaa's commentary contains a wealth of precious benefits and useful knowledge. He skillfully combined reasoned interpretation (tafsir bil-ra'y) with transmitted interpretation (tafsir bil-ma'thur) as a scholarly approach. His commentary covers various aspects of Quranic sciences, such as occasions of revelation, different interpretations, analogical reasoning, abrogating and abrogated verses, and more. He presented the diverse opinions related to the interpretation of a verse without imposing his own view, opting instead for compilation and arrangement.

Additionally, Ibn al-Dhiyaa's commentary includes Israelite narratives and fabricated traditions without verifying their authenticity or indicating that they are indeed from the Israelite narratives.

Keywords: Abu_Albaaka Ibn_Aldiaa; Tafseer Ibn_Aldiaa; Surah Taha; Method; Analysis; Tahkik

ARŞİV KAYIT BİLGİLERİ

Tezin Adı	İbnu'z-Ziya'nın Tefsirindeki Metodu: Taha Suresi Örneğinde Bir İnceleme ve Tahkik
Tezin Yazarı	Musab ALSAFAR
Tezin Danışmanı	Doç. Dr. Tuğrul TECAN
Tezin Derecesi	Doktora
Tezin Tarihi	04.08.2023
Tezin Alanı	Temel İslam Bilimleri
Tezin Yeri	KBU/LEE
Tezin Sayfa Sayısı	394
Anahtar Kelimeler	Abu_Albakaa Ibn_Aldiaa; Tafseer Ibn_Aldiaa; Surah Taha; Method; Analysis; Tahkik

بيانات الرسالة للأرشفة (باللغة العربية)

عنوان الرسالة	منهج ابن الضياء في تفسيره سورة طه أمودجاً دراسةً وتحقيقاً
اسم الباحث	مصعب السفر
اسم المشرف	الأستاذ المشارك د. توغرل تيجان
المرحلة الدراسية	دكتوراه
تاريخ الرسالة	04.08.2023
تخصص الرسالة	العلوم الإسلامية الأساسية
مكان الرسالة	جامعة كربوك - معهد الدراسات العليا
عدد صفحات الرسالة	394
الكلمات المفتاحية	أبو البقاء، ابن الضياء، سورة طه، تفسير، منهج ابن الضياء، دراسة، تحقيق.

ARCHIVE RECORD INFORMATION

Name of the Thesis	Ibn Al-Diyaa's approach in his interpretation of Surat Taha; Study and investigation model
Author of the Thesis	Musab ALSAFAR
Advisor of the Thesis	Assoc. Prof. Dr.Tuğrul TECAN
Status of the Thesis	Ph.D
Date of the Thesis	.04.08.2023
Field of the Thesis	Basic Islamic Science
Place of the Thesis	UNIKA/IGP
Total Page Number	394
Keywords	Abu Al-Baqa, Ibn Al-Diyaa, Surah Taha, Ibn Al-Diyaa's Approach. Study, investigation

الاختصارات

الاختصار 1: حرف التاء "ت" في الهامش معناه: توفي.

الاختصار 2: حرف الهاء "ه" في الهامش معناه: هجرية.

الاختصار 3: حرف الميم "م" في الهامش معناه: ميلادية.

الاختصار 4: حرف الطاء "ط" في الهامش معناه: طبعة.

الاختصار 5: حرف الدال "د" في الهامش معناه: دكتور.

موضوع البحث

موضوع البحث عبارة عن دراسة تناولت ترجمة العلامة ابن الضياء ودراسة تفسيره ومنهجيته، والقضايا المتعلقة بعلوم القرآن، ومن ثم تحقيق جزء من هذا التفسير كنموذج للتحقيق، وكانت سورة " طه " هي السورة التي تمّ العمل على تحقيقها.

أهداف البحث وأهميته

سَطَّر الباحث جملة من الأهداف لتحقيقها والوصول إليها، وهي:

- دراسة حياة المؤلف الشخصية والعلمية والعملية .
- إثبات صحة هذا التفسير لمؤلفه.
- الوقوف على مصادر ابن الضياء التي نقل منها مادته العلمية.
- دراسة منهجية المؤلف في تفسيره.
- إظهار مزايا هذا السفر وعيوبه.
- تحقيق جزءاً من تفسير ابن الضياء تحقيقاً على شروط المحققين، خدمة لكتاب الله، ولتعم الفائدة من خلاله.

أما أهميته فتبرز في قيمة الكتاب العلمية، والتعرف على مؤلفه، وتحقيق جزء من تفسير القرآن العظيم، وإخراجه بأقرب صورة للمخطوط، كونه لا يوجد دراسة سابقة في هذا الموضوع، ومما يزيده هذا البحث أهمية ندرة هذه المخطوط، فإنه لا يوجد إلا نسخة وحيدة مكتوبة بيد المؤلف.

منهج البحث

اعتمد الباحث في دراسته على المنهج الوصفي التحليلي، وذلك بوصف المخطوط وتحقيق جزء منها، وترجمة للمفسر ابن الضياء ودراسة منهجه في تفسيره، بتحليل طريقة عرضه للآيات واستخراج منهجيته، وذلك من خلال كتابه: (تفسير القرآن العظيم).

مشكلة البحث

للعلامة ابن الضياء تفسير في القرآن الكريم، له قيمة علمية كبيرة، لكنه ليس له حاشية ولا شروح ولم يحقق بعد، وليس له منهج في تأليفه لهذا الكتاب، ولم يذكر شيء من هذا القبيل في مقدمة كتابه ومن أجل ذلك يحاول هذا البحث استخراج جزء من هذا الكتاب وتناوله بالدراسة التحقيق والكشف على منهجية المؤلف في تفسيره.

حدود البحث ونطاقه والمشكلات التي واجهت الباحث

من خلال عنوان البحث فإن حدوده العامة تتركز حول عدّة نقاط أساسية:

أ. تحقيق سورة طه.

ب. ترجمة ابن الضياء.

ت. منهجه في التفسير.

وبالتالي فإن البحث يدور حول تحقيق جزء من المخطوط، وترجمة لابن الضياء ومنهجيته في تفسير القرآن العظيم.

وأما المشكلات التي واجهت الباحث فتتجسد في عدم وجود بعض المصادر والمراجع التي أخذ منها العلامة ابن الضياء مادته العلمية، وأن المخطوطة نادرة؛ ولا يوجد منها إلا نسخة واحدة بخط المؤلف مما يضطر الباحث إلى الرجوع للمصادر التي أخذ منها المؤلف لمقابلة بعض الألفاظ والمعاني التي وردت في

مؤلفه. إضافة إلى ذلك قلة المصادر والمراجع بين يدي الباحث، بسبب الظروف التي يمر بها، وصعوبة القراءة والبحث في المصادر الإلكترونية، من كتب وأبحاث وشبكات.

الدراسات السابقة

لم أجد - في حدود بحثي وإطلاعي - دراسة سابقة تطرقت إلى دراسة منهج ابن الضياء وتحقيق هذا المخطوط، وكل ما وقفت عليه هي دراسات تناولت ابن الضياء من جوانب عامة ومختلفة، ومن هذه الدراسات:

أ. د. ضمياء محمد عباس السامرائي، ابن الضياء المكي ومنهجه في كتابه تاريخ مكة والمدينة، مجلة سر من رأى، المجلد: السادس، العدد: الثامن عشر، كانون الثاني، سنة 2010م.

تناولت الدراسة شخصية ابن الضياء من الناحية العائلية، والنواحي العلمية، ومصنفاته، وشيوخه وتلامذته، ومنهجه في كتابه (تاريخ مكة والمدينة)، بينما هذا البحث سيتناول منهج ابن الضياء في تفسيره.

ب. ابن الضياء، مختصر تنزيه المسجد الحرام عن بدع الجهلة العوام، تحقيق: نظام محمد صالح يعقوبي، الناشر: دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ط: الأولى، 1420هـ.

تناول المحقق في بداية الكتاب ترجمة لابن الضياء، من حيث نسبه وولادته ووفاته، وبعض شيوخه وتلامذته ومصنفاته، وبعض مناقبه وثناء العلماء عليه، ثم بدأ بتحقيق الكتاب. فهو بذلك تناول شقاً من بحثي ولم يتناول الشق الآخر، وهذا الذي سأتناوله في بحثي.

ت. ابن الضياء، البحر العميق في مناسك المعتمر والحاج إلى البيت العتيق، تحقيق: د. عبد الله نذير أحمد عبد الرحمن مزي، الناشر: مؤسسة الريان، ط: الثانية، سنة النشر: 1432هـ - 2011م.

تناول فيه مؤلفه في هذا الكتاب عن الكتب والمؤلفات التي تكلمت حول فضائل مكة والمدينة، وتاريخهما، وحج النبي صلى الله عليه وسلم، ثم امتدح كتاب البحر العميق ومنهجيته، ويصفه بأمانة النقل العلمية، ابتداءً بتحقيق الكتاب. لكنه لم يتناول ترجمة ابن الضياء، ولا منهجيته في تفسيره، والذي سأفعله في بحثي.

منهج الباحث في قسم التحقيق

يتلخص العمل في تحقيق هذا المخطوط بما يلي:

1. نسخ الكتاب بحسب القواعد الإملائية، واضعاً علامات الترقيم.
2. الإشارة إلى نهاية صفحة المخطوط برقمها وهي (أ) أو (ب) ووضعها بين معقوفتين.
3. وضع الآية المفسرة كاملة في المتن مع ذكر رقمها.
4. تخريج الآيات التي استشهد بها المؤلف -رحمه الله- بذكر اسم السورة ورقم الآية في المتن.
5. عزو الأحاديث النبوية، وإذا كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما أكتفي بتخريجه منهما، وإن لم يكن في الصحيحين أو أحدهما أخرجه من بقية الكتب الستة، والاكتفاء بذلك إن كان فيها، وإلا أتبع تخريج الحديث من الكتب الأخرى.
6. اعتمد الباحث بالحكم على الأحاديث التي لم ترد في الصحيحين على حكم الشيخ الألباني، كونه من العلماء المعاصرين والمحيطين بعلم الحديث، وقد أذكر حكم الحديث من صحة أو ضعف من غير الإشارة إلى قائله.
7. نقل أقوال بعض أهل العلم في الحكم على الحديث ما لم يكن في الصحيحين أو أحدهما.
8. استعمال بعض الرموز للألفاظ المتكررة طلباً للاختصار مثل:
ت: توفي م: ميلادية ه: هجرية ط: طبعة د: دكتور
9. ترجمة للأعلام المجهولين بقدر المستطاع طلباً للفائدة.
10. التعريف بالمصطلحات العلمية التي تحتاج إلى تعريف.

11. التعريف بالأماكن والبلدان المجهولة التي ترد في البحث.

12. ذكر اسم المرجع مع مؤلفة والطبعة وتاريخها للمرة الأولى ثم اختصارها بعد ذلك مع إثبات بيانات

المراجع في فهرس المراجع طلباً للاختصار.

الفصل الأول: مدخل إلى سورة طه

المبحث الأول: علوم القرآن المتعلقة بسورة طه

تنوعت العلوم التي تعلقت بالقرآن الكريم إلى أنواع متعددة، أوصلها صاحب البرهان إلى ستّة وأربعين نوعاً، كتب الباحث منها ما تعلق في سورة طه.

وقد ذكرها الزركشي في كتابه البرهان أنها سبعة وأربعون علماً، فقال: "واعلم أنه ما من نوع من هذه الأنواع إلا ولو أراد الإنسان استقصاءه لاستفرغ عمره ثم لم يحكم أمره، ولكن اقتصرنا من كل نوع على أصوله والرمز إلى بعض فصوله فإن الصناعة طويلة والعمر قصير ماذا عسى أن يبلغ لسان لتقصير"¹.

وقد تنوعت مسائل علوم القرآن في سورة "طه"، ومن جملة هذه المسائل:

أولاً: اسم السورة، وعدد آياتها وكلماتها وحروفها

1. سميت السورة بسورة طه، وذلك لابتداء السورة بالنداء بها {طه، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى}

ومما يدلُّ على تسميتها:

أ- ما ورد عن ابن مسعود رضي الله عنه: «(فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْكَهْفِ وَمَرْيَمَ: إِهْرَنْ مِنَ الْعِتَاقِ الْأُولِ،

وَهْرَنْ مِنْ تِلَادِي»².

¹ أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بھادر الزركشي، البرهان في علوم القرآن، (بيروت: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، ط1، 1376هـ)، 12/1.

² البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري، (بيروت، طوق النجاة، ط1، 1422هـ)، كتاب فضائل القرآن، باب: تأليف القرآن، 1910/4، حديث رقم: 4708.

ب- وما رواه أنس ابن مالك رضي الله عنه قَالَ: حَرَجَ عُمَرُ مُتَقَلِّدًا بِالسَّيْفِ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّ حَتْنَكَ وَأُحْتِكَ قَدْ صَبَّوْا، فَأَتَاهُمَا عُمَرُ، وَعِنْدَهُمَا رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، يُقَالُ لَهُ: خَبَابٌ وَكَانُوا يَقْرَءُونَ طَةً، فَقَالَ: أَعْطُونِي الَّذِي عِنْدَكُمْ، فَأَقْرَأَهُ - وَكَانَ عُمَرُ يَقْرَأُ الْكُتُبَ - فَقَالَتْ لَهُ أُحْتُهُ: إِنَّكَ رَجَسٌ، وَلَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ، فُقِمَ وَاعْتَسَلَ، أَوْ تَوَضَّأَ، فَقَامَ عُمَرُ فَتَوَضَّأَ، ثُمَّ أَخَذَ الْكِتَابَ فَقَرَأَ طَةً¹.

ت- وقد أورد ابن كثير² بسنده عن أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ قَرَأَ طَهُ وَيَسَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ آدَمَ بِالْفِ عَامٍ، فَلَمَّا سَمِعَتِ الْمَلَائِكَةُ قَالُوا: طُوبَى لِأُمَّةٍ يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ هَذَا، وَطُوبَى لِأَجْوَابِ تَحْمِلُ هَذَا، وَطُوبَى لِأَلْسُنٍ تَتَكَلَّمُ بِهَذَا». وذكر السيوطي في الإتيان أنها تسمى سورة الكليم، وسماها الهدلي في كامله سورة موسى³.

2. آياتها: مائة وخمس وثلاثون آية بحسب المصحف العثماني، وقيل: مائة وثلاثون واثنتا آية، وقيل: مائة وأربع وثلاثون آية، وقيل: مائة وأربعون آية.

ويعود سبب الاختلاف في عدد الآيات كما ذكر صاحب البرهان: "أنه عليه الصلاة والسلام كان يقف على رءوس الآي، فإذا علم محلها وصل للتمام، فيحسب السامع أنها ليست فاصلة"، بمعنى أنه كان صلى الله عليه وسلم يقف على رأس الآية، وأحياناً يتابع في قراءته، لكي يبين للناس جواز الوصل والوقف، فيظنُّ

¹ أخرجه الدارقطني، أبو الحسن علي بن عمر، سنن الدارقطني، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1، 2004م)، كتاب الطهارة، باب: في نهي المحدث عن مس القرآن. أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، السنن الكبرى، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط3، 1424هـ)، كتاب الطهارة، باب: نهي المحدث عن مس المصحف. إسناده صحيح.

² أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1419هـ)، 240/5.

³ عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، الإتيان في علوم القرآن، (مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1394هـ)، 199/1.

من سمع الوصل ولم يسمع الوقف، أنّ تلك هي رأس الآية¹. وأمّا كلماتها: في ألف وثلاث مئة وإحدى وأربعون كلمة. وعدد حروفها: خمسة آلاف ومئتان واثنان وأربعون حرفاً².

ثانياً: معرفة سبب النزول

تُعين أسباب النزول على فهم القرآن الكريم ومعانيه، فيجعلك تعيش وكأنّك في زمن الوحي، وفيه من الفوائد الجمّة مما لا تخفى على أحد، ذكرها العلماء في مصنفاتهم، وقد ورد في أسباب النزول في سورة طه الأمور التالية:

1. أخرج ابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس: أن النبي صلى الله عليه وسلم أول ما

أنزل عليه الوحي كان يقوم على صدور قدميه إذا صلى فأنزل الله: ﴿طه﴾ * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ

لِتَشْقَى ﴿طه: 1-2﴾³.

¹ الزركشي، البرهان في علوم القرآن، 1/251. الرُّزْقَانِي، مناهل العرفان في علوم القرآن، 1/342.

² عثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر أبو عمرو الداني، البيان في عدّ آي القرآن، (الكويت: مركز المخطوطات والتراث، ط1، 1414هـ)، 251.

³ أخرج أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي من حديث معقل بن يسار، شعب الإيمان، باب في حب النبي صلى الله عليه وسلم، فصل: في مراتب نبينا - صلى الله عليه وسلم - في النبوة، (الرياض: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، ط1، 2003م)، 84/3، رقم الحديث: 1417. عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، الدر المنثور، (بيروت: دار الفكر، بدون ذكر طبعة)، 5/549. ضعيف.

2. وأخرج البزار عن علي بن أبي طالب -من طريق يزيد بن بلال- قال: كان النبي صلى الله عليه

وسلم يُرواح بين قدميه؛ يقوم على كل رجلٍ، حتى نزلت: ﴿طه﴾ * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿﴾

[طه: 1-2] ¹.

3. وأخرج ابن مردويه وابن جرير عن ابن عباس قال: قالوا لقد شقي هذا الرجل بربه فأنزل الله: ﴿طه﴾

* مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿﴾ [طه: 1-2] ².

4. وأخرج ابن عساکر عن ابن عباس قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل يربط

نفسه بجبل كي لا ينام فأنزل الله عليه: ﴿طه﴾ * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿﴾ [طه: 1-2] ³.

5. قال مقاتل إنَّ أبا جهل والوليد بن المغيرة ومُطعمُ بن عدي والنضر بن الحارث قالوا لرسول الله

صلى الله عليه وسلم: «إِنَّكَ لِتَشْقَىٰ حَيْثُ تَرَكْتَ دِينَ آبَائِكَ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «بَلْ بَعَثت رَحْمَةً

لِلْعَالَمِينَ» قالوا: بل أنت تشقى، فأنزل الله تعالى هذه الآية ⁴. وتعدد الأسباب لنازل واحد أمر سائغ

لدى المفسرين، ولا إشكال فيه ⁵.

ثالثاً: مناسبة السورة لما قبلها وما بعدها

¹ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي المعروف بالبزار، مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار، مسند علي بن أبي طالب، (المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم، ط1، 1988-2009م)، 136/13، حديث رقم: 926. ضعيف.

² أخرجه محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، أبو جعفر الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، (بيروت: دار هجر، ط1، 1422هـ)، 5/16. السيوطي، الدر المنثور، 549/5. ضعيف.

³ أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساکر، تاريخ دمشق، (بيروت: دار الفكر، 1415هـ)، 4/143. شديد الضعف.

⁴ الرازي، فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي، خطيب الري، مفاتيح الغيب، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط3، 1420 هـ)، 6/22. أخرجه أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، أسباب نزول القرآن، (الدمام: دار الإصلاح، ط2، 1412هـ)، 303.

⁵ الرُّزْقَانِي، مناهل العرفان في علوم القرآن، 116/1.

إنَّ من إعجاز الله سبحانه وتعالى في كتابه العظيم أن جعل فيه المناسبات بين الآي والسور، فكان له في هذا الأسلوب الخاص إقبال العلماء عليه، ودراسة أسلوبه وأسراره، حتى نشأ علم المناسبات.

1. مناسبة سورة طه مع سورة مريم: من المعروف أنَّ سورة مريم هي قبل سوره طه في ترتيب بين السور

في القرآن الكريم، وعليه لا بدَّ من ملاحظة المناسبة بين السورتين الكريمتين بنقاط متعددة:

ث. افتتحت سورتي مريم وطه بالحروف المقطعة، فقال الباري في سورة مريم: ﴿كَهَيْعَصَ﴾ [مريم: 1]،

وقال في سورة طه: ﴿طه﴾ [طه: 1]، ثمَّ تحدَّثنا كلتا السورتين عن القرآن الكريم، فذكر في سورة:

مريم، أنَّ القرآن رحمة ﴿ذَكَرْ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَّرِيًّا﴾ [مريم: 2]، وفي سورة: طه أخبر الباري عزَّ

وجلَّ أنَّ القرآن تذكرة لمن يخشى ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ [طه: 3].

ج. لما كان عيسى وموسى عليهما السلام مشتركان في الغموم والهموم بسبب الولادة، وفي الإنعام من

الحضرة الإلهية في حقهما وفي حق والدتيهما على ما عرف.

ح. إنَّ المقصود من سورة مريم بيان التوحيد والنبوة والحشر، وفي هذه السورة ما يدل عليها كذلك.

خ. بيَّن الله سبحانه وتعالى في آخر سورة مريم أنَّه يسرَّ ذلك البيان بلسان ليبشر به وينذر فقال:

﴿فَإِنَّمَا يَسْتَرْزَاهُ بِلِسَانِكَ﴾ [مريم: 97] الآية، وهذا من النعم العظيمة والتشريفات الكريمات في

حقِّ الرسول صلى الله عليه وسلم، والرسولُ بالغُ في العبادات ليلاً ونهاراً وأتعب نفسه شكراً لذلك،

فخطابه في أوَّل هذه السُّورة بقوله: ﴿طه* مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ [طه: 1-2].

د. ذكر الله سبحانه وتعالى في سوره مريم عدداً من الأنبياء، فبسط الحديث في بعض القصص،

كقصة زكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام، وأجاز في البعض الآخر قصة إبراهيم عليه السلام، وأورد

بعضها بإيجاز مجمل، كقصة موسى عليه السِّلَام، ثمَّ أشار إلى بقية النبيِّين بالمجمل، وقد ذكر في

سورة طه: قصة موسى عليه السّلام مفصّلة، وختم: بقصّة آدم، ولم يذكر في سورة مريم إلا اسمه فقط¹.

ذ. كان نزول سورة طه بعد سورة مريم، وكان نزول سورة مريم بين الهجرة إلى الحبشة وحادثة الإسراء، أي بعد السنة السابعة من البعثة، وعليه يكون نزول سورة طه في ذلك التاريخ أيضاً².

2. مناسبة سورة طه مع سورة الأنبياء: أمّا المناسبة بين سورة طه وما بعدها، فإنّ سورة طه اختتمت بأنّ الناس قد شغلتهم زهرة الدنيا التي جعلها الله لهم فتنة، وأنّ الله نهي رسوله أن يتطلع إليها، وأمره بالصلاة والصبر عليها، وأنّ العاقبة للمتقين، إذ قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ حَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۝ ١٣١ وَأَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَأَصْبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعُقُبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: 131-132]، وابتدأت سورة الأنبياء بمثل ما اختتمت فيه سورة طه، فذكر فيها: أنّ النَّاسَ غافلون عن السّاعة والحساب، وأنهم إذا سمعوا القرآن استمعوه وهم لاعبون، وقلوبهم لاهية عنه، فقال تعالى: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ* مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ* لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [الأنبياء: 3-1].

رابعاً: معرفة الوجوه والنظائر

¹ عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، أسرار ترتيب القرآن، (القاهرة: دار الفضيلة، بدون ذكر رقم وتاريخ طبعة)، 108.

² جعفر شرف الدين، الموسوعة القرآنية، خصائص السور، (بيروت: دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، ط1، 1420هـ)، 221/5.

إنَّ معرفة الوجوه والنظائر والتَّمكّن منها للدراس من أعظم الوسائل لفهم مراد الله من آياته، فهو علم كغيره من علوم القرآن يكشف المعاني، ويوضِّح ما خفي من مقصود القرآن، أي: الوجوه تتعلق بالألفاظ متَّحدة الشكل مختلفة في المعنى، أمَّا النظائر: فهي الألفاظ المتَّحدة في الشكل والمعنى¹.

ومن الأمثلة على الوجوه والنظائر في سورة طه:

أ. ﴿قَالَ أَلْقَهَا مُوسَىٰ * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ * قَالَ حُدِّثْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ * وَأَضْمَمْنَا يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ؕ آيَةٌ أُخْرَىٰ﴾ [طه: 19-22] وتعني هنا: المعجزة²، وتخالف في المعنى في غيرها من السور القرآنية حين ذكرها، فتأتي بمعنى: الآية من القرآن³، كما في قوله تعالى: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ [البقرة: 106]، وتأتي بمعنى: العلامة⁴، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ [البقرة: 118].

ب. ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: 14]، ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَأَصْبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعِيقَابُ لِلتَّفَوُّي﴾ [طه: 132] والصلاة: المقصود بها: عبادة الله والصلاة⁵، وتأتي في غير موضع ويقصد بها صلاة الجمعة⁶، نحو قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا

¹ الزركشي، البرهان في علوم القرآن، 102/1.

² أحمد بن مصطفى المراغي، تفسير المراغي، (مصر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط1، 1365هـ)، 103/16.

³ أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، (بيروت: دار الكتاب العربي، ط3، 1407هـ)، 176/1.

⁴ ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط1، 1418هـ)، 103/1.

⁵ الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 99/3.

⁶ البغوي أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء، معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي، (مصر: دار طيبة، ط4، 1417هـ)، 269/1.

الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿9﴾ [الجمعة: 9].

ت. ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مِنْ أَتْبَعِ أَهْدَىٰ﴾ [طه: 47]. والهدى: تأتي هنا بمعنى: كلام الله تعالى¹، وتكون بمعنى الدِّين² في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَهْدَىٰ اللَّهُ هُدَىٰ اللَّهِ﴾ [آل عمران: 73]، وتأتي بمعنى التوراة³، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ أَهْدَىٰ وَأَوْثَرْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكُتُبَ﴾ [غافر: 53].

خامساً: علم المحكم والمتشابه

لا ضير في وجود المحكم والمتشابه في القرآن الكريم، ولا مانع من ذلك، بعد أن صرح القرآن الكريم بوجودهما، حيث قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: 7]، فإن الآية الكريمة تبين أنه في القرآن المحكم والمتشابه موجود، وقد جعل الله سبحانه وتعالى آيات القرآن الكريم منقسمة إلى المحكم والمتشابه، وسمى المحكمات أم الكتاب، وهي الأصل لما سواها، ويفهم منها معاني ما تشابه، وذلك يقتضي كون المتشابه محتملاً لمعاني مختلفة، يتعرف مراد الله منها بردها إلى المحكمات⁴.

ومن الأمثلة عن المحكم والمتشابه من سورة طه:

¹ الرازي، مفاتيح الغيب، 55/22.

² المصدر نفسه، 259/8.

³ البغوي، معالم التنزيل، 152/7.

⁴ الكيا الهراسي، أحكام القرآن، 277/2.

أ. المحكم: ﴿وَإِنِّي لَعَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: 82]، فإن هذه الآية

محكمة لغيرها من الآيات المتشابهة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: 53]

ب. المتشابهة: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: 5]. وفي توجيه هذه الآية لدى أهل السنة والجماعة

مسلكان¹:

- مذهب السلف وأهل الحديث: الإيمان بها وتفويض معناها إلى الله تعالى فلا نفسر معناها

مع تنزيهنا له عن حقيقتها، فعن مالك أنه سئل عن الآية فقال: الكيف غير معقول والاستواء

غير مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة".

- مذهب الخلف: تؤوّل على ما يليق بجلاله تعالى. ويميل الباحث إلى قول السلف رضوان الله

عليهم، فإنه أسلم.

سادساً: علم المبهمات

إنّ علم المبهمات من علوم القرآن التي اعتنى فيها العلماء، ولاقت اهتماماً كبيراً منهم، لأنّ بيانها يساعد

على فهم القرآن الكريم وبيان معانيه، حتى كانت علماً قائماً بحدّ نفسه.

ومن الأمثلة عن المبهمات في سورة طه:

أ. ﴿طه﴾ [طه: 1]: قيل: هو اسم من أسماء الله تعالى وقسم أقسم به. وقيل: هو اسم للنبي صلى

الله عليه وسلم سماه الله تعالى به كما سماه محمداً. وقيل: هو اسم للسورة ومفتاح لها. وقيل: إنه

¹ السيوطي، الإتيقان في علوم القرآن، 14/3. الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، 286/2.

اختصار من كلام الله خص الله تعالى رسوله بعلمه. وقيل: إنها حروف مقطعة يدل كل حرف منها

على معنى¹.

ب. ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُتُوا﴾ [طه: 10]: هي امرأته، واسمها صفوريا².

ت. ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوِّي وَعَدُو لَّهُ﴾ [طه: 39]: هو فرعون³.

ث. ﴿وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ [طه: 85]: هو موسى بن ظفر، منسوب إلى سامري، وكان من عباد

البقر. ويقال: إنه من أهل باجرمي⁴.

سابعاً: في أسرار الفواتح

جمع الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم مائة وأربعة عشرة سورة، افتتح بعضها بحروف التهجي، وهذا في

تسعة وعشرين سورة، وهي: الم، المص، والر، والمر، وكهيعص، وطه، وطسم، وطس، ويس، وص، وق،

وحمعسق، والحواميم، ون.

وإنَّ تفسير هذه الحروف وبيان معانيها اختلف فيها العلماء، واتجهوا في فهم معناها إلى طريقتين، وسلخوا

فيها مسلكين:

¹ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 11/166.

² البنسني، تفسير مبهمات القرآن، 2/203.

³ الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، 18/302.

⁴ أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، المعارف، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، 1992م)، 1/44.

أ. الطريقة الأولى: أنّ معناها موكل إلى الله سبحانه فلا تفسر، لأنها من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله، بدليل قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه: "الله في كل كتاب سر، وسره في القرآن فواتح السور"¹.

ب. الطريقة الثانية: أنّ لهذه الفواتح معاني واحب الوصول إليها، ولكن أصحاب هذه الطريقة اختلفوا فيها على طرق متعددة، منها:

- أنها أسماء لسور القرآن أو أسماء الله تعالى².
- أنها فواتح تدل على أنّ القرآن مؤلف من تلك الحروف، لأنّه صلى الله عليه وسلم تحدّ العرب بأن يأتوا بمثله فعجزوا، ثم تحداهم أن يأتوا بعشر من مثله فعجزوا، فطلب منهم أن يأتوا بسوره من مثله فعجزوا³.
- أنها حروف مقطعة من كلمات تدل على معان، فالألف من الله، واللام من جبريل، والميم من محمد صلى الله عليه واله وسلّم⁴.

وقد ذكر سابقاً أن معنى "طه" هو اسم من أسماء الله تعالى وقسم أقسم به. وقالوا: هو اسم للنبي صلى الله عليه وسلم سماه الله تعالى به كما سماه محمداً. وقالوا: هو اسم للسورة ومفتاح لها. ومنهم من قال: إنه اختصار من كلام الله خصّ الله تعالى رسوله بعلمه. وقيل: إنها حروف مقطعة يدل كل حرف منها على معنى.

¹ الرازي، مفاتيح الغيب، 250/2.

² الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، 224/1.

³ الرازي، مفاتيح الغيب، 253/2.

⁴ أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزى الكلبي الغرناطي، التسهيل لعلوم التنزيل، (بيروت: دار الأرقم بن أبي الأرقم، ط1، 1416هـ)، 68/1.

تأمناً: في معرفة المكّي والمدني

ذهب جمهور المفسرين إلى أنّ سورة طه مكية، وقد ذكر القرطبي أنّها كذلك مكية في قول الجميع¹، وأكدّه ابن الجوزي²، واستثنى منها الإمام السيوطي³ قوله تعالى: ﴿فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يُلْقُونَ وَيَسْبِغْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ * وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: 130-131].

تاسعاً: معرفة ناسخه ومنسوخه

يعدُّ علم الناسخ والمنسوخ من مباحث علوم القرآن المهمة التي اعتنى بها العلماء على مرّ العصور، وذلك للدفاع عن القرآن، والذود عنه، فألفت مؤلفات كثيرة في هذا العلم فأفادت وأجادت.

وقد أورد العلماء أنّ الناسخ والمنسوخ في سورة طه ثلاث آيات⁴:

1. قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ [طه: 114]، فنسخ معناها

لا لفظها بقوله تعالى: ﴿سُنُّرْتُكَ فَلَا تَنْسَىٰ﴾ [الأعلى: 6]

¹ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 272/3.

² جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، (بيروت: دار الكتاب العربي، ط1، 1422هـ) 254/3.

³ السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، 61/1.

⁴ جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، المصنفى بأكف أهل الرسوخ من علم الناسخ والمنسوخ، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط3، 1998م)، 43.

2. قوله تعالى: ﴿فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [طه: 130]، نسخ الصبر منها بآية السيف.

3. قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَبُ الصِّرْطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى﴾

[طه: 135]، نسخت الآية بآية السيف. وقال غيرهما: ليس فيها منسوخ.

المبحث الثاني: موضوعات سورة طه والقيم التربوية منها

إذا بحثنا في سورة طه، وما تحوي من موضوعات، نجد أنّ فيها الكثير من الموضوعات على مختلف العلوم، وكذلك لا تقل أهمية عن غيرها من سور القرآن الكريم بما فيها من قيم تربوية عظيمة، وإنّ هذا المبحث يدور حول الموضوعات التي وردت في هذه السورة، وكذلك القيم التربوية التي تعرضت لها هذه السورة أو أشارت إليها.

المطلب الأول: موضوعات سورة طه

اشتملت سوره طه على العديد من الموضوعات، وكان من أهمّ موضوعات هذه السُورة:

أولاً: الرسالة السماوية سبب للسعادة البشرية

افتتحت السورة بملاطفة النبي صلى الله عليه وسلم، وتسليته، وليس المقصود شقائه، ولكن تذكّره بالقرآن لمن يخشاه الله تعالى ويخاف وعيده، وتذكّره للناس به فيسعدون في الدنيا والآخرة، وأنّه منزّل من عليم حكيم، وهذا واضح في قوله تعالى: ﴿طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلَّا تَذَكُّرَةً لِّمَن يَخْشَى * تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمُوتِ الْعُلَى﴾ [طه: 1-4].

ثانياً: قصة سيدنا موسى مع قومه، وما جرى فيها من أحداث

فقد ذكر فيها قصة نبي الله موسى مع قومه، من بداية رسالته مروراً بالأحداث التي جرت معه، وبشكل مفصّل، من قصّة فرعون معه وأحداثها، والسحرة وما كان معهم من أحوال، وما فعله بنو إسرائيل في غيابه، وتضليل السامريّ لهم. وقد وردت هذه الأحداث في الآيات التالية:

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ * إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَىٰ النَّارِ هُدًى * فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ بِمُوسَىٰ * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه: 9-12]، إلى قوله تعالى: قَالَ فَأَذْهَبَ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسٌ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ، وَانظُرْ إِلَىٰ إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ، ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا * إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: 97-98].

ثالثاً: مشاهد يوم القيامة وأحوالها وأهوالها

حيث تُنسف الجبال نسفاً، ويتبعون الداعي وتخضع الأصوات للرحمن فلا يُسمع إلا همساً، وعندها لا تنفع الشفاعة إلا لمن أذن له الرحمن، وذلك من قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا * يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ، وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا * يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ، قَوْلًا * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ، عِلْمًا * وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا * وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: 105-112].

رابعاً: منزلة القرآن ومكانته

بين الله سبحانه وتعالى في هذه السورة مكانة القرآن ومنزله، وأنه أنزل قرآناً عربياً ووعيداً لمن سمعه، لعله يتقي الله ويخشاه، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ

يُحَدِّثُ لَهُمْ دِكْرًا﴾ [طه: 113]

خامساً: قصة آدم عليه السلام

ذكر في سورة طه قصة آدم عليه السلام وسجود الملائكة له، والحوار الذي دار بين آدم عليه السلام وإبليس ،
 ، بعرض قصير ومختصر، وكان ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ
 أَبَى * فقلنا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى * إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا
 تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى * فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ
 وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى * فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ
 فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى * قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي
 هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: 116-123].

سادساً: السعادة الحقيقية في مرضات الله واتباع أوامره

أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر والتسبيح، وعدم التطلع إلى الدنيا وزهوتها، وأمر أهله بالصلاة
 والاصطبار عليها، فهو بذلك توجيهه إلى أمته صلى الله عليه وسلم، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا
 يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ
 تَرْضَى * وَلَا تُمَدِّدْ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى
 * وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه: 130-132].

سابعاً: إنذار المشركين، والرد على مزاعمهم

وقد حذرت الآيات الكريهات المشركين، وردت على مزاعمهم، وهددتهم بالعاقبة المخزية لمن بقي على
 ضلاله، وهو في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّنَا أَوْ لَمْ تأْتِنَاهُمْ بَيْنَهُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى * وَلَوْ أَنَّا
 أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى * قُلْ
 كُلُّ مُرْتَبِّصٍ فَتَرَبِّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى﴾ [طه: 133-135].

المطلب الثاني: القيم التربويّة في سورة طه

إنّ التربية هي الجانب الرئيسي لإنشاء الشخصية الصالحة والجيل المسلم والمجتمع القائم على الصفات الإسلامية، فهي الركيزة للجانب الروحي، واللبننة للجانب الخلقى والاجتماعي، وإنّ القرآن الكريم هو المصدر الأساسي للقيم التربوية، سواء على صعيد الأسرة أو المجتمع، وفيه تعيش الإنسانية سعيدة في الدنيا، وتستحق رضا الخالق في الآخرة. ومن تمعّن في كتاب الله يجد القيم التربوية موجودة وعامرة، ومن هذه القيم التربوية التي حثنا الشارع الحكيم أن نلتزم بها، ونجتهد في تحصيلها والإيمان بها، ما هو موجود في سورة طه، وهي كالآتي:

1. القرآن الكريم سبب السعادة: قوله تعالى: ﴿طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلَّا تَذَكْرَةً لِّمَنْ

يَخْشَى﴾ [طه: 1-3].

يقسم الله سبحانه وتعالى بطله، أنّه ليس المقصود من الوحي التعب والشقاء لرسوله صلى الله عليه وسلم، بل المقصود هو سعادة البشرية، وذكرى لمن يخشى الله تعالى، فيقيم شرعه، ويتعد عن نواهيها، وخصّ الذكرى بمن يخشاه، لأنّ من لا يخشى الله تعالى لا ينتفع منه¹، لأنّ الوحي والقران سبباً للسعادة البشرية وفلاحهم ونجاتهم، وأبوابه سهلة المنال، وهو غذاء للأرواح، ينتفع به أهل التقوى والرجوع إلى الله سبحانه وتعالى.

2. مراقبة الله تعالى والإخلاص له في السرّ والعلن: قوله تعالى: ﴿وَإِنْ بَجَّهَرَّ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ

وَأَخْفَى﴾ [طه: 7].

¹ عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ)، 501. أحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، الفوائد، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط2، 1973م)، 131. محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي، تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1426هـ)، 267/7.

وجه سبحانه وتعالى خطابه لرسوله العدنان صلى الله عليه وسلم، مبيناً أنه سبحانه وتعالى عالم بكل شيء ومحيط به، ظاهر أو باطن، معلن أو مخفي، بل وما هو أخفى من السرّ: وهو الذي لم يخطر له¹. وهنا حتّ من الله عز وجل على مرتبة المراقبة والإخلاص في السر والعلن، وهي مرتبة الإحسان التي في الصحيح»
 قَالَ: مَا الْإِحْسَانُ؟ قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تُكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»².

3. التوحيد الخالص أسمى درجات العبودية: قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [طه]:

[8] ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: 14].

تظهر هذه السورة مشيرة إلى قيمة سامية، وهي العبودية والتوحيد الخالص لله عز وجل، فله الأسماء الحسنى، وهو المتفرد بالعبادة، فينبغي من أهل العبودية: التصديق والتعظيم والحلاوة والحرية، فمن فقد التصديق فهو منافق، ومن فقد التعظيم فهو مبتدع، ومن ليس له الحلاوة فهو مرء، ومن ليس له الحرية فهو فاجر³، ومن تحقق فيه الإيمان توجب عليه طاعة الرحمن، وأمر الله عباده بإقامة الصلاة لذكره، ففيها يكون العبد أقرب ما يكون لمولاه، ففي الحديث «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ فَأَكْثَرُوا الدُّعَاءَ»⁴. وبما تذكّر الله سبحانه وتعالى واستشعار بالعبودية، والانتهاز عن الفحشاء والمنكر، وبذلك ينال الرضى والمغفرة من رب العالمين⁵.

¹ السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، 501.

² البخاري، صحيح البخاري، كتاب، الإيمان، باب: سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة، 27/1، رقم الحديث: 50. إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، (القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، 1404هـ)، 269/12.

³ الرازي، مفاتيح الغيب، 12/22.

⁴ أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، الجامع الصحيح «صحيح مسلم»، كتاب الصلاة، باب: ما يقال في الركوع والسجود، (تركيا: دار الطباعة العامة، 1334هـ)، 49/2، رقم: 482.

⁵ محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، (تونس: الدار التونسية للنشر، 1984م)، 201/16.

4. الاستعداد ليوم آت: قوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا

تَسْعَىٰ﴾ [طه: 15].

الساعة آتية لا محالة، وأمرها وواقع لا بد منه، لتجزى كل نفس بما سعت، فمن عمل صالحاً فلنفسه، ومن عمل سوءاً فعليها، ووجد ما عمله يوم الميعاد¹. فالاستعداد لهذا اليوم مطلوب، والعمل له واجب، فلا بد من التنبه إلى ذلك.

5. من ترك مقام المراقبة لحظة ابتعد عن جادة الحق والدليل: قوله تعالى: ﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَّا

يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [طه: 16].

وفي هذه الآية التحذير من أهل البدع والهوى، ومن كان سبباً في وقوع شبهة الإيمان في القلب، ومن ترك مقام المراقبة لحظة ابتعد عن الحق والصواب، ومن ابتعد عن الدليل هلك ووقع في الطامات².

6. من توكل على الله فهو حسبه: قوله تعالى: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ * أَنْ اقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ

فَأَقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ. وَالْقَيْثُ عَلَيْكَ مِحْبَةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ

عَلَىٰ عَيْتِي * إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ. فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا

وَلَا تَحْزَنَ وَوَقَّلْتَ نَفْسًا فَفَجَّيْتُكَ مِنَ الْعَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ

قَدَرٍ يُمُوسَىٰ﴾ [طه: 38-40].

أوحى الله سبحانه وتعالى لأم موسى عليه السلام أن تجعله في التابوت، وتقذفه في نهر النيل، فيأخذه عدوُّ

الله وعدوُّ موسى -فرعون- فينجو من بطشه، فلمَّا توكلت عليه تعالى نجت وفازت، فمن توكل على الله

¹ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 245/5.

² السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، 503.

فهو حسبه ومعينه، فالواجب على من آمن به تعالى وصدق بنبيه التوكل الكامل، والتسليم المطلق له سبحانه وتعالى، فهو الرّازق والمتصرّف في ملكه كيف يشاء، وهو على كل شيء قدير.

7. التلطف بالدعوة إلى الله تعالى ولو كان المدعو فرعون: قوله تعالى: ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾*

فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿طه: 43-44﴾.

وفيهما إرشاد إلهي وتوجيه رباني بأسلوب الدعوة إلى الله عزّ وجلّ، بالحكمة والموعظة الحسنة، واللّين والرّفق في القول، والمجادلة بالتي هي أحسن، لعلّه يتذكر أو يخشى ويرجع إلى الصواب، فلما أمر موسى بليّن القول لفرعون وهو الرسول المعصوم، كان ممّن دونه من المؤمنين أولى بالاعتداء به، وقد قال الله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: 83]¹.

8. الثقة في نصر الله والطمأنينة من صفات المؤمنين: قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخَافُ مِنِّي مَعَكُمْ أَصَمُّعٌ

وَأَرَىٰ﴾ [طه: 46].

وفيهما دلالة أنّ من مع الله لا يخف؛ لأنه تعالى معه، ومن معه مالك الملك لا يكون مغلوباً والنصر حليفه، فالواجب استحضار معية الله تعالى له، وتحمل مشاق الدعوة لأجله، فإنّ المعية لا تترك من كان همه الله ودينه ونشر دعوته².

9. الصدق أنجى: قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيَلْكُم لَأ تَقْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ

خَابَ مَن أَفْتَرَىٰ * فَتَنْزِعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَىٰ﴾ [طه: 61-62].

¹ عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، لطائف الإشارات = تفسير القشيري، (مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط3)، 458/2. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 11/200.

² زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي، (القاهرة: الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، ط1، 2004م)، 4/19.

توجيه رباي عظيم نحو فضيلة الصدق، فإنه من أعظم الأعمال وأسمى الأفعال. وقد وردت في فضله آيات وأحاديث كثيرة، فقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَعْفَرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 70-71]، وقد ورد في الحديث: «عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يَكُونَ صِدِّيقًا، وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ، حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا»¹.

10. التفكير الحق يوصل إلى الطريق المستقيم: قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَعْفَرَ لَنَا حَطِينًا﴾ [طه: 72-73].

فينبغي على العاقل الموازنة بين لذات الدنيا ولذات الآخرة، وليتنبه! فإن الدنيا زائلة فانية، والآخرة هي دار القرار، وها هم السحرة زانوا دعوة موسى وكذب فرعون بعقل نير، فقالوا: ﴿إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَعْفَرَ لَنَا حَطِينًا﴾² [طه: 73].

11. باب المغفرة مفتوح لا يغلقه شيء: قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَعَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: 82].

¹ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: قول الله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ } التوبة: 119، وما ينهى عن الكذب، 5/ 2261، رقم الحديث: 5743.

² السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، 508.

تصريح من الباري جلَّ وعلا أنَّ باب التوبة والمغفرة مفتوح لا يغلقه شيء، فمن ورجع إلى الله وأناب، كان ذلك مغفرةً لذنبه وكفارةً له وعتقه من النيران، فالتوبة تجب ما قبلها، والإسلام يهدم ما قبله، والحسنات يذهبن السيئات والله غفور رحيم¹.

12. حِفْظُ الْأَصْلِ أَهْمٌ وَأُولَى مِنْ حِفْظِ الْفَرْعِ: قوله تعالى: ﴿قَالَ يُهْرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا *

أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي * قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا نَأْخُذُ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِيَّيْ حَشِيْتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ

بَيْنِي وَإِسْرَائِيلَ وَمَ تَرَفَّتْ قَوْلِي﴾ [طه: 92-94].

أَنَّ حِفْظَ أَصُولِ الشَّرِيعَةِ أَوْلَى مِنْ غَيْرِهَا؛ فَإِنَّ مَصْلَحَةَ صِلَاحِ الْإِعْتِقَادِ هِيَ أُمُّ الْمَصَالِحِ الَّتِي بِهَا صِلَاحُ الْجَمَاعَةِ، وَإِنَّ حُرْمَةَ الشَّرِيعَةِ إِذَا مَا يَكُونُ بِحِفْظِ أُصُولِهَا، وَعَدَمُ التَّسَاهُلِ فِيهَا، وَبِحُرْمَتِهَا يَبْقَى نَفُودُهَا فِي الْأُمَّةِ، وَالْعَمَلُ بِهَا².

13. اتِّبَاعُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ طَرِيقَ النِّجَاةِ: قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه:

[123].

إِنَّ كِتَابَ اللَّهِ هُوَ الطَّرِيقُ الَّذِي يَنْجِي مِنَ الضَّلَالِ، وَالَّذِي يُوصلُ إِلَى السَّعَادَةِ فِي الدُّنْيَا وَالنِّجَاةِ فِي الْآخِرَةِ، فَمَنْ يَتَّبِعْهُ يَفُوزَ، وَمَنْ يَعْضُدْ عَنْهُ يَضِلُّ ضَلَالًا بَعِيدًا³. يقول ابن الجوزي: " أن كل من اتبع القرآن والسنة، وعمل بما فيهما، فقد سلم من الضلال بلا شك، وارتفع في حقه شقاء الآخرة بلا شك، إذا مات على ذلك"⁴.

¹ الماتريدي، تأويلات أهل السنة، 298/7.

² ابن عاشور، التحرير والتنوير، 294 / 16.

³ البغوي، معالم التنزيل، 300/5.

⁴ ابن الجوزي جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، صيد الخاطر، (دمشق: دار القلم، ط1، 2004م)، 143.

14. ذكر الله راحة القلوب: قوله تعالى: ﴿فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ

وَقَبْلِ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَايِ الْإِيلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ [طه: 130].

أمر تعالى بالصبر بالتسبيح؛ لأن ذكر الله تعالى يريح النفس ويطمئن القلب، وحثهم على الصبر والدوام عليه، وأمرنا بالصبر على الطاعة وعلى ما نكره، فمن صبر فله الأجر من الله تعالى¹.

15. العاقبة للمتقين: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ * وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا لَّحْنٌ نَّرْزُقُكَ

وَالْعُقُوبَةُ لِلتَّقْوَىٰ * وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّنَا ۗ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾ [طه:

.131-133].

عدم التطلع إلى ما في أيدي الناس، والقناعة برزق الله له، والتوكل عليه تعالى والتزود بالتقوى، يوصل العبد إلى رضا الرحمن، فإن ما سوى الله زائل لا محالة، لذلك أمر الباري جلَّ وعلا أن يأمر العبد أهله من بالطاعة والالتزام بشرع الله، وخاصة الصلاة، والاصطبار عليها².

¹ الرازي، مفاتيح الغيب، 113/22.

² الرازي، مفاتيح الغيب، 115/22.

الفصل الثاني: التعريف بابن الضياء ومخطوطته

يدور البحث في هذا القسم حول ترجمة ابن الضياء رحمه الله، على الصعيد الشخصي والعلمي والعملي، وكذلك التعريف بمخطوطته التي كتبها بخط يده على الأصح.

المبحث الأول: ترجمة ابن الضياء

يبحث هذا الفصل حول ابن الضياء، وشخصيته، ودوره العلمي والعملي، وكيف تأثر بالبيئة المحيطة به.

المطلب الأول: حياة ابن الضياء الشخصية وتأثير البيئة المحيطة به في تكوينه

وما كان من الأهمية بمكان وجود ترجمة للعلامة ابن الضياء، كان لا بد من التكلم على جميع

تفاصيل حياته، والبحث فيها على قدر الإمكان، وبقدر ما توفى للبحث من مراجع ومصادر.

أولاً: حياة ابن الضياء الشخصية

إنَّ حياة ابن الضياء وشخصيته الفذة مليئة بمعلومات مهمة، سواء على الصعيد الشخصي، أو على صعيد أسرته.

1. اسمه: محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن سعيد بن محمد بن محمد بن عمر بن يوسف

بن علي بن إسماعيل، أبو البقاء بن شهاب أبي العباس العمري الصاغاني¹ الأصل، المكي،

القرشي، الحنفي، يعرف بابن الضياء كأبيه².

¹ نسبة إلى صاغان وهي قرية بمرو، وقيل: نسبة إلى الصغانيان. المروزي، الأنساب، 8/9-10. ابن الأثير، اللباب في تهذيب الأنساب، 2/229.

² ابن الأثير، اللباب في تهذيب الأنساب، 2/229. الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الدمشقي، الأعلام، (بيروت: دار العلم للملايين، ط15، 2002م)، 5/332.

مولده: ولد العلامة ابن الضياء في شهر محرم، في السنة السبعمائة وتسع وثمانين هجرية، الموافق لسنة ألف وثلاثمئة وسبع وثمانين للميلاد في مكة المكرمة، فتعلّم الفقه والقرآن الكريم فيها، وتشعّب في العلوم الأخرى، وحفظ المتون والقرآن الكريم¹.

أسرته: نشأ ابن الضياء في أسرة ذات علمية، متفهمة، كابراً عن كابر، فكان والده أحمد فقيهاً حنفياً، وكان قاضياً لمكة المكرمة على المذهب الحنفي وشيخ من شيوخ الحرم المكي، وله أربعة أخوة جمعهم أهل علم تصدروا القضاء والتدريس في مدارس مكة ومساجدها².

وفاته: توفي العلامة ابن الضياء سنة: 854 هـ بمكة المكرمة في ليلة الجمعة في اليوم السابع عشر من شهر ذي القعدة، وقد أمضى عمره في طلب التعلم والتعليم والتأليف، وإحقاق الحق ونصرة المظلوم، والنظر في شؤون المسجد الحرام وغيرها. وقد دفن رحمه الله في مقبرة المعلاة مجاوراً لأبيه³.

ثانياً: البيئة المحيطة به

إنّ كل مرحلة ازدهار أو ضعف تكون مبنية على أسباب وعوامل تكون سبباً رئيسياً في بيئة مناسبة للحياة المستقرة أو المتضعضعة، ولعلّ هذا المطلب يعطي فكرة جيدة عن بيئة ابن الضياء السياسية، والعلمية والاقتصادية.

1. البيئة السياسية

¹ ابن الأثير، اللباب في تهذيب الأنساب، 229/2. الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الدمشقي، الأعلام، (بيروت: دار العلم للملايين، ط15، 2002م)، 332/5.

² السخاوي، الضوء اللامع: 86 / 7. السخاوي، شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد، التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، (بيروت: الكتب العلمية، ط1، 1414هـ)، 516/2.

³ السخاوي، الضوء اللامع، 85-84/7.

كانت الفترة الزمنية في عصر العلامة ابن ضياء مستقرة سياسياً أكثر من غيرها، وكانت الحجاز في تلك الفترة تحت سيطرة المماليك. وكانت خلال القرن السابع والثامن الهجريين في حالة تحبط، حيث كثرت الفتن و الصراعات بين الأشراف من أجل السيطرة علي الشرافة وحكومة الحجاز وغيرها، مما وضع البلاد في تدهور سياسي، استطاع المماليك من خلاله بسط نفوذهم على الحرمين خاصة والحجاز عامة، وذلك من خلال استغلال الصراعات الداخلية بين الأشراف، فيدخلون إِمَّا بمساندة أحدهم على الآخر أو بالإصلاح بين الطرفين، حتى وصل بهم الأمر إلى الدعاء لهم على منابر الحرمين، وبذلوا الهدايا والعطايات، وأعطوا الرواتب والمنح، مما تركت لهم أثراً طيباً لدى الناس¹. وفي بداية القرن الثامن الهجري توفي الشريف أبو نمي والي مكة، فتنزع أولاده من بعده على السلطة، ودام هذا النزاع 36 عاماً إلى أن استقر الحكم لابنه رميثة، ثم تنازل رميثة عن الحكم سنة 744هـ وسلم الأمر لابنيه عجلان وثقبة، وبعد وفاة ثقبة سنة: 762 هـ تفرد عجلان وابنه أحمد بالحكم، ثم تفرد أحمد بالأمر بموافقة أبيه على أن يستمر الدعاء له في الخطب على المنابر². وقد شهدت مكة استقراراً سياسياً وخاصة في عهد الشريف حسن بن عجلان إلى أن توفي سنة: 829هـ، فخلفه ابنه بركات الذي استدعاه السلطان الظاهر بيبرس مع أخيه إبراهيم، وفوض إليه إمارة مكة، وخلف بعده أخوه إبراهيم بولاية العهد، وألبسهما خلعتين عظيمتين، فوصلا مكة المكرمة بالخلع السلطانية، وهكذا بقيت مكة خاصّة والحجاز عامة تحت النفوذ المملوكي

¹ الجابري، خالد محسن، الحياة العلمية في الحجاز خلال العصر المملوكي، (مكة المكرمة: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، مكة المكرمة، ط1، 2005م)، 46. علي بن تاج الدين بن تقي الدين السنجاري، منائح الكرم في أجنار مكة والبيت وولاية الحرم، (المملكة العربية السعودية: جامعة أم القرى، ط1، 1998م)، 320/2.

² النجم عمر بن فهد محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن فهد، إتخاف الوري بأخبار أم القرى، (المملكة العربية السعودية: جامعة أم القرى، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، ط1، 1404هـ)، 134/3. أحمد السباعي، تاريخ مكة، (الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ط1، 1419هـ)، 258/1.

مستقرة سياسياً إلى حين دخول العثمانيون إلى مصر سنة: 923 هـ، وأصبحت الحجاز تحت السيطرة العثمانية وكان ذلك سلماً بدون حرب¹.

2. البيئة العلمية

كانت مكة من أهم مراكز العلم في الدولة الإسلامية، حيث نالت حظوة عند المماليك، فأنشؤوا فيها المدارس والمراكز العلمية التي كانت قبلة لطلبة العلم والعلماء²، وكانت لهذه المراكز العلمية تسميات متعددة منها:

أ. الكتاتيب: كان الهدف من هذه الكتاتيب تحفيظ قصار السور وتعليم الكتابة والخط والضبط وبعض متون الأحاديث الشريفة والعقائد. ومن هذه الكتاتيب في الحرم المكي:

- مكتب الشيخ يوسف بن علي بن سليمان القروي³.

- مكتب الشيخ محمد بن عمر بن علي السحلولي⁴.

ب. الحلقات التعليمية: حيث كان المسجد الحرام مركزاً لنشر العلم والمعرفة، وإذا رجعنا إلى كتب التراجم والتاريخ نجد أسماء كثيرة من العلماء الذين درسوا فيه وعلموا، ومن هؤلاء العلماء كان ابن الضياء، حيث كان مدرساً في المسجد الحرام إضافة إلى كونه قاضياً⁵، وقد أصبحت مكة

¹ تقي الدين محمد بن أحمد الحسيني الفاسي المكي، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1، 1998م)، 106/4. عبد الملك بن حسين بن عبد الملك العصامي المكي، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1419هـ)، 4/ 265-318.

² خالد محسن حسان الجابري، الحياة العلمية في الحجاز، (مكة المكرمة: جامعة أم القرى، ط1، 1413هـ)، 313.

³ الفاسي، في تاريخ البلد الأمين، 2/488.

⁴ الجابري، الحياة العلمية في الحجاز، 317-318.

⁵ السخاوي، الضوء اللامع، 1/356.

المكرمة أشبه بجامعة ضخمة فيها كثير من طلبة العلم والعلماء الذين يقومون بدروس في الحلقات على مرّ الأيام، فعلموا وخرّجوا علماء كانوا منابر للأجيال من بعدهم.

- المدارس: كثرت المدارس في مكة المكرمة في عصر المؤلف، حيث كان لها سمعتها العلمية الطيبة، وكان العلماء يدرّسون فيها كافة العلوم، ومن أشهر المدارس في تلك الآونة¹.

- مدرسه الشريف عجلان

- مدرسة الفيروز آبادي

ت. المكتبات: حوت أغلب المدارس في مكة المكرمة على المكتبات التي تحتوي على كافة المعارف والعلوم، وكان في كل مكتبة موظفين مهمتهم الترتيب والتصنيف لهذه الكتب².

مما ذكرناه يتضح جلياً أنّ عصر المؤلف شهد نهضة علمية واسعة في العديد من النواحي العلمية من كتاتيب ومدارس وحلقات تعليمية في المسجد الحرام، وكان رحمه الله مشاركاً في الحركة العلمية من تدريس وتعليم.

3. البيئة الاقتصادية

تعود الأزمات الاقتصادية، أو الاستقرار الاقتصادي إلى سببين رئيسيين³:

¹ الفاسي، في تاريخ البلد الأمين، 71/6.

² فواز علي بن جنيدب الدهاس، المدارس في مكة خلال العصرين الأيوبي والمملوكي، (السعودية: مجلة الجمعية التاريخية، العدد الثاني، السنة 1، يوليو 2000م)، 80.

³ تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي المقرزي، إغاثة الأمة بكشف الغمة، (مصر: عين للدراسات و البحوث الإنسانية و الاجتماعية، ط1، 1427هـ)، 81.

أ. أسباب طبيعية: كانتشار الأمراض والأوبئة، وعدم توفر الأمطار، المؤدية إلى الجفاف وإفقاد المصدر الرئيسي للغذاء.

ب. أسباب بشرية: كالصراعات الداخلية بين الحكام والأمراء، والصراعات الخارجية للسيطرة على البلدان، مما يقطع المؤن عن المدن والبلدات، مسبباً أزمات اقتصادية.

وإذا تصفحنا التاريخ، نجد أنّ الحجاز قد مرّت بأزمات اقتصادية عديدة خلال حكم المماليك، ممّا أثر ذلك على حياة الناس، غير أنّ المماليك لم يقفوا مكتوفي الأيدي، فقد كان لهم دور مهمّ في معالجة هذه الأزمات بقدر المستطاع، فكانوا يرسلون المؤن والاحتياجات الأساسية إلى مدن الحجاز، ويوزعونها على الناس طيلة فترة حكمهم، وإذا أردنا البحث في الحقبة الزمنية التي عاش فيها ابن الضياء، نجد أنّها كانت متقلبة اقتصادياً كغيرها من السنوات الماضية، فقد كان الناس يعيشون في قحط شديد، وقلة مؤن، إلى أن فرّج الله عنهم في نهاية القرن الثامن فهطلت الأمطار ونبت الزرع، وتحسنت أحوال الناس¹، لكنّ هذا الخير لم يدوم طويلاً، فعمّ الغلاء واشتدّت الأزمة على الناس في بداية القرن التاسع، بسبب قلة الأمطار، وعدم وصول المؤن إلى الحجاز من البلدان المجاورة، ودام الأمر متقلباً بين شدّة على الناس، واستقرار نسبي في الحياة الاقتصادية، حتى هلك الفقراء وافتقر الأغنياء، وبقي الأمر هكذا إلى سنة: 844هـ، حيث أنّ الأزمة الاقتصادية بدأت في التراجع².

4. دور المماليك في معالجة الأزمة الاقتصادية

¹ تقي الدين محمد بن أحمد بن طي الفاسي، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 2000م)، 927/2.

² أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، أنباء الغمر بأبناء الغمر، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط2، 1368م)، 167/9.

لم يكن سوء الأحوال المعيشية السيئة أمر سهل، فقد كان يؤثر سلباً على الجميع، وسع المماليك في التخفيف على الناس، ومشاركتهم معاناتهم، إلى أن رفع البلاء، وتحسنت الأحوال، ويعود أسباب الاستقرار في هذه الفترة الزمنية إلى عدة أمور، كان سببها سلاطين دولة المماليك، وكان من هذه الأسباب¹:

أ. وفرة الأمطار، مما أدى إلى انتعاش الحياة الاقتصادية، وتحسن أحوال الناس.

ب. دخول المراكب المحملة بالمؤن والخيرات إلى ميناء جدّة، مرسلة من أمراء المماليك.

ت. إبطال المكوث والضرائب عن الحرمين، مما خفف عن النَّاس معاناتهم.

ث. الإكثار من الصدقات، والإحسان إلى الناس في بلد الحرمين، وقرّ للفقراء استمرارية الحياة.

ج. إرسال المال لتوفير المياه للعطاش وخاصةً الحجاج.

المطلب الثاني: حياة ابن الضياء العلمية والعملية

إنَّ كل عالم يعرف بشيوخه وتلامذته، وإنَّ العالم المتقن ابن الضياء رحمه الله قد أخذ العلم بأنواعه عن كثير من الشيوخ، وكذلك نقل علمه الذي حصَّله إلى من جاء بعده من خلال تلامذته أو مؤلفاته العلمية. ولم

¹ النجم عمر بن فهد، تحاف الوري بأخبار ام القرى، 72/9. الفاسي، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، 207/1. عبدالقادر بن محمد بن عبدالقادر بن محمد الأنصاري الجزيري، الدرر القرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 2002م)، 392/1.

يغفل ابن الضياء الجانب العملي في حياته، بل كان مشرقاً بأعماله العلمية، ومناصبه التي تقلدها لفائدة الناس سواء توليه للقضاء، أو الحسبة، أو التدريس في المساجد والمدارس.

أولاً: طلبه للعلم وشيوخه

عاش ابن الضياء في عصر كثر فيه العلماء، الذين أسهموا في ميدان العلوم بكافة أنواعها، فبدأ في أخذ العلم منهم بنهم، فحضر دروس الجمال الأميوطي، وتلا بقراءة أبي عمرو على الشمس الحلبي، وجمع السبع على محمد الصعيدي، وأخذ عن ابن حجر ومن هم في طبقتهم، وأخذ عن المحب أحمد بن أبي الفضل والنويري وابن صديق والشمس بن سكر وغيرهم، وكان ممن أخذ عنهم من أهل مصر شرف الدين محمد بن الكويك، والشمس الزراتيقي والعز بن جماعة، وعنه أخذ الأصول والمعاني والبيان، وغيرهم مما أهله بعدد للتعليم والإفتاء، والانفراد بالمشيخة في مذهبه ببلاد الحجاز¹.

ثانياً: تلامذة ابن الضياء

كانت دروس ابن الضياء ومجالسه عامرة بالعلم والمتعلمين، فقد كان مدرّساً في الحرم المكي وبعض الأوقاف والمدارس، وكان من جملة طلابه على سبيل الذكر لا الحصر:

1. ظهيرة بن محمد أبو الفرج بن الرضي ابن الكمال أبي السعود القرشي المكي المالكي².

2. يوسف بن تغرى بردى الجمال أبو المحاسن بن الأتابكي³.

¹ السخاوي، الضوء اللامع، 84/8-85. السيوطي، نظم العقيان في أعيان الأعيان: 137/1. المروزي، الأنساب، 55/4.

² السخاوي، الضوء اللامع، 15/4.

³ المصدر السابق، 305/10.

3. أحمد بن عبد القادر أبي القسم المحيوي الأنصاري المكي المالكي¹.

4. شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد

السخاوي².

ثالثاً: مذهبه العقدي والفقهية

من يقرأ كتب ابن الضياء، ويطلع عليها لا يشك في أنه حنفي المذهب صوي المشرب، محارباً

للبدع، فقد صنف كتبه على مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان، وكان قاضياً للحنفية في عصره. وقد جاء

في كتبه العديد من المسائل الدالة على تصوفه، نذكر منها على سبيل المثال:

1. استشفاع ابن الضياء الحنفي بالنبي المكرم صلى الله عليه وسلم

قال ابن الضياء في تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف: "ونحن

وفدك يا رسول الله وأضيافك، جئنا إلى جنابك الكريم من بلاد شاسعة وأماكن بعيدة، نقصد بذلك

قضاء حقلك علينا، والنظر إلى مآثرك، والتميم بزيارتك، والتبرك بالسلام عليك، والاستشفاع بك إلى ربنا

عز وجل، فإنَّ خطايانا قد قصمت ظهورنا، وأوزارنا قد أثقلت كواهلنا، وأنت الشافع المشفع، وقد قال الله

تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَأَسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾

[النساء: 64]، وقد جئناك يا رسول الله ظالمين لأنفسنا مستغفرين لذنوبنا، فاشفع لنا إلى ربنا³.

¹ المصدر السابق ، 351/1.

² المصدر السابق ، 84/7.

³ ابن الضياء ، محمد بن أحمد بن الضياء محمد القرشي العمري المكي الحنفي، بماء الدين أبو البقاء، تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط2، 1424هـ)، 344/1.

فهو يستشفع بالنبي صلى الله عليه وسلم متوسلاً به إلى الله عز وجل، ويقول في موضع آخر: "واستغفار الرسول صلى الله عليه وسلم بعد الموت حاصل؛ لأنه الشفيع الأكبر يوم القيامة والوسيلة العظمى في طلب الغفران ورفع الدرجات، من بين سائر ولد آدم، والمجيء إليه بعد موته بتحديد لتأكيد التوسل به إلى الله تعالى وقت الحاجة"¹.

2. إنَّ نبينا صلى الله عليه وسلم قد أحياه الله تعالى بعد موته حياة تامة

قال ابن الضياء: " أنَّ نبينا صلى الله عليه وسلم أحياه الله تعالى بعد موته حياة تامة، واستمرت

تلك الحياة إلى الآن، وهي مستمرة إلى يوم القيامة إن شاء الله تعالى، ويشاركة في ذلك جميع الأنبياء

عليهم الصلاة والسلام، والدليل على ذلك أمور، أحدها: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ

اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرَزَقُونَ﴾ [آل عمران: 169]².

رابعاً: آثاره العلمية

تظهر قيمة العالم بمؤلفاته وتمكُّنه العلمي، ومكانته بين أهل العلم في عصره، وابن الضياء كان ممن

ألف وكتب وجمع، بكلِّ دقة وموضوعية، وكانت مؤلفاته العلمية كالآتي³:

1. المشرّع في شرح المجمع: وهو «مجمع البحرين وملتقى النيرين» لأحمد بن علي بن تغلب

المعروف بابن الساعاتي البغدادي، في فقه الحنفية، في أربع مجلدات.

¹ المصدر السابق: 346/1.

² قال عروة: قالت عائشة رضي الله عنها: "كَانَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ: يَا عَائِشَةُ، مَا أَرَأَى أَجْدُ أَلَمْ الطَّعَامِ الَّذِي أَكَلْتُ بِحَيْثُ، فَهَذَا أَوَانُ وَجَدْتُ انْقِطَاعَ أَهْرِي مِنْ ذَلِكَ السَّمِّ. البخاري، صحيح البخاري، كتاب: المغازي، باب: مرض النبي صلى الله عليه وسلم ووفاته، 1611/4، حديث رقم: ٤١٦٥.

³ السخاوي، الضوء اللامع، 84/7-85. رضا كحالة، معجم المؤلفين، 189/11. مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض 1418 هـ، فهرس مخطوطات مكتبة مكة المكرمة.

2. البحر العميق في مناسك حج البيت العتيق، في أربعة أجزاء، والربع الأخير منه يتكلم فيه عن بعض حوادث مكة والكعبة والمسجد الحرام. وهو مطبوع، طبعتها مؤسسة الريان - بيروت.
3. تنزيه المسجد الحرام عن بدع جهلة العوام في مجلد، قال عنه الإمام مصطفى حاجي خليفة: "وهو رسالة في كراسة ثم اختصرها. وطبعتها دار البشائر الإسلامية - بيروت.
4. شرح الوابي: له شرحان مطول ومختصر.
5. «تكملة شرح والده لكتاب «كنز الدقائق» في فروع الفقه الحنفي.
6. شرح مقدمة الغزنوي في العبادات وسماه: الضياء المعنوي، له نسخة في مكتبة مكة برقم: 539 في الفهرس، بعنوان: ضياء المعنوية على المقدمة الغزنوية في 428 ورقة، وقد ذكر السخاوي أنّ والده أكمله وفيه نظر لأن والده توفي سنة: 825 هـ، أي قبل ابن الضياء، ولعل من أكمله ولده فوقت سهواً.
7. شرح للبزدوي في أصول الفقه، وصل فيه إلى القياس ولم يكمل.
8. المتدارك على المدارك في التفسير، وهو كتاب مدارك التنزيل وحقائق التأويل لحافظ الدين عبد الله بن أحمد النسفي الحنفي، لم يكمله، وصل فيه إلى آخر سورة هود.
9. تفسير سورة الحج وطه والأنبياء مكتوبة بخط المؤلف، وهو مخطوط موجودة في مكتبة السلليمانية في تركيا.
10. الشافي في مختصر الكافي ولم يكمل.
11. النكت على الصحيح، في الحديث¹.

¹ الزركلي، الأعلام، 332/5.

12. تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف وهو مطبوع. قال عنه

الإمام شمس الدين السخاوي: "وله نظم كتبت منه في معجمي أبياتاً". مخطوط نُشر في

برنامج جوامع الكلم المجاني التابع لموقع الشبكة الإسلامية الطبعة: الأولى، 2004.

خامساً: مناصب ابن الضياء

ولكل مجتهد نصيب، وقد صار ابن الضياء رحمه الله من الفقيه الحنفي، والقاضي والمفتي والمفسر،

فدرّس بالمسجد الحرام، وبعض مدارس مكة، وتولى النظر على بعض الأوقاف بمكة لعدّة سنوات، وتقلّد

القضاء بمكة المكرمة، وأضيف إليه نظر الحرم والحسبة، ثم انفرد بمنصب القضاء إلى وفاته. وهو أول قاض

ولي بمكة قضاء الحنفية استقلالاً².

سادساً: ثناء العلماء عليه

حاز ابن الضياء على سمعة طيبة واسعة، وقد أثنى عليه الكثير من العلماء، يذكر الباحث منهم على سبيل

المثال لا الحصر:

قال الإمام السخاوي³: "كان ابن الضياء إماماً علامة متقدماً في الفقه والأصلين والعربية، مشاركاً في

الفنون، حسن الكتابة والتقييد، عظيم الرغبة في المطالعة والانتقاء، بحيث بلغني عن أبي الخير بن عبد

القوي أنه قال: "أعرفه أزيد من خمسين سنة وما دخلت إليه قطُّ إلا ووجدته يطالع أو يكتب"، "وقاضي

¹ المصدر نفسه. المقرئ، تقي الدين أحمد بن علي، درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، (بيروت: دار الغرب الإسلامي - لبنان، ط1، 1423هـ)، 3/359.

² أبو المحاسن، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، 179/2. السخاوي، الضوء اللامع، 7، 85.

³ السخاوي، الضوء اللامع، 7، 85.

مكة المشرفة، وعالم تلك البلاد ومفتيها -على مذهبه- مع الجودة والخير والخبرة بدنياه، سافر وطَوَّف البلاد، ومع ذلك لم تَفْتُهُ وقفةٌ بعرفة منذ احتلم إلى أن مات ودخل بيت المقدس مرتين"، كما نقل عن ابن عذبية في حقِّ ابن الضياء. ووصفه الأتابكي بقوله: " حضرت دروسه في عدة علوم، وأجاز لي بجميع ما يجوز عنه روايته، وبجميع مصنفاته، ورأيت رجلاً وفقه الله لطلب العلم، لا يكل ولا يمل من الاشتغال والإشغال والتصنيف"¹. قال السيوطي عنه: "وانفرد بالشيخونية في مذهبه في بلاد الحجاز"².

¹ أبو المحاسن، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، 253/9.
² السخاوي، الضوء اللامع، 84/7-85. الزركلي، الأعلام، 332/5.

المبحث الثاني: التعريف بمخطوط ابن الضياء

المطلب الأول: قيمة الكتاب العلمية ومزاياه

لا شكَّ أنَّ هذا السفر عظيم في قيمته العلمية، لاحتوائه على تفسير سورة من كتاب الله تعالى، وقد اشتمل هذا السفر على الكثير من الفوائد والمزايا، ويمكن إجمالها فيما يلي:

1. تقسيم الآية إلى مسائل، وهذا أمر واضح في تفسيره، بحسب الأحكام أو المسائل التي يريد عرضها، كما أن هذه المسائل متنوعة، فهي في التفسير أو العقائد، أو الفقه.
2. عدم التعصب إلى مذهب معين، فنجد ذكر المسائل، والخلاف فيها بين أصحابها، فينقل الأقوال، من غير تعقب.
3. إنَّ ابن الضياء لئن كان قد صنف تفسيره بالرجوع إلى أقوال من كان قبله من المفسرين، أمثال: القرطبي، والرازي، والبغوي، والنسفي، والزمخشري، وغيرهم، فإنَّ هذا الأمر ليس بالأمر السهل اليسير، بل هو عمل شاقُّ وصعب، لأنَّ الجمع بين هذه الأقوال وتنظيمها وإخراجها بهذه الحلَّة البهية، يحتاج إلى علمٍ جيِّمٍ، وكثرة قراءة واضطلاع، ودراية وافرة بما يكتب.
4. امتاز الكتاب بميزات عديدة في مصادره، منها: كثرة مصادره وتنوعها، ومنها: كثرة التفسير المأثور عن السلف، وإن كان فيه إشكال من جهة الإسناد،
5. نقل المؤلف عن كتب مفقودة بالنسبة، كتفسير البرهان النسفي، وكتاب القلم، والدواة، وغيرها.
6. وضوح العبارة وبعده عن التكلف في صياغة المعنى، وغريب الكلام.
7. عنايته بالقراءات المتواترة، وبيان وجوهها، في غالب الأحيان.

8. اعتماده مذهب أهل السنة والجماعة، فيما يأتي به من مسائل في العقيدة، إلا في بعض المسائل.

9. حسن السبك بين الأقوال، فإنه يأتي بأقوال المفسرين، جامعاً لها، وكأنها قول واحد.

10. جمع في تفسيره بين التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي المحمود.

11. إيراده لبعض الاعتراضات التي قد ترد في الأذهان، والرد عليها.

وقد يكون هناك العديد من المزايا في قيمته العلمية، قد غفلت عنها، والله أعلم بالصواب.

المطلب الثاني: المآخذ على هذا التفسير

قضت سنة الله في أرضه ألا يخلو عمل من الأعمال من الأخطاء، فلا كمال إلا لله سبحانه وتعالى وصنعه، ولا يخفى على أحد الجهد العظيم الذي بذله علماء المسلمين في نصرته الذين من توجيه ودعوة وتأليف وغيره، وقد كان إمامنا ابن الضياء من هؤلاء العلماء، فدرّس وصنّف وألّف، وقد ترك هذا السّفر من الخير لمن جاء بعد، وهذا الكتاب كغيره من الكتب يوجد فيه بعض المآخذ، فلا يخلو كتاب من خطأ إلا كتاب الله تعالى، وهذا لا ينقص الكتاب من قيمته العلمية، لكونها في جانب الصواب لا تذكر، ويمكنني أن أجملها بالنقاط الآتية:

1. كان ابن الضياء يرجع إلى عدد من التفاسير وينقل منها النص مباشرة، حيث أنّه لم يكن له بصمة أو تعقب أو شرح لأقوال المفسرين التي نقلها عنهم، فقد كان ناقلاً فحسب.
2. كان ابن الضياء ينقل أقوال العلماء من تفاسير ومصادر أخذت منهم، فهو لم يرجع إلى كتبهم، بل نقلها بواسطة مفسرين آخرين، وهذا من العيوب والمآخذ التي تؤخذ على ابن الضياء، إذ الأصل أن يستمدّ المعلومة من مصدرها الرئيس ولا ينقلها بواسطة عن مفسرين آخرين.
3. بجانب ما ذكر من المصادر، فإنّ هناك مصادر أخرى لم يذكرها ابن الضياء، فقد كان يكتفي بالنقل عن جملة المفسرين أو بعضهم، وكان يعبر عن ذلك بعبارات تفيد ذلك مثل: قال أهل التفسير، وقال أكثر المفسرين، وذهب جمهور المفسرين، وعند بعض المفسرين. وأسلوب التعميم هذا، هو من العيوب، وذلك لصعوبة التحقق من صحة المنقول.
4. يروي الموضوعات والأباطيل والإسرائيليات في التفسير، من دون أن يبيّن عليها بالوضع أو أنّها من الإسرائيليات إلا قليلاً.

5. يذكر بعض الأحاديث الموضوعية، والتي لا أصل لها، ويستشهد فيها على العديد من المسائل.

6. إيراده لبعض أقاويل أهل الباطل، وعدم الردّ عليها، كالمعتزلة.

قبل الخوض في تحقيق المخطوط يجب التعريف به، من اسمه واسم مؤلفه، وصحة نسبته له، وكذلك وصفه نظرياً، وعرض بعض الصور منه.

المطلب الثالث: التعريف بمخطوط ابن الضياء

هذا المطلب يبحث في اسم الكتاب، وصحة نسبته لمؤلفه، وإيراد الحجة على ذلك، من خلال الكتاب نفسه، وما ورد فيه من أقوال من المصادر الخارجية التي بحثت عن حياة ابن الضياء، ومؤلفاته العلمية.

أولاً: اسم الكتاب

اسم هذا التفسير كما كتب مؤلفه، تفسير أبي البقاء بن أحمد بن الضياء القرشي العدوي الحنفي.

ثانياً: صحة نسبة الكتاب إلى المؤلف

جاء في بداية المخطوط: "هذا التفسير لمحمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن سعيد بن محمد بن

محمد بن عمر بن يوسف بن علي بن إسماعيل، أبو البقاء بن شهاب أبي العباس، وأبي الخير بن الضياء

أبي عبد الله بن العز العمري الصاغاني¹ الأصل، المكّي، القرشي، الحنفي، يعرف بابن الضياء كأبيه العلامة

أحمد بن الضياء². وإنَّ نسبة الكتاب لمؤلفه ابن الضياء واضحة وثابتة من جهتين:

¹ نسبة إلى مدينة صاغان وهي قرية بمرق يقال لها: (صاغان)، وقيل: نسبة أيضاً إلى الصغانيان. المروزي، الأنساب، 8/9-10. ابن الأثير، أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين، اللباب في تهذيب الأنساب، (بيروت: دار صادر، ط3، 1994م)، 2/229.

² ابن الأثير، اللباب في تهذيب الأنساب، 2/229. الزركلي، الأعلام، 5/332.

1. إثبات الكاتب لذلك، حيث أشار إلى ذلك في بداية الكتاب، وفي ختامه، حيث كتب ما نصه في بداية الكتاب: "تأليف كاتبه الفقير إلى الله تعالى ابن أبي البقاء بن الضياء الحنفي، عامله الله بلطفه الحنفي، حامداً لله تعالى ومصلياً على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه أجمعين".

وجاء في نهاية المخطوط: تمّ هذا الجزء بعون الله وتوفيقه على يد مؤلفه الفقير إلى الله الغني أبي البقاء ابن أحمد ابن الضياء الحنفي عامله الله بلطفه الحنفي، في يوم الأحد ثامن جمادى الأولى عام ثلاث وخمسين وثمان ومائة، والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم. وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وقد ذكر أصحاب الكتب أنّ لابن الضياء كتاب في تفسير القرآن، ومنها: طبقات المفسرين للداوودي، الأعلام للزركلي، معجم المفسرين «من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر» لعادل نويهض، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين للباباني البغدادي.

المطلب الرابع: وصف المخطوط وصور من نسخته

وفيه يذكر وصفاً للمخطوط بشكل تفصيلي، من عدد اللوحات والأسطر والكلمات، وغير ذلك، مع عرض صور لهذا المؤلف.

أولاً: وصف المخطوط

بالنسبة لنسخ المخطوط، فإنني لم أقف إلا على نسخة واحدة، وهي النسخة الموجودة في المكتبة

السليمانية، ووصفها كالآتي:

1. ذكر الكاتب اسماً للمخطوط في الورقة الأولى، وكذلك من كتبه ومن ألفه.

2. كتب المخطوط في يوم الأحد ثامن جمادى الأولى عام ثلاث وخمسين وثمان ومائة، كما ذكر في

آخر المخطوط.

3. يقع المخطوط في 260 لوحاً، كلُّ لوح صفحتان.

4. في كل صفحة يوجد 21 سطرًا، وفي كل سطر تتراوح عدد كلماته بين 13 و15 غالباً.

5. كتب المخطوط بخط نسخ واضح ومقروء، وكتبت الآيات باللون الأحمر.

6. كتبت بعض التعليقات في الهامش بخط النسخ.

ولتعدر الحصول على نسخة أخرى، كون هذه النسخة هي الوحيدة والمكتوبة بيد المؤلف، اعتمدت على

الكتب التي صرَّح المؤلف بنقله منها، كتفسير الرازي، والقرطبي، والنسفي، وغيره، والتي اعتمدت عليها في

تقويم الأخطاء إن وجدت.

ثانياً: صور من نسخة المخطوط

وفيما يلي نماذج من النسخة الخطية

هذا تفسير في البقايا أحمد ابن الفيا
القرشي العدوي الحنفى
عاشه الله باطمة الحنفى

الطفرة المنعاه
الشيخ
عبد الرحمن بن محمد بن
عبد الرحمن بن محمد بن
عبد الرحمن بن محمد بن

تملكه الفقير الى لطف ربه المنعام
ارجم الامام بجراح سرور الامير
رسمه على الله ولا ساينة
امين

الف كتاب العقول في البقايا الفيا حنفى
عاشه الله باطمة الحنفى
سلي بن علي بن محمد بن علي بن محمد بن احمد بن

٤١

قيد من سورة طه الانبياء هـ فح
هو التفسير في من مراد الله تعالى القران الحمد وهو قوله في من
والتاويل لانه بيان معنى القران اما النقل من التفسير وهو
التفسير واما الحمد فهو الحمد العريضة وهو التأويل والحمد
والتاويل ما يتعلق بالدراسة وطاعة الكون ان يوتق به قوله تعالى من القران
بما به فقد كثر فوجه من اهدانا الى صوابنا من التفسير كما ان النقل من التفسير
بمعنى الحديث ان من نقل عن النبي صلى الله عليه وسلم او عن اصحابه براه وهو قوله
للذات على النبي يوم والشفاعة ان القران لا يحسب الرواية بل مجرد رايه من قوله صلى الله عليه وسلم

٤١

ST. E. TORQUATES
Facit of
CB 1389
60
3971

والروحاني والالبعات اللاحدها بمنع الاشتغال بالآخر
واربوس عليه السلام كان يحتاج الى الكل ومن استأثر بواحد
استوحش عن الخلق فقال موسى ان شرح صدره بان يفض
عليه كما لا امر القوة لكون قوته وافيه بضبط اصلاح العالمين
فهذا هو المراد من شرح الصدر **ب** المراد ذكروا بهذا المعنى
امثلة **ب** من **ب** ان البدن يملكه كالمملكة **ب** والصدركا لقلبه
والنواد كالمقصود **ب** والقلب كالتحت **ب** والروح كالمالك **ب** والعقل
كالوزير **ب** والشهوة كالعامل الكثير الذي يجلب الخير الى البلدة
ب والغضب كالشحنة **ب** تشتعل بالضرب والتأديب ابدان الحواس
كالجواسيس **ب** وساير القوى كالجملة والاشباع **ب** بران الشيطان
خضم هذه الواسعة **ب** وهذه القلعة **ب** ولهذا المالك **ب** فالشيطان
كالسلطان **ب** والتموى والحرض وساير الاخلاق الذميمة جنوده
ب فكما ان الوزير وهو العقل يدعو الى خدمة حضرة الله سبحانه
فلهوى يدعو الى تايعة الشيطان **ب** وكان الروح وهو المالك اخراج
الوظيفة وامتدتها بالفكر ليقف على الحاضر والغائب **ب** قال
عليه السلام تفكر ساعة خير من عبادة سنة **ب** فالشيطان اخراج
في مقابلة الفكرة الغفلة **ب** تراخر الروح التوقف والعمل والتثبت
فان العمل ترى الحسن فيها والقيم حسنها **ب** والعمل يوقف العقل
على فتح الدنيا **ب** فخرج الشيطان في مقابلة التوقف والعمل
الجملة والسرعة **ب** فهذا ما يصل اليه عليه وسلم مادخل الرفوشيا
اقارنه **ب** وله الخرق الشانه **ب** ولهذا ايضا خاوله السحاب

والاخر

والاخر سنة / ام **ب** وهذه هي الخصومة كاختره من النفس
ب والصدرك هو المعرفة **ب** بمراد هذا الصدر الذي هو القلعة
خندق وهو الزهد في الدنيا **ب** ولها سور وهو الرغبة في الاخرة
ب ومن العلوين ان الخندق ان كان عميقا والسور اذا كان قويا
عاليا كان يحجز الخضم عن الدخول اغلبا واكثر **ب** ولو كان على العكس فالامر
على العكس فاعتبر معا **ب** **ب** الع **ب** ل السادس في الصدر
اعلم انه يحكي والمراد منه القلب **ب** قال الله تعالى افرشرح الله صدره
للاسلام **ب** وقد ذكر والمراد منه الفضاة التي فيه الصدر **ب** قال
تعالى فانها لا تدعى الا نصار ولكن تغير الفلوت التي في الصدور **ب**
واحد **ب** السادس **ب** الرجل العلو هو القلب والوعاء **ب**
ومهور المتكلم على انه هو القلب **ب** وسياتي ذكر هذه السلسلة في
الشعر اعند قوله نزل به الروح الامن على قلبك **ب** ومنها **ب**
مر قال المراد اربع الصدر **ب** والقلب **ب** والنواد **ب** واللب
فالصدر مقورا للاسلام **ب** افرشرح الله صدره للاسلام **ب** والقلب
مقورا الايمان **ب** وكل الله حب الكبراة عمل وزينه في قلبك **ب** والنواد
مقورا المعرفة **ب** فالذب النواد مارتى **ب** واللب مقورا للوحد **ب** اما
بيد كرا ولوا الالاب **ب** واع **ب** لمرار القلب اول ما بعث الى هذا
العالم بعث خالبا عن النفس كالروح السادج **ب** وهو في عالم البدن
كالروح المحفوظ **ب** برانه تعالى يكتب فيه بقول الرحمة والعطية
جميع ما تتعلق به من قوت الموجودات **ب** وصور الماهيات
وذلك يكون كالسطر لولا احد الى خرقها القيمة لهذا العالم الاضر

أهانتها **قال** المرسل الله عز وجل من قوا سورة طه أعطى
يوم القيمة ثواب المهاجرين والأنصار **رواه** ابن مردويه
في تفسيره من حديث ابن بركب وحاله معروف **وقال**
صلواته عليه وسلم يقرأ أهل الجنة من القرآن الآطه وليس
رواه التعلين من حديث الحسن بن مسعود والله اعلم

سورة الانبياء عليهم السلام

مكية في قول الجميع **وهي** مائة واثنان عشرين آية كوفي **واحد**
عشرون مدني **وبصرى** **قال** ابن سعد روى عنه الكوفي
ومروان بن الحكم والابن ابي عمير من بلاد يربد
فأرسل ما كتب وما حفظ من القرآن كالمال البلاد **وروي**
أن رجلا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأها فترى في يوم
نزل هذه السورة **فقال** الذي بين الجدار كما نزل اليوم
من القرآن فقال لا خير نزل اقرب للناس حسا **وهي** في غفلة
يعرضون فنفض يده من الميثان **وقال** وانفة لا يبيت ابدا وقد
اقرب الحساب كذا ذكره القرطبي

سورة الرحمن الرحيم
نزل في منكرى البعث قوله **اقرب** ذنا للناس الاصلية
اقرب **قال** ابن عباس المراد بالناس المشركون بدليل قوله الا
استمعوه وهم يلعنون الى قوله انما ترون السجرات ثم يعبرون
وهذا نزياب اطلاق اسم الجحيم على بعض الدليل القاهر وهو ما
يلوه من صفات المشركين **وقيل** الناس عموم **وان** كان المشار
الى ذلك

رواه ابن مردويه
في تفسيره

وروي

رواه ابن مردويه
في تفسيره

بذلك الوقت كما قرئ في ذلك ما بعده من الآيات كذا في القرطبي
حساب وقت محاسبة الله يا مهر ومحازاته على علمه احسن
يوم القيمة **قال** الرخسري والمراد اقرب الساعة واذ
اقربت الساعة فقد اقرب ما يكون فيها من الحساب والثواب
والعقاب وغير ذلك **ومعناه** واقرب الوعد الحق **قال**
الامام قرطبي والقرب لا يتعد الا في الزمان والمكان والقرب
المكان هنا ممنوع فتعين القرب الزماني **قال** وطيب
كيف وصف بالاقرب **وقد** عدت دوز هذا القول الثامن
مائة عام قلت هو مقرب عند الله **والدليل** عليه
قوله عز وجل ويستحيلونك بالاذاب والنعاقب الله وعذبه وان
يوما عند ربك كالف سنة مما تعدون **وقال** كل آيات وان
طالت اوقات استقباله وترقبه قرب وانما الجسد هو الذي
يوجد والقرن **وهو** ما يقرب من الدنيا قصر اقل ما سلت منها
بدليل اشعار خاتم النبيين الموعود **بمعناه** اخبر الزمان **وقال**
أعنت في سمر الساعة **رواه** البراء بن مسعود **ابو** يعقوب في الحلية
والسراج سمى اى في ذوى ارواح خلقتوا بقرب الساعة
وروي الترمذي من حديث المشور بن عبد الله بن عيسى
الساعة سميتها كما سميت هذه هذه لا يصحبه الساعة والرسول
وقال حديث غريب **وهو** في خطب بعض المتقدمين ولت الدنيا خذ آه
دمر عن الاكسابة الانباء فاذا كانت بئيه وان كبرت في نفسها
قليلة بالاضافة الى معطيه كانت خلية بان توصف بالقليلة

قال السراج في قوله ما يقرب من الله
وهو ان يقرب من الله

ان خشيته
هو لفظ الله
الشيء

الفصل الثالث: القسم المحقق

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا تفسير "أبي البقاء بن أحمد بن الضياء القريشي العدوي الحنفي"، عامله الله بلطفه الحنفي.

تأليف كاتبه الفقير إلى الله تعالى "ابن أبي البقاء بن الضياء الحنفي"، عامله الله بلطفه الحنفي، حامداً لله تعالى ومصلياً على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحبه أجمعين. فيه من السور: طه، الأنبياء، الحج.

علم التفسير¹: بُحِثَ فيه عن مراد الله تعالى من القرآن المجيد، وهو منحصر في قسمين: التفسير والتأويل، لأنه بيان معاني القرآن، إمّا بالنقل عن النبي صلى الله عليه وسلم، أو عن الصحابة، وهو التفسير، وإما بحسب القواعد العربية، وهو التأويل.

¹ التفسير لغة: هو الإيضاح والتبيين، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ يقال: فسّرت الحديث أي بيّنته وأوضحته. وأمّا اصطلاحاً: فهو علم يعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه، واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو والتصريف وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات، ويحتاج لمعرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ. والتأويل لغة: من الأول ويقال آل الأمر إلى كذا أي صار إليه وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: 82] وأصله من المأل وهو العاقبة والمصير وقد أولته قال أي صرفته فانصرف فكان التأويل صرف الآية إلى ما تحتمله من المعاني. الزركشي، البرهان في علوم القرآن، 148/2.

أمّا في الاصطلاح: قال الراغب الأصفهاني: هو ردّ الشيء إلى الغاية المرادة منه، علما كان أو فعلا. وهذا التعريف رآه الباحث من أدق التعاريف للتأويل، فتأويل الكلام هو: ردّ معانيه إلى أصلها الذي تحمل عليه، وتنتهي إليه. الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، 99.

وبالجملة التفسير¹: ما يتعلق بالرواية، والتأويل: ما يتعلق بالدراية، وعلى هذا أمكن أن يوجّه قوله عليه السلام: «من فسّر القرآن برأيه فقد كفر»² بوجهين:

أحدهما: أنّ المراد من التفسير إما كل النقل فمعنى فسّر: لا يكون إلا النقل، فمعنى الحديث: أنّه من نقل معنى القرآن عن النبي صلى الله عليه وسلم أو عن أصحابه برأيه وهو رسمه فقد كفر، لأنّه افتزى على النبي صلى الله عليه وسلم.

والثاني: أنّه فسّر القرآن لا بحسب الرواية، بل بمجرد رأيه، من شرح قطب الأنهي³. [1/ب].

¹ الزركشي، البرهان في علوم القرآن، 150/2

أمّا في الاصطلاح: قال الراغب الأصفهاني: هو ردّ الشيء إلى الغاية المرادة منه، علما كان أو فعلا. وهذا التعريف رآه الباحث من أدق التعاريف للتأويل، فتأويل الكلام هو: ردّ معانيه إلى أصلها الذي تحمل عليه، وتنتهي إليه. الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، 99.

² لم أجد في المصادر التي بين يدي على حديث بهذا اللفظ، ولكن وردت بعض الآثار في الوعيد على من تكلم في القرآن بغير علم، فقد ورد في الحديث: «من قال في القرآن برأيه، فليتبوأ مقعده من النار». أخرجه أبو عيسى محمد بن عيسى بن سؤرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، سنن الترمذي، باب: ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه، (مصر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط2، 1395 هـ / 1975 م)، 199/5، حديث رقم: 2951، ضعفه الألباني.

³ لم أجد رغبته في البحث الكثير.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة طه: مكية في قول الجميع، وهي مئة وأربعون أو اثنتان، أو مئة وخمسون وثلاثون آية، وألف وثلاثمئة وإحدى وأربعون كلمة وخمسة آلاف ومئتان واثنتان وأربعون حرفاً¹.

اعلم أنَّ من جملة ما يدلُّ على اتصال هذه السورة بما قبلها، هو أنَّ عيسى عليه السلام وموسى عليه السلام مشتركان في الغموم والهموم بسبب الولادة، وفي الإنعام من الحضرة الإلهية بعدها في حقهما، وفي حق والدتيهما على ما عرف، ومن تلك الجملة أيضاً أنَّ المقصود من تلك السورة بيان التوحيد والنبوة والحشر، وفي هذه السورة ما يدل عليها كذلك، ووجه اتصال أول هذه السورة بآخر السورة قبلها، أنَّه لما كان المقصود بيان هذه الأمور بيّن الله سبحانه وتعالى في آخر تلك السورة أنَّه يسّر ذلك البيان بلسان ليشر به وينذر، فقال: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَا بِهِ لِسَانِكَ﴾ [مریم: 97] الآية، وهذا من النعم العظيمة والتشريفات الكريمة في حق الرسول صلى الله عليه وسلم، والرسول بالغ في العبادات ليلاً ونهاراً وأتعب نفسه شكراً لذلك، فخاطبه في أول هذه السورة بقوله: ﴿طه* مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ [طه: 1-2]²، قاله النسفي³. قال القرطبي⁴ في تفسيره: نزلت هذه السورة قبل إسلام عمر رضي الله عنه. روى

¹ الداني، البيان في عدّ آي القرآن، 183.

² لم أجد تفسيره، فأثبت ما جاء في تفسيره من تفسير الرازي إن وجدت المنقول فيه، كونه استخلص تفسيره منه.

³ محمد بن محمد بن محمد، أبو الفضل برهان الدين النسفي: مفسر أصولي من أهل الكلام، حنفي المذهب، سكن بغداد وتوفي بها سنة: 687هـ. من تصانيفه: الواضح في تلخيص تفسير القرآن للفرج الرازي، والمقدمة النسفية، والفصول في علم الجدل، ومنشأ النظر في علم الخلاف، والقوادح الجدلية. أبو الفداء زين الدين أبو العدل قاسم بن قُطُوبغا السودوي الجمالي الحنفي، تاج التراجم، (دمشق: دار القلم، ط1، 1413 هـ)، 1/ 246. الزركلي، الأعلام، 7/ 31.

⁴ هو محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج. أندلسي من أهل قرطبة أنصاري، الصالح العابد، من كبار المفسرين. رحل إلى المشرق واستقر بمعية ابن الخصيب (بمصر) وبها توفي: 671 هـ. من تصانيفه: الجامع لأحكام القرآن، التذكرة بأمر الآخرة، الأسنى في شرح الأسماء الحسنی. اليعمری، برهان الدين، إبراهيم بن علي بن محمد، ابن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، (القاهرة: دار التراث للطبع والنشر)، 2/ 308. الزركلي، الأعلام، 5/ 322.

الدارقطني¹ في سننه عن أنس بن مالك² رضي الله تعالى عنه، قال: خرج عمر متقلداً السَّيف³، فقيل له: إِنَّ خَتَنَكَ وَأَخْتِكَ قَدْ صَبُّوا فَأَتَاهُمَا عَمْرٌ وَعِنْدَهُمَا رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ يُقَالُ لَهُ: حَبَّابٌ⁴، وكانوا يقرؤون: "طه"، فقال: أعطوني الكتاب الذي عندكم فأقرأه- وكان عمر رضي الله تعالى عنه يقرأ الكتب- فقالت له أخته: إِنَّكَ نجس⁵، ولا يمسه إلا المطهرون فقم فاغتسل، أو توضأ. فقام [2/أ] عمر فتوضأ، ثم أخذ الكتاب فقرأ: "طه"⁶. وذكره ابن إسحاق⁷ مطوَّلاً: وأنَّ عمر خرج متوشَّحاً سيِّفَهُ يريدُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وقتلَهُ، فلقية نُعيم بن عبد الله⁸، فقال: أين تريد يا عمر؟ قال: أريد محمداً هذا الصابئ الذي

¹ هو علي بن عمر بن أحمد بن مهدي، أبو الحسن، البغدادي الدارقطني، إمام ومحدث حافظ، وفقهه، ومقرئ. وتوفي سنة 385 هـ في بغداد، من تصانيفه: السنن، العلل الواردة في الأحاديث النبوية، المجتبى من السنن المأثورة، المختلف والمؤتلف في أسماء الرجال. الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قانماز الذهبي، **تذكرة الحفاظ**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1419هـ)، 3/ 132، الزركلي، **الأعلام**، 4/ 314. عمر رضا كحالة، **معجم المؤلفين**، (بيروت: مكتبة المثنى ودار إحياء التراث العربي، بدون ذكر الطبعة)، 7/ 157.

² هو أنس بن مالك بن النضر، النجاري الخزرجي الأنصاري، حب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وخادمه، رحل إلى دمشق، ثم إلى البصرة، فمات بها، وهو آخر من مات بها من الصحابة. له في الصحيحين 2286 حديثاً. توفي: سنة 93هـ. **تذكرة الحفاظ**، 1/ 37. ابن حجر العسقلاني أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد، **الإصابة في تمييز الصحابة**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1415 هـ)، 1/ 275. الزركلي، **الأعلام**، 2/ 24.

³ في تفسير القرطبي: خرج عمر متقلداً بسيف.

⁴ هو خباب بن الأرت بن جندلة بن سعد، أبو يحيى أو أبو عبد الله، التميمي. صحابي من السابقين. قيل: أسلم سادس ستة، وهو أول من أظهر إسلامه، ثم شهد المشاهد كلها. قال علي رضي الله عنه: رحم الله خباباً أسلم راغباً وهاجر طائعا وعاش مجاهداً. روى له البخاري ومسلم 32 حديثاً توفي: سنة 37هـ. ابن حجر العسقلاني، **الإصابة**، 2/ 221. ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين، **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1415هـ)، 2/ 147. الزركلي، **الأعلام**، 2/ 301.

⁵ في تفسير القرطبي: إِنَّكَ رجس

⁶ أخرجه الدارقطني، **سنن الدارقطني**، باب: في نهي المحدث عن مس القرآن، 1/ 221، حديث رقم: 441، ضعيف.

⁷ محمد بن إسحاق بن يسار بن خيار الأخباري، علامة، حافظ، أخباري، أبو بكر - وقيل: أبو عبد الله - القرشي، له كتاب: السيرة النبوية، وهو أول من دون العلم بالمدينة، وذلك قبل مالك وذويه، توفي سنة 151هـ. الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قانماز، **سير أعلام النبلاء**، (القاهرة: دار الحديث، ط 1427)، 6/ 492. ابن حجر العسقلاني أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد، **تهذيب التهذيب**، (الهند: مطبعة دائرة المعارف النظامية، ط1، 1326هـ)، 9/ 38.

⁸ هو نعيم بن عبد الله النحام بن أسيد بن عبد عوف بن عبيد بن عويج بن عدي بن كعب القرشي العدوي، قتل يوم اليرموك شهيداً سنة خمس عشرة في خلافة عمر، وقيل: استشهد بأجنادين سنة ثلاث عشرة، في خلافة أبي بكر. ابن الأثير، **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، 5/ 326. القرطبي، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري، **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، (بيروت: دار الجليل، ط1، 1412 هـ)، 4/ 1507.

فَرَّقَ أَمْرَ قَرِيشٍ، وَسَفَّهُ أَحْلَامَهَا، وَعَابَ دِينَهَا، وَسَبَّ آهْتَهَا فَأَقْتُلْهُ. قَالَ لَهُ نَعِيمٌ: وَاللَّهِ لَقَدْ غَزَتِكَ نَفْسُكَ يَا عَمْرُ، أَتَرَى بَنِي عَبْدِ مَنْفَى تَارِكِيكَ تَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ، وَقَدْ قَتَلْتَ مُحَمَّدًا؟! أَفَلَا تَرْجِعُ إِلَى أَهْلِكَ فَتُقِيمَ أَمْرَهُمْ؟! قَالَ: وَأَيُّ أَهْلِ بَيْتِي؟ قَالَ: حَتُّنُكَ، وَابْنُ عَمِّكَ سَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ¹، وَأَخْتُكَ فَاطِمَةُ بِنْتُ الْخَطَّابِ²، فَقَدَّ وَاللَّهِ أَسْلَمًا وَبَايَعَا مُحَمَّدًا عَلَى دِينِهِ، فَعَلِيكَ بِهَمَّا. قَالَ: فَرَجَعَ عَمْرٌ عَامِدًا إِلَى أُخْتِهِ وَخَتْنِهِ، وَعِنْدَهُمَا خَبَابٌ بَنِي الْأُرْتِ مَعَهُ صَحِيفَةٌ فِيهَا "طه" يَقْرَؤُهَا عَلَيْهِمَا، فَلَمَّا سَمِعُوا حِسَّ عَمْرٍ تَعَيَّبَ خَبَابٌ فِي مَخْدَعِ لَهُمْ أَوْ فِي بَعْضِ الْبَيْتِ، وَأَخَذَتْ فَاطِمَةُ الصَّحِيفَةَ فَجَعَلَتْهَا تَحْتَ فَخْذِهَا، وَقَدْ سَمِعَ عَمْرٌ حِينَ دَنَا إِلَى الْبَيْتِ قِرَاءَةَ خَبَابٍ عَلَيْهِمَا، فَلَمَّا دَخَلَ قَالَ: مَا هَذِهِ الْهَيْبَةُ الَّتِي سَمِعْتُ؟ قَالَا لَهُ: مَا سَمِعْتَ شَيْئًا، قَالَ: بَلَى وَاللَّهِ لَقَدْ أُخْبِرْتُ أَنْكُمَا بَايَعْتُمَا مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى دِينِهِ. وَبَطَشَ بِلَحْيَةِ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ، فَقَامَتْ إِلَيْهِ أُخْتُهُ فَاطِمَةُ بِنْتُ الْخَطَّابِ لَتَكُفَّهُ عَنِ زَوْجِهَا فَضْرَبَهَا فَشَجَّهَا، فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ قَالَتْ لَهُ أُخْتُهُ وَخَتْنَةُ: نَعَمْ، قَدْ أَسْلَمْنَا وَآمَنَّا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَاصْنَعْ مَا بَدَا لَكَ. فَلَمَّا رَأَى عَمْرٌ مَا بِأُخْتِهِ مِنَ الدَّمِ نَدِمَ عَلَى مَا صَنَعَ فَارْعَوَى، وَقَالَ لِأُخْتِهِ: أَعْطِنِي هَذِهِ الصَّحِيفَةَ الَّتِي سَمِعْتُمْ تَقْرَؤُونَ أَنْفَاءً أَنْظِرْ مَا هَذَا الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-وَكَانَ عَمْرٌ كَاتِبًا-فَلَمَّا قَالَ ذَلِكَ، قَالَتْ لَهُ: إِنَّا نَخْشَاكَ عَلَيْهَا [2/ب] قَالَ لَهَا: لَا تَخَافِي. وَحَلَفَ بِأَهْتِهِ لِيَرُدَّهَا إِذَا قَرَأَهَا، فَلَمَّا قَالَ ذَلِكَ طَمِعَتْ فِي إِسْلَامِهِ، فَقَالَتْ لَهُ: يَا أَخِي إِنَّكَ نَجَسٌ عَلَى شَرِّكَ، وَإِنَّهُ لَا يَمْسُهَا إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ، فَقَامَ عَمْرٌ فَاغْتَسَلَ، فَأَعْطَتْهُ الصَّحِيفَةَ وَفِيهَا "طه"، فَقَرَأَهَا، فَلَمَّا قَرَأَ مِنْهَا صَدْرًا، قَالَ: مَا أَحْسَنَ هَذَا الْكَلَامَ وَأَكْرَمَهُ! فَلَمَّا سَمِعَ بِذَلِكَ خَبَابٌ خَرَجَ إِلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ: يَا عَمْرُ،

¹ هو سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل العدوي، من المبشرين بالجنة، شهد المشاهد مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وشهد حصار دمشق، وفتحها، ولأه عليها أبو عبيدة بن الجراح، فكان أول من عمل نيابة دمشق من هذه الأمة، وهو ابن عم عمر بن الخطاب وصهره. توفي بأرضه بالعقيق، ودفن بالمدينة في أيام معاوية سنة 50هـ أو 51هـ، وهو ابن بضع وسبعين سنة. الذهبي، سير أعلام النبلاء، 1/124. ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، 2/614. ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، 2/276.

² هي فاطمة بنت الخطاب بن نفيل بن عبد العزى القرشية العدوية، أخت عمر بن الخطاب رضي الله عنهما. وهي امرأة سعيد بن زيد، أسلمت أول الإسلام مع زوجها سعيد قبل إسلام أخيها عمر، وكانت سبباً لإسلام عمر. ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، 7/215. ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، 4/1892.

والله إني لأرجو أن يكون الله قد خصَّك بدعوة نبيِّه صلى الله عليه وسلم، فإني سمعته أمس وهو يقول: «اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام¹، أو بعمر بن الخطاب» فالله الله يا عمر. فقال له عند ذلك: فدلني يا خبَّاب على محمد حتى آتية، فأسلم، فذكر الحديث². قال القرطبي: أسند الدارمي³ في "مسنده" عن أبي هريرة⁴، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَرَأَ "طه" وَ"يس" قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْفِ عَامٍ، فَلَمَّا سَمِعَتِ الْمَلَائِكَةُ الْقُرْآنَ قَالَتْ: طُوبَى لَأُمَّةٍ يَنْزِلُ هَذَا عَلَيْهَا، وَطُوبَى لَأَجْوَابِ تَحْمِلُ هَذَا، وَطُوبَى لَأَلْسِنَةٍ تَتَكَلَّمُ بِهَذَا»⁵. قال ابن فورك⁶: معنى قوله: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَرَأَ طه وَيَس» أي: أظهر وأسمع وأفهم كلامه من أراد من خلقه من الملائكة في ذلك الوقت، فعلى هذا يكون الكلام سابقاً، وقراءته: إسماعه وإفهامه بعبارات يخلقها وكتابتها يُحدثها، وهو معنى قولنا: قرأنا كلام الله، ومعنى قوله: ﴿فَأَقْرَهُوْا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل: 20]. وقيل: معنى قوله: قرأ، أي: تكلم به وهو مجاز،

¹ عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي القرشي: أشد الناس للإسلام، وواحد من سادات قريش في الجاهلية، وكان يقال له "أبو الحكم" فدعاه المسلمون "أبا جهل". استمر على عناده، يثير الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه والكيد لهم، قتل مع المشركين في غزوة بدر سنة: 2 هـ. حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله القسطنطيني العثماني، سلم الوصول إلى طبقات الفحول، (إستانبول: مكتبة إرسياكا، 2010 م)، 4/ 127. الزركلي، الأعلام، 5/ 87.

² أخرجه ابن إسحاق، محمد بن يسار المظلي، السيرة النبوية، إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1424 هـ)، 222/2.

³ هو عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بجرم التميمي الدارمي السمرقندي، أبو محمد، المفسر الفقيه، من حفاظ الحديث. سمع بالحجاز والشام ومصر والعراق وخراسان من خلق كثير. كان قاضياً على سمرقند، ففضى قضية واحدة، واستعفى فأعفى. من مصنفاته: المسند في الحديث، الجامع الصحيح (سنن الدارمي)، والثلاثيات، توفي سنة 255 هـ. الذهبي، تذكرة الحفاظ، 2/ 90. الزركلي، الأعلام، 4/ 95.

⁴ هو عبد الرحمن بن صخر. من قبيلة دوس، وقيل في اسمه غير ذلك، أكثر الصحابة رواية للحديث، أسلم 7 هـ، وهاجر إلى المدينة. وكان ملازماً للنبي صلى الله عليه وسلم. وروى عنه أكثر من خمسة آلاف حديث. ولي البحرين، ثم عزل عمره للينه. وولي المدينة سنوات في خلافة بني أمية. توفي سنة: 59 هـ. ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، 3/ 457. الزركلي، الأعلام، 3/ 308.

⁵ أخرجه أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بجرم بن عبد الصمد الدارمي، مسند الدارمي المعروف بـ (سنن الدارمي)، باب: في فضل سورة طه ويس، (المملكة العربية السعودية: دار المغني للنشر والتوزيع، ط1، 2000م)، 4/ 2147، حديث رقم 3457، إسناده ضعيف جدا.

⁶ هو محمد بن الحسن بن فورك، أبو بكر من أهل أصبهان وأقام بالري وبالعراق. متكلم فقيه، أصولي، ولغوي. كثير التصنيف. كان شديد الرد على أبي عبد الله بن كرام. من تصانيفه: مشكل الآثار، تفسير القرآن، النظامي في أصول الدين. توفي: سنة 406 هـ. السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين، طبقات الشافعية الكبرى، (مصر: هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، 1413 هـ)، 4/ 127. الزركلي، الأعلام، 6/ 83.

والأول أصحُّ في تأويل الخبر؛ لأنَّ كلام الله تعالى أزلي قديم سابق لجملة الحوادث، وإنما أسمع وأفهم من أراد من خلقه ما أراد في الأوقات والأزمنة؛ لا أنَّ عَيْنَ كلامه [3/أ] يتعلَّق وجوده بمدة وزمان¹. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أُعْطِيَتْ السُّورَةُ الَّتِي ذُكِرَتْ فِيهَا الْبَقْرَةُ مِنَ الدِّكْرِ الْأَوَّلِ، وَأُعْطِيَتْ طَهَ وَالطَّوَّاسِينَ مِنْ أَلْوَاحِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأُعْطِيَتْ فَوَاحِ الْقُرْآنِ وَخَوَاتِيمَ السُّورَةِ الَّتِي ذُكِرَتْ فِيهَا الْبَقْرَةُ مِنْ كَنْزِ تَحْتِ الْعَرْشِ، وَأُعْطِيَتْ الْمُفَصَّلَ نَافِلَةً»².

¹ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، 11/ 163-164.

² أخرجه البغوي من حديث ابن عباس، معالم التنزيل في تفسير القرآن، 3/254. وأخرجه أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى البيهقي من حديث معقل بن يسار، شعب الإيمان، باب: ذكر الحواميم، 4/108، حديث رقم 2257. وأخرجه أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نعيم من حديث معقل بن يسار، المستدرک علی الصحیحین، باب: ذكر فضائل سور، وأي متفرقة، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1990م)، 2/285، حديث رقم 2257، ضعيف.

[طه:1] فَحَمَّ¹ الطاء لاستعلائها، وأمال الهاء أبو عمرو²، وأمالهما حمزة³ وعلي⁴ وخلف⁵ وأبو

بكر⁶، وفحَّمهما⁷ على الأصل غيرهم⁸، قال القرطبي: اختلف العلماء في معناه، فقال الصديق رضي الله

¹ أحمد بن موسى بن العباس التميمي، أبو بكر بن مجاهد البغدادي، السبعة في القراءات، (مصر: دار المعارف، ط2، 1400)، 416. عثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر أبو عمرو الداني، التيسير في القراءات السبع، (بيروت: دار الكتاب العربي، ط2، 1404هـ)، 150. الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسي الأصل، أبو علي، الحجة للقراء السبعة، (بيروت: دمشق: دار المأمون للتراث، ط2، 1413هـ)، 217/5.

² هو زيان بن العلاء بن عمرو بن عبد الله بن الحصين التميمي المازني المقرئ النحوي، أحد القراء السبعة، وقيل اسمه العريان، وقيل غير ذلك. قرأ على سعيد بن جبير ومجاهد، وعلي غيرها، توفي سنة: أربع وخمسين ومائة. صلاح الدين، محمد بن شاکر بن أحمد بن عبد الرحمن بن شاکر بن هارون بن شاکر، فوات الوفيات، (بيروت: دار صادر، ط1، 1973م)، 2/ 28. ابن الجزري، شمس الدين أبو الخير، محمد بن محمد بن يوسف، غاية النهاية في طبقات القراء، (القاهرة: مكتبة ابن تيمية، ط1، 1351هـ)، 288/1.

³ هو حمزة بن حبيب بن عمارة بن إسماعيل، أبو عمارة الكوفي التيمي. أحد القراء السبعة، انعقد الإجماع على قبول قراءته، آلت الإمامة في القراءة إليه بعد عاصم والأعمش، عالمٌ بالفرائض والعربية حافظٌ للحديث، قال الثوري: ما قرأ حمزة حرفاً من كتاب الله إلا بأثر. توفي سنة: 156هـ. ابن الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء، 2/ 135. الزركلي، الأعلام، 2/ 277.

⁴ هو علي بن حمزة بن عبد الله الأسدي ولاءً، أبو الحسن الكوفي المعروف بالكسائي مقرئ لغوي نحوي وشاعر. نشأ بالكوفة، واستوطن بغداد. وهو مؤدب الرشيد العباسي، وابنه الأمين. من تصانيفه: معاني القرآن، المصادر، الحروف، القراءات، توفي سنة: 189هـ -رضاً كحالة، معجم المؤلفين، 7/ 84. الزركلي، الأعلام، 4/ 283.

⁵ هو خلف بن هشام بن ثعلب بن خلف بن ثعلب بن هشيم، أبو محمد، الأسدي، البغدادي أحد القراء العشرة، كان عالماً عابداً ثقة، حفظ القرآن وهو ابن عشر سنين. أخذ القرآن عن عبد الرحمن بن أبي حماد وغيره. وروى القراءة عنه: أحمد بن إبراهيم وواقه وأخوه إسحاق بن إبراهيم، وغيرهم. ابن الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء، 1/ 272. الزركلي، الأعلام، 2/ 311.

⁶ هو عاصم بن بحدلة ابن أبي النُّجود، الأسدي، الكوفي شيخ الإقراء بالكوفة وأحد القراء السبعة، تابعي من أهل الكوفة. كان ثقة في القراءات، وأحاديثه في الكتب الستة، وقال ابن الجزري: جمع بين الفصاحة والإتقان والتحرير والتجويد وكان أحسن الناس صوتاً بالقرآن، أخذ القراءة عن زر بن حبيش، وأبي عبد الرحمن السلمي وغيرهما. روى القراءة عنه أبان بن تغلب، وأبان بن يزيد العطار وغيرهما، توفي سنة: 127هـ. ابن الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء، 1/ 346. الزركلي، الأعلام، 3/ 248.

⁷ البغدادي، السبعة في القراءات، 417. شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف، النشر في القراءات العشر، (بيروت، دار الكتب العلمية، من دون رقم وتاريخ طبعة)، 71/2.

⁸ النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 2/ 356.

عنه: هو من الأسرار، ذكره الغزنوي¹. قال ابن عباس²: معناه يا رجل³، ذكره البيهقي⁴. وقيل: إنها لغة معروفة في عُكْلٍ⁵. وقيل: في عَكِّ⁶، ذكره العزّوني. وقال قطرب⁷: هو بلغة طيّ، وكذلك قال الحسن⁸:

¹ هو عبد الصمد بن محمود بن يونس الغزنوي، أبو الفتح، فقيه حنفي، مفسر وقاض، من تصانيفه: تفسير القرآن - بعضه مخطوط -، تاريخ وفاته غير معروف. عادل نويهض، معجم المفسرين «من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر»، (بيروت: مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، ط3، 1409 هـ)، 1/ 285.

² هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب القرشي الهاشمي. حبر الأمة وترجمان القرآن. أسلم صغيراً ولازم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد الفتح وروى عنه. شهد الجمل وصفين مع علي. وصار كفيفاً في آخر عمره. كان يجلس للعلم، فيجعل يوماً للفقهاء، ويوماً للتأويل، ويوماً للمغازي، ويوماً للشعر، ويوماً لوقائع العرب. توفي بالطائف سنة: 68 هـ. ابن حجر العسقلاني، الإصابة، 4/ 122-123. الزركلي، الأعلام، 4/ 95.

³ البيهقي أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الحُسْرُوْجْردي الخراساني، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1405 هـ)، 1/ 158.

⁴ هو أحمد بن الحسين بن علي بن عبد الله، أبو بكر البيهقي، فقيه شافعي، حافظ، أصولي، كثير التصانيف، كان من أكثر الناس نصراً لمذهب الشافعي، قال إمام الحرمين في حقه: "ما من شافعي المذهب إلا وللشافعي عليه منة إلا أحمد البيهقي، فإن له على الشافعي منة"، من تصانيفه: السنن الكبير، السنن الصغير، كتاب الخلاف، مناقب الشافعي. توفي: سنة 458 هـ. أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، (بيروت، دار صادر، ط1، 1972م)، 1/ 75. الزركلي، الأعلام، 1/ 116.

⁵ هي قبيلة عدنانية، من تيم الرباب، ويرجع أصل الاسم إلى اسم امرأة حضنت بني عوف بن وائل بن عبد مناة، فغلبت عليهم وسميت قبيلتهم باسمها. عمر بن رضا بن محمد راغب بن عبد الغني كحالة الدمشقي، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط7، 1414 هـ)، 2/ 804.

⁶ هي قبيلة من قبائل العرب، من أقسام قبائل عدنان، كانت تسكن في اليمن والحجاز وتامة. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، (بيروت: دار الساقى، ط4، 1422 هـ)، 2/ 41.

⁷ هو محمد بن المستنير بن أحمد، أبو علي، الشهير بقطرب، لقبه به أستاذه سيبويه فلزمه، نحوي، عالم بالأدب واللغة، من أهل البصرة. كان يرى رأي المعتزلة النظامية. وهو أول من وضع (المثلث) في اللغة، من مصنفاته: معاني القرآن، النوادر، الأزمنة، توفي سنة: 206 هـ. ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، 4/ 331. الزركلي، الأعلام، 7/ 95.

⁸ هو الحسن بن يسار البصري، أبو سعيد، تابعي، ولد بالمدينة، رأى بعض الصحابة، وسمع من بعضهم. كان إمام أهل البصرة، ولي قضاء البصرة في زمن عمر بن عبد العزيز، ثم استعفى. نقل عنه أنه قال بقول القدرية، وينقل أنه رجع عن ذلك، وقال: الخير والشر بقدر. توفي: 110 هـ. الصفدي صلاح الدين خليل بن أبيك بن عبد الله، الوافي بالوفيات، (بيروت: دار إحياء التراث، ط1، 1420 هـ)، 12/ 190. الزركلي، الأعلام، 2/ 226.

معنى طه: يا رجل. وقال عكرمة¹: هو بالسريانية كذلك. وحكى الطبري² أنه بالنبطية يا رجل³، قال⁴:

إِنَّ السَّفَاهَةَ طه مِنْ شَمَائِلِكُمْ ... لَا قَدَسَ اللَّهُ أَرْوَاحَ الْمَلَاعِينِ

أي: يا رجل، وفي رواية: لَا بَارَكَ اللَّهُ فِي الْقَوْمِ الْمَلَاعِينِ.

وقال عكرمة: هو كقولك⁵: يا رجل بلسان الحبشة، ذكره الثعلبي⁶. والصحيح: أُمَّهَا وَإِنْ وَجَدتْ فِي لُغَةٍ

أُخْرَى، فَإِنَّهَا مِنْ لُغَةِ الْعَرَبِ كَمَا ذَكَرْنَا، وَأَنَّهَا لُغَةٌ يَمْنِيَّةٌ فِي عَكْلٍ وَعَكٌّ وَطَبِئٌ⁷. وقيل: هو اسم من أسماء

الله تعالى، وقسم أقسم به، وهو مروى عن ابن عباس أيضاً. وقيل: هو اسم للنبي صلى الله عليه وسلم سَمَّاهُ

بِهِ اللَّهُ بَعْدَ كَمَا سَمَّاهُ مُحَمَّدًا، وَرَوَى عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «لِي عِنْدَ رَبِّي عَشْرَةُ أَسْمَاءَ»؛

فذكر منها: "طه ويس"⁸. وقيل: هو اسم للسورة ومفتاح لها. وقيل: إنَّه اختصار من كلام خص الله تعالى

¹ هو عكرمة بن عبد الله مولى عبد الله بن عباس. تابعي مفسر ومحدث. أفتى الناس بأمر من ابن عباس، أخذ نجدة الحروري رأي الخوارج، ونشره بإفريقية. ثم عاد إلى المدينة. فطلبه أميرها، فاختم حتى مات. واتهمه ابن عمر وغيره بالكذب على ابن عباس. وردوا كثيراً من فتاواه. ووثقه آخرون. توفي: سنة 105هـ. ابن خلكان، وفيات الأعيان، 3/ 265. الزركلي، الأعلام، 4/ 244.

² هو محمد بن جرير بن يزيد بن كثير، أبو جعفر. من أهل طرسستان، استوطن بغداد وأقام بها إلى حين وفاته. من أكابر العلماء. كان حافظاً، فقيهاً، عالماً، عارفاً بأيام الناس وأخبارهم. من تصانيفه: اختلاف الفقهاء، كتاب البسيط في الفقه، جامع البيان في تفسير القرآن، التبصير في الأصول. توفي: سنة 310هـ. ابن خلكان، وفيات الأعيان، 4/ 191. الزركلي، الأعلام، 6/ 69.

³ أخرجه جعفر الطبري بنحوه، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، 5/ 16.

⁴ البيت ليزيد بن المهلهل. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 11/ 166.

⁵ أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط1، 1422هـ)، 236/6.

⁶ أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري المفسر المشهور، كان أعلم من كان في زمانه في علم التفسير، ألف التفسير الكبير الذي فاق غيره من التفاسير. وله كتاب العرائس في قصص الأنبياء صلوات الله وسلامه، والثعلبي: لقب له وليس بنسب، توفي: سنة 427هـ. ابن خلكان، وفيات الأعيان، 4/ 79. عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، 2/ 60.

⁷ هي قبيلة عربية مشهورة، تنسب إلى طيب بن أدد، وهي من القبائل القحطانية، كانوا يسكنون في اليمن، ثم خرجوا منها، ونزلوا بنجد والحجاز، و انتشروا في الجزيرة العربية. أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي ثم القاهري، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، (بيروت: دار الكتب العلمية، من دون ذكر طبعة، 2012م)، 1/ 372.

⁸ رواه أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني، دلائل النبوة، باب: ذكر فضيلته صلى الله عليه وسلم بأسمائه، (بيروت: دار النفائس، 1986م)، 1/ 61. وذكره علي بن محمد، أبو الحسن نور الدين القاري، شرح الشفا، باب: في قسمه تعالى بعظيم قدره صلى الله تعالى عليه وسلم، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1421هـ)، 1/ 82، ضعيف.

به رسوله بعلمه. وقيل: إنها حروف مقطعة يدل كل حرف منها على معنى¹. واختلف في ذلك، فقيل: الطاء شجرة طوبى، والهاء النار الهاوية، والعرب تُعَبِّرُ عن الشيء كَلِّه ببعضه؛ كأنه أقسم بالجنة والنار [3/ب]. وقيل: "طاء" يا طامع الشفاعة للأمة، "هاء" يا هادي الخلق إلى الملة. وقيل: "الطاء" من الطهارة، و"الهاء" من الهداية، كأنه يقول لنبيّه: يا طاهراً من الذنوب، يا هادي الخلق إلى علام الغيوب. وقيل: "الطاء" طبول الغزاة، و"الهاء" هيبتهم في قلوب الكافرين، بيانه قوله تعالى: ﴿سَنَلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ [آل عمران: 151]، وقوله: ﴿وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ [الحشر: 2]. وقيل: "الطاء" طرب أهل الجنة، و"الهاء" هوان أهل النار في النار، وقيل: معنى طه: طوبى لمن اهتدى بك، قاله: محمد بن علي بن الحنفية². وقيل: معناه طاء الأرض وذلك أنّ النبي صلى الله عليه وسلم كان يتحمل من مشقة الصلاة حتى كادت قدماه تتورم³ ويحتاج إلى الترويح بين قدميه، فقيل له: طأ الأرض؛ أي: لا تتعب حتى تحتاج إلى الترويح، حكاه ابن الأنباري⁴. وذكر القاضي عياض⁵ في "الشفاء" أنه أمر من الوطاء، والهاء كناية عن الأرض، أي: اعتمد على الأرض بقدميك ولا تتعب نفسك بالاعتماد على قدم واحدة.

¹ الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، 268/18.

² هو محمد بن علي بن أبي طالب، أبو القاسم، المعروف بابن الحنفية. أخو الحسن والحسين من الأب، وأمه خولة بنت جعفر، من بني حنيفة. واسع العلم، من كبار التابعين، سمع عمر بن الخطاب وعثمان رضي الله عنهما. روى عنه بنوه وجماعات من التابعين. توفي سنة 81هـ. الذهبي، سير أعلام النبلاء، 4/ 110-128. الصفدي، الوافي بالوفيات، 12/ 133.

³ أخرجه البخاري، من حديث المغيرة بن شعبة قال: قام النبي صلى الله عليه وسلم حتى تورمت قدماه. صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب: قوله: ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً﴾، 4/ 1830، حديث رقم: 4556.

⁴ هو محمد بن القاسم بن محمد بن بشار بن الحسن بن بيان أبو بكر ابن الأنباري. محدث مفسر لغوي ونحوي، من تصانيفه: عجائب علوم القرآن، غريب الحديث، كتاب الرد على من خالف مصحف عثمان، المشكل في معاني القرآن. توفي: سنة 328هـ. ابن خلكان، وفيات الأعيان، 4/ 341. الزركلي، الأعلام، 6/ 312. الذهبي، سير أعلام النبلاء، 15/ 274.

⁵ هو عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي أبو الفضل، أندلسي الأصل، كان إماماً حافظاً محدثاً فقيهاً. من تصانيفه: التنبهات المستنبطة في شرح مشكلات المدونة في فروع الفقه المالكي، الشفا في حقوق المصطفى، إكمال المعلم في شرح صحيح مسلم، كتاب الإعلام بحدود قواعد الإسلام. توفي: سنة 544هـ. ابن خلكان، وفيات الأعيان، 3/ 483. الزركلي، الأعلام، 5/ 99. الذهبي، سير أعلام النبلاء، 15/ 45.

وعن الربيع بن أنس¹ قال: «كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا صَلَّى قَامَ عَلَى رِجْلِ وَرَفَعَ الْأُخْرَى، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى طَه، يَغْنِي طًا الْأَرْضَ يَا مُحَمَّدٌ ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ [طه: 2]»². ولا خفاء بما في هذا كله من الإكرام وحسن المعاملة. انتهى كلام القرطبي³، وقال الغزنوي في عين المعاني⁴: قال عبد الله بن عمرو⁵: طه أي: يا حبيبي بلغة عكِّ. وقال أبو سهل: قسم بالطاهر الهادي. قال في التحرير والتحبير⁶: والصحيح أن هذه الكلمة عربية بلغة عك وعكل، ومعناها: يا رجل [4/أ]. قال الكلبي⁷: لو قلت في عك لرجل: يا رجل لم يجب حتى تقول طه، قال شاعرهم⁸:

دَعَوْتُ بِطَه فِي الْقِتَالِ فَلَمْ يُجِبْ ... فَخَفْتُ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ مَوَاتِلًا وَيُرَوِّى: مُزَايِلًا.

¹ هو الربيع بن أنس، البصري الخراساني. روى عن أنس بن مالك وغيره. وروى عنه أبو جعفر الرازي والأعمش وآخرون، ذكره ابن حبان في الثقات وقال: الناس يتقون من حديثه ما كان من رواية أبي جعفر عنه، لأن في أحاديثه عنه اضطراباً كثيراً. توفي: سنة 139 وقيل 140هـ. الذهبي، سير أعلام النبلاء، 6/ 306. أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، (الهند، مطبعة دائرة المعارف النظامية، ط1، 1326هـ)، 3/ 238.

² أخرجه القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، 1/ 42. الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 3/ 49. وعزاه السيوطي إلى ابن المنذر، جلال الدين السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، الدر المنثور، (بيروت، دار الفكر)، 5/ 550.

³ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 11/ 165 إلى 167.

⁴ تفسير الغزنوي المسمى: عين المعاني في تفسير الكتاب العزيز والسبع المثاني، لم أجده لأنه مخطوط.

⁵ هو عبد الله بن عمرو بن العاص، صحابي قرشي. أسلم قبل أبيه. غزير العلم. وكان من أكثر الصحابة رواية. روى عن عمر وأبي الدرداء وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم من الصحابة، وحدث عنه بعض الصحابة وعدد كثير من التابعين. استأذن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كتابة ما كان يسمعه منه فأذن له، فكتب. وكان يسمى صحيفته "الصادقة". توفي: سنة 65هـ. ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، 3/ 956. ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، 5/ 337. ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، 4/ 162.

⁶ هذا التفسير مازال مخطوطاً، واسمه: التحرير والتجبير، لأقوال أئمة التفسير، في معاني كلام السميع البصير، وهو: تفسير كبير، في: نيف وخمسين مجلداً لجمال الدين، أبي عبد الله: محمد بن سليمان، المعروف: بابن النقيب المقدسي، الحنفي، وقال الشعرائي: ما طالعت أوسع منه. مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي القسطنطينية المشهور باسم حاجي خليفة أو الحاج خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، (بغداد: مكتبة المثنى، 1941م)، 1/ 358.

⁷ هو أبو النضر محمد بن السائب بن بشر الكلبي المفسر العلامة، وكان أيضاً رأساً في الأنساب إلا أنه شيعي، متروك الحديث. توفي: سنة 146. الذهبي، سير أعلام النبلاء، 6/ 358. ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، 9/ 179.

⁸ البيت لمتّم بن نيرة التميمي، وموائلا: طلب النجاة. والشاهد أن طه هنا بمعنى يارجل. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 11/ 165.

وقال مجاهد¹: كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يربطون الحبال في صدورهم في الصلاة بالليل من طول القيام ثم نسخ ذلك بالفرض فنزلت هذه الآية². وقال الكلبي: لما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم الوحي بمكة اجتهد في العبادة، واشتدت عبادته، فجعل يصلي الليل كله زماناً حتى نزلت هذه الآية، فأمره الله تعالى أن يخفف عن نفسه فيصلح وينام، فنسخت هذه الآية قيام الليل؛ فكان بعد هذه الآية يصلي وينام³.

وقال مقاتل⁴ والضحاك⁵: لما نزل القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم قام هو وأصحابه فصلوا، فقال كفار قريش: ما أنزل الله هذا القرآن على محمد إلا ليشقى، فأنزل الله تعالى: ﴿طه﴾ أي: يا رجل ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ [طه: 2] أي: لتتعب⁶. وقيل: معنى طه: يا بدر؛ لأنَّ الطاء بالجمَل⁷ تسعة، والهاء خمسة تصير أربعة عشر، والبدرُ يكمل عند أربعة عشر، وقد وقع مثله في ﴿الم﴾ وأنظارها، فإنَّ

¹ هو مجاهد بن جبر، أبو الحجاج شيخ المفسرين، ثقة متقن، وأجمعت الأمة على إمامته، أخذ التفسير عن ابن عباس. قال: " قرأت القرآن على ابن عباس ثلاث عرضات أفف عند كل آية أسأله فيم نزلت وكيف كانت "، له: تفسير مجاهد. توفي: سنة 104هـ. الذهبي، تذكرة الحفاظ، 1/ 71. الزركلي، الأعلام، 5/ 278.

² أخرجه مجاهد. أبو الحجاج مجاهد بن جبر التابعي المكي القرشي المخزومي، تفسير مجاهد، (مصر: دار الفكر الإسلامي الحديثة، ط1، 1410هـ) 450، والإسناد ضعيف؛ لضعف عبد الرحمن بن الحسن واتهامه بالكذب.

³ الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، 6/ 237. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 11/ 167.

⁴ هو أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير، الأزدي الخراساني المروزي، أصله من بلخ، دخل بغداد وحدث بها، وكان مشهوراً بالتفسير، وله التفسير المشهور. قال ابن المبارك عنه: ما أحسن تفسيره لو كان ثقة. توفي: سنة 122هـ. ابن خلكان، وفيات الأعيان، 5/ 255. الذهبي، سير أعلام النبلاء، 7/ 201.

⁵ الضحاك بن مزاحم البلخي الخراساني أبو القاسم، مفسر، كان لديه في مدرسته ثلاثة آلاف صبي. قال الذهبي: كان يطوف عليهم، على حمار، له كتاب في (التفسير) توفي بخراسان سنة: 105. عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، 5/ 27. الزركلي، الأعلام، 3/ 213.

⁶ أخرجه الواحددي، أسباب نزول القرآن، 303. ضعيف جداً.

⁷ حساب الجُمَّل (حساب الأبجدية)، على حروف أبجذ أو الحروف الأبجدية، وهي: أبجذ، هوز، حطي، كلم، سَعَفَص، قَرَشَث، نَحْذ، ضَطَّع. هو طريقة حسابية تُوضَع فيها أحرف الهجاء العربية مقابل الأرقام، بمعنى أن يأخذ الحرف الهجائي القيمة الحسابية للعدد الذي يقابله وفق جدول معلوم. يقوم حساب الجُمَّل، وعددها: ثمانية وعشرون حرفاً؛ تسعة منها للأحاد، وتسعة للعشرات، و تسعة للمئات، وحرف للألف. أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخي، تفسير مقاتل بن سليمان، (بيروت: دار إحياء التراث، ط1، 1423هـ)، 28/1.

اليهود سألوا محمداً عن الحروف وحَسَبوها على حساب الجُمَّل. انتهى كلام التحرير والتحبير¹. وقال السلمي في تفسيره: قال ابن عطاء² في قوله: ﴿طه﴾: هديت لبساط القربة والأنس³. وقال الواسطي⁴ في قوله: ﴿طه﴾ قال: هو مستخرج من الطاهر الهادي، أي: أنت طاهر بنا هادٍ إلينا⁵. وقال محمد بن عيسى الهاشمي⁶: أي: طوى عن سرِّ محمد الأكوآن كلها، وهدي إلى الاشتغال بمُكُونِهَا. انتهى كلام السلمي⁷[4/ب].

﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ [طه: 2] إن جعلت ﴿طه﴾ تعديداً لأسماء الحروف فهو ابتداء كلام. وإن جعلتها اسماً للسورة احتملت أن تكون خيراً عنها، وهي -أي: طه- في موضع المبتدأ، والقرآن ظاهر⁸

¹ مجملأ لدى القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 165/11.

² هو أحمد بن محمد بن عبد الكريم، أبو الفضل تاج الدين، ابن عطاء الله الإسكندري، متصوف شاذلي، من العلماء. من أشد خصوم الإسلام ابن تيمية. من تصانيفه: الحكم العطائية في التصوف، تاج العروس في الوصايا والعظايات، لطائف المنن في مناقب المرسي وأبي الحسن تويي بالقاهرة: سنة 709هـ. ابن الملقن سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري، طبقات الأولياء، (القاهرة: مكتبة الخانجي، ط2، 1415 هـ)، 1/214. الزركلي، الأعلام، 1/221.

³ وهو من قول الواسطي نقله عطاء. السلمي، أبي عبد الله محمد بن الحسين بن موسى الأزدي، حقائق التفسير = تفسير القرآن العزيز، (بيروت: دار الكتب العلمية، 2001م)، 434/1.

⁴ هو محمد بن محمد بن سليمان بن الحارث، أبو بكر الواسطي، الأزدي، الباغندي، المحدث، الحافظ الكبير ابن المحدث أبي بكر، ثقة كثير الحديث، وقال الدارقطني: كثير التدليس يحدث بما لم يسمع وربما سرق، قال ابن الخطيب: رأيت كافة شيوخنا يحتجون بحديثه ويخرجونه في الصحيح. من تصانيفه: ما رواه الأكابر عن الأصاغر من الأفراد، مسند عمر بن عبد العزيز، الأمالي، تويي: سنة 312هـ. عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، 11/221. الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/457. الزركلي، الأعلام، 7/19.

⁵ وفي مفاتيح الغيب، هو قول لسعيد بن جبير. الرازي، مفاتيح الغيب، 6/22.

⁶ هو محمد بن عيسى بن محمد بن عبد الله بن عيسى بن عبد الله بن علي بن عباس الهاشمي البياضي يكنى أبا علي، حدث عنه: أبو بكر ابن الأنباري النحوي، ومحمد بن الحسن بن مقسم، وكان ثقة، قتلته القرامطة في سنة أربع وتسعين ومائتين في الحرم في طريق مكة منصرفاً من الحج. ابن حجر، تقريب التهذيب، 501. الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي، تاريخ بغداد، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط1، 1422هـ)، 3/701.

⁷ السلمي، حقائق التفسير، 434/1.

⁸ بمعنى: أن (طه) إذا كان اسماً للسورة كان مبتدأ خيره: (ما أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى)، وبذلك تحتاج لعائد، لأنها وقعت حبراً، وهنا أقيم مقام العائد (الْقُرْآنَ)، وهو إما اسمٌ للسورة، فاستغنى عن الضمير به، أو القرآن كله، فاكتمى عن الضمير بالعموم. شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف)، (ديي: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، ط1، 1434)، 120/10.

أوقع موقع الضمير لأتھا قرآن، وأن يكون جواباً لها وهي قسم¹. قاله الزمخشري² ﴿لَتَشْفَى﴾ [طه: 2] لتتعب لفرط تأسفك عليهم وتحسرك على أن يؤمنوا، أو لقيام الليل، فإنه روي «أنته عليه السلام صلى بالليل حتى تورمت قدماه فقال له جبريل عليه السلام: أبق على نفسك فإن لها عليك حقاً»³، أي: ما أنزلناه لتنهك نفسك بالعبادة وتذيقها المشقة الفادحة وما بُعثت إلا بالحنيفية السمحة. قال النسفي: ذكروا في سبب نزول هذه الآية وجوهاً: أحدها: قال مقاتل⁴: إنَّ أبا جهل والوليد بن المغيرة⁵ ومطعم بن عدي⁶ والنضر بن الحارث⁷ قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّكَ لَتَشْفَى حَيْثُ تَرَكْتَ دِينَ آبَائِكَ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «بَلْ بُعِثْتُ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ» قالوا: بل أنت تشفى»⁸، فأنزل الله هذه الآية رداً

¹ الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 3/ 50.

² هو محمود بن عمر بن محمد بن أحمد، أبو القاسم، الخوارزمي، الزمخشري من كبار المعتزلة. مفسر، محدث، متكلم، نحوي، ولد في زمخش من قرى خوارزم، وقدم بغداد وسمع الحديث وتفقه، ورحل إلى مكة فجاور بها وسمي جار الله. من تصانيفه: الكشاف، الفائق في غريب الحديث، ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، المفصل. توفي: سنة 538هـ. ابن خلكان، وفيات الأعيان، 5/ 168. الذهبي، سير أعلام النبلاء، 20/ 151. ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، 4/ 1558. الزركلي، الأعلام، 8/ 122.

³ لم أجد بنصه، وقد ورد في الحديث عن عائشة قالت «لما كانت ليلة النصف من شعبان-فذكر حديثاً طويلاً-وفيه: فما زال يصلي قائماً وقاعداً حتى أصبح وحتى استغدت قدماه. فقامت أغمزها-الحديث-وليس فيه كلام جبريل. أخرجه أحمد بن الحسين بن علي بن موسى، أبو بكر البيهقي، الدعوات الكبير، (الكويت: غراس للنشر والتوزيع، ط1، 2009م)، 2/ 145، حديث رقم الحديث: 530.

⁴ مقابل، تفسير مقاتل، 3/ 20.

⁵ هو الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو ابن مخزوم، أبو عبد شمس: من قضاة الجاهلية، وزعماء قريش، وكان ممن حرم الخمر في الجاهلية، وضرب ابنه هشاماً على شربها. وأدرك الإسلام وهو شيخ هرم، فعاداه وقاوم دعوته، وهلك بعد الهجرة بثلاثة أشهر، ودفن بالحجون، وهو والد سيف الله خالد ابن الوليد. الزركلي، الأعلام، 7/ 178.

⁶ هو المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف، من قريش: زعيم بني نوفل في حرب الفجار سنة 33 ق هـ، أجاز رسول الله صلى الله عليه وسلم لما انصرف عن أهل الطائف، وكان أحد الذين مزقوا الصحيفة التي كتبها قريش على بني هاشم، وعمي في كبره. مات قبل وقعة بدر، وله بضع وتسعون سنة. الزركلي، الأعلام، 7/ 252.

⁷ هو النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف، من بني عبد الدار، قريشي وصاحب لواء المشركين ببدر. كان من شجعان قريش، وهو أول من غنى على العود بألحان الفرس. وهو ابن خالة النبي صلى الله عليه وسلم ولما ظهر الإسلام استمر على عقيدة الجاهلية وأدى رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيراً. وكان إذا جلس النبي مجلساً للتكبير بالله والتحذير من مثل ما أصاب الأمم الخالية من نقمة الله، جلس النضر بعده فحدث قريشاً بأخبار ملوك فارس ورستم وإسفنديار، ويقول: أنا أحسن منه حديثاً! إنما يأتيكم محمد بأساطير الأولين وشهد وقعة " بدر " مع مشركي قريش، فأسره المسلمون، وقتلوه. ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، 5/ 301. الزركلي، الأعلام، 8/ 33/

⁸ ذكره الواحدي، أسباب نزول القرآن، 303، ومقاتل متأخر من الذين عاصروا صغار التابعين، لذا ففيه انقطاع.

عليهم وتعريفاً لمحمد صلى الله عليه وسلم بأن دين الإسلام هو السلام، وهذا القرآن هو السلام إلى نيل كل فوز، والسبب في إدراك كل سعادة، وما فيه الكفرة هو الشقاوة بعينها، وثانيها: أنه عليه السلام صلى بالليل حتى تورمت قدماه، فقال له جبريل عليه السلام: «أَبَقِ عَلَى نَفْسِكَ، فَإِنَّ لَهَا عَلَيْكَ حَقًّا»¹، أي: ما أنزلناه لِنْتَهَاكَ نَفْسَكَ بِالْعِبَادَةِ وَمَا بُعِثْتَ إِلَّا بِالْخِنْفِيَةِ السَّمْحَةِ. وقيل: إِنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَسْهَرُ طَوْلَ اللَّيْلِ، فَأَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿لِتَشْقَى﴾ ذلك. قال القاضي²: وهذا بعيد، لأنه صلى الله عليه وسلم ما فعل ذلك إلا بأمر الله، وإذا كان بأمره فلا يصح أن يقال: ما أمرناك بذلك. وثالثها: قال بعضهم: يحتمل أن يكون المراد لا تشقَّ على نفسك [5/أ] ولا تُعَدِّبْهَا بِالْأَسْفِ عَلَى كَفْرِ هَؤُلَاءِ، فَإِنَّمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتُذَكِّرَ بِهِ، فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يُحْزِنُكَ كَفْرُهُ، فَمَا عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ. ورابعها: أنه لا يلام على كفر قومه، كقوله: ﴿لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُسَيِّرٍ﴾ [الغاشية: 22]، و﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام: 107]، أي: ليس عليك كفرهم إذا بلغت³. وخامسها: أن هذه السورة من أوائل ما نزلت بمكة، وفي ذلك الوقت كان عليه السلام مقهوراً تحت ذلِّ أعدائه، فكأنه سبحانه قال: لا تظن أنك تبقى أبداً على هذه الحالة، فإنما ما أنزلنا عليك هذا القرآن لتشقى، بل تصير معظماً مُكْرَماً، ولتُعزِّكَ ونفتح عليك البلاد. ووصل هذا بقصة موسى لأنه قاسى من قومه شديداً، ثم كانت النصرة له عليهم من بعد⁴.

﴿إِلَّا تَذَكُّرَةً﴾ [طه: 3] استثناء منقطع، أي: لكن أنزلناه تذكرة، أو حال ﴿لِمَنْ يَخْشَى﴾ [طه: 3]، أي: لمن يخاف الله، أو لمن يؤول أمره إلى الخشية⁵، ونظيره: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مِّنْ يَّخْشَاهَا﴾

¹ تقدم الكلام عنه.

² القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، 42/1.

³ في مفاتيح الغيب: ولا تؤاخذ بذنبهم. الرازي، مفاتيح الغيب، 7/22.

⁴ الرازي، مفاتيح الغيب، 7-6/22.

⁵ النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 356/2.

[النازعات: 45]، وقوله: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: 45]، وقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبِ﴾ [يس: 11]، وخصَّ من يخشى بالذكر لأهم أكثر استعداداً لقبول التذكرة والرجوع إلى الموعظة، قال جعفر¹: أنزل الله القرآن موعظةً للخائفين، ورحمةً للمؤمنين، وأنساً للمحبين². ﴿تَنْزِيلًا﴾ [طه: 4] بدل من³ تذكرة إذا جعل حالاً، لا إذا كان مفعولاً له؛ لأنَّ الشيء لا يُعَلَّلُ بنفسه⁴، ويجوز أن ينتصب بـ "نُزِّلَ" مضمراً، وأن يُنصَبَ على المدح، وأن يُنصَبَ بيخشى مفعولاً به، أي: أنزله الله تذكرة لمن يخشى تنزيل الله، وهو معنى حسنٌ وإعرابٌ بين⁵. ﴿مَنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى﴾ [طه: 4] من يتعلق بـ (تَنْزِيلًا) صلة له⁶. قال القشيري⁷: جعل الأرض قراراً لعباده، ونفوس العابدين أرض وقرار لطاعتهم، وقلوب العارفين قرار لمعارفهم⁸. قال الزمخشري: فإن قلت: ما فائدة الانتقال من لفظ المتكلم [5/ب] إلى لفظ الغائب؟ قلت: غير واحدة، منها عادة الافتتان في الكلام وما

1 أي: جعفر الصادق.

2 السلمي، حقائق التفسير، 435/1.

3 الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 51/3.

4 المعنى: أن تذكرةً علةً لأنزلنا، ولو أبدل تنزيلاً عنه، رجع إلى كونه علةً لـ (أنزلنا)، فيلزم تعليل الشيء بنفسه. الطيبي، حاشية الطيبي على الكشاف، 126/10.

5 لأن المعنى: ما أنزلنا عليك القرآن إلا تذكيراً لمن يخشى المنزل الذي شأنه أنه من جهة القادر العظيم، فإذا خشيه بدَّل الكفر إيماناً، والعصيان طاعةً، ولا يتقدم على التكذيب والارتباب. المصدر نفسه.

6 النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 357/2.

7 هو عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة، أبو القاسم، النيسابوري، القشيري الشافعي. زين الإسلام، شيخ خراسان في عصره، حافظ، محدث، فقيه، أصولي، مفسر، متكلم، من تصانيفه: التيسير في التفسير، الرسالة القشيرية، لطائف الإشارات. توفي: سنة 456. ابن

الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، 5/301. الذهبي، سير أعلام النبلاء، 13/395. الزركلي، الأعلام، 4/57.

8 القشيري، تفسير القشيري (المسمى لطائف الإشارات)، 2/253.

يعطيه من الحُسن والرَّوَعَة. ومنها: أنَّ هذه الصفات¹ إنما تَسَرَّدَتْ مع لفظ الغيبة². ومنها: أنَّه قال أولاً: أنزلنا فَفَحَّمْ بالإسناد إلى ضمير الواحد المُطَاع، ثم ثنَّى بالنسبة إلى المختص بصفات العظمة والتمجيد، فضوعفت الفخامة من طريقين. انتهى³. قال الإمام فخر الدين⁴: إنَّه تعالى عَظَّمَ حال القرآن بأنَّ نسبه إلى تنزيل ممن خَلَق الأرض وخالق السموات على علوها، وإنما قال ذلك لأنَّ تعظيم الله تعالى بتعظيم خلقه ونعمه، وإنما عَظَّمَ القرآن ترغيباً في تدبره، والتأمل في معانيه وحقائقه، وذلك معتاد في الشاهد، فإنَّ تعظيم الرسالة بعظم حال المرسل. انتهى⁵. ﴿الْعَلَى﴾ [طه: 4] جمع العُلَيَّا تأنيث الأعلى، قال في التحرير والتحرير: ﴿تنزيلاً﴾ تقدير الكلام تنزيلاً من إله خلق الأرض وخلق السموات العلا بقدرته وحكمته⁶. قال الرمخشري: وصفُ السموات بالعلَى: دلالة على عظم قدرة من يخلق مثلها في علوها وبعدها مرتفاها⁷. ﴿الرَّحْمَنُ﴾ [طه: 5] على المدح، أي: هو الرحمن ﴿عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: 5] استولى، ونبه بذكر العرش، وهو أعظم المخلوقات على غيره⁸. قال حافظ الدين النسفي⁹ في العقيدة: إنَّه تعالى ليس بمتمكن

¹ أي قوله تعالى: ﴿وَالسَّمُوتِ الْعَلَى ۚ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ۗ لَهُ مَا فِي السَّمُوتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ۚ وَإِنْ يَجْهَر بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ۗ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۚ﴾ [طه: 4-8].

² أي: أنَّه ما انتقل من ضمير المتكلم إلى ضمير الغيبة كما عليه ظاهر الالتفات، وإنما انتقل منه إلى ما من حقه أن يكون على لفظ الغيبة، وهو المظهر، كما في هذه الآية من لفظ الرسول، فهو في الحقيقة من وضع المظهر موضع المضمَر لتوخي بيان العلة. الطيبي، حاشية الطيبي على الكشاف، 10/127.

³ الرمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 3/51.

⁴ هو محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن، الرازي، فخر الدين، أبو عبد الله، المعروف بابن الخطيب. من ولد أبي بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. ولد بالري وإليها نسبته، وأصله من طبرستان. فقيه وأصولي شافعي، متكلم، مفسر، من تصانيفه: معالم الأصول، المحصول في أصول الفقه. توفي: سنة: 606هـ. ابن الأثير، 301. ابن خلكان، وفيات الأعيان، 4/249 - 250. السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، 8/82-83. الزركلي، الأعلام، 6/313.

⁵ الرازي، مفاتيح الغيب، 7/22.

⁶ المصدر نفسه.

⁷ الرمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 3/51.

⁸ نقلاً عن الزجاج، النسفي، مدارك التنزيل، 2/357.

⁹ هو عبد الله بن أحمد بن محمود، أبو البركات حافظ الدين النسفي من أهل "إبزج" من كور "أصبهان". فقيه حنفي كان إماماً علامة في الفقه والأصول والحديث، عُدَّ من المجتهدين في المذهب. من تصانيفه: كنز الدقائق، الوافي في الفروع، الكافي في شرح الوافي، والمنار في أصول الفقه. توفي: سنة 701هـ. حاجي خليفة، سلم الوصول إلى طبقات الفحول، 2/203. الزركلي، الأعلام، 4/57.

في مكان، وعند المشبهة¹ والكرامية² متمكن على العرش، دليلنا: أنّ التعري عن المكان ثابت في الأزل لعدم قدم المكان، فلو تمكن بعد خلق المكان لتغير، ولحدثت فيه مماسمة، والتغير وقبول الحوادث من أمارات الحدث، وذا مستحيل على القديم، وأمّا قوله تعالى: ﴿عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: 5] فالنص محتمل، إذ الاستواء [6/أ] يذكر للتمام، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى﴾ [القصص: 14] أي: تم، والاستواء كما يقال: استوى الملك على البلد أي: استولى، والاستقرار كما قال تعالى: ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ [هود: 44] أي: استقرت، ويقال: استوى على ظهر دابته أي: استقر، فلا يكون حجة مع الاحتمال؛ لأنّ المحتمل لا يكون حجة في المظنونات، فكيف يكون حجة في الاعتقادات، مع أنّ الترجيح³ للاستيلاء؛ لأنّه تعالى تمدّح به، والاستواء للمدح فيما بيّنأ يفهم منه الاستيلاء، كقول الشاعر⁴ في بشر بن مروان⁵:

قد استوى بشرٌ على العِراقِ ... من غيرِ سيفٍ ودمٍ مُهْرَاقِ

1 هم الذين يشبهون صفات الله بصفات خلقه، فيقولون مثلاً لله سمع كسمع البشر. عبد القاهر بن طاهر بن محمد بن عبد الله البغدادي التميمي الأسفراييني، الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية، (بيروت: دار الآفاق الجديدة، ط2، 1977م)، 214.

2 هم أتباع أبي عبد الله محمد بن كرام السجستاني، لهم بدع كثيرة، منها: القول بالتجسيم و بالإرجاء، فهم يوافقون السلف في إثبات الصفات ولكنهم يبالغون في ذلك إلى حد التشبيه والتجسيم. المصدر نفسه، 137. أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني، الملل والنحل، (مصر: مؤسسة الحلبي، بدون ذكر طبعة، 1387)، 108/1.

3 أي الترجيح استقر للاستيلاء.

4 فكان المراد به استولى على العرش، وتخصيصه باعتبار أنه اعظم المخلوقات. النسفي، أبو البركات حافظ الدين عبد الله بن أحمد بن محمود، شرح العمدة في عقيدة أهل السنة والجماعة المسمى الاعتماد في الاعتقاد. (القاهرة: المكتبة الأزهرية للتراث، ط1، 1432هـ)، 166.

5 هو: بشر بن مروان بن الحكم الأموي القُرشي أخو عبد الملك بن مروان. أحد أمراء بني أمية، كان والياً على العراق من قبل أخيه، مات بالبصرة: 75هـ، والشاهد استوى: بمعنى استولى. مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير، جامع الأصول في أحاديث الرسول، (بيروت: دار الفكر، ط1، 1985م)، 217/12. الزركلي، الأعلام، 55/2.

قال حافظ الدين: وقد تمسكت المجسمة¹ بظواهر النصوص والأخبار، ومذهب السلف²: أن نصدقها، ونفوض تأويلها إلى الله تعالى مع التنويه عن التشبيه، والخلف³: أن نؤولها بما يليق به تعالى، ولا نقطع بأنه مراد الله تعالى، والأول أسلم⁴، والثاني أحكم⁵. وقال الزمخشري: لما كان الاستواء على العرش وهو سرير الملك مما يردف الملك، جعلوه كناية عن الملك، فقالوا: استوى فلان على العرش، يريدون ملك، وإن لم يقعد على السرير البتة، قالوه أيضاً لشهرته في ذلك المعنى، ومساواته ملك في مؤداه، وإن كان أشرح وأبسط وأدل على صورة الأمر، ونحوه قولك: يد فلان مبسوطة، ويد فلان مغلولة، يعني: أنه جواد أو بخيل، لا فرق بين العبارتين إلا فيما قلت، حتى أن من لم ييسط يده قط بالنوال، أو لم تكن له يد رأساً قيل فيه: يده مبسوطة؛ لمساواته عندهم قولهم جواد. ومنه قول الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: 64] أي: هو جواد، من غير تصور يد ولا عُـلٍ ولا بَسْط، والتفسير بالنعمة والتمحل للتثنية⁶ من ضَيْقِ الْعَطْنِ⁷، والمسافرة عن

¹ هم الذين يشبهونه سبحانه بالمخلوقات، ويصفونه بأن له جسماً وأعضاء وغير ذلك، تعالى الله عما يقولون. أبو الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، (بيروت: المكتبة العصرية، ط1، 1426هـ)، 173/1.

² هم العلماء السادة الأخيار الوارثون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الحقائق والمعارف والعقائد إلى نهاية المائة الثالثة من الهجرة النبوية. أبو عبد الله، محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكنايني الحموي الشافعي، بدر الدين، إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل، (مصر: دار السلام للطباعة والنشر، ط1، 1410هـ)، 40.

³ هم الطائفة الكبيرة من علماء الدين الذين جاءوا بعد المائة الثالثة، فقالوا في آيات الصفات وأحاديثها تأويلاً تفصيلياً لما أجمل السلف القول فيه، مع تنزيه الله تعالى عن مشابهاة الخلق. المصدر نفسه، 49.

⁴ ومن قال: أن مذهب الخلف أحكم، فهو بالنسبة إلى الرد على من لم يكن مؤمناً، فيحتاج من يريد رجوعه إلى الحق أن يقيم عليه الأدلة حتى يذعن إلى الحق، وإلا فطريق السلف أسهل. أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، فتح الباري شرح صحيح البخاري، (بيروت: دار المعرفة، من دون رقم طبعة، 1379هـ)، 351/13.

⁵ النسفي، الاعتماد في الاعتقاد، 164-165.

⁶ معنى اليد: النعمة، بمعنى (يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ) [المائدة: 64]: نعمة الله مقبوضة، ومعنى (يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ): نعمته في الدنيا ونعمته في الآخرة. الطبي، حاشية الطبي على الكشاف، 129/10.

⁷ الْعَطْنُ: مبرك الإبل حول الماء، وقد عطنت الإبل على الماء؛ إذا سقيت ثم أحميت في عطنها لتعود فتشرب. الأزهرى، تهذيب اللغة، 104/2.

علم البيان مسيرة أعوام¹. وقال حافظ الدين في المدارك: والمذهب قول علي² رضي الله عنه: الاستواء غير مجهول، والتكليف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة؛ لأنه تعالى كان ولا مكان، فهو على ما كان قبل خلق المكان، لم يتغير عما كان، انتهى³. وقال فارس⁴: ليس على الكون من الله أثر، ولا من الكون على الله أثر، وقال القشيري: عرشه في السماء معلوم، وعرشه في الأرض قلوب الموحدين، قال الله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: 27] وعرش القلوب ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الإسراء: 70] أما عرش السماء فالرحمن على العرش استوى، وعرش القلوب فإنَّ الرحمن عليه استوى، وعرش السماء قبلة دعاء الخلق، وعرش القلب محل نظر الرحمن، كذا في التحرير والتحبير⁵.

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [طه: 6] خبر مبتدئ ومعطوف ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [طه: 6] أي: ذلك كله ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ [طه: 6] تقدير الكلام: له ملك ما في السموات وملك ما في الأرض وملك ما بينهما، وعلم ما تحت الثرى، وخصَّ السموات والأرض بالذكر؛ لأنَّهما أعظم ما شاهدناه من مخلوقاته، وإنما خصَّ ما تحت الثرى بالذكر؛ لأنَّه لا يعلم ما تحت الثرى إلا هو سبحانه، قسَّم الأمكنة هاهنا كما قسَّم الأزمنة في سورة مريم، ولم يذكر الفوق لأنَّ التحت كلُّ عليه. وقال في التحرير والتحبير: القسمة تقتضي أن يكون له ما في السموات وما فوقها والأرض [أ/7] وما تحت الثرى وما

¹ الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 3/ 52.

² هو علي بن أبي طالب، أمير المؤمنين. ورابع الخلفاء الراشدين، وأحد العشرة المبشرين بالجنة. زوج فاطمة رضي الله عنها. ولي الخلافة بعد مقتل أمير المؤمنين عثمان، كانت الخوارج والشيعية فيه بين مكفر ومغال حتى رفعوه إلى مقام الألوهية. ينسب إليه "نهج البلاغة" وهو مجموعة خطب وحكم، ويشك في صحة نسبته إليه. توفي: سنة 40هـ. ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، 3/ 1089.

الزركلي، الأعلام، 4/ 295.

³ النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 5/ 357.

⁴ لم أهدى إلى ترجمته.

⁵ القشيري، لطائف الإشارات، 2/ 253.

بينهما، وإنما ترك ذكر ما فوقها لدلالة قوله: ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ فَإِنَّ التَّحْتِيَّةَ تَقْتَضِي الفوقية، أو لأنَّ ما فوق السماء خلائاً على قول من قال: الخلاء والملاء، فهذا لم يتعرض لذكره، واختلف المفسرون في المراد بهذه القسمة، هل المراد معرفة جميع المخلوقات والعلم بها، أو الاختصاص بها والملك لها؟ فقال جماعة من المفسرين: إِنَّ له ما في السموات وما في الأرض وما بين ذلك ملكاً وقهراً، وقال قوم من أهل العلم: أراد أن علمه محيط بجميع ذلك؛ لأنه بارئها ومنشئها، لما علم من الحكمة والمصلحة، وقال قوم: له ما في السموات وما في الأرض إنه يرجع إلى ملكه يوم القيامة حين تنقطع أملاك المالكين، فَإِنَّ الله تعالى ملك ما في الأرض بما فيها من الإنس والجن وما في السموات بمن فيها من الملائكة، ويوم القيامة ترجع هذه الأملاك كلها له وتصير إليه ملكها ومالكها، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الانعام: 94]، وكما قال تعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر: 16] فلا يجيب أحد، فيجيب نفسه بنفسه، فيقول: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: 16] وقوله: ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ الثرى: التراب الندي، والمراد به ما تحت الأرض السابعة، وقيل: المراد الصخرة التي تحت الأرض السابعة وهي صخرة خضراء لا يعلم ما تحتها إلا الله تعالى¹. وعن السُّدِّي² أنه السجّين الذي فيه الكتاب المرقوم للفرجار. قال في التحرير والتجوير: وقد حكى المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ أحاديث، ونقلوا أخباراً لم يستقر شيء منها من وجه صحيح، قالوا: يريد ما تحت الصخرة التي لا يعلم ما تحتها إلا الله تعالى. [7/ب] وحكوا عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: الأرض على نون، والنون

¹ نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري، غرائب القرآن ورجائب الفرقان، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1/1414هـ)، 516/4.

² هو إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة، أبو محمد، السُّدِّي، نسبة إلى سُدة مسجد الكوفة، من أهل الكوفة. تابعي رُمي بالتشيع، كان عارفاً بالوقائع وأيام الناس والتفسير، من مصنفاته: تفسير القرآن. توفي: سنة 127هـ. شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْمَاز الذهبي، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، (بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر، ط1، 1382هـ)، 1/236. ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، 1/315.

على البحر، وإنَّ طرفي النون رأسه وذنبه يلتقيان تحت العرش، والبحر على صخرة خضراء خضرة السماء منها، وهي التي قال الله تعالى فيها: ﴿فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾ [لقمان: 16]، والصخرة على قرن، والثور على الثرى ولا يعلم ما تحت الثرى إلا الله تعالى¹. وقال وهب بن منبه²: على وجه الأرض سبعة أبحر، والأرضون سبع، بين كل أرضين بحر، فالبحر الأسفل مُطْبِقٌ على سفير جهنم، ولولا عظمة وكثرة مائه وبرْدُهُ لأحرقت جهنم كل من عليها. قال: وجهنم على متن الرياح والريح على حجاب من الظلمة لا يعلم غلظه إلا الله تعالى، وذلك الحجاب على الثرى، وإلى الثرى انتهى علم الخلائق، وحكوا عن كعب³ أنه سئل ما تحت الأرض؟ قال ما قيل، فما تحت الماء؟ قال: أرض، قيل: فما تحت الأرض؟ قال: ماء حتى يبلغ سبع أرضين، قيل له: ما تحت الأرض السابعة؟ قال ما قيل، وما تحت الماء؟ قال: صخرة، قيل: فما تحت الصخرة؟ قال: هي على منكب ملك، قيل: فما تحت الملك؟ قال: هو قائم على وسط حوت معلق طرفاه بالعرش، قيل: فما تحت الحوت؟ قال: هواء وظلمات وانقطع العلم⁴. وروى عن كعب الأحبار قال: إنَّ إبليس تغلغل إلى الحوت الذي على ظهره الأرضون كلها، ووصل إلى قلبه فقال: هل ترى ما على ظهرك الدنيا بما فيها من الأبحر والشجر والدواب والناس والجبال

¹ إنَّ هذه الرواية وأمثالها رواها عن ابن عباس رواة غير ثقات وقد تكلم العلماء فيها.

² وهب بن منبه الأبتاوي الصنعاني الدماري، أبو عبد الله، تابعي، مؤرخ، كثير الإخبار عن الكتب القديمة وعن أساطير الأولين. أصله من أبناء الفرس، ولد ومات بصنعاء، وولاه عمر بن عبد قضاءها العزيز. من مصنفاته: ذكر الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأشعارهم، قصص الأنبياء، قصص الأخيار، توفى: سنة 654هـ. يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف، أبو الحجاج، جمال الدين ابن الزكي أبي محمد القضاعي الكلبي المزني، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1، 1400هـ)، 31/ 141. الزركلي، الأعلام، 8/ 125.

³ هو كعب بن ماتع بن ذي هجن الحميري، أبو إسحاق، تابعي، كان من كبار علماء اليهود في اليمن، أسلم في زمن أبي بكر، وقدم المدينة في دولة عمر، فأخذ عنه الصحابة وغيرهم أخبار الأمم الغابرة، وأخذ هو من الكتاب والسنة عن الصحابة. وخرج إلى الشام، فسكن حمص، وتوفى فيها، عن مئة وأربع سنين. الذهبي، سير أعلام النبلاء، 4/ 472. الزركلي، الأعلام، 5/ 228.

⁴ أخرجه ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 242/5. وذكره أبو محمد مكي بن أبي طالب حَمَوْش بن محمد بن مختار القيسسي القيرواني ثم الأندلسي القرطبي المالكي، الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه، (جامعة الشارقة: مجموعة بحوث الكتاب والسنة - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، ط1، 1429هـ)، 7/ 4613.

لو ألقيتهم عن ظهرك كلهم، فإن فيهم قوماً تفعل كذا، فبعث الله دابة فدخلت في منخره حتى دخلت دماغه فعَجَّ إلى الله منها فخرجت¹. قال: وكان كعب [8/أ] يقول: والذي نفسي بيده إنَّه لينظر إليها بين يديه وتنظر إليه إن همَّ بشيء من ذلك عادت حيث كانت². وقال صاحب التحرير: وإنما ذكرتُ هذه الأقوال لئلا يعتقد صحتها ويعوّل عليها. انتهى كلامه. وقد ذكر هذه الأقوال القرطبي في تفسيره³. وقال الشيخ كمال الدين الدميري⁴ في حياة الحيوان في الكلام على الثور: قال وهب بن منبه: كانت الأرض كالسفينة، فخلق الله ملكاً في نهاية العظم والقوة، وأمره أن يدخل تحتها، ويجعلها على منكبيه، فأخرج يداً من المشرق ويدياً من المغرب وقبض على أطراف الأرض فأمسكها ثم لم يكن لقدميه قرار، فخلق الله تعالى صخرة من ياقوتة حمراء، في وسطها سبعة آلاف ثقب، يخرج من كل ثقب شجر لا يعلم عظمه إلا الله تعالى، ثم أمر الصخرة حتى دخلت تحت قدمي الملك، ثم لم يكن للصخرة قرار، فخلق الله تعالى ثوراً عظيماً له أربعة آلاف عين، ومثلها آذان، ومثلها أنوف وأفواه وألسنة، وقوائم ما بين كل اثنتين منها مسيرة خمسمئة عام، أمر الله تعالى هذا الثور ودخل تحت الصخرة فحملها على ظهره، واسم هذا الثور "كَيُوثا"، ثم لم يكن للثور قرار، فخلق الله تعالى حوتاً عظيماً، لا يقدر أحد ينظر إليه لعظمه وبريق عينيه وكبرهما، حتى قيل: لو وضعت البحار كلها في إحدى مناخره لكانت كخردلة في فلاة، فأمر الله تعالى الحوت أن

¹ ابن أبي الدنيا أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي، العقوبات، (بيروت: دار ابن حزم، ط1، 1416)، 207، برقم: 324. أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، (بيروت: دار الكتب العلمية ط ١٤٠٩هـ)، 8/6.

² أبو نعيم، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، 8/6.

³ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 11/169-170.

⁴ هو محمد بن موسى بن عيسى بن علي الكمال، أبو البقاء، الدميري الأصل، فقيه شافعي، مفسر وأديب. قال الشوكاني: "برع في التفسير والحديث والفقه وأصوله والعربية والأدب وغير ذلك". من تصانيفه: النجم الوهاج شرح منهاج الطالبين، الديباج شرح سنن ابن ماجه، حياة الحيوان الكبرى، شرح المعلقات السبع. توفي: سنة 808هـ. السخاوي، شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، (بيروت، دار مكتبة الحياة، ط1، 1412)، 10/59. الزركلي، الأعلام، 7/118/.

يكون قواماً لقوائم الثور، واسم الحوت "بَهْمُوت"، ثم جعل قراره الماء وتحت الماء الهوى وتحت الهوى ماء وتحت الماء ظلمات، ثم انقطع علم الخلائق عما تحت الظلمات، هكذا نقله القاضي شهاب الدين ابن فضل الله¹ [8/ب] في كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار في الجزء الثالث والعشرين منه². قال السهيلي³: وهذا الحوت هو الذي يُنحر لأهل الجنة قبل أن يدخلوا الجنة، فيأكلون من كبده. وفيه من باب التذکر والاعتبار أنَّ الحوت لما كان عليه قرار هذه الأرض وهو حيوان سابع، استشعر أهل هذه الدار أنهم في منزل بُلُغَة وليست بدار قرار، فإذا نُحِر لهم قبل أن يدخلوا الجنة فأكلوا من كبده كان في ذلك إشعارٌ لهم بالراحة من دار الزوال، وأنهم قد صاروا إلى دار القرار، كما يُذبح لهم الكبش الأملح على الصراط ليعلموا أنه لا موت. وورد في الحديث أنَّ الشهداء حين يدخلون الجنة يُجْرَج لهم حوتٌ وثور من الجنة فيُنحر لهم الثور⁴، والحكمة في ذلك أن الثور آلة الحرث، وأهل الدنيا لا يخلون من أحد هذين

¹ هو أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي العدوي العمري، شهاب الدين: مؤرخ، حجة في معرفة الممالك والمسالك وخطوط الأقاليم والبلدان، عارف بأخبار رجال عصره وتراجمهم، غزير المعرفة بالتاريخ ولا سيما تاريخ ملوك المغول من عهد جنكيزخان إلى عصره. مولده ومنتشأه ووفاته في دمشق. من مصنفاته: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، مختصر قلائد العقيان، ممالك عباد الصليب، الدائرة بين مكة والبلاد، التعريف بالمصطلح الشريف. توفي: 749هـ. عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، 2/ 204. الزركلي، الأعلام، 1/ 268.

² شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي العدوي العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، (أبو ظبي: المجمع الثقافي، ط1، 1423 هـ)، 22/369. الديميري، أبو البقاء، كمال الدين الشافعي محمد بن موسى بن عيسى بن علي، حياة الحيوان الكبرى، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط2، 1424هـ)، 1/260.

³ هو عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أصبغ، أبو القاسم، الخنعمي، السهيلي، الأندلسي، المالكي، المحدث، الحافظ، المؤرخ، المقرئ. من تصانيفه: التعريف والإعلام فيما أجم في القرآن من الأسماء والأعلام، القصيدة العينية، الروض الأنف، نتائج الفكر، شرح آية الوصية في الفرائض، مسألة رؤية الله عزَّ وجلَّ في المنام. توفي: سنة 581هـ. عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، 5/ 147. الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَائمَز الذهبي، تذكرة الحفاظ، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1419هـ)، 4/ 96. 108.

⁴ روى مسلم من حديث ثوبان أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سئل من اليهودي: فما تحفتهم حين يدخلون الجنة؟ قال "زيادة كبد النون" قال: فما غذاؤهم على إثرها؟ قال "ينحر لهم ثور الجنة الذي كان يأكل من أطرافها. وتمامه لدى مسلم، صحيح مسلم، كتاب الحيض، باب بيان صفة مني الرجل والمرأة وأن الولد مخلوق من مائهما، 252/1، حديث رقم: 315.

الحرثين، حَزَّتْ لَدَنِيَاهُمْ، وحرث لأخراهم، ففي نحر الثور هناك إشعار بإراحتهم من الكدَّين، وفراغهم من نصب الحرثين. انتهى كلام السهيلي¹.

﴿وَأِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ﴾ [طه: 7] ترفع صوتك به ﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ﴾ [طه: 7] ما أسرته إلى غيرك ﴿وَأَخْفَى﴾ [طه: 7] منه، وهو ما أخطرت به بالك، أو ما أسرته في نفسك، وأخفى منه، وهو ما سُسِرُهُ فيها. وعن بعضهم: أَنَّ "أَخْفَى": فعلٌ، يعني أنه يعلم أسرار العباد وأخفى عنهم ما يعلمه هو، كقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: 110]، وليس هذا القول بذاك، قاله الزمخشري². قال القرطبي: أنت تعلم ما تسر به نفسك اليوم، ولا تعلم ما تُسِرُّ به غداً، والله يعلم ما أسرت اليوم وما تُسِرُّ به غداً، والمعنى: الله يعلم السر وأخفى ما خَفِيَ على ابن آدم مما هو فاعله، وهو لا يعلمه، فالله يعلم [9/أ] ذلك كله، وعلمه فيما مضى من ذلك وما يُستقبل علم واحد، وجميع المخلوقات في علمه كَنَفْسٍ واحد، انتهى³. قال في التحرير والتجوير: الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم في قوله: ﴿وَأِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ﴾ فإنه كان إذا صلى تلك الصلاة التي تورمت فيها قدماه، ورفع صوته فيها بالقراءة، وجهر بما يتأذى المشركون من ذلك؛ لأنَّ في قراءته تسفية أحلامهم، وسبب آهتهم، وبيان فساد معتقدتهم، فأخذوا في أذاه وبالغوا وسبَّوه وسبوا دينه وقراءته، فأمره الله تعالى بالقراءة سرّاً، فإنَّ الجهر إنما يكون لمن لا يسمع ولا يعلم، والله تعالى يعلم ويسمع، فالسر والجهر عنده سواء. قال في التحرير: وقال مجاهد: السِّرُّ: العمل بالذي يُسرّه الإنسان وأخفى منه الوسوسة⁴. وقيل: السِّرُّ هو العزيمة، وأخفى: ما يخطر على القلب

¹ السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي، الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط1، 1421هـ)، 64/6.

² الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 3/ 52.

³ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 11/ 170.

⁴ مجاهد، تفسير مجاهد، 460.

ولم يُعزم عليه¹، وفي الكلام محذوف تقديره: يعلم السر وأخفى من السر²، وجواب الشرط محذوف أيضاً تقديره: وإن تجهر بالقول تؤذى، فلا حاجة لك به، فإني أعلم السر وأخفى. قال صاحب التحرير: وهذه الأقوال متداخلة متقاربة في المعنى يجمعها ثلاثة أقوال: أحدها: أن الجهر ما زُفِعَ الصوت به ليسمعك من إلى جانبك، وأخفى أن يُتكلم به من غير أن يسمع أحد. الثاني: أن السِّرَّ ما حدثت به غيرك حديثاً خفياً، وأخفى منه ما حدثت به نفسك. الثالث: أن السِّرَّ ما حدثت به نفسك، والجهر ما حدثت به الناس³. قال الإمام فخر الدين: اعلم أن الله سبحانه وتعالى عالم لذاته وعالم لكل المعلومات في كل الأوقات، وعالم بكل المعلومات بعلم واحد، وذلك العلم غير متغيّر، وذلك العلم من لوازم ذاته من غير أن يكون [9/ب] موصوفاً بالحدوث أو الإمكان، والعبد لا يشارك الربَّ إلا في السدس الأول⁴، فإنه قسّم إلى ستة أقسام، ثلاثة وأضدادها وهو أصل العلم، ثم هذا السدس بينه وبين عباده نصفان، فخمسة دونيق ونصف جزء من العلم مُسَلَّمٌ له، والجزء الواحد مُسَلَّمٌ لعباده، ثم هذا الجزء الواحد مشترك بين الخلائق كلهم، من الملائكة الكَرُوبِيَّة⁵، والروحية، وحملة العرش، وسكان السموات، وملائكة الرحمة، وملائكة العذاب، وكذا جميع الأنبياء الذين أولهم آدم وآخرهم النبي صلى الله عليه وسلم، وكذا جميع الخلائق في علومهم الضرورية والكسبية والحرف والصناعات وجميع الحيوانات في إدراكاتها، والاهتداء إلى مصالحها في أغذيتها ومنافعها ومضارها، فالحاصل لك من ذلك الجزء أقل من الذرَّة، ثم إنَّك بتلك الذرة تعلم أسرار إلهيته وصفاته الجائزة والواجبة والمستحبة، فإذا كنت بهذه الذرة عرفت الأسرار، فكيف يكون علمه

¹ البغوي، معالم التنزيل، 256/3.

² الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، 274/18.

³ المصدر نفسه، 273/18.

⁴ بنى هذه القسمة السداسية من تقسيمه للأشياء إلى ثلاثة أقسام الجهر والسر والأخفى.

⁵ هم سادة الملائكة والمقربين إلى حملة العرش، ومنهم: جبريل وميكائيل وإسرافيل، وهو من الكرب بمعنى القرب. محمّد مرتضى الحسيني الرِّيَدي، تاج العروس من جواهر القاموس، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت، ط2، 1987م)، 139/4.

بخمسة دوانيق ونصف، أفلا يعلم بذلك العلم أسرار عبوديتك؟ فهذا تحقيق قوله: ﴿وَأِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه 7]، بل الحق أنَّ الدنيا بتمامه له؛ لأنَّ الذي علمته فإنما علمته بتعليمه على ما قال: ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ [النساء: 166]، وقال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: 14]، وهذا له مثال، وهو الشمس، فإنَّ ضوءها يجعل العالم مضيئاً، ولا يُنقص منها شيء البتة، وكذلك هاهنا، وكيف لا يكون عالماً بالسِّرِّ والإخفاء، فإنَّ من تدبيراته أنَّه في خَلْقِ الأشجار والنباتات والحيوانات، وكيفية نشوئها ونموها أسرارٌ غريبة، وآثارٌ عجيبة، وقد مرَّ من قبل بيان طرف من تلك الأسرار في الأشجار وامتصاص غذائها من العروق إلى الأغصان، ومن الأغصان إلى الأوراق، وخلق هذه [10/أ] الأشياء لا يمكن إلا لمن لا يُعزَّب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض¹.

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [طه: 8] أي: هو واحد بذاته، وإن افتزقت عبارات صفاته، رَدُّ لقولهم: إنك تدعو آلهة حين سمعوا أسماءه تعالى²، قال صاحب التحرير: لما قال سبحانه: ﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ قالوا: هذا الضمير يعود على من؟ فقال له: قل لهم الذي يعود عليه الضمير الله الذي لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى، والحسنى: تأنيث الأحسن³، والقياس أن يقول: الأسماء الحسان والأحاسن، وإنما أنشأ لأنَّ الجموع مؤنثة، والجماعة توصف بصفة المؤنثة الواحدة، كقوله تعالى: ﴿حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ [النمل: 60]، وقوله: ﴿مَارِبٌ أُخْرَى﴾ [طه: 18]. قال الكرمانى⁴: أراد بالأسماء هاهنا

¹ الرازي، مفاتيح الغيب، 11/22.

² النسفي، مدارك التنزيل، 357/2.

³ أبو حيان الأندلسي محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين، البحر المحيط في التفسير، (بيروت: دار الفكر، ط 1420هـ)، 314/7.

⁴ هو محمد بن يوسف بن علي بن سعيد شمس الدين الكرمانى ثم البغدادي. الفقيه، الأصولي، المحدث، المفسر، توفي راجعاً من الحج في المحرم سنة 786هـ. من تصانيفه: الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، ضمائر القرآن، النقود والردود في الأصول، شرح مختصر ابن الحاجب. عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، 129/ 12. الزركلي، الأعلام، 153/ 7.

أسماء صفاته، وأراد بالحسنى هاهنا في الآذان والقلوب¹. وقال الزمخشري: والذي فضلت به أسماءه في الحُسْن سائر الأسماء² دلالتها على معاني التقديس والتمجيد والتعظيم والربوبية والأفعال التي هي النهاية في الحسن. انتهى³. قال صاحب التحرير: واختلفوا في المراد بهذه الأسماء الحسنى، فقيل: هي التي وردت في الحديث وهي قوله صلى الله عليه وسلم: « إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةٌ إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ »⁴، أي: من حفظها. وقيل: من أقرَّ بها. وقيل: من قالها معتقداً لصحتها. وقيل: إنَّ أسماءه تعالى كلُّها حسنى. وقيل: إنَّ الله تعالى قَسَمَ أسماءه ثلاثة أقسام، قسم جعله للدعاء، وهي هذه التسعة والتسعون اسماً، وقسم اطلع على معانيه الخواص من عباده، وقسم استأثر به لم يُطَّلِع عليه أحداً، وإليه أشار بقوله صلى الله عليه وسلم: « وباسمك المخزون الذي دعا به ذو النون، وباسمك المكنون المخزون الذي استأثرت به، ولم تطلع عليه أحداً »⁵[10/ب]. قال الإمام فخر الدين: اعلم أنَّ ما يدل على التوحيد سيأتي من بعد، في تفسير قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: 22]، وإنما ذكر هذه الآية هاهنا ليبين أنَّ الموصوف بالقدرة وبالعلم على الوجه الذي تقدم واحد لا شريك له، وهو الذي يستحق العبادة دون غيره، ثم الإمام الفاضل رحمه الله ذكر من الأبحاث المتعلقة بهذا الباب مسائل:

¹ أبو القاسم محمود بن حمزة الكرماني، لباب التفاسير، (الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، رسائل دكتوراه)، 1394.
² أي: باقي الأسماء. الطيبي، حاشية الطيبي على الكشاف، 10/133.
³ الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 3/53.
⁴ أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب الشروط، باب: ما يجوز من الاشتراط والثنيا في الإقرار، (بيروت، طوق النجاة، ط1، 1422هـ)، 3/198، حديث رقم: 2736. ومسلم، صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها، 4/2063، حديث رقم: 2677.
⁵ لم أجده.

الأولى: اعلم أنّ مراتب التوحيد أربعة، أحدها: الإقرار باللسان، والثاني: الاعتقاد بالقلب، والثالث: تأكيد ذلك الاعتقاد بالحجة، والرابع: أن يصير المرء مغموراً في بحر التوحيد، بحيث لا يخطر بباليه شيء سوى عرفانه، أمّا الإقرار باللسان: فإن كان مجرداً عن الاعتقاد بالقلب فهو النفاق، وأمّا الاعتقاد بالقلب: فإن كان مجرداً عن الإقرار باللسان ففيه صور، الأولى: من نظر وعرف الله تعالى، وكما عرفه مات قبل أن يمضي عليه من الوقت ما يمكنه التلفظ بكلمة الشهادة، فقال قوم: إنّه لا يتم إيمانه، والحق أنّه يتم؛ لأنّه أدّى ما كلف به، وعجز عن التلفظ به، فلا يبقى مخاطباً به. ورأيت في الكتب أنّ ملك الموت مكتوب على جبهته: لا إله إلا الله، لكي إذا رآه المؤمن تذكّر الشهادة فيلقنه ذلك التذكّر¹. الصورة الثانية: من عرف الله تعالى ومضى عليه من الوقت ما يمكنه التلفظ بكلمة الشهادة، ولكنه قصّر فيه، فقال قوم: إنّه كافر، والحق أنّه مؤمن، فإنّ المقصود هو المعرفة، فامتناعه عن التلفظ كامتناعه عن الصلاة والزكاة. الصورة الثالثة: من أقر باللسان واعتقد بالقلب من غير دليل فهو مقلد، والاختلاف في صحة إيمانه مشهور² [11/أ] وأما المرتبة الثالثة: وهو إثبات التوحيد بالدليل والبرهان، فالكلام فيها يُذكر في تفسير قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾³ [الأنبياء: 22].

¹ عبد الرحمن بن عبد السلام الصفوري، نزهة المجالس ومنتخب الفرائس، (مصر: المطبعة الكاستلية، من دون رقم طبعة، 1283هـ)، 64/1.

² ذهب الماتريدية ووعائمة السلف، وأئمة الخلف إلى صحّة إيمان المقلد، لأنّ مع هذا الإيمان تصديق، والتصديق هو أصل الإيمان، وذهب الأشاعرة والمعتزلة، وكثير من المتكلمين إلى عدم صحة إيمانه، ومنهم من قال أنه مؤمن إلا أنه عاص بترك المعرفة التي ينتجها النظر الصحيح. أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيثمي السعدي الأنصاري، شهاب الدين شيخ الإسلام، أبو العباس، الفتح المبين بشرح الأربعين، (جدة: دار المنهاج، ط1، 1428هـ)، 164. شمس الدين، أبو العون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي، لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرّة المضوية في عقد الفرقة المرصية، (دمشق: مؤسسة الخافقين ومكبتها، ط2، 1402هـ)، 275/1.

³ أي: أنه لو كان آلهة، وأراد أحدهم أمراً، فالثاني إن كان مضطراً إلى مساعدته كان هذا الثاني مقهوراً عاجزاً، ولم يكن إلهاً قادراً، وإن كان قادراً على مخالفته ومدافعتها كان الثاني قويا قاهراً، والأول ضعيفاً قاصراً ولم يكن إلهاً قادراً. أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، قواعد العقائد، (بيروت: عالم الكتب، ط2، 1405هـ)، 173.

وأما المرتبة الرابعة، وهو الفناء في بحر التوحيد، قال المحققون: هي الصفات التي هي صفات الحق بالذات المريدة بالصدق منتهية إلى الواحد القهار، ثم الوقوف، هذه الكلمات محيطة بأقصى نهايات درجات السالكين إلى حضرة الله سبحانه.

فضل التهليل

المسألة الثانية: في الأخبار الواردة في التهليل، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أَفْضَلُ الدِّكْرِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: 19]¹»، وقال صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ مَلَكًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَهُوَ يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مَا دَامَ بِهَا صَوْتُهُ لَا يَقْطَعُهَا وَلَا يَتَنَفَّسُ فِيهَا وَلَا يُثَمِّهَا، فَإِذَا أَمَرَهَا أَمَرَ إِسْرَافِيلَ بِالنَّفْخِ فِي الصُّورِ وَقَامَتِ الْقِيَامَةُ تَعْظِيمًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»². وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَا زِلْتُ أَشْفَعُ إِلَى رَبِّي وَيُشَفِّعُنِي وَأَشْفَعُ إِلَيْهِ وَيُشَفِّعُنِي حَتَّى قُلْتُ: يَا رَبِّ شَفِّعْنِي فِيمَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ قَالَ يَا مُحَمَّدُ هَذِهِ لَيْسَتْ لَكَ وَلَا لِأَحَدٍ

¹ أخرجه سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني بلفظ: «ما من الذكر أفضل من "لا إله إلا الله"، ولا من الدعاء أفضل من الاستغفار، المعجم الكبير، باب العين، (القاهرة: مكتبة ابن تيمية، ط2)، 52/13، حديث رقم: 129. وأورده أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، كتاب الأذكار، باب: ما جاء في فضل لا إله إلا الله (القاهرة: مكتبة القدسي، 1414هـ)، 84/10، حديث رقم: 16817، ضعيف.

² أخرجه أبو منصور في مسند الفردوس بسنده إلى عبد الله بن عباس. قال الصفدي: "هذا بحث يشهد به العقل وتكذبه أصول النقل ثم هذا يلزم منه الكفر لأنه أن ينتهي التللفظ بالشهادة إلى قوله إله فيكون قد قال لا إله وهذا نفي مطلق للإلهية وهو قول المعطلة...". أبو محمد حسن بن علي بن سليمان البدر الفيومي القاهري، فتح القريب المحجب على الترغيب والترهيب للإمام المنذري، الترغيب في قول لا إله إلا الله وما جاء في فضلها، (الرياض: مكتبة دار السلام، ط1، 1439هـ)، 313/7. الصفدي، الوافي بالوفيات، 148/5.

وَعَزَّيْتِي وَجَلَّالِي لَا أَدْعُ أَحَدًا فِي النَّارِ قَالِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»¹. وقال سفيان الثوري²: سألت جعفر بن محمد³ عن ﴿حم عسق﴾ [الشورى: 1-2] فقال: الحاء حُكْمُهُ، والميم ملكه، والعين عظمته، والسين سناؤه، والقاف قدرته، يقول الله تعالى: بحكمي وملكبي وعظمتي وسنائي وقدرتي لا أعذب بالنار من قال: لا إله إلا الله، محمد رسول الله⁴. وعن ابن عمر⁵ قال: قال صلى الله عليه وسلم: «مَنْ قَالَ فِي السِّرِّ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ بِيَدِهِ الْخَيْرُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، كَتَبَ لَهُ اللَّهُ أَلْفَ أَلْفِ حَسَنَةٍ وَمَحَا عَنْهُ أَلْفَ أَلْفِ سَيِّئَةٍ وَبَنَى لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ»⁶. وعن أبي

1 أخرجه أبو بكر بن أبي عاصم وهو أحمد بن عمرو بن الضحاك بن مخلد الشيباني، السنة، باب: في ذكر شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لأهل الكباثر، (بيروت، المكتب الإسلامي، ط1، 1400)، 395/2، حديث برقم: 828. وأخرجه ابن خزيمة، كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل، أخبار عبد الله بن مسعود، باب ذكر خبر روي عن النبي صلى الله عليه وسلم في إخراج شاهد أن لا إله إلا الله من النار...، 694/2، صحيح.

2 هو سفيان بن سعيد بن مسروق، الثوري، أمير المؤمنين في الحديث، وسيد زمانه في التقوى وعلوم الدين، ومات بالبصرة مستخفياً. من مصنفاته: الجامع الكبير، الجامع الصغير، كتاب في الفرائض. توفي: سنة 161هـ. ابن خلكان، وفيات الأعيان، 2/ 386. الشيرازي، أبو اسحاق إبراهيم بن علي، طبقات الفقهاء، (بيروت: دار الرائد العربي، ط1، 1970م)، 1/ 84. الزركلي، الأعلام، 3/ 104.

3 هو جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أبو عبد الله، الملقب الصادق، روى عن أبيه والقاسم بن محمد ونافع وغيرهم، وكان من سادات أهل البيت فقهاً وعلماً وفضلاً. توفي: سنة 148هـ. الذهبي، سير أعلام النبلاء، 6/ 255. الذهبي، تذكرة الحفاظ، 1/ 125.

4 في تفسير السمرقندي، عن السدي. أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي، بحر العلوم، 3/ 235.

5 هو عبد الله بن عمر بن الخطاب، أبو عبد الرحمن، صحابي، نشأ في الإسلام، وهاجر مع أبيه إلى الله ورسوله، شهد الخندق وما بعدها، ولم يشهد بدرًا ولا أحدًا لصغره، وأفتى الناس ستين سنة، وكف بصره في آخر حياته، وكان آخر من توفي بمكة من الصحابة. وهو أحد المكثرين من الحديث. توفي: سنة 73هـ. ابن حجر العسقلاني، الإصابة، 4/ 155. الصفدي، الوافي بالوفيات، 17/ 197.

6 في تفسير الرازي: أن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قام في السوق فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير، كتب له الله ألف حسنة ومحاه عنه ألف سيئة وبني له بيتا في الجنة». أخرجه أبو عيسى محمد بن عيسى بن سؤرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، سنن الترمذي، باب: ما يقول إذا دخل السوق، (مصر، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط2، 1395هـ)، 5/ 491، حديث رقم: 3429. وأخرجه أبو عبد الله الحاكم، المستدرک علی الصحیحین، باب: حديث رافع بن خديج، 723/1، حديث رقم: 1976، حسن.

هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الإيمان بضغ وسئون- أو بضغ وسبوعون شعبة؛ أفضلها لا إله إلا الله، وأذناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياة شعبة من الإيمان»¹.

وعن معاذ بن جبل² قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة»³. وفي حديث آخر: «من مات يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة»⁴. وعن ابن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم، ولا يوم نُشورهم، وكأني بأهل لا إله إلا الله يتفضون التراب عن رؤوسهم، ويقولون: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن»⁵. وقال الإمام فخر الدين: وينبغي لأهل لا إله إلا الله أن يُحصّلوا أربعة أشياء حتى يكونوا من أهل لا إله إلا الله:

¹ أخرجه أبو عبد الله البخاري، الأدب المفرد، باب: الحياء، (الرياض: مكتبة المعارف، الطبعة 1، 1419 هـ)، 308/1، حديث رقم: 598. وأخرجه أبو عوانة يعقوب بن إسحاق الإسفراييني، المسند الصحيح المخرج على صحيح مسلم، (المملكة العربية السعودية، ط1، 1435هـ)، 88/1، حديث رقم: 35، صحيح.

² هو معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الأنصاري الخزرجي، أبو عبد الرحمن، صحابي وأعلم الأمة بالحلال والحرام، أسلم وعمره ثماني عشرة سنة، شهد بيعة العقبة، ثم بدرًا وأحدًا والمشاهد كلها مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. جمع القرآن على عهد الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان من الذين يفتون في ذلك العهد. بعنه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد غزوة تبوك قاضيًا لأهل اليمن، قدم من اليمن إلى المدينة في خلافة أبي بكر ثم كان مع أبي عبيدة بن الجراح في غزو الشام. ولما أصيب أبو عبيدة في طاعون عمواس استخلف معاذًا. وأقره عمر، فمات في ذلك العام. توفي: سنة 18. ابن حجر العسقلاني، الإصابة، 6/107. الزركلي، الأعلام، 7/258.

³ أخرجه أبو داود، سنن أبي داود، أبواب الجنائز، باب: في التلقين، 34/5، حديث رقم: 3116. وأخرجه البزار، مسند البزار، مسند معاذ بن جبل رضي الله عنه، باب: أول الخامس والعشرين، والله المعين من حديث معاذ بن جبل، 77/7، حديث رقم: 2626، صحيح.

⁴ أخرجه أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الحشروجردي الخراساني، أبو بكر البيهقي، شعب الإيمان، باب: الدعاء إلى الإسلام، 99/1، حديث رقم: 94. وأخرجه أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري بلفظ: من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله، دخل الجنة. مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب: الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً، 55/1، حديث رقم: 43.

⁵ أخرجه سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني، المعجم الأوسط، باب: الباء، من اسمه يعقوب، (القاهرة، دار الحرمين، 1424هـ)، 181/9، حديث رقم: 9478. وأخرجه ابن أبي الدنيا أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي، القبور لابن أبي الدنيا، باب في النشور، (مكتبة الغراء الأثرية، ط1، 1420هـ)، 80، حديث رقم: 69. وأخرجه البيهقي، شعب الإيمان، باب: الإيمان بالله عز وجل، 202/1، حديث رقم: 99. وأخرجه السخاوي، شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد، المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، (بيروت: دار الكتاب العربي، ط1، 1405هـ)، 561/1، حديث رقم: 918، ضعيف.

التصديق والتعظيم والجلالة والحرمة، فمن ليس له تصديق فهو منافق، ومن ليس له التعظيم فهو مبتدع، ومن ليس له الجلالة فهو مرء، ومن ليس له الحرمة فهو فاجر¹. وقال بعضهم في ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ [إبراهيم: 24]، أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: 10]، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ [العصر: 3]، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴿إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ﴾ [سبأ: 46]، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ [الصفات: 24]، عن قول لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصفات: 37]، هُوَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴿يُنَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: 27]، هُوَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. وقال موسى بن عمران: يا رب، علمني شيئاً أذكرك [12/أ] قال: قل: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، قال: إنما أردتُ شيئاً تخصُّني به، قال: يا موسى، لو أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَمَا فَوْقَهُنَّ فِي كِفَّةٍ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فِي كِفَّةٍ مَالَتْ بِمَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. المسألة الثالثة: قال بعضهم: تصوُّرُ الثبوتِ مقدَّمٌ على تصوُّرِ السلبِ، فَإِنَّ السلبَ ما لم يُضَفَّ إلى الثبوتِ لا يمكن تصوُّره، فكيف قُدِّمَ السلبُ؟ والجواب: المشهور لما كان هذا السلب من مؤكِّدات الثبوت لا جرم قدم عليه، والأولى أن يقال: المقصود من هذا الكلام هو نفي الغير، فكان النفي أهم، والأهم مقدَّم.

المسألة الرابعة: في البحث عن أسماء الله تعالى، وفيه أبحاث: الأول: قال صلى الله عليه وسلم: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ نَادَى مُنَادٍ أَيُّهَا النَّاسُ أَنَا جَعَلْتُ لَكُمْ نَسَبًا وَأَنْتُمْ جَعَلْتُمْ لَأَنْفُسِكُمْ نَسَبًا، أَنَا جَعَلْتُ أَكْرَمَكُمْ

¹ في تفسير الرازي: ينبغي لأهل لا إله إلا الله أن يحصلوا أربعة أشياء حتى يكونوا من أهل لا إله إلا الله: التصديق والتعظيم والحلاوة والحرية، فمن ليس له التصديق فهو منافق ومن ليس له التعظيم فهو مبتدع ومن ليس له الحلاوة فهو مرء ومن ليس له الحرية فهو فاجر.

عِنْدِي أَنْفَاكُمْ وَأَنْتُمْ جَعَلْتُمْ أَكْرَمَكُمْ أَعْنَاكُمْ فَلَا أَنْ أَرْفَعُ نَسِي وَأَضَعُ نَسَبَكُمْ، أَيْنَ الْمُتَّقُونَ الَّذِينَ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ!«¹.

اعلم أنَّ الأشياء في قسمة المعقول على ثلاثة أقسام: كامل لا يحتمل النقصان: وهو الله تعالى، وذلك في حقه بالوجوب الذاتي، وبعده الملائكة، فإنَّ كمالهم أنهم لا يعصون الله ما أمرهم، ومن صفاتهم يستغفرون للذين آمنوا، وناقص لا يحتمل الكمال: وهو الجماد والنبات والبهائم، ومتوسط يحتمل الأمرين جميعاً: وهو الإنسان، تارة في الترقى، بحيث يخبر عنه بأنه في مقعد صدق عند مليك مقتدر، وتارة في التسفل، بحيث يقال فيه: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [التين: 5]، وإذا كان كذلك استحال أن يكون الإنسان كاملاً لذاته، والكمال والنقصان أمرٌ نسبي، يمكن أن يكون الشيء كاملاً بالنسبة إلى شيء، وناقصاً بالنسبة إلى شيء آخر، فإذا كان كمال الشيء [12/ب] بالنسبة إلى حضرة الله تعالى وقربه منه كان ذلك الشيء في مدح ما يكون منتسباً إليه من الملائكة أو من الجن أو من الانس، ولما كان ذلك المدح لازماً أشار إليه تعالى بقوله ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: 180].

المبحث الثاني في تقسيم أسماء الله تعالى

اعلم أنَّ الاسم الواقع على الشيء، إمَّا أن يكون بحسب ذاته، وإمَّا أن يكون بحسب ما يكون داخلياً في ذاته، وإمَّا أن يكون بحسب ما يكون خارجاً عن ذاته.

¹ أخرجه الطبراني أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، المعجم الأوسط، 388/4، حديث رقم: 4511. وأخرجه أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الحُسْرُوْجَرْدِي الخراساني، أبو بكر البيهقي، الزهد الكبير، فصل آخر في قصر الأمل والمبادرة بالعمل قبل بلوغ الأجل، (بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية، ط3، 1996)، 292، حديث رقم: 765، ضعيف جداً.

أما الأول: فقد اختلفوا في أنه هل لله تعالى اسم على هذا الوجه، وهذا الاختلاف مبني على أن حقيقة الله تعالى هل هي معلومة للبشر أم لا؟ فمن قال إنها معلومة، فقد قال: أن لذاته تعالى أسماء، ومن قال: بأنها غير معلومة للبشر قال: ليس لذاته المخصوصة اسم؛ لأن المقصود من الأسماء أن يُشار به إلى المسمّى، فإذا كانت الذات المخصوصة غير معلومة، امتنعت الإشارة العقلية إليها، وامتنع وضع الاسم لها. وأمّا الثاني: فذلك مُحالٌ، وإلا لكانت ذاته متجزئة وكانت ممكنة، والواجب لذاته لا يمكن أن يكون ممكناً. وأمّا الثالث: وهو ما يكون خارجاً عن ذاته، فذلك من الصفات الخارجة عن الذات، فالصفات: إمّا أن تكون ثبوتية حقيقية، أو ثبوتية إضافية، أو سلبية، أو ثبوتية مع إضافية، أو ثبوتية مع سلبية، أو إضافية مع سلبية، أو ثبوتية وإضافية وسلبية، ولما كانت الإضافات الممكنة غير متناهية والسلوك كذلك، أمكن أن يكون للباري أسماء متباينة غير متناهية، فهذا هو التنبيه على المأخذ.

المبحث الثالث: يقال: إن لله تعالى أربعة آلاف اسم، ألف لا يعلمها إلا الله تعالى، وألف لا يعلمها إلا الله والملائكة، وألف لا يعلمها إلا الله والملائكة والأنبياء، وأمّا الألف الرابع: فإن المؤمنين [13/أ] يعلمونها، فثلاثمائة منها في التوراة، وثلاثمائة في الإنجيل، وثلاثمائة في الزبور، ومائة في الفرقان، تسع وتسعون منها ظاهرة، وواحد مكتوم فمن أحصاها دخل الجنة¹. البحث الرابع: الأسماء الواردة في القرآن، منها ما ليس لانفراده ثناء ومدح، كقوله: جاعل وفالق وصانع، فإذا قيل: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾ [الأنعام: 96]، صار مدحاً، وأمّا الاسم الذي يكون مدحاً، فمنه ما إذا قرئ بغيره صار أبلغ، نحو قولنا:

¹ اختلف القائلون بعدد أسماء الله تعالى، فمنهم من قال: أنها ثلاثمائة اسم، ومنهم من قال: ألف اسم؛ ومنهم من زادها اسم فوق الألف، وهي أقوال لا دليل لها ولا برهان، ومنهم من قال: أن أسماءه تعالى تسعة وتسعين اسماً فقط، وقد ورد في مسند الإمام أحمد: "اللهم إني أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك" فهذا يدل على أن لله أسماء أكثر من تسعة وتسعين اسماً، يخصصها بعض الموحدين. محمد بن خليفة بن علي التميمي، معتقد أهل السنة والجماعة في أسماء الله الحسنى، (الرياض: أضواء السلف، ط1، 1419هـ)، 68-70.

حيّ، فإذا قلت: الحيّ القيوم، أو الحي الذي لا يموت كان أبلغ، وأيضاً قولنا: بديع، فإنّك إذا قلت: بديع السماوات والأرض ازداد المدح، ومن هذا الباب ما كان اسم مدح، ولكن لا يجوز إفراده، كقولك: دليل، وكاشف، فإذا قيل: يا دليل المتحيّرين، ويا كاشف الضّرّ والبلوى، جاز، ومنه ما يكون اسم مدح مفرداً أو مقروناً، كقولنا: الرحمن الرحيم. البحث الخامس: من الأسماء ما يكون مقارنتها أحسن، كقولك: الأول الآخر المبدئ المعيد الظاهر الباطن، مثاله: قوله تعالى حكاية عن المسيح: ﴿وَإِنْ تَعَفَّرْهُمْ فإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: 118]، انتهى كلام الإمام فخر الدين¹.

﴿وَهَلْ﴾ [طه: 9] أي: وقد ﴿أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾² [طه: 9] خبره، فقاه بقصة موسى عليه السلام، ليأتسى به في تحمل أعباء النبوة، والصبر على المكاره، لينال الدرجة العليا كما نالها موسى³. قال صاحب التحرير: وجه ارتباط هذه الآيات بما قبلها أنّه سبحانه وتعالى لما عظم حال القرآن، وحال الرسول مما كلفه أتبعه بما يقوي قلب رسوله من ذكر أحوال الأنبياء، تقويةً لقلبه في الإبلاغ، كقوله: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: 120]، وكرّر قصة موسى؛ لأنّ المحنة له، [13/ب] وفتنته كانت أعظم، ليُسَلِّي قلب الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك، ويصبره على حمل المكاره، ويأتسى بموسى عليه السلام بما ناله من قومه من الأذى، فقال: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾، ﴿وَهَلْ﴾ هاهنا فيها أقوال: الأول: أنّها استفهام بمعنى التقرير، فإنّه سبحانه أراد أن يقرر في ذهنه من قصة موسى ما يكون

¹ الرازي، مفاتيح الغيب، 11/22 إلى 14.

² قال أبو السعود: استئناف مسوق لتقرير أمر التوحيد، وبيان أنه أمر مستمرّ فيما بين الأنبياء، وقد خوطب به موسى عليه الصلاة والسلام، وبه ختم عليه الصلاة والسلام مقاله، وأما ما قيل من أن ذلك لترغيب النبي صلى الله عليه وسلم في الاتساء بموسى عليه الصلاة والسلام في تحمل أعباء النبوة والصبر على مقاساة الخطوب في تبليغ أحكام الرسالة فيأباه أنّ مساق النظم الكريم لصفه عليه الصلوة والسّلام عن اقتحام المشاق. أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى، تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، من دون ذكر طبعة وتاريخها)، 6/6.

³ الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 53/3.

سبباً لتسليّيه، وقيل: التقدير: أليس قد أتاك؟. الثاني: قيل: هو استفهام يتضمن الحث على الإصغاء إلى ما يخبر عنه. الثالث: قال الكلبي: معنى الكلام: لم يأتك، فهو استفهام بمعنى النفي، تقديره: ما أتاك حديث موسى، قال الكلبي: لم يكن أتاه حديثه بعد ثم أخبره به¹. الرابع: قال الكلبي: (هل) بمعنى قد، أي: وقد أتاك حديث موسى²، قال: ولم يكن أتاه حديثه بعد، وإنما عرّفه في وقته تسليية له؛ لأنّه كان في حال ضيق فوسّعها الله عليه، وفي حال وحشة فأنسه الله، وحال وحدة فكثّر جمعه، واعتصم بالصبر، ففاز بالنصر³. قال صاحب التحرير: وهذه السورة مكيّة بلا خلاف، والظاهر أنّه سبحانه لم يكن أطلعه على قصة موسى قبل هذا، والظاهر أنّ الاستفهام بمعنى التقرير لا بمعنى التحقيق، وموسى: هو موسى بن عمران عليه السلام بلا خلاف، والحديث والقصة بمعنى واحد، وكان من حديثه أنّه لما قضى أكمل الأجلين وسار بأهله، وهو مقبل من مدين يريد مصر، وكان قد أخطأ الطريق، وكان موسى رجلاً غيوراً، يصحب الناس بالليل، ويفارقهم بالنهار غيره منه، لئلا يروا امرأته، فأخطأ الرفقة لما سبق في علم الله، وكانت ليلة مظلمة. وقال مقاتل: ليلة الجمعة في الشتاء⁴. وقال وهب بن منبه: [14/أ] استأذن موسى شعبياً في الرجوع إلى والدته فأذن له، فخرج بأهله وغنمه، فولد له في الطريق غلام في ليلة شاتية باردة مثلجة، وقد حاد عن الطريق، وتفرقت ماشيته، فقدح موسى النار، فلم يؤثر القدح شيئاً، إذ بصر بنار من بعيد على يسار الطريق، فقال لأهله: امكثوا، أي: أقيموا بمكانكم، إني آنست ناراً، أي: أبصرت. وقال ابن عباس: فلما توجّه نحو النار فإذا النار في شجرة عُناب، فوقف متعجباً من حسن ضوء تلك النار، وشدة خضرة تلك الشجرة، فلا شدّة حرّ النار تُغيّر خضرة الشجرة، ولا كثرة ماء الشجرة تُغيّر حسن

¹ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 11/171.

² ذكر ابن هشام: هل تأتي بمعنى "قد"، وبالغ الرخشري فزعم أنها أبداً بمعنى قد. عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله ابن يوسف، أبو محمد، جمال الدين، ابن هشام، مغني اللبيب عن كتب الأعراب، (دمشق: دار الفكر، ط6، 1985)، 460.

³ الرازي، مفاتيح الغيب، 22/15.

⁴ مقاتل، تفسير مقاتل بن سليمان، 3/22.

ضوء تلك النار¹. وذكر المهدوي²: فرأى النار فيما روي وهي في شجرة من العليق³، فقصدتها فتأخرت عنه فرجع وأوجس في نفسه خيفة ثم دنت منه، وكلمه الله عزَّ وجلَّ من الشجرة. قال الماوردي⁴: كانت عند موسى ناراً وكانت عند الله نوراً⁵. كذا قاله القرطبي⁶. قال في التحرير: قال وهب: ولد له ابن في الطريق، قال وهب: فلمَّا قضى موسى الأجل خرج، ومعه غنمه، ومعه زُنْدُه⁷ وعصاً في يده يَهْتَشُّ بها على غنمه نهاراً، فإذا أمسى اقتدح ناراً، فبات عليها هو وأهله وغنمه، فإذا أصبح سار بأهله وغنمه يتوكأ على عصاه، فلمَّا كانت الليلة التي أراد الله تعالى بموسى كرامته، أخرج زُنْدَه ليقدح ناراً لأهله؛ ليبیتوا عليها حتى يصبح ويعلم وجه سبيله، فقدح حتى أعياء فلم يوقد، فلاحت النار فرآها، فقال لأهله: ﴿إِنِّي آنَسْتُ ناراً ولم تكن ناراً، وإنما كانت نوراً، وخيل له أنها ناراً﴾ [طه: 10]⁸. قال الإمام فخر الدين: والصحيح [14/ب] أنه رأى ناراً، ليكون صادقاً، في خبره إذ الكذب لا يجوز على الأنبياء. انتهى⁹. وقال في زهرة الرياض: يقال: لما قضى موسى الأجل، وسار بأهله، وضع موسى الرِّحْلَ على بقرة عند خروجه، وأركب امرأته على بقرة، وجعل الغنم قُدَّامَه، وكان معها صبي صغير، وكان بامرأة موسى حَبْلًا، فأخذها الطلق في

¹ أخرجه الطبري بنحوه، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، 19/16.

² هو أحمد بن عمار بن أبي العباس المهدوي المغربي، نحوي، مفسر، لغوي، مقرئ، أصله من بلاد إفريقية. من تصانيفه: التفصيل الجامع لعلوم التنزيل، الهداية في القراءات السبع، توفي: سنة 440هـ. عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، 2/27. الزركلي، الأعلام، 1/184.

³ أخرجه الطبري بنحوه، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، 242/18.

⁴ هو علي بن محمد بن حبيب الماوردي، نسبته إلى بيع ماء الورد. ولد بالبصرة، إمام في المذهب الشافعي، أول من لقب بأقضي القضاة في عهد القائم بأمر الله العباسي، وكانت له مكانة رفيعة عند خلفاء وملوك بغداد. اتهم بالاعتزال، توفي في بغداد سنة 450هـ. من تصانيفه: الحاوي في الفقه، الأحكام السلطانية، أدب الدنيا والدين، قانون الوزارة. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي البصري ثم الدمشقي، طبقات الشافعيين، (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، من دون طبعة، 1413هـ)، 1/418. عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، 7/189.

⁵ أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي، تفسير الماوردي = النكت والعيون، (بيروت: دار الكتب العلمية، من دون رقم وتاريخ طبعة)، 3/396.

⁶ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 11/171-172.

⁷ الزُنْدُ: العود الذي تقدح به النار. ابن منظور، لسان العرب، 3/195.

⁸ أخرجه الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، 16/19.

⁹ الرازي، مفاتيح الغيب، 22/16.

الطريق، وساروا من أول النهار إلى آخره، فضلُّوا الطريق، وكانت المرأة قالت: لو أخذني الطلق في الطريق ماذا نعمل؟ فقال لها موسى: لا تتفكري، فإنَّا نحمل معنا القِدَاحَةَ والحجر والحِرَاقَةَ¹، ونوقد النار، وأجمَعُ الغنم، وأصلح شأنك، فلمَّا أقبل الليل اشتد بها الوجع، فقالت: الغياث يا موسى، فأخرج موسى القداحة وحجر الزَّند والحِرَاقَةَ، فأمر الله الريح فهبَّت، وذهبت الحِرَاقَةَ من جانب، والزند من جانب، وأخذ الصبي في البكاء، وهربت الغنم كُلُّها في المفاوز، وهربت البقر الذي كان عليه الرَّحْل، وأخذ الصبي في البكاء، وأخذت المرأة في الولادة، وضاق الأمر على موسى عليه السلام، وأوحى الله إلى نار الدنيا كُلِّها في تلك الليلة أن لا توقد في العالم شيئاً في شرق الأرض وغربها وبرها وبحرها ولا سراج ولا شمع، فلمَّا عجز موسى عليه السلام عن حبل العبودية أظهر الرب كرم الربوبية، فآنس من جانب الطور ناراً، فلمَّا انتهى رأى نوراً عظيماً ممتداً من عنان السماء إلى شجرة عظيمة هناك، ويقال: إنها العوسجة²، ويقال: العناب³، فتحيَّر موسى وارتعدت فرائصه، حيث رأى ناراً لا دخان لها تلتهب من جوف [15/أ] شجرة خضراء، لا تزداد النار إلا عظماً، ولا الشجرة إلا خُضرة، فنودي من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة، أن يا موسى، فنظر فلم ير أحداً، فنودي ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ [القصص: 30]، فلمَّا سمع النداء ورأى تلك الهيبة، خفق قلبه وكَلَّ لسانه، وصار حيّاً كالميت، إلا أن روح الحياة تتردَّد فيه، وأرسل الله تعالى ملكاً يشدُّ ظهره، ويُقوي قلبه، فلمَّا ناب إليه عقله، قيل له: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ [طه: 12]، فلمَّا قيل له: ﴿إِنِّي﴾، نظر إلى الأسفل، فلمَّا نودي ﴿أَنَا﴾ نظر إلى الأعلى، فلم ير في الأسفل ولا في الأعلى شيئاً، قيل له: دع الأعلى والأسفل وانظر إليَّ فَإِنِّي أَنَا اللَّهُ. وفي الأخبار: أن موسى سئل: بمَ عرفت أن المتكلم كان هو الله؟ قال: لأنَّ كلام المخلوقين يُسمع من جانب واحد، فلمَّا قيل: يا موسى سمعتُ من الأسفل والأعلى والقَدَّام

¹ الحِرَاقَةَ: ما تقع فيه النار عند القدح. الرازي، مختار الصحاح، 70.

² العوسج: شجر من شجر الشوك، وله ثمر أحمر مدور كأنه خرز العقيق. ابن منظور، لسان العرب، 324/2.

³ العناب: شجر من شجر الشوك وهو أحمر حلو لذيد الطعم. المصدر نفسه، 354/4.

والخلف جميعاً دفعة واحدة، فعلمت أنّ الرب هو المتكلم، ثم قال له: ﴿فَأَخْلَعُ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه: 12]. وقيل: كانتا من جلد حمار ميت غير مدبوغ، وقيل: كي تمسّ راحة قدميه الأرض الطيبة، ولأنّ الحفوة من أمانة التواضع، وقيل: النعل عبارة عن المرأة، يعني: أخرج همّ امرأتك وولدك من قلبك، يا موسى إذا وجدتني فيما تصنع بالأهل والمال؟ جعلت الذئب حارساً غنمك، والحوار العين قابلة أهللك، والملائكة حارساً أولادك، من كان لي كنت له¹. وفي كتاب العرائس²: قال كعب³: كان بين موسى وبينه ألف حجاب، فرفعها كلها إلا حجاباً واحداً، فاستجلى موسى كلام ربه واشتاق إلى رؤيته، ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: 143]، فقال الله تعالى: [15/ب] لن تراني ولن تطبق ذلك، وليس لبشر أن يطبق النظر إليّ في الدنيا، من نظر إليّ مات، فقال: إلهي ولأنّ أنظر إليك وأموت أحب إليّ من أن أعيش ولا أراك، فقال الله له: ﴿انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ [الأعراف: 143] الآية. وقيل: إنّ موسى لما استلذّ الكلام حملاً لذة الكلام على سؤال الرؤية، فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي﴾ [الأعراف: 143] الآية، لطيب كلامه وغلبة شوقه لأن الحق قرّبه وشوّقه، فلما غلب عليه الشوق قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي﴾ الآية. ويقال: مكث موسى بعدما غشيه نور الرب لا يراه أحد إلا مات حتى اتخذ برقعاً لا يُبدي وجهه لأحد مخافة أن يموت⁴. اعلم أنّ عشرة نفر خرجوا إلى طلب عشرة أشياء، فوجدوا بدلها عشرة أخرى: أصحاب الكهف طلبوا الفرار من صحبة دقيانوس⁵ فوجدوا صحبة الرب، ﴿وَنُقِلْتُمْ ذَاتَ

¹ سليمان بن داوود، زهرة الرياض، اللوحة 177/أ

² أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري، قصص الأنبياء المسمى بالعرائس، (القاهرة، مكتبة الجمهورية العربية، اهداءات 2000م)، 213.

³ في زهرة الرياض والعرايس: قال وهب بن كعب. سليمان بن داوود، زهرة الرياض، اللوحة 129/أ. الثعلبي، قصص الأنبياء، 213.

⁴ سليمان بن داوود، زهرة الرياض، اللوحة 128/ب - 129/أ.

⁵ هو الملك الذي كان يحكم في زمن أصحاب الكهف ويجبر الناس عبادة الأوثان والذبح للطواغيت، ويقال اسمه دقيانوس، وقد هرب أصحاب الكهف خوفاً منه. ابن الجوزي: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1412 هـ)، 2/ 152. ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين، الكامل في التاريخ، 1/ 325، (بيروت: دار الكتاب العربي، ط1، 1417 هـ).

الْيَمِينِ وَذَاتِ الشِّمَالِ ﴿﴾ [الكهف: 18]، أي: نحوهم من جنب إلى جنب كما يحرك الصبي أمه في المهدي. والثاني: طالوت¹، خرج لطلب الجهاد، فوجد المملوك من الجبار، قوله: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾ [البقرة: 247] الآية، القصة بطولها. والثالث: خرج داود لطلب إخوته فوجد دليلاً على نبوته، وهو قول الحجر: ﴿حُذِنِي﴾ إلى أن قال: ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾ [البقرة: 251]، ﴿وقتل داود جالوت﴾. والرابع: خرج يوسف على نية اللعب، فوجد الجبَّ والسجن، وبعد ذلك مملكة مصر. والخامس: خرجت بلقيس لنظارت ملك سليمان عليه السلام، فوجدت المعرفة مع سليمان لرب العالمين، ولكل واحد قصة في التفسير. والسادس: خرج إسماعيل إلى وادٍ غير ذي زرع فوجد الكعبة. والسابع: خرج محمد صلى الله عليه وسلم إلى جبل حراء لرعاية غنم خديجة² فوجد الرسالة، قوله: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: 1]. والثامن: خرج عمر³ لقتل [16/1] محمد صلى الله عليه وسلم فوجد الإسلام، قوله: ﴿طه﴾ ما أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿﴾. والتاسع: سحرة فرعون خرجوا ليطلوا معجزة موسى عليه السلام فوجدوا الإسلام، قوله: ﴿وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الأعراف: 120-122]. والعاشر: خرج موسى لطلب النار، فوجد النور، وخرج للاصطلاء⁴، فوجد

¹ هو طالوت بن قيس من نسل يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل، كان سقياً، وقيل كان دباغاً، ولهذا {قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال} [البقرة: 247]. الدينوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، المعارف، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، 1992 م)، 1/ 44، ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي البصري ثم الدمشقي، البداية والنهاية، (بيروت: دار هجر، ط1، 1418 هـ)، 2/ 292.

² هي أم المؤمنين، خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى، زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم الأولى، ولدت بمكة، ونشأت في بيت شرف ويسار، تزوجها رسول الله، قبل النبوة، فولدت له القاسم وعبد الله وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة، وهي أول من أسلم من الرجال والنساء، توفيت بمكة سنة: 3 ق هـ. ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، 4/ 1817. الزركلي، الأعلام، 2/ 302.

³ هو عمر بن الخطاب، أبو حفص الفاروق، وأمير المؤمنين، ثاني الخلفاء الراشدين. أسلم قبل الهجرة بخمس سنين، فأظهر المسلمون دينهم. ولازم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان أحد وزيريه، وشهد معه المشاهد. بايعه المسلمون خليفة بعد أبي بكر، ففتح الله في عهده الفتوح، وضع التاريخ الهجري. ودون الدواوين. قتله أبو لؤلؤة المحوسبي وهو يصلي الصبح سنة 23 هـ. 1/ 38. ابن حجر العسقلاني، الإصابة، 4/ 484. الزركلي، الأعلام، 5/ 54.

⁴ الاصطلاء: افتعال من صلا النار والتسخن بها، ابن منظور، لسان العرب، 14/ 467.

الاصطفاء، قوله تعالى: ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ [طه: 10] الآية. قال الله: يا موسى، كيف تراني على البساط الفاني، اصبر حتى أجعلك باقياً حتى تراني، يا موسى منذ عشر سنين صرت راعياً لشعيب، والقلنسوة¹ على رأسك، والعصى في يدك لأجل بنت شعيب، وصرت أجيراً عشر سنين حتى وجدتها، وضممت أربعين يوماً تطلب مني الرؤية، يا موسى، سألت مني بالأمس نصف رغيف، قوله: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: 24] الآية، فالآن تسأل مني الرؤية، والرؤية غاية الكرامة، وغاية الكرامة هي لأكرم الخلق محمد صلى الله عليه وسلم، يا موسى، جعلت هارون واسطة بينك وبين قومك، فقلت: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ [الأعراف: 142] الآية، وجعلتُ الجبل بيني وبينك واسطة لتنظر إلى الجبل، يا موسى، جوابك في سؤالك الرؤية مكتوب في فص خاتمك، وكان مكتوباً على فص خاتمه: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: 38]²، ولما رجع موسى عن الجبل رأى الجبل قد تحول عقيقاً، قال: يا جبل ما لك حين مررت بك كنت حجراً، فالآن صرت عقيقاً؟ قال الجبل: يا موسى مالك حين مررت بي كنت راعياً والآن صرت نبياً وكليماً؟ انتهى كلام زهرة الرياض³.

﴿إِذْ رَأَى نَارًا﴾ [طه: 10] يجوز أن ينتصب "إذ" ظرفاً لـ "حديث"؛ لأنه حَدَثٌ، أو بمضمراً، أي: حين رأى ناراً كان كيت وكيت، أو مفعولاً لـ "اذكُر"⁴، قال [16/ب] في التحرير والتجوير: قيل: النار أربعة أقسام: نار تأكل ولا تشرب، وهي نار الدنيا، ونار تشرب ولا تأكل وهي النار التي في القداحة، ونار تأكل وتشرب، وهي نار الآخرة، ونار لا تأكل ولا تشرب، وهي نار موسى عليه السلام. وقيل: النار أيضاً أربعة أقسام: أحدها: نار لها نور بلا حرقة، وهي: نار موسى عليه السلام. وثانيها: نار لها حرقة بلا

¹ القُلْنَسُوةُ والقُلْنَسِيَّةُ والقُلْنَسَاةُ جمعها: قَلَانِسٌ وَقَلَانِسٌ وَقَلَانِسٌ، وهي من ملابس الرؤوس. المصدر نفسه، 181/6.

² سليمان بن داود، زهرة الرياض، اللوحة 130، أ/ب.

³ المصدر السابق، اللوحة 131/أ.

⁴ الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 3/ 53.

نور، وهي: نار جهنم. وثالثها: نار لها حرقة ونور، وهي: نار الدنيا. ورابعها: نار لا حرقة لها ولا نور، وهي: نار الأشجار، فلمَّا رأى النَّار توجه نحوها¹. قال في المدارك: إذ رأى ناراً في زعمه فكان نوراً²، ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا﴾ [طه: 10] أقيموا في مكانكم، ولم يقل: أقيموا؛ لأنَّ الإقامة تقتضي المبيت، والمكثُ يطلع على القليل والكثير. قال في التحرير: قيل: خاطب بذلك زوجته وولده والخادم الذي معهما، ويجوز أن يكون خاطب بذلك المرأة وحدها، لكن خرج على ظاهر لفظ الأهل، فإنَّ الأهل تقع على الجميع، وأيضاً فقد يخاطب الواحد بلفظ الجماعة تعظيماً له³ ﴿إِنِّي آنَسْتُ﴾ [طه: 10] أبصرت ﴿ناراً﴾ [طه: 10] والإيناس رؤية شيء يؤنس به⁴، وقال الزمخشري: الإيناس الإبصار البين الذي لا شبهة فيه، ومنه إنسان العين لأنَّه يَتَبَيَّنُّ به الشيء والإينس لظهورهم، كما قيل: الجن، لاستتارهم، انتهى⁵.

﴿لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا﴾ [طه: 10] قال الزمخشري: لما وجد منه الإيناس⁶ وكان مقطوعاً متيقناً، حققه لهم بكلمة "إنَّ"؛ ليوطنوا أنفسهم، ولما كان الإيتان بالقبس ووجود الهدى مُتَرَقِّبِينَ مُتَوَقِّعِينَ بنى الأمر فيهما على الرجاء والطمع، وقال: "لعل"، ولم يقطع، فيقول: "إني آتيكم"، لِئَلَّا يَعِدَ ما ليس يستيقن الوفاء به [17/أ]. ﴿بِقَبْسٍ﴾ شعلة من نار، قال الزمخشري: القبس النار المقتبسة في رأس عود أو فتيلة أو غيرهما. ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ [طه: 10]، قال الفراء⁷: هادياً، فذكره بلفظ المصدر. قال

¹ الرازي، مفاتيح الغيب، 16/22.

² النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 2/355.

³ الرازي، مفاتيح الغيب، 16/22.

⁴ النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 2/355.

⁵ الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 3/53.

⁶ قال الطيبي: "يُروى "وجد" معروفاً ومجهولاً، والأول أوجه لمطابقة "خيفة" لهم، أي: لما وجد موسى من نفسه الإيناس حققه للأهل بأن قال: (إِنِّي آنَسْتُ) بكلمة التحقيق" الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب، 10/135.

⁷ هو محمد بن عبد الوهاب بن حبيب بن مهران، أبو أحمد الفراء النيسابوري. من وجوه مشايخ نيسابور، وثقه مسلم، وذكره ابن حبان في الثقات. توفي: سنة 272 هـ. ابن حجر، تهذيب التهذيب، 9/319. 109. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، طبقات الحفاظ، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1403هـ)، 2/599.

الزنجشري: هدى أي: قوماً يهدونني الطريق، أو ينفعونني بهداهم في أبواب الدين، وذلك لأن أفكار الأبرار مغمورة بالهمة الدينية في جميع أحوالهم، لا يشغلهم عنها شاغل، والمعنى: ذوي هدى، أو إذا وجد الهداة فقد وجد الهدى¹. قال البازري²: ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ أي: على مصلى النار أهل هدى يدلونني على الطريق. قال النسفي: فكأنه قال: أجد على النار ما أهتدي به من دليل أو علامة³.

ومعنى الاستعلاء⁴ في (عَلَى النَّارِ): أَنَّ أَهْلَ النَّارِ يَسْتَعْلُونَ الْمَكَانَ الْقَرِيبَ مِنْهَا، كَمَا قَالَ سَيَّبُوهُ⁵ فِي: "مررت بزید" أَنَّهُ لُصُوقٌ بِمَكَانٍ يَقْرُبُ مِنْ زَيْدٍ، أَوْ لِأَنَّ الْمُصْطَلِينَ بِهَا وَالْمُسْتَمْتِعِينَ إِذَا تَكَنَّفُوهَا قِيَامًا وَقَعُودًا كَانُوا مُشْرِفِينَ عَلَيْهَا، وَمِنْهُ قَوْلُ الْأَعْشَى: وَبَاتَ عَلَى النَّارِ النَّدَى وَالْمُحَلَّقُ⁶.

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾ [طه: 11] أي: النار وجد ناراً بيضاء تتوقد من شجرة خضراء من أسفلها إلى أعلاها، وكانت شجرة العُتَاب، وقيل: العوسج، وقيل: كانت من العُلَيْق، ولم يجد عندها أحداً، وروي أنه

1 الزنجشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 3/ 53.

² هو إبراهيم بن المسلم بن هبة الله بن البازري، الحموي، الشافعي، قاضي حماة، تفقه بدمشق، درّس معرة النعمان، ثم في حماة، توفي: سنة 669هـ. عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، 1/ 112. أبو المحاسن، يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي، مال الدين، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، (مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، من دون طبعة، 1984م)، 1/ 176، الصفدي، الوافي بالوفيات، 6/ 94.

³ الرازي، مفاتيح الغيب، 16/22.

4 الزنجشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 3/ 53.

⁵ هو عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي، أبو بشر، الملقب بسبيويه: إمام النحاة، وأول من بسط علم النحو. ولد في إحدى قرى شيراز، صنف كتابه المسمى "كتاب سبيويه" في النحو، توفي سنة: 180هـ، وقيل: وفاته وقبره بشيراز. الزركلي، الأعلام، 5/ 81. عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، 8/ 10.

6 ورد في هامش المخطوط "المُحَلَّق": اسم رجل. والبيت من قصيدة للأعشى بمدح فيها المحلّق، وهو من بني عكاظ، كان فقيراً ولديه عشر بنات، فانعزل بهن إلى بعض الفقار، فنزل به الأعشى ضيفاً، فنحر له ناقته ولم يكن عنده غيرها، فعظم عند الأعشى، فلما أصبح وأراد المسير قال له: ألك حاجة؟ قال: نعم، أن تسير بذكري في بني عكاظ، لعل أحداً يرغب في بناتي، فمدحه في عكاظ فلم يلبث حتى خطبت بناته. ومطلعها:

لعمرى لقد لا حت عيون كثيرة ... إلى ضوء نار في يفاع يخرق

تشب لمقرورين يصطليانها ... وبات على النار الندى والمحلّق

رضيعي لبان ثدي أم تقاسما ... بأسحم داج عوض لا تنفرق

أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، (بيروت، دار الجليل، ط1401، 5هـ)، 1/ 48.

كُلَّمَا طَلَبَهَا بَعُدَتْ عَنْهُ، فَإِذَا تَرَكَهَا قَرُبَتْ مِنْهُ¹، فَوَقَّفَ مُتَعَجِباً مِنْ حَسَنِ تِلْكَ النَّارِ، وَشِدَّةِ خَضْرَاءِ تِلْكَ الشَّجَرَةِ، فَلَا شِدَّةَ حَرِّ النَّارِ تُغَيِّرُ حَسْنَ خَضْرَاءِ الشَّجَرَةِ، وَلَا كَثْرَةَ مَاءِ الشَّجَرَةِ وَلَا الْخَضْرَاءَ تَغْيِيرَ حَسَنِ ضَوْءِ النَّارِ². قَالَ الْبَغْوِيُّ³ فِي الْمَعْلَمِ: قَالَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ: لَمْ يَكُنِ الَّذِي رَأَاهُ مُوسَى نَاراً، بَلْ كَانَ نُوراً، ذُكِرَ بِلَفْظِ النَّارِ؛ لِأَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حَسِبَهُ نَاراً. وَقَالَ أَكْثَرُ الْمَفْسِّرِينَ: إِنَّهُ نُورُ الرَّبِّ، وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ [17/ب] وَعَكْرَمَةَ وَغَيْرَهُمَا. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ⁴: هِيَ النَّارُ بَعَيْنِهَا، وَهِيَ إِحْدَى حُجُبِ اللَّهِ تَعَالَى، يَدُلُّ عَلَيْهِ مَا رَوَى عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ⁵ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «حِجَابُ النَّارِ لَوْ كَشَفَهَا لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»⁶، وَفِي الْقِصَّةِ أَنَّ مُوسَى أَخَذَ شَيْئاً مِنَ الْحَشِيشِ الْيَابِسِ، وَقَصَدَ الشَّجَرَةَ، فَكَانَ كُلَّمَا دَنَا نَأَتْ مِنْهُ النَّارُ، وَإِذَا نَأَى دَنَتْ فَوْقَهُ مُتَحِيرًا، وَسَمِعَ تَسْبِيحَ الْمَلَائِكَةِ، وَأُلْقِيَتْ عَلَيْهِ السَّكِينَةُ. انْتَهَى⁷. قَالَ الْبِرْهَانَ النَّسْفِيُّ: وَرَأَى نُوراً عَظِيماً فَظَنَّ مُوسَى أَنَّهَا نَارٌ، فَأَخَذَ مِنْ دِقَاقِ الْحَطْبِ لِيَقْتَبِسَ مِنْ لَهَبِهَا، فَمَالَتْ إِلَيْهِ كَأَنَّهَا تَرِيدُهُ، فَتَأَخَّرَ عَنْهَا ثُمَّ دَنَا مِنْهَا فَتَأَخَّرَتْ عَنْهُ، ثُمَّ لَمْ يَكُنْ أَسْرَعَ مِنْ خَمُودِهَا كَأَنَّهَا لَمْ تَكُنْ، ثُمَّ رَمَى مُوسَى بَبَصَرِهِ إِلَى فَرْعِهَا، فَإِذَا خَضَرَتْهَا سَاطِعَةٌ فِي السَّمَاءِ، وَإِذَا نُورٌ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ تَكِلُّ عَنْهُ الْأَبْصَارُ، فَلَمَّا رَأَى مُوسَى ذَلِكَ وَضَعَ يَدَيْهِ عَلَى عَيْنَيْهِ،

¹ النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 2/ 358.

² من قول ابن عباس. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 11/ 171.

³ هو الحسين بن مسعود بن محمد أبو محمد البغوي. فقيه شافعي، محدث ومفسر، كان البغوي يلقب بمحبي السنة وبركن الدين. من تصانيفه: التهذيب في الفقه، شرح السنة في الحديث، معالم التنزيل في التفسير، الجمع بين الصحيحين، مصابيح السنة، شمائل النبي المختار. توفي سنة: 510هـ. ابن خلكان، وفيات الأعيان، 2/ 136. الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/ 259. الزركلي، الأعلام، 2/ 259.

⁴ هو سعيد بن جبيرة بن هشام الأسدي، من كبار التابعين. أخذ عن ابن عباس وأنس وغيرهما من الصحابة. خرج على الأمويين مع ابن الأشعث، فظفر به الحجاج فقتله سنة: 95هـ. ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، 4/ 11. الزركلي، الأعلام، 3/ 93.

⁵ هو عبد الله بن قيس بن سليم الأشعري، من أهل زبيد باليمن، صحابي جليل، قدم مكة فأسلم وهاجر إلى الحبشة، واستعمله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على زبيد وعدن. وولاه عمر بن الخطاب البصرة، وأقره عثمان عليها، وكان أحد الحكمين في التحكيم بين علي ومعاوية، ثم رجع إلى الكوفة وتوفي بها سنة: 44هـ. ابن حجر العسقلاني، الإصابة، 4/ 181. ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، 5/ 362. الزركلي، الأعلام، 4/ 114.

⁶ أخرجه مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب في قوله عليه السلام: إن الله لا ينام، 1/ 161 - 162، حديث رقم: 179.

⁷ البغوي، معالم التنزيل = تفسير البغوي، 3/ 257.

فنودي يا موسى. قال القاضي: تأخير النار لا يمكن إلا بعد النبوة، إذ هو معجزة له أو لغيره، وفي قوله: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ [طه: 13] دلالة على أنه في هذه الحالة أوحى الله تعالى إليه وجعله نبياً، وعلى هذا الوجه يبعد ما ذكره من تأخير النار عنه، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى﴾ يدل على فساد التأخر، لأنه لو صحَّ لما بقي لفاء التعقيب فائدة، والقاضي نفى هذا الاعتراض على مذهبه في أن الإرهاص¹ غير جائز عند أهل السنة، وأمّا فاء التعقيب فالتخلل بين المجيء والنداء بالزمان القليل لا يقدح²، انتهى كلام النسفي³. [18/أ] قال في التحرير والتحبير: من المتشابه في هذه السورة قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ [طه: 10]، وفي النمل: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبْرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [النمل: 7]، وفي القصص: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبْرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص: 29]، هذه الآيات الثلاث تشتمل على ذكر رؤية موسى النار، وأمره أهله بالملكث، وإخباره إياهم أنه آنس نارا، وإطماعه إياهم في أن يأتيهم بنار يصطلون بها، أو خبر يهتدون به إلى الطريق الذي ضلوا عنه، لكنه نقص من النمل ذكر رؤية موسى النار وأمره إياهم بالملكث اكتفاء بما تقدم، وزاد في القصص: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ﴾ [القصص: 29] المضروب، وسيره بأهله إلى مصر؛ لأنَّ الشيء قد يُجمل ثم يفصّل، وقد يفصّل ثم يُجمل، وفي طه فصّل، وأجمل في النمل، ثم فصّل في القصص وبالغ فيه، وقوله في هذه السورة: ﴿أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ

¹ هو ما يصدر من النبي صلى الله عليه وسلم قبل النبوة من أمر خارق للعادة، أي: تقديم المعجز على وقت الدعوى. علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني، التعريفات، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1403هـ)، 16.

² أي في فاء التعقيب. الرازي، مفاتيح الغيب، 18-16/22.

³ الرازي، مفاتيح الغيب، 18-17/22.

هُدًى ﴿ أَي: من يخبرني بالطريق فيهديني إليه، وإنما أُخِّرَ ذكر الخبر فيها وقدمه في غيرها مراعاة لفواصل الآي في السور جميعاً، وكرّر "لعلّي" في القصص وهنا لفظاً، وفي النمل معنى، لأنّ قوله: ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ [طه: 10]، نائب عن لعل، و(آتيكم) بمعنى لعل، وفي القصص ﴿أَوْ جَذْوَةٌ مِنَ النَّارِ﴾ [القصص: 29]، وفي النمل: ﴿بِشَهَابٍ قَبَسٍ﴾ [النمل: 7]، وفي هذه السورة: ﴿بِقَبَسٍ﴾ [18/ب] لأنّ الجذوة من النار خشبة في رأسها قَبَسٌ له شهاب، فهي في هذه السور الثلاث عبارة عن معنى واحد، وهذا برهان لامع، وأيضاً من المتشابه، قال في هذه السورة: ﴿فَلَمَّا أَنَاهَا﴾ [طه: 11]، وفي النمل: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا﴾ [النمل: 8]، وفي القصص: ﴿أَنَاهَا﴾ [القصص: 30]، وأتاها وجاءها بمعنى واحد، لكن لفظ الإتيان في طه كثير، نحو: ﴿أَتِيَاهُ﴾ [طه: 47]، ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ﴾ [طه: 58]، ﴿ثُمَّ أَنَّى﴾ [طه: 60]، ﴿ثُمَّ أَتَيْنَا صَفَاً﴾ [طه: 64]، ﴿حَيْثُ أَتَى﴾ [طه: 69]، ولفظ جاء في النمل أكثر، نحو: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ [النمل: 13]، ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ﴾ [النمل: 22]، ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ﴾ [النمل: 36]، فألحق القصص بطه لقرب ما بينهما، وقال في هذه السورة: ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ﴾ [طه: 40]، وفي القصص: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ﴾ [القصص: 13]، لأنّ الرجوع اللطيف، فخصّ طه به، وخصّ القصص بقوله: ﴿فَرَدَدْنَاهُ﴾ [القصص: 13]، تصديقاً لقوله سبحانه: ﴿إِنَّا رَادُوهُ وَإِلَيْكَ﴾ [القصص: 7]. انتهى كلام صاحب التحرير¹. وقال البازري في أسئلة القرآن: قد وقع اختلاف الألفاظ في هذه السور، وقد أخبر الله تعالى أنه: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82] فما وجه هذا الاختلاف في الإخبار عن قصة واحدة؟ مرّة قال لأهله: ﴿لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ [طه: 10] ومرّة قال: ﴿سَأَتِيكُمْ﴾ إلى غير ذلك، فوقع الاختلاف فيما قال لأهله، وفيما

¹ لم أجده كونه محطوط، ووجدته لدى محمود بن حمزة بن نصر، أبو القاسم برهان الدين الكرمانى، أسرار التكرار في القرآن المسمى البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجّة والبيان، (دار الفضيلة، من غير رقم طبعة وتاريخ)، 173-174.

خوطف به، والجواب: أن الله تعالى لم يخاطب موسى عليه السلام باللغة العربية حتى يؤدي اختلاف الألفاظ إلى اختلاف المعاني، ولا أخبر بمجموع القصة في كل سورة، بل أخبر ببعض في البعض، وبالبعض الآخر في البعض الآخر، وليس يدفع بعضه بعضاً، وأما قوله: ﴿نُودِيَ يَامُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَأَخْلَعُ عَلَيْكَ﴾ [طه: 11-12] الآية، فمما جرى ولم يُخبر به في غير هذه السورة، وكذلك القول في العصا [19/أ]، وسؤاله وتقريره على وصف حالها، انتهى كلامه¹. ﴿نُودِيَ﴾ [طه: 11] موسى من الشجرة ﴿يَامُوسَى إِنِّي﴾ [طه: 11-12] بكسر الهمزة، أي: نودي، فقيل: يا موسى إني؛ لأنّ النداء ضرب من القول، فعومل معاملة. وبالفتح² مكى وأبو عمرو أي: نودي أي، وفي سورة القصص: نودي من الشجرة أي: من جهتها وناحيتها. ﴿أَنَا رَبُّكَ﴾ [طه: 12] أنا: مبتدأ أو توكيد أو فصل، وكرّر الضمير في: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ لتوكيد الدلالة وتحقيق المعرفة وإمالة الشبهة. روي أنّه لما نودي يا موسى، قال: من المتكلم؟ فقال الله تعالى ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾، وأنّ إبليس وسوس إليه لعلك تسمع كلام شيطان، فقال: أنا عرفت أنه كلام الله تعالى، فإني أسمعه من جميع جهاتي الست، وأسمعه بجميع أعضائي³، وقال وهب: نودي من الشجرة فقيل: يا موسى، فأجاب سريعاً ما يدري من دعاه، فقال: إني أسمع صوتك ولا أرى مكانك، فأين أنت؟ فقال: أنا فوقك [19/ب] ومعك وأمامك وخلفك وأقرب إليك من نفسك،

¹ لم أجد الكتاب.

² البغدادي، كتاب السبعة في القراءات، 417.

³ الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 54/3.

فعلم أن ذلك لا ينبغي إلا لله عز وجل، فأيقن به¹. قال حافظ الدين في العقيدة: ثمَّ عند الأشعري² كلامه مسموع، وقال الشيخ أبو منصور³ رحمه الله: غير مسموع لاستحالة سماع ما ليس بصوت، وعند الشيخ أبي منصور: إنَّ موسى عليه السلام سمع صوتاً دالاً على كلام الله تعالى، وحُصَّ موسى بكونه كليم الله؛ لأنَّه بغير واسطة الكتاب والملك. انتهى⁴. قال البرهان النسفي: قال الأشعري: إنَّه تعالى أسمع الكلام القديم الذي ليس بحرف ولا صوت، وأمَّا المعتزلة⁵ فإنهم أنكروا وجود ذلك الكلام، وقالوا: إنَّه تعالى خلق ذلك النداء في جسم من الأجسام كالشجرة أو غيرها، وأمَّا أهل السنة من أهل ما وراء النهر فقد أثبتوا الكلام القديم، إلا أنهم زعموا أنَّ الذي سمعه موسى صوت خلقه الله تعالى في الشجرة، واحتجوا بالآية: على أنَّ المسموع هو الصوت المُحدَث، قالوا: إنَّ الله تعالى ربَّ النداء على أنَّه أتى النار، والمرتبُّ على المحدث محدث، فالنداء محدث⁶. واختلفوا في أنَّ موسى عليه السلام كيف عرف أنَّ المنادي هو الله تعالى؟

¹ أخرجه أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيبان، الزهد، أخبار موسى عليه السلام، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط2، 1420هـ)، 54، حديث رقم: 342. وأبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم، (المملكة العربية السعودية: مكتبة نزار مصطفى الباز، ط3، 1419هـ)، 9/ 2844، وعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، الدر المنثور، 5/ 555.

² هو أبو الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر إسحاق الأشعري، ولد بالبصرة وسكن بغداد، إمام المتكلمين، شافعي المذهب، رد على المعتزلة والشيعة وغيرهم، من تصانيفه: التبيين عن أصول الدين، خلق الأعمال، كتاب الاجتهاد. توفي سنة: 324هـ. ابن خلكان، وفيات الأعيان، 3/ 284. الزركلي، الأعلام، 4/ 263.

³ هو أبو منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي، نسبته إلى ما تريد بسمرقند، أصولي وإمام من أئمة المتكلمين. من تصانيفه: كتاب التوحيد، مآخذ الشرائع في الفقه، الجدل في أصول الفقه. توفي سنة: 333هـ. ابن أبي الوفاء، عبد القادر بن محمد بن نصر الله القرشي، أبو محمد، محيي الدين الحنفي، الجواهر المضنية في طبقات الحنفية، (كراتشي: مير محمد كتب خان، من دون طبعة وتاريخ النشر)، 2/ 130. أبو الحسنات محمد عبد الحي اللكنوي الهندي، الفوائد البهية في تراجم الحنفية، (مصر: دار السعادة، ط1، 1324هـ)، 1/ 195. الزركلي، الأعلام، 7/ 19.

⁴ النسفي، شرح العمدة في عقيدة أهل السنة والجماعة المسمى الاعتماد في الاعتقاد، 192 إلى 194.

⁵ المعتزلة: إحدى الفرق الإسلامية الكبيرة، مؤلفة من عشرين فرقة، وكلها تجتمع على القول بالأصول الخمسة، وهي: "التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر". الأشعري، مقالات الإسلاميين ص 105 - 278 الأسفرايني، الفرق بين الفرق 18. الشهرستاني، الملل والنحل، 1/ 43.

⁶ أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري، معالم أصول الدين، (بيروت: دار الكتاب العربي، 1404هـ)، 68.

فقال أهل السنة: يجوز أن يخلق الله له علماً ضرورياً بذلك، ويجوز أن يعرفه بالمعجزة، ثم اختلفوا في ذلك المعجز، فمنهم من قال: نحن نعلم قطعاً أنه تعالى عرفه ذلك بواسطة المعجزة، ولا حاجة لنا أن نعرف أن ذلك المعجز ما هو، وقيل: إن موسى عليه السلام لما شاهد النور الساطع من السماء إلى الشجرة، وسمع تسبيح الملائكة وضع يديه على عينيه ونودي يا موسى، فقال: لييك إني أسمع صوتك [20/أ] ولا أراك، فأين أنت؟ فقال: أنا معك وأمامك وخلفك ومحيط بك وأقرب إليك منك، ثم إن أبلis أخطر بباله ما يدريك أنك تسمع كلام الله، فقال: لأني أسمع من قدامي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي كما أسمع من قدامي، فعلمت أنه ليس من كلام المخلوقين، فسمعتهم بجميع أجزائهم وأبعاضهم، كأن كل عضو منه صار أذنًا. وقيل: أنه عليه السلام رأى النار في الشجرة الخضراء الرطبة الطرية، وهذا مما لا يقدر عليه أحد إلا الله، وقيل: لأنه سمع النداء من جماد، كالحصى مثلاً، فيكون ذلك معجزة. انتهى كلام النسفي¹. قال السلمي: قال جعفر: قيل لموسى عليه السلام: كيف عرفت أن النداء هو نداء الحق؟ قال: لأنه أفناني وشملني، فكأن كل شعرة مني كانت مخاطبة بنداء من جميع الجهات، وكأنها تعبر عن نفسها بجواب، فلمّا شملني أنوار الهيبة، وأحاطت بي أنوار العزة والجبروت، علمت أني مخاطب من جهة الحق، فلمّا كان أول الخطاب "إني" ثم بعده "أنا" علمت أنه ليس لأحد أن يخبر عن نفسه باللفظين جميعاً متتابعاً إلا الحق، فأذهشت وهو كان محل الفناء، فقلت: أنت أنت الذي لم تزل ولا تزال، وليس لموسى معك مقام ولا له جرأة الكلام، إلا أن تبقيه ببقائك، وتنعته بنعوتك، فتكون أنت المخاطب والمخاطب جميعاً، فقال: لا يحمل خطابي غيري، ولا يجيبني سواي، أنا المكلم وأنا المكلم، وأنت في الوسط شيخ يقع بك محل الخطاب. انتهى كلام السلمي².

¹ الرازي، مفاتيح الغيب، 17/22-18.

² السلمي، حقائق التفسير، 436/1.

﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ [طه: 12] انزعهما [20/ب]، ومن ثم طاف السلف بالكعبة حافين،

ومنهم من استعظم دخول المسجد بنعليه، وكان إذا ندر منه الدخول متنعلاً تصدق، والقرآن يدل على أنّ ذلك احترام للبقعة وتعظيم لها وتشريف لقدسها. والخلع: النزع، والنعل: ما جعلته وقاية لقدميك من الأرض. واختلف العلماء في السبب بعدم ذكر هذا الذي من أجله أمر بخلع نعليه، فقيل: كانتا نجستين لكونهما من جلد حمار ميت؛ فلذلك أمر بخلعهما صيانة للوادي المقدس، ولذلك قال عقبة: إنك بالوادي المقدس، وهذا¹ قول علي ومقاتل والكلبي والضحاك وقتادة² والسدي. وروى الترمذي³ عن عبد الله بن مسعود⁴ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «كَانَ عَلَى مُوسَى يَوْمَ كَلَّمَهُ رَبُّهُ كِسَاءُ صُوفٍ وَجُبَّةُ صُوفٍ، وَكُمَّةُ صُوفٍ، وَسَرَاوِيلُ صُوفٍ، وَكَانَتْ نَعْلَاهُ مِنْ جِلْدِ حِمَارٍ مَيِّتٍ»⁵، قال: هذا حديث غريب. والكُمَّة: القلنسوة الصغيرة، وقيل: إنما أمر بخلعهما لتنال قدماه بركة الوادي، قاله الحسن وسعيد بن جبير ومجاهد⁶. قال في التحرير: ويشكل على هذا قوله صلى الله عليه وسلم: « ليسمعون خفق نعالكم»⁷. وقيل: أمر وبعدم معنى هذا أيضاً: بخلع النعلين للتواضع والخشوع عند مناجاة الله تعالى. وقيل: وبعدم ذكر هذا أيضاً

¹ مقاتل، تفسير مقاتل بن سليمان، 22/3.

² هو قتادة بن دعامة بن قتادة السدوسي، أبو الخطاب البصري، ثقة ثبت، روى عن أنس وابن المسيب وعنه روى أيوب وحيد الأوزاعي وجماعة، توفي سنة: 171هـ، وقيل: 118هـ. ابن حجر العسقلاني، تقريب التهذيب، 453.

³ هو محمد بن عيسى بن يزيد بن سورة بن السكن، ابن عيسى السلمى، الترمذي الضريز، إمام، حافظ، بارع، مصنف (الجامع)، و(العلل)، وغير ذلك، توفي سنة: 279هـ. الذهبي، سير أعلام النبلاء، 13/270. الذهبي، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، 3/678.

⁴ عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي، أبو عبد الرحمن، من أكابر الصحابي. من أكابرهم، من السابقين إلى الإسلام، وأول من جهر بقراءة القرآن بمكة، وكان خادماً رسول الله الأمين، وصاحب سره، قال عمر فيه: وعاء ملئ علماً، ولي بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بيت مال الكوفة، له: 848 حديثاً، توفي في المدينة سنة: 32هـ. ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، 3/381. الزركلي، الأعلام، 4/137.

⁵ أخرجه الترمذي، سنن الترمذي، باب ما جاء في لبس الصوف، 4/224، حديث رقم: 1734. وأخرجه الحاكم، المستدرک على الصحيحين، 1/81، حديث رقم: 76، ضعيف جداً.

⁶ مجاهد، تفسير مجاهد، 460.

⁷ لدى مسلم بلفظ: "إنه ليسمع خفق نعالهم إذا انصرفوا". مسلم، صحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه، 4/2201، حديث رقم: 2870. أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، مسند أنس بن مالك، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1، 1421هـ)، 21/118، حديث رقم: 13446.

إعظاماً لذلك الموضع عن أن يطأه إلا حافياً؛ ليكون معظماً له، يؤيده قوله عقبه: ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوًى﴾، وهذا يفيد التعليل كأنه قال: اخلع نعليك لأنك بالوادي المقدس، كما أن الحرم لا يُدخل بنعلين إعظاماً له. قال سعيد بن جبير: قيل له: طأ الأرض حافياً¹ كما يدخل إلى الكعبة حافياً، والعرف عند الملوك أن يخلع النعال عند ملاقاتهم، ويُبلغ الإنسان إلى غاية التواضع [21/أ]، وكان موسى أمر بذلك، ولا يبالي كانت نعلاه من ميتة أو غيرها. وقد كان مالك² رحمه الله لا يرى لنفسه ركوب دابة بالمدينة النبوية إعظاماً لتربتها المحتوية على الأعظم الشريفة والجنة الكريمة، وقال أرباب الإشارات: المراد بالنعلين هنا الزوجة والولد؛ لأن النعل في النوم يعبر عنه بالزوجة والولد، فهو إشارة إلى ألا يلتفت بخاطره إلى الزوجة والولد. وقيل: المراد بخلع النعلين ترك الالتفات إلى الدنيا والآخرة كأنه أمره بأن يصير مستغرق القلب بالكلية في معرفة الله تعالى، ولا يلتفت بخاطره إلى ما سوى الله تعالى، وعلى هذا القول يكون المراد بالوادي المقدس قدس جلال الله تعالى، كأنه قال: إذا وصلت إلى الوادي المقدس فلا تلتفت إلى المخلوقات. قاله في التحرير³. قال السلمي: قال أبو سليمان⁴: اخلع نعليك ليصيب قدمك بركة الوادي، والوادي بركة قدمك، وقال الشبلي⁵: اخلع الكل منك، تصل إلينا بالكلية، فتكون ولا تكون، فتتحقق في غير الجمع، فيكون إخبارك عنا وفعلك فعلنا. وقيل: اخلع نعليك فإنك بعين موجدك. وقال جعفر: اقطع عنك

¹ مجاهد، تفسير مجاهد، 460.

² هو مالك بن أنس بن مالك الأصبحي الأنصاري إمام دار الهجرة، وأحد الأئمة الأربعة، أخذ العلم عن نافع مولى ابن عمر، والزهري، وربيعة الرأي وغيرهم. اشتهر في فقهه باتباع الكتاب والسنة وعمل أهل المدينة. من تصانيفه: الموطأ، تفسير غريب القرآن، المدونة، الرد على القدريّة، الرسالة إلى الليث بن سعد. توفي بالمدينة سنة: 179هـ. ابن خلكان، وفيات الأعيان، 135/4. ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، 5/10. الزركلي، الأعلام، 5/257.

³ الرازي، مفاتيح الغيب، 18/22.

⁴ في تفسير السلمي: أبو سفيان.

⁵ هو دلف بن جحدر الشبلي، أبو بكر البغدادي، خرساني الأصل، من النسك، ولي دنباوند، ثم الحجابة للموفق العباسي، فترك كل شيء وعكف على العبادة، له أشعار سلك بها مسالك الصوفية. توفي في بغداد سنة: 334هـ. الزرالصفي، الوافي بالوفيات، 14/18. كلي، الأعلام، 2/341. الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/544.

العلائق فإنك بأعيننا. وقال ابن عطاء: اخلع نعليك أي: أسقط عنك محل الفصل والوصل، فقد حصلت في وادي المقدس¹، وهو الذي يُطَهَّرُك عن الأحوال أجمع، ويُرَدُّك إلى مُحولها عليك. وقيل: في قوله تعالى: ﴿بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ أي اطو عنك بساط المخالفات فمن حصل في هذا الوادي طوي عن قلبه ما لا يكون مقدساً، قال ابن عطاء: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ انزع عنك قوة الاتصال والانفصال إنك بالوادي المقدس، أي: بوادي الانفراد معي ليس معك أحد سواي [21/ب]².

قال القرطبي: ويحتمل أن موسى أُمر بخلع نعليه، وكان ذلك أول فرض عليه، كما قيل لمحمد صلى الله عليه وسلم: ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ وَتِيَابِكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [المدثر: 2 إلى 5]، والله أعلم بالمراد من ذلك. قال القرطبي: وفي الخبر أن موسى عليه السلام خلع نعليه، وألقاها من وراء الوادي، وقال أبو الأحوص³: زار عبد الله أبا موسى في داره فأقيمت الصلاة، فقال أبو موسى لعبد الله: تقدّم، فقال له عبد الله: تقدم أنت في دارك، فتقدم ونزع نعله، فقال عبد الله: أبالوادي المقدس أنت؟ وفي صحيح مسلم⁴ عن سعيد بن زيد قال: « قُلْتُ لِأَنْسِ بْنِ مَالِكٍ : أَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي فِي النَّعْلَيْنِ؟

¹ السلمي، حقائق التفسير، 437/1.

² السلمي، حقائق التفسير، 437-436/1.

³ هو محمد بن الهيثم بن حماد بن واقد، أبو عبد الله الثقفى البغدادي أبي الأحوص، قاضي عكبرا، ثقة. وذكره ابن حبان في الثقات، روى عنه ابن ماجه وموسى بن هارون الحافظ وغيرهم. توفي: سنة 279هـ. ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، 9/ 498. الزركلي، الأعلام، 7/ 132.

⁴ هو مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري. من المحدثين. ولد بنيسابور، ورحل إلى الشام ومصر والعراق طلباً للحديث، وأخذ عن الإمام أحمد بن حنبل، ولازم البخاري واقتفى أثره. من تصانيفه: صحيح مسلم، المسند الكبير مرتب على الرجال، العلل، سؤلات أحمد، أوهام المحدثين. توفي: سنة 261هـ. ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، 10/ 126. الزركلي، الأعلام، 7/ 221.

قَالَ: نَعَمْ»¹. ورواه النسائي² عن عبد الله بن السائب³ «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَّى يَوْمَ الْفَتْحِ فَوَضَعَ نَعْلَيْهِ عَنْ يَسَارِهِ»⁴. وروى أبو داود⁵ من حديث أبي سعيد الخدري⁶ رضي الله عنه قال: «بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ إِذْ حَلَعَ نَعْلَيْهِ فَوَضَعَهُمَا عَنْ يَسَارِهِ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ الْقَوْمُ ذَلِكَ خَلَعُوا نِعَالَهُمْ، فَلَمَّا فَضَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَاتَهُ، قَالَ: مَا حَمَلَكُمُ عَلَى الْفَاءِ نِعَالِكُمْ، قَالُوا: رَأَيْنَاكَ أَلْقَيْتَ نَعْلَيْكَ فَأَلْقَيْنَا نِعَالَنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ جَبْرِيلَ أَتَانِي فَأَخْبَرَنِي أَنَّ فِيهِمَا قَدْرًا، وَقَالَ: إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ فَلْيَنْظُرْ: فَإِنْ رَأَى فِي نَعْلَيْهِ قَدْرًا أَوْ أَدَّى فَلْيُمْسِخْهُ وَلْيُصَلِّ فِيهِمَا»⁷. صححه أبو محمد بن عبد الحق⁸، وهو يجمع بين الحديثين قبله ويرفع بينهما

¹ أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب الصلاة في النعال، 86/1، حديث رقم: 286، ومسلم، صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب: جواز الصلاة في النعلين، 391/1، حديث رقم: 555.

² هو أحمد بن علي بن شعيب، النسائي الإمام المحدث، أصله من قرية "نسا" بخراسان، جال الأمصار يسمع الحديث ويلقى الشيوخ، ومات في الرملة بفلسطين سنة: 303هـ. من تصانيفه: السنن الكبرى، المجتبى وهو السنن الصغرى، الضعفاء، خصائص علي، فضائل الصحابة. ابن خلكان، وفيات الأعيان، 77/1. الزركلي، الأعلام، 171/1.

³ هو صيفي بن عابد بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة، أبو عبد الرحمن القرشي، المخزومي، المكي، مقرئ مكة، وله صحبة ورواية، من صغار الصحابة، قرأ القرآن على أبي بن كعب، وحدث عنه أيضاً، توفي في إمارة ابن الزبير. ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، 3/254. ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، 915/3. الذهبي، سير أعلام النبلاء، 413/4.

⁴ النسائي أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، المجتبى من السنن = المجتبى من السنن = السنن الصغرى، كتاب القبلة، باب: أين يضع الإمام نعليه إذا صلى بالناس، (حلب: مكتب المطبوعات الإسلامية، ط2، 1406)، 74/2، حديث رقم: 776. وأخرجه أحمد، مسند الإمام أحمد، مسند المكين، عبد الله بن السائب، 113/24، حديث رقم: 15392، صحيح.

⁵ هو سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير الأزدي السجستاني، أبو داود، إمام أهل الحديث في زمانه، من أصحاب الإمام أحمد. روى عنه المسائل، توفي في البصرة سنة: 275هـ. من مصنفاته: السنن، المراسيل، البعث. ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، 4/196. الزركلي، الأعلام، 122/3.

⁶ هو سعد بن مالك بن سنان الأنصاري، من صغار الصحابة. وهو من المكثرين للرواية، ممن بايعوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ألا تأخذهم في الله لومة لائم. شهد الخندق وما بعدها. توفي: سنة 74هـ. ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، 6/151. ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، 602/2. الذهبي، سير أعلام النبلاء، 17/322.

⁷ أخرجه أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السجستاني، سنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب الصلاة في النعل، (بيروت: المكتبة العصرية، ط1، 1430هـ)، 175/1، حديث رقم: 650، صحيح.

⁸ هو أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الحسين بن سعيد الأزدي الأندلسي الإشبيلي ابن الخراط، الفقيه الحافظ، عالم بالحديث وعلله، من تصانيفه: المعتل من الحديث، الرقاق، الأحكام الصغرى، الأحكام الوسطى. توفي سنة: 581هـ. الذهبي، سير أعلام النبلاء، 15/368.

التعارض، ولم يختلف العلماء في جواز الصلاة في النعال إذا كانت طاهرة مذكى، حتى لقد قال بعض العلماء: الصلاة فيهما أفضل¹، وهو معنى قوله تعالى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: 31]، على ما تقدم. وعن إبراهيم النخعي² في الذين يخلعون نعالهم: وددتُ أن محتاجاً جاء وأخذها³. قال القرطبي [22/أ] فإن خلعتهما فاخلعهما بين رجلك، فإن أبا يزيد⁴ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلْيَخْلَعْ نَعْلَيْهِ بَيْنَ رِجْلَيْهِ»⁵، وقال أبو هريرة للمقبري: «اخْلَعُهُمَا بَيْنَ رِجْلَيْكَ وَلَا تُؤْذِ بِهِمَا مُسْلِمًا»⁶، وما رواه عبد الله بن السائب «أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خَلَعَهُمَا عَن يَسَارِهِ»⁷ فإنه كان إماماً، فإن كنت إماماً، أو وُحِدَكَ فافعل ذلك إن أحببت، وإن كنت مأموماً في الصف، فلا تؤذ بهما من على يسارك، ولا تضعهما بين قدميك فيشغلاك، ولكن قُدِّم قدميك، وروي عن جبير بن

¹ قال الشوكاني: حديث: "خالقوا اليهود؛ فإنهم لا يصلون في نعالهم، ولا في خفافهم" أقلُّ أحواله الدلالة على الاستحباب. محمد بن علي بن آدم بن موسى الإتيوبي الولوي، البحر المحيط الثجاج في شرح صحيح الإمام مسلم بن الحجاج، (الدمام: دار ابن الجوزي، ط1، 1426هـ)، 392/12.

² هو أبو عمران إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود بن عمرو بن ربيعة بن ذهل بن سعد بن مالك النخعي، اليماني، ثم الكوفي، أحد الأعلام، إمام، حافظ، فقيه العراق، كان بصيراً بعلم ابن مسعود، واسع الرواية، توفي سنة: 96هـ. محمد بن سعد بن منيع الزهري، الطبقات الكبير، (القاهرة، مكتبة الخانجي، ط1، 1421هـ)، 401/8. الذهبي، سير أعلام النبلاء، 520/4.

³ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 174/11.

⁴ لدى القرطبي: "أبو هريرة". المصدر نفسه.

⁵ أخرجه الحاكم على شرط البخاري ومسلم من طريق أبي هريرة. الحاكم، المستدرک علی الصحیحین، كتاب الطهارة، 391/1، حديث رقم: 957. صحيح.

⁶ أخرجه أبو جعفر محمد بن عمرو بن موسى بن حماد العقيلي المكي، الضعفاء الكبير، (بيروت: دار المكتبة العلمية، ط1، 1404هـ)، باب العين، عبد الله بن زياد بن سليمان، 261/2.

⁷ أخرجه أحمد، مسند الإمام أحمد بن حنبل، مسند المكين، عبد الله بن السائب، 113/24، حديث رقم: 15392. وأبو داود، سنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب الصلاة في النعل، 175/1، حديث رقم: 648، صحيح.

مطعم¹ أنه قال: وَضَعُ الرجل نعليه بين قدميه بدعة²، قال القرطبي: فإن تحقق فيهما نجاسة مجمع على تنجسها، كالدّم والعذرة من بول بني آدم لم يُطهرها إلا الماء عند مالك والشافعي³ وأكثر العلماء⁴، وإن كانت النجاسة مختلفاً فيها، كبول الدواب وأرواثها الرطبة، فهل يطهرها المسح بالتراب من النعل والخف أم لا؟ قولان عندنا⁵، وقال أبو حنيفة⁶ رحمه الله: يزيله الحك والفرك، والرطب لا يزيله إلا الغسل، ما عدا البول فلا يجزئ فيه عنده إلا الغسل⁷، وقال الشافعي: لا يطهر شيء من ذلك كله إلا بالماء⁸. انتهى كلام

¹ هو جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف، يكنى أبا محمد، وقيل أبا عدي. كان من علماء قريش وساداتهم ونسأبائهم، كان يقول: "أخذت النسب عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه"، أسلم بين الحديبية والفتح، وله 60 حديثاً. توفي سنة: 58هـ. ابن حجر العسقلاني، الإصابة، 1/570. ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، 1/515. الزركلي، الأعلام، 2/112.

² يحتتمل أن تكون السنة لبسهما حال الصلاة كما كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يفعل أحياناً، ويحتتمل أن السنة وضعهما أمام القدمين لا بينهما. ابن السبكي الزبيدي العراقي، تخريج أحاديث إحياء علوم الدين، (الرياض: دار العاصمة للنشر، ط1، 1408هـ)، 1/458، برقم: 525.

³ هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن يزيد بن هاشم بن عبد المطلب بن عبد مناف، أبو عبد الله الشافعي. أحد أئمة المذاهب الأربعة. قال عنه الإمام أحمد: " ما أحد ممن بيده محبرة أو ورق إلا وللشافعي عليه منة "، توفي في مصر سنة: 204 هـ. من تصانيفه: الأم في الفقه، الرسالة في أصول الفقه، أحكام القرآن، اختلاف الحديث، وغيرها. الذهبي، تذكرة الحفاظ، 1/265. السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، 1/192، الزركلي، الأعلام، 6/26.

⁴ أبو عمر بن عبد البر النمري القرطبي، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد في حديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، (لندن: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ط1، 1439هـ)، 6/217. أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي، الاستذكار، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1421)، 1/171.

⁵ ويقصد بها لدى مذهب المالكية، لأن المسألة منقولة عن النقرضي، وهو مالكي المذهب. أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي، البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل لمسائل المستخرجة، (بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط2، 1408هـ)، 1/154.

⁶ هو النعمان بن ثابت بن كاوس بن هرمز، أحد أئمة المذاهب الأربعة، قيل: أصله من أبناء فارس، ولد ونشأ بالكوفة، كان يبيع الخبز ويطلب العلم، ثم انقطع للدرس والإفتاء. قال فيه الإمام مالك: رأيت رجلاً لو كلمته في هذه السارية أن يجعلها ذهباً لقام بحجته، وقال الإمام الشافعي عنه: الناس في الفقه عيال على أبي حنيفة. من تصانيفه: مسند في الحديث، المخارج في الفقه، وتنسب إليه رسالة الفقه الأكبر في الاعتقاد، رسالة العالم والمتعلم. توفي: سنة 150هـ. ابن خلكان، وفيات الأعيان، 5/405. الصفدي، الوافي بالوفيات، 27/89. ابن أبي الوفاء، الجواهر المضوية، 1/26. الزركلي، الأعلام، 8/36.

⁷ كمال الدين محمد بن عبد الواحد السيواسي ثم السكندري، المعروف بابن الهمام الحنفي، فتح القدير على الهداية، (القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط1، 1970م)، 1/195. عبد الله بن محمود بن مودود الموصللي البلدحي، مجد الدين أبو الفضل الحنفي، الاختيار لتعليل المختار، (القاهرة: مطبعة الحلبي، ط1، 1937م)، 31/33.

⁸ أبو الحسين يحيى بن أبي الخير بن سالم العمراني اليميني الشافعي، البيان في مذهب الإمام الشافعي، (جدة: دار المنهاج، ط1، 1421هـ)، 2/97. أبو عمر بن عبد البر النمري القرطبي، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد في حديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، (لندن: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ط1، 1439هـ)، 6/217.

القرطبي¹. ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ﴾ [طه: 12] المطهَّر أو المبارك. قال القرطبي: والأرض المقدسة المطهرة سُمِّيَتْ بذلك؛ لأنَّ الله أخرج منها الكافرين وعمرها بالمؤمنين. قال القرطبي: وقد جعل الله تعالى لبعض الأماكن زيادة فضل على بعض، كما قد جعل لبعض الأزمان زيادة فضل على بعض، ولبعض الحيوان كذلك، والله أن يفعل ما يشاء، وعلى هذا فلا اعتبار بكونها مقدسة بإخراج [22/ب] المشركين، وإسكان المؤمنين فقد شاركه في ذلك غيره². ﴿طُوى﴾ [طه: 12] حيث كان منونٌ شامي³ وكوفي⁴، لأنَّه اسم علم للوادي، وهو بدل، وغيرهم⁵ بغير تنوين بتأويل البقعة، وقرأ أبو زيد⁶ بكسر الطاء بلا تنوين⁷. قال الجوهرى⁸: وطوى: اسم موضع بالشام تُكسر طائه وتُضم، يُصرف ولا يصرف، فمن صرفه جعله اسم وادٍ ومكان، وجعله نكرة، ومن لم يصرفه جعله بلدة وبقعة، وجعله معرفة، وقالوا في قوله: ﴿الْمُقَدَّسِ طُوى﴾ طُوي مرتين، أي: قدِّس. وقال الحسن: تُتيت فيه البركة والتقديس مرتين، أي: قدِّس الوادي كرة بعد كرة⁹.

¹ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 11/174.

² المصدر نفسه، 11/175.

³ هو عبد الله بن عامر بن يزيد بن تميم بن ربيعة بن عامر، أبو عمران، الشامي، اليحصبي، أحد القراء السبعة، كان إمام الشام في القراءة، وانتهت إليه مشيخة الإقراء بها، وكان إمام الجامع بدمشق، أخذ القراءة عرضاً عن أبي الدرداء والمغيرة بن أبي شهاب وغيرهما. توفي: سنة 118هـ. ابن الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء، 1/423. الزركلي، الأعلام، 4/95.

⁴ المقصود بكوفي: عاصم وَحَمزة والكسائي. أبو بكر البغدادي، السبعة في القراءات، 671.

⁵ أي: ابن كثير وَنافع وَأَبُو عَمْرٍو. المصدر نفسه.

⁶ هو سعيد بن أوس بن ثابت بن بشير بن ثابت الخزرجي الأنصاري البصري أبو زيد، نحوي ولغوي، من تصانيفه: لغات القرآن، اللآمات، الجميع والثنتية، النوادر، غريب القرآن. توفي سنة: 215. ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، 4/3. الصفدي، الوافي بالوفيات، 125/15. الزركلي، الأعلام، 3/92.

⁷ عثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر أبو عمرو الداني، جامع البيان في القراءات السبع، (الإمارات: جامعة الشارقة، ط1، 1428)، 1687/4. أحمد بن موسى بن العباس التميمي، أبو بكر بن مجاهد البغدادي، كتاب السبعة في القراءات، 417.

⁸ هو أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهرى الفارابي، لغوي، ومن أشهر كتبه "الصحاح". وله كتاب في (العروض) ومقدمته في (النحو) أول من حاول الطيران، ومات في سبيله سنة: 393هـ. الزركلي، الأعلام، 1/313.

⁹ الفارابي، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، 6/2416.

وذكر المهدي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قيل له: طَوَى؛ لأنَّ موسى طواه بالليل، فكان المعنى: بالوادي المقدس الذي طويته طياً، أي: قطعته حتى ارتفعت إلى أعلاه¹.

﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾ [طه: 13] اصطفتك للنبوة والرسالة، ﴿وَأَنَا اخْتَرْنَاكَ﴾ حمزة²، قال النسفي: معناه اخترتك للرسالة، والكلام المخصوص لك، وهذه الآية تدلُّ على أنَّ ذلك المنصب العالي إنما حصل؛ لأنَّه تعالى اختاره له ابتداءً³، وقال السلمي في تفسيره: قال الواسطي: قوله: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾ المختار من جهة من هو مصطنعه ومصطفيه ومربيه على يدي أعدائه، والملقي محبته في قلوب عباده، فلم يستطيعوا له إلا محبة، والمطلق لسانه محل العقدة والميسر له أمره، فلا يعسر عليه مطلوب بحال، كل هذا يُقدَّم إليه ويُمنَّ به عليه؛ ليكون ثابتاً عند مكافحة الخطاب ومواجهة الوحي والكلام⁴. ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ [طه: 13] إليك، ما: موصولة، أي: للذي يوحى، أو مصدرية، أي: للوحي، واللام تتعلق "باستمع"، أو "باخترتك"، قوله: ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ [طه: 13]، نهاية الهيبة والجلالة، كأنَّه قال: لقد جاءك أمر عظيم، نهاية الرجاء، ومن الثاني نهاية الخوف، قاله البرهان النسفي⁵. وقال في التحرير: قوله: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ [طه: 13] تقرير الكلام: وأنا اخترتك لوحي ورسالتني فاستمع لما يوحى إليك من كلامي. قال ابن عطية⁶: وحدثني أبي رحمه الله قال: سمعت أبا الفضل الجوهري⁷ رحمه الله يقول:

¹ أخرجه الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، 280/18.

² البغدادي، السبعة في القراءات، 417.

³ الرازي، مفاتيح الغيب، 22/19.

⁴ السلمي، حقائق التفسير، 437/1.

⁵ الرازي، مفاتيح الغيب، 19/22.

⁶ هو عبد الحق بن غالب بن عطية، أبو محمد المحاربي، من أهل غرناطة. أحد القضاة بالبلاد الأندلسية، عالماً بالأحكام والحديث والتفسير، من تصانيفه: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. توفي: سنة 542هـ. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، طبقات المفسرين العشرين، (القاهرة: مكتبة وهبة، ط1، 1396هـ)، 60/1. الزركلي، الأعلام، 282/3.

⁷ لم أقف عنده.

لما قيل لموسى عليه السلام: استمع لما يوحى وقف على حجر ووضع يمينه على شماله وألقى ذقنه على صدره ووقف يستمع وكان كل لباسه صوفاً¹. قال القرطبي: حُسْنُ الاستماع كما يُحِبُّ اللهُ قد مدحه الله تعالى فقال: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ﴾ [الزمر: 18]، ولذلك ذمَّ على خلاف هذا الوصف فقال: ﴿تَحْنُ أَعْلَمَ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ﴾ [الإسراء: 47] الآية. فمدح المنصت لسماع كلامه مع حضور العقل، وأمر عباده بذلك أدباً لهم فقال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ [الأعراف: 204]، وقال هنا: ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ لأنَّ بذلك يُنال الفهم عن الله تعالى، روي [23/أ] عن وهب بن منبه أنه قال: من أدب الاستماع سكونُ الجوارح وغيضُ البصر، والإصغاء بالسمع، وحضور العقل والعزم على العمل، وذلك هو الاستماع كما يجب الله تعالى، وهو أن يكف العبد جوارحه، ولا يُشغِلها بغيره، فيشتغل قلبه عما يسمع، ويغض طرفه فلا يلهو قلبه بما يرى، ويحضر عقله فلا يحدث نفسه بشيء سوى ما يستمع إليه، ويعزم على أن يفهم فيعمل بما يفهم، وقال سفيان بن عيينة²: أول العلم الاستماع ثم الفهم ثم الحفظ ثم العلم، ثم النشر³، فإذا استمع العبد إلى كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم بنية صادقة على ما يجب الله أفهمه كما يجب وجعل له في قلبه نوراً. انتهى كلام القرطبي⁴. ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ [طه: 14] وخذني وأطعني، وقد جاءت العبادة بمعنى التوحيد في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ معناه ليوحدون.

¹ ابن عطية الأندلسي، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام المحاربي، الخمر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1422 هـ)، 39/4.

² هو سفيان بن عيينة بن أبي عمران، أبو محمد، الهلالي، الكوفي. سكن مكة، أحد الثقات الأعلام، أجمعت الأمة على الاحتجاج به. وكان يدلّس، لكن المعهود منه أنه لا يدلّس إلا عن ثقة. وكان قوي الحفظ، وقال الشافعي: ما رأيت أحداً من الناس فيه جزالة العلم ما في ابن عيينة، وما رأيت أحداً فيه من الفتيا ما فيه ولا أكفَّ عن الفتيا منه، توفي سنة: 198 هـ. ابن خلكان، وفيات الأعيان، 391/2.

³ أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، فتح الباري شرح صحيح البخاري، باب: الإنصات للعلماء، (بيروت: دار المعرفة، 1379 هـ)، 217/1. البيهقي، شعب الإيمان، فصل: قال: وينبغي لطالب العلم أن يكون تعلمه وللعلم أن يكون تعليمه لوجه الله تعالى، 289/2، رقم: 1797.

⁴ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 176/11. الذهبي، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، 170/2.

قال صاحب التحرير: وقوله: ﴿فَاعْبُدْنِي﴾ لفظ عام يتناول جميع ما كلفه الله به من عبادته، فبدأ منها بالصلاة فقال: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ لأنها أفضل الأعمال إلى الله وأحبها له وأنفعها للعبد في الآخرة¹.

قال البرهان النسفي: وقوله: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ يدل على أن علم الأصول مقدم على علم الفروع إذ التوحيد من الأصول والعبادة من الفروع، وأيضاً الفاء في قوله: ﴿فَاعْبُدْنِي﴾ تدل على أن عبادته لازمة لإلهيته، أمره بالتوحيد أولاً، ثم بالعبادة ثانياً، ثم بالصلاة ثالثاً، أمره بالعبادة ولم يبين كيفية العبادة، وأمر بالصلاة ولم يبين كيفيتها، وهذا يدل على أن تأخير البيان عن الخطاب جائز [23/ب].

قال القاضي: لا يمتنع أن موسى عليه السلام قد عرف الصلاة، وهي الصلاة التي أمر الله تعالى بها شعبياً وغيره من الأنبياء، والجواب: أن حمل مثل هذا الخطاب العظيم على فائدة جديدة أولى من حمله على الذي كان من قبل². قال السلمي: قوله: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ قال الواسطي: لا تشغل قلبك بغيري قولاً وفعلاً، ولا تكن من أبناء الأفعال والإحصاء والأعمار والدهور، كن من أبناء الأزل والأبد مطالعاً لما سبق في الأولوية، وجرى لك في الآخرة، وإن كان كلاهما واحداً. وقال ابن عطاء: إشارة إلى حقيقة الحق، إذ الأزل والأبد علة، وذكر الأوقات والدهور علة. وقال الواسطي: أظهر الله تعالى هذا الخلق في شموخ وعلو في أنفسهم، وأمرهم لعلّة الفاقة لا لعلّة الاستغناء، تنسماً لرؤية الاضطرار، قال الله تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ أحب أن يريه عجزه. قيل للواسطي: بالعبرانية خاطب موسى، ثم وصف لمحمد صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾، هل تلوّنت الصفة بذلك؟ قال: لو لوّنتها اختلاف اللغات لتلونت في اختلاف الأوامر والنواهي. وقال الحسن: لا إله إلا الله تنظيف البشر عن الآلهة، وإذا خلا السر عن تعظيم غيره فلا وجه لهذا القول. وقال الواسطي في هذه

¹ لم أجده.

² الرازي، مفاتيح الغيب، 18/22-19.

الآية: ابتدأه بالتوحيد وختّم بلسان الطاعة. انتهى كلام السلمي¹، وفي التحرير: قال: أولاً: أنا ربك، وثانياً: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ لتوكيد المضمّر توكيداً للربوبية، وتحقيقاً للألوهية، وبياناً للوحدانية. انتهى².

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: 14] أي: لِتَذَكُرْنِي فِيهَا؛ لاشتغال الصلاة على الأذكار، أو لأني ذكرتها في الكتب وأمرت بها، أو لأن أذكرك بالمدح والثناء، أو لذكري خاصة [24/أ] لا تشوبه بذكر غيري، أو لتكون لي ذاكراً غير ناسٍ، أو لأوقات ذكري، وهي مواقيت الصلاة، كقوله: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْفُوتًا﴾ [النساء: 103]، وقد حمل على ذكر الصلاة بعد نسيانها، وذا يصح بتقدير حذف مضاف، أي: لذكر صلاتي، لقوله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ نَامَ عَنْ صَلَاةٍ أَوْ نَسِيَهَا فَلْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: 14]» رواه مالك وغيره³، وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: في الرجل يرقد عن الصلاة ويغفل عنها قال: «كَفَّارَتُهَا أَنْ يُصَلِّيَهَا إِذَا ذَكَرَهَا»⁴، وروى الدارقطني عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ نَسِيَ صَلَاةً، فَوَقْتُهَا إِذَا ذَكَرَهَا»⁵، وقوله: "لْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا" دليل على وجوب القضاء على النائم والغافل كثرت الصلاة أو قلّت، وهو مذهب عامة العلماء، وقد حكي خلاف شاذ لا يعتد به⁶، أن ما زاد على

¹ السلمي، حقائق التفسير، 437/1-438.

² لم أجده.

³ مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني، موطأ مالك برواية محمد بن الحسن الشيباني، أبواب الصلاة، باب: الرجل ينسى الصلاة أو تفوته عن وقتها، (بيروت: المكتبة العلمية، ط2)، 78، حديث رقم: 184. مسلم، صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب: قضاء الصلاة الفائتة، واستحباب تعجيل قضائها، 471/1، حديث رقم: 680.

⁴ النسائي، المجتبى من السنن = السنن الصغرى، باب: فيمن نام عن الصلاة، 293/1، حديث رقم: 614. أحمد، مسند الإمام أحمد، مسند أنس بن مالك رضي الله عنه، 34/19، حديث رقم: 11972. إسناده صحيح على شرط الشيخين.

⁵ أخرجه الدارقطني، أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي بن مسعود بن النعمان بن دينار البغدادي، سنن الدارقطني، كتاب الصلاة، باب: وقت الصلاة المنسية، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1، 1424 هـ)، 298/2، حديث رقم: 1565. وأخرجه أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الحُسْرُوْجْردي الخراساني، السنن الكبرى، أبواب صفة الصلاة، باب: لا تفريط على من نام عن صلاة... (بيروت: دار الكتب العلمية، ط3، 1424 هـ)، 310/2، حديث رقم: 3183، ضعيف.

⁶ وهم بعض الظاهرية.

خمس صلوات لا يلزمه قضاؤه¹. قال القرطبي: أمر تعالى بإقامة الصلاة، ونصَّ على أوقاتها معينة، فقال: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ [الإسراء: 78] الآية، وغيرها من الآي، ومن أقام بالليل ما أمر بإقامته بالنهار أو بالعكس، لم يكن فعله مطابقاً لما أمر به، ولا ثواب له على فعله، وهو عاص، وعلى هذا الحد كان لا يجب عليه قضاء ما فات وقته، ولولا قوله صلى الله عليه وسلم: «لِيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا» لم ينتفع أحد بصلاة وقعت في غير وقتها، وبهذا الاعتبار كانت قضاء لا أداء؛ لأنَّ القضاء بأمر متجدد وليس بالأمر الأول، فأما من ترك الصلاة متممداً² فالجمهور على وجوب القضاء عليه³، وإن كان عاصياً، إلا عند داود⁴. قال القرطبي: وقوله صلى الله عليه وسلم: «من نام عن صلاة أو نسيها» الحديث يخصُّ عموم [24/ب] قوله صلى الله عليه وسلم: «رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ، عَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ»⁵ والمراد بالرفع هنا رفع المأثم لا رفع الفرض عنه، وليس هذا من باب قوله: وعن الصبي حتى يبلغ، وإن كانا جاءا في أثر واحد فقف على هذا الأصل، انتهى كلام القرطبي⁶. وقال صاحب التحرير: اختصت الصلاة بالذكر دون سائر

¹ أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد القرطبي الشهير بابن رشد الحفيد، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، (القاهرة: دار الحديث، بدون طبعة، 1425هـ)، 1/192.

² الفرق بين المتمم والنائم، حط الإثم عن الناسي، المتمم مأثوم، وجميعهم قاضون، ودليل الجمهور قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: 43]، ولم يفرق أن يكون في وقتها أو بعدها. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 11/178-179.

³ أبو زكريا محيي الدين بن شرف النووي، المجموع شرح المهذب، (القاهرة: إدارة الطباعة المنيرية، مطبعة التضامن الأخوي، بدون طبعة، 1347هـ)، 3/71. محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن الحسين المعروف بـ «بدر الدين العيني»، البناية شرح الهداية، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1420هـ)، 2/582. أبو العباس أحمد بن محمد الحلبي، الشهير بالصاوي المالكي، بلغة السالك لأقرب المسالك المعروف بمجاشية الصاوي على الشرح الصغير، (القاهرة: مكتبة مصطفى البابي الحلبي، 1952م)، 1/131. أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة، المغني، (القاهرة: مكتبة القاهرة، ط1، 1388هـ)، 1/439.

⁴ هو أبو سليمان داود بن علي بن خلف الأصبهاني الإمام المشهور المعروف بالظاهري، ينسب إليه مذهب الظاهرية، كان موصوفاً بالزهد والورع، أخذ العلم عن إسحاق بن راهويه وأبي ثور والشافعي وغيرهم، وافته المنية في بغداد سنة: 270 هـ. الذهبي، تذكرة الحفاظ، 2/115. القرطبي، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، 1/192. الزركلي، الأعلام، 2/333.

⁵ أخرجه أبو داود، سنن أبو داود، كتاب الحدود، باب: في الجنون يسرق أو يصيب حداً، 4/139، حديث رقم: 4398. وأخرجه الترمذي، سنن الترمذي، أبواب: الحدود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب: ما جاء فيمن لا يجب عليه الحد، 4/32، حديث رقم: 1423، صحيح.

⁶ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 11/178.

العبادات؛ لأنها أفضلها، وأوّل ما يحاسب العبد عليها، ولا يسقط أداؤها بحال، ولأنّها جمعت جميع عبادات الملائكة، ولأنّ المصلي يناجي ربه، وأمور آخر يتميز بها على سائر الطاعات. انتهى¹.

﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ﴾ [طه: 15] لا محالة ﴿أَكَادُ﴾² [طه: 15] أريد، قاله الأخفش. وقيل:

صلة، أي: الساعة آتية أخفيها ﴿أَخْفِيهَا﴾ [طه: 15] قيل: هو من الأضداد أي: أظهرها، أو معناه:

أسترها عن العباد، فلا أقول هي آتية لفرط إرادتي إخفاءها، ولولا ما في الإخبار بإتيانها مع تعمية وقتها

من الحكمة، وهي أنهم إذا لم يعلموا متى تقوم، كانوا على وجل منها في كل وقت لما أخبرتك به، قال

الزمخشري: وقيل: معناه: أكاد أخفيها من نفسي، ولا دليل في الكلام على هذا المحذوف، ومحذوفٌ لا

دليل عليه مُطَّرَحٌ، والذي غَرَّهم منه أنّ في مصحف أبي³: "أكاد أخفيها من نفسي"، وفي بعض

المصاحف: "أكاد أخفيها من نفسي، فكيف أظهركم عليها"⁴. قال في التحرير: الساعة هاهنا يوم القيامة

¹ لم أجده.

² ذكر في المسألة ستة أقوال:

القول الأول: ذكر ابن جرير أنّ المراد أكاد أخفيها من نفسي لئلا يطلع عليه أحد، وقال: أنه قول أكثر أهل العلم وهو الراجح لديه، وضعفه الزمخشري؛ لأنّه لا دليل على المحذوف (من نفسي). القول الثاني: ذكر الزمخشري: أنّها من الأضداد والمعني أكاد أظهرها، وقد ذكره ابن عطية والرازي والقرطبي، وضعفه ابن جرير. القول الثالث: ذكره الرازي والقرطبي والبغوي: أن أكاد: بمعنى أريد أخفيها، وقد وضعفه ابن جرير. القول الرابع: أن الخبر في هذه الآية ينتهي عند قوله تعالى: أكاد، ثم ابتداء بقوله تعالى: أخفيها، وعليه يكون المعنى: ولكنني أخفيها، وقد ضعف هذا القول ابن جرير والرازي وغيره. القول الخامس: أكاد تأتي بمعنى الصلّة، وهي زائدة، وقد ذكره الرازي والقرطبي وغيرهم. القول السادس: المعنى: أكاد أخفيها فلا أخبر أنّها واقعة لفرط إرادتي إخفاءها، وقد رجح هذا القول ابن عطية، وذكره الزمخشري وغيره وهو الراجح والله واعلم، وذلك؛ لأن الله تعالى ذكر الساعة في هذه الآية ولم يذكر الوقت، وعليه يكون المعنى كما ذكر والله اعلم. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 11/182. البغوي، معالم التنزيل، 3/258. ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 2/355. لرازي، مفاتيح الغيب، 2/22. الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 3/55. أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، 6/8.

³ أبي بن كعب بن قيس بن عبيد، من بني النجار، من الخزرج، كان قبل الإسلام حبراً من أحبار اليهود، مطلعاً على الكتب القديمة، يكتب ويقرأ، ولما أسلم كان من كتاب الوحي. وشهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان يفتي على عهده. وشهد مع عمر بن الخطاب وقعة الجابية، وكتب كتاب الصلح لأهل بيت المقدس. وأمره عثمان بجمع القرآن، فاشترك في جمعه، مات سنة: 21هـ. ابن سعد، الطبقات الكبير، 3/378. الزركلي، الأعلام، 1/82.

⁴ الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 3/56.

بلا خلاف، وإنما سمي يوم القيامة ساعة لسرعة الفراغ من الحساب والقضاء، وقد جرت عادة العرب بالتعبير عن الواقع بالوقوع في ساعة، وأراد زمان الوقوع على ساعة زمانية، وجه ارتباط هذه الآية بما قبلها أنه تعالى لما خاطب موسى بقوله: ﴿فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: 14]، أتبعه بقوله: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه: 15] وما أليق هذا بتأويل من تأوّل قوله: ﴿لِذِكْرِي﴾ أي: [25/أ] لأذكرك بالإنباء والكرامة، فقال عقبة: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ﴾ لأنها وقت الإنابة ووقت المجازاة. انتهى¹. قال القرطبي: قيل: معنى قول من قال: "أكاد أخفيها من نفسي"، أي: إن إخفاءها كان من قبلي ومن عندي، لا من قبل غيري. انتهى². قال الإمام فخر الدين: فإن قلت: ما الحكمة في إخفاء الساعة وإخفاء وقت الموت؟ الجواب عنه: بأنه تعالى وعد قبول التوبة، فلو عُرف وقت الموت لاشتغل بالمعصية إلى قريب من ذلك الوقت، فتعريف وقت الموت كالإغراء لفعل المعصية، وهو لا يجوز. انتهى³.

﴿لِنُحْزِي﴾ [طه: 15] اللام متعلقة بـ ﴿آتِيَةٌ﴾ إِنَّهُ تعالى لما حَكَمَ بمجيء يوم القيامة ذكر الدليل عليه وهو أنه لولا القيامة لما تميّز المطيع عن العاصي، والمحسن عن المسيء ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ [طه: 15] بسعيها من خير أو شر ﴿فَلَا يَصُدُّكَ﴾ [طه: 16] خطاب لموسى عليه السلام، والمراد: أتباعه على قول جمهور المفسرين. وحكى النَّقَّاش⁴: أنه خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، وفيه بُعد. وأمّا الضمير في قوله: ﴿عَنْهَا﴾ [طه: 16] وفي قوله: ﴿بِهَا﴾ على ماذا يعود؟ فيه أقوال، قيل: على الساعة وهو الذي يدل عليه سياق الآية، أي: فلا يصرفنك عن العمل للساعة، وقيل: عائد على الصلاة في قوله: ﴿أَقِمِ

¹ لم أجده.

² القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 185/11.

³ الرازي، مفاتيح الغيب، 22/22.

⁴ هو أبو بكر محمد بن الحسن بن محمد بن زياد المعروف بالنقّاش، الموصلي الاصل البغدادي المولد والمنشأ، كان عالماً بالقرآن والتفسير، وقال البرقاني: كل حديث النقّاش مناكير، وليس في تفسيره حديث صحيح. من مصنفاته: سماه شفاء الصدور، الإشارة في غريب القرآن، والموضح في القرآن ومعانيه/د العقل، المناسك، فهم المناسك، أخبار القصاص. توفي سنة: 351هـ. ابن خلكان، وفيات الأعيان، 298/4. الذهبي، ميزان الاعتدال، 520/3. الزركلي، الأعلام، 81/6.

الصلاة لذكري﴾، فعلى الأوّل يكون المراد بذلك منكري الساعة، وعلى الثاني منكري دين الإسلام وشرائعه؛ لأنّها التي تحصل بسببها الجزاء في يوم الساعة بدليل قوله: ﴿لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ [طه: 15] والصلاة أكبر المساعي. وقيل: المعنى: فلا يصدّك عن الإيمان بالقيامة ﴿مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا﴾ [طه: 16] لا يصدق بها. قال النسفي: المقصود نهي موسى عليه السلام عن التكذيب بالبعث، ولكنّ ظاهر اللفظ [25/ب] يقتضي نهي من لم يؤمن عن صدّ موسى عليه السلام، والآية تدل على أنّ تعلم الأصول واجب لأنّ قوله: ﴿فَلَا يَصُدُّكَ﴾ يرجع معناه إلى صلابته في الدين، وتلك الصلابة إنّ كان المراد بها التقليد لم يتميز المبطل فيه من الحق، فلا بدّ أنّ يكون المراد بما كونه قوياً في تحقيق الأحكام الدينية، وتقرير الدلائل عليها¹. ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ [طه: 16] في مخالفة أمره يعني هوى نفسه، وهوى النفس مقصور وتثنيته هويان، وكتابه بالياء، وأمّا الذي بين الفضاء ممدود وتثنيته هواءان، وكتابه بالألف، وفي ذلك إشارة إلى أنّ إنكارهم للساعة أو للصلاة إنّما كان من قبيل أنفسهم. وقيل: أغراضهم لا بدليل قام عليه ولا لحجة اتضحت، وهذا من أعظم الدلائل على فساد التقليد لأنّ المقلد متبّع لهوى لا للحجة². ﴿فَتَرَدَى﴾ [طه: 16] فتهلك هو منصوب جواب النهي، والتردى الهلاك، أي: فتردى إن صدّوك فقبلت فليس إلا الهلاك بالنار. قال في التحرير: وليس موسى عليه السلام مراداً بضمون هذا الخطاب لأنّ منصبه وعصمته لا يليق معها أن يوصف بهذا الوصف، والخطاب إذا ورد على من ليس أهلاً له انصرف إلى من هو له أهل، فعلى هذا يكون المراد بالآية أمته صلى الله عليه وسلم، وهذا مثله قوله للنبي صلى الله عليه وسلم: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: 65]، الخطاب للنبي، والمراد أمته³. قال الإمام فخر الدين: اعلم أن المتوغلين في أسرار المعرفة قالوا: المقام على قسمين: أحدهما: مقام المحو والفناء عما سوى الله

¹ الرازي، مفاتيح الغيب، 18/22.

² المصدر نفسه، 23/22.

³ لم أجده.

تعالى. والثاني: مقام البقاء والأول مقدم على الثاني؛ لأن من أراد أن يكتب شيئاً في لوح مشغول بكتابة أخرى لا يمكنه إلا بإزالة تلك الكتابة، والحق سبحانه راعى [26/أ] هذا الترتيب الحسن في هذا الباب؛ لأنه تعالى قال لموسى أولاً: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾، وهذا إشارة إلى تطهير السرِّ عما سوى الله، ثم بعد ذلك أمره بتحصيل ما يجب تحصيله، وأصول هذا الباب ترجع إلى ثلاثة: علم المبدئ، وعلم الوسط، وعلم المعاد، فعلم المبدئ: هو معرفة الحق سبحانه، وهو المراد بقوله: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ [طه: 14]، وأما علم الوسط: فهو علم العبودية وهو الأمر الذي يجب أن يشتغل به الإنسان في هذه الحياة الجسمانية، وهو المراد بقوله: ﴿فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: 14]، فقوله: ﴿فَاعْبُدْنِي﴾ إشارة إلى الأعمال الجسمانية، وقوله: ﴿لِذِكْرِي﴾ إشارة إلى الأعمال الروحانية، وأما علم المعاد فقوله: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ﴾. ثم اعلم أنه تعالى افتتح هذه التكاليف بمحض اللطف، وهو قوله: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾، واختتمها بمحض القهر، وهو قوله: ﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا﴾ تنبيهاً على أن رحمته تعالى سبقت غضبه، وإشارة إلى أن العبد لا بُدَّ له في العبودية من الرغبة والرهبه والرجاء والخوف، وعند الوقوف على هذه الجملة يعرف أن هذا الترتيب في غاية الحسن، وأن ذلك لا يتأتى إلا من العالم بجميع المعلومات. انتهى كلام الإمام فخر الدين¹.

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ [طه: 17] ما: مبتدأ، وتلك خبره، وهي بمعنى هذه، ويمينك حال عمل فيها معنى الإشارة، أي: قارة أو مأخوذة بيمينك، أو تلك موصول صلته بيمينك². اعلم أن قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ﴾ إشارة إلى العصا، وقوله: ﴿بِيَمِينِكَ﴾ إشارة إلى اليد، وفيه نكت، منها: أنه تعالى [26/ب] لما أشار إليها جعل كل واحد منهما من-العصا واليد- معجزاً قاهراً وبرهاناً باهراً، ونقله من

¹ الرازي، مفاتيح الغيب، 22/ 23-24.

² الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 4/ 110.

حد الجمادية إلى مقام الكرامة، والله سبحانه ينظر إلى قلب العبد كل يوم ثلاثمائة وستين مرة، فأبى عجب لو صار القلب العاصي بنظر واحد مطيعاً. ومنها: أن العصا كانت في يمين موسى، فببركة يمينه انقلبت ثعباناً وبرهاناً، وقلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن، فلا يبعُد أن ينقلب من ظلمة التمرد إلى نور التعبد. ثم هنا سؤالان: السؤال الأول: قوله تعالى: ﴿وَمَا تَلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ استفهام، والاستفهام إنما يكون لطلب الفهم وذلك على الله محال، والجواب: أن هذا الاستفهام معناه التقرير والإيناس والإفهام، لا سؤال استكشاف ولا استعلام؛ لأن موسى يعلم ما هي والله أعلم بحقيقتها. وقيل: استفهام معناه التقرب والتعجب، والمعنى: ما التي هي كائنة في يمينك؟. وقيل: إنه سؤال توطين وتسكين، لئلا يهوله انقلابها حية¹. وقال حافظ الدين في المدارك: والسؤال للتنبية؛ ليقع المعجز بها بعد التثبيت منها، أو للتوطين لئلا يهوله انقلابها حية، أو للإيناس ورفع الهيبة في المكاملة، انتهى². قال في التحرير والتحبير: وفي المعنى الذي سأله الله تعالى عنها وهو أعلم وجوه: الأول: أن يقرر المخاطب به ليقوم الحجة عليه، ويؤاخذ به بإقراره، ولا يمكنه بعد ذلك إنكاره، ومثل هذا أن تقول لصاحبك: ما في وعائك؟ فيقول: ماء، فلا يمكنه بعد ذلك أن يقول غير ماء، فعلى هذا تكون الفائدة أنه قرّر موسى أنها عصا لما أراد ربه من قدرته في انقلابها حية، [27/أ] فوق المعجز هنا بعد التثبيت في أمرها. الثاني: أنه لما أطلع الله تعالى على ما في قلب موسى من الهيبة والإجلال حين التكليم، أراد أن يؤانسّه لمخاطبته ويخفف عنه ثقل ما كان فيه من الخوف، فأجرى هذا الكلام للاستئناس، وهذا القول ضعيف؛ لأن الله تعالى أنسه في ذلك بقوله: ﴿يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه: 11-12] إلى قوله: ﴿وَمَا تَلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ [طه: 17] فذلك كاف في التأنيس. الثالث: من أراد أن يظهر من الشيء الحقير

¹ بتصرف لدى الرازي، مفاتيح الغيب، 24/22.

² النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 360/2.

شيئاً شريفاً فإنه يأخذه ويعرضه على الحاضرين، ويقول لهم: هذا ما هو؟ فيقولون: ذلك الشيء الفلاني، ثم إنه بعد إظهار صنعته الفائقة يقول لهم: خذوا منه كذا وكذا، فالله تعالى لما أراد أن يظهر من العصا تلك الآيات الشريفة، -كانقلابها حية وضربها البحر حتى انفلق- عرضه أولاً على موسى عليه السلام، وكأنه قال: يا موسى هل تعرف حقيقة هذا الذي في يدك؟ فإنه خشبة لا تضر ولا تنفع، ثم إنه قلبه ثعباناً عظيماً، فيكون بهذا الطريق قد نبّه العقول على كمال قدرته ونهاية حكمته، من حيث إنه أظهر هذه الآيات العظيمة من أهون الأشياء عنده. الرابع: أنه سبحانه لما أطلعه على تلك الأنوار الصاعدة من الأرض إلى السماء، وأسمعه تسبيح الملائكة، ثم أسمعه كلام نفسه، ثم مزج اللطف بالقهر تَلَطُّفُهُ بقول: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾، ثم قهره بإيراد التكليف الشاق عليه، وإلزامه على المبدئ والوسط والمعاد، ثم ختم الكل بالتهديد العظيم، فقال: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ﴾ فتَحَيَّرَ موسى عليه السلام ودهش، فلَمَّا غلبت الحيرة [27/ب] والدهشة عليه تكلم معه بكلام البشر إزالة لتلك الحيرة والدهشة، فقال: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ﴾. الخامس: أنه تعالى لما عرّف موسى كمال الهيبة أراد أن يعرفه نقصان البشرية، فسأله عن منافع العصا، فذكر بعضها، فعرّفه الله تعالى أنّ فيها من المنافع أعظم مما ذكرت، تنبيهاً على أنّ العقول قاصرة عن معرفة خواص الشيء. السادس: فائدة هذا السؤال أن يقرر عليه أنّ العصا خشبة، حتى إذا قلبها ثعباناً لا يخافها. السؤال الثاني: قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ﴾ خطاب من الله تعالى مع موسى بلا واسطة، ولم يجعل ذلك لمحمد، فيلزم أن يكون موسى أفضل من محمد! والجواب: أنه تعالى كما خاطب موسى عليه السلام فقد خاطب محمداً صلى الله عليه وسلم في قوله: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ إلا أنّ الفرق بينهما أنّ الذي ذكره مع موسى أفشاه إلى الخلق، والذي ذكره مع محمد كان سرّاً لم يستأهل له أحد من الخلق¹. قال القرطبي: قيل: كان قوله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ﴾ خطاباً من الله لموسى وحياً؛ لأنّه

¹ الرازي، مفاتيح الغيب، 27.

قال: ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾، ولا بدَّ للنبي في نفسه من معجزة يعلم بها صحة نبوة نفسه، فأراه في العصا وفي نفسه ما أراه لذلك، ويجوز أن يكون ما أراه من الشجرة آية كافية له في نفسه، ثم تكون اليد والعصا زيادة توكيد وبرهاناً يلقي بها قومه، وفي بعض الآثار أنَّ الله تعالى عتب على موسى إضافة العصا إلى نفسه في الموطن، فقيل له: ألقها لترى منها العجب، فتعلم أنه لا ملك لك عليها، ولا تضاف إليك. انتهى كلامه¹. [28/أ] ثم إنَّه تعالى لما سأل موسى عن ذلك، أجاب موسى عليه السلام بأربعة أشياء، ثلاثة على التفصيل، وواحدة على الإجمال، الأول قوله: ﴿قَالَ هِيَ عَصَاي﴾ [طه: 18] ثم إنَّه عليه السلام لما قال: "هي عصاي"، قال تعالى: ﴿أَلْقِهَا﴾، فلما ألقاها فإذا هي حية تسعى، ليعلم أن كلَّ ما سوى الله تعالى، فالالتفات إليه شاغلٌ، وهو كالحية المهلكة لك، ولهذا قال الخليل عليه السلام: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: 77]، وأيضاً أنَّه عليه السلام لما قال: ﴿هِيَ عَصَاي﴾ فقد تمَّ الكلام، إلا أنَّه عليه السلام ذكر الوجوه الأخر؛ لأنَّه كان يجب المكاملة مع ربه. الثاني: قوله: ﴿أَتَوَكَّأَ عَلَيْهَا﴾ [طه: 18]، أعتمد عليها إذا أُعيبت أو وقفت على رأس القطيع، وعند الطفرة، أي: الوثبة. الثالث: قوله: ﴿وَأَهْشُ بِهَا عَلَى غَنَمِي﴾ [طه: 18] أخبط ورق الشجر على غنمي لتأكله، المعنى: أخبط بها فاضرب أغصان الشجر؛ ليسقط ورقها، فيأكله الغنم، قال الشاعر:

أَهْشُ² بِالْعَصَا عَلَى أَغْنَامِي مِنْ نَاعِمِ الْأَرَاكِ وَالْبِشَامِ³

¹ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 11/186.

² قال الزجاج: واشتقاقه من أني أحييل الشيء إلى المشاشة والإمكان. إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، (بيروت: عالم الكتب، ط1، 1408هـ)، 3/354.

³ البشام: نبات مثل الأراك شجر طيب الريح يستاك به. أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري، كتاب العين، (بيروت: دار ومكتبة الهلال)، 6/272.

واعلم أنَّ غنمَهُ رعيتهُ، فبدأ بمصالح نفسه في قوله: ﴿أَتَوَكَّأَ عَلَيْهَا﴾، ثم بمصالح رعيته في قوله: ﴿وَأَهْشُ بِهَا عَلَى غَنَمِي﴾؛ لأنَّ رعاية مصالح الرعية مفتقرة إلى قوة نفسه، فكذلك في القيامة يبدأ بنفسه، فيقول: نفسي نفسي، ومحمد صلى الله عليه وسلم لم يشتغل إلا بإصلاح الأمة¹. قال السلمي في قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ الآية، قال فارس: سمع موسى كلاماً لا يشبه كلام الخلق، فلمَّا سمع ذلك الكلام كاد أن يَهَيِّمَ، فمرّة أضاف العصا إلى نفسه، ومرّة أجاب عمّا لم يسأل، كذلك الهيمان، وقال: لما غلب عليه لذعات الصفات رَدَّه الحق إلى المخلوق لِيَسْكُنَ ما به فقال: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ شعَّله بالإجابة عما يملكه [28/ب]، ولولا ذلك لتفسّخ عند ورود الخطاب عليه. وقال الواسطي: استلذَّ بالخطاب فأخذه عن التمييز، فأجاب عما سُئِلَ وعما لم يسأل، فقيل له: وما تلك بيمينك عندك، فقال: عصاي، قال: فألقها، فإنَّ لك فيها آيات، هي عندك عصاً، وهي عندنا حية تسعى. قال ابن عطاء في قوله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ انفرد الله تعالى بعلم الغيب، فللخلق من الأشياء ظواهرها، وحققتها عند الله تعالى، كان عند موسى عليه السلام أنها عصاً، وعند الحق تعالى أنها حية، فقال: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾؛ ليعرّفه بذلك مقدار علمه، وأن يعلم أنَّ حقائق الأمور لا يعلمها إلا الله، فقال: "عصاي"، فقال: بل محلاً لإظهار قدرتنا فيه. قال الحسن في قوله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ﴾، قال: أثبتته بالصفة، فقال له: أعد النظر إليه فأعاد النظر حتى تيقن أنها عصاه، فقال: عصاي، فلمَّا أجاب بالحقبة أنَّه عصا قلب عينها فأحالتها عن حالها فأعجزه ذلك، فقيل: إعجازها للأمة. وسمعت منصور بن

¹ بتصرف، الرازي، مفاتيح الغيب، 26/22.

عبد الله¹ يقول: سمعت أبا بكر بن طاهر² يقول في قوله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ قال: انبسط إليه في السؤال ليربط على قلبه لعلمه بما يتدنه في شهود الكبرياء. وقال أيضاً: أحب الله تعالى أن ينبسط موسى في الكلام كي لا يحتشم في السؤال. قال الجنيد في قوله: ﴿عَصَايَ أَتَوَكَّأَ عَلَيْهَا﴾ فقال له: ألق كلما يعتمد عليه قلبك أو تسكن إليه نفسك، فإنَّ الكل محل العلل، وإنَّ كلَّ ما تسكن إليه ستَهْرَبُ منه عن قليل إلا تراه. [29/أ] قال: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً﴾ قال الحسين: عدَّ موسى منافع العصا على ربه وسكونه إليها وانتفاعه بها، فقال: ﴿أَلْقِهَا يَا مُوسَى﴾ أي: ألق من نفسك السكون إلى منافعها، واقلبها حية ليزول عنك الأنس بها، فأوجس منها خيفة، فقال حين قطعه عنها بالفرار منها: خذها ولا تخ، ف وارجع إليها وراجع إلينا. وقيل: إنَّ الحكمة في انقلاب العصا حية في وقت الكلام: أنَّه جعل بيئته ومعجزته إلقاءها بين يدي فرعون، ولو ألقاها بين يدي فرعون ولم يشاهد منه قبل ذلك ما شاهد لهرب منه كما هرب فرعون حين بدَّهته رؤيته. سمعت منصور بن عبد الله يقول: سمعت جعفر بن نصير³ يقول: سمعت الجنيد⁴ يقول في قوله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ فقال: انفراد الحق بعلم الغيوب، فللخلق من

¹ هو منصور بن عبد الله بن إبراهيم أبو نصر الأصبهاني الصوفي، سمع من أبي علي الروذباري، وموسى بن عيسى البسطامي المعروف بعيسى وغيرهم، وروى عنه السلمي وغيره. ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله، تاريخ دمشق، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1415 هـ)، 320/60. ابن الفوطي، كمال الدين أبو الفضل عبد الرزاق بن أحمد المعروف الشيباني، مجمع الآداب في معجم الألقاب، (إيران: وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، ط1، 1416 هـ)، 416/6.

² هو أبو بكر طاهر الأبهري اسمه عبد الله بن طاهر بن حاتم الطائي، من أجل المشايخ، من أقران الشبلي، عالماً ورعاً، قال مهلب بن أحمد المصري: ما نفعني صحبة شيخ من المشايخ الذين لقيتهم كما نفعني صحبة أبو بكر عبد الله بن طاهر الأبهري، توفي سنة: 330 هـ. السلمي، أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين بن محمد بن موسى بن خالد بن سالم النيسابوري، طبقات الصوفية، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1419 هـ)، 295/1. جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1412 هـ)، 324/6.

³ هو جعفر بن محمد بن نصير، شيخ الصوفية في بغداد، وأعلمهم بالحديث في زمانه، كان من خيار عباد الله، مرجعاً في علوم القوم. وكان يبيع الخوص فسمي الخواص، وهو ورق النخل، من كلامه: "الحب يجتهد في كتمان محبوبه، وتأبى الحجة إلا اشتهاها، وكل شيء ينم على الحب حتى يظهره"، مولده ووفاته ببغداد سنة: 348 هـ. حاجي خليفة، سلم الوصول إلى طبقات الفحول، 415/1. الزركلي، الأعلام، 128/2.

⁴ هو الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي الخزاز، صوفي، من العلماء بالدين. ولد ونشأ وتوفي في بغداد، عدَّه العلماء شيخ مذهب الصوفية، لأنه ضبط مذهبه بقواعد الكتاب والسنة، من كلامه: طريقنا مضبوط بالكتاب والسنة، من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث ولم يتفقه لا

الأشياء ظواهرها وله الحقائق منها، وكان عند موسى أنها عصى فقط، فذكر كلما يَعْرِف من علمها، فأراه الله فيها من العلم ما انفرد به وجعلها حية، والحكمة فيه أنه لو لم ير ما فيها من الآيات لراعه في وقت الانقلاب، فأراه ذلك لئلا يفزع ولا يجزع، ﴿فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَرُ كَأَنَّهُمَا جَانٌّ وَلِيٌّ مُدْبِرًا﴾ [النمل: 10] أي: ولَّى ظهره إليه وأقبل على ربه ولم يعقب، فقيل له: أقبل عليه ولا تخف أن يقطعك النظر إليه عني. وقال السلمي: قوله: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا﴾ [طه: 18] قال فارس: ذكر كل ما فيها من وجوه المنافع؛ لئلا يكون معاودة إلى ذلك فاستلذ بخطاب سيده. قال أبو بكر الوراق¹: قوله ﴿عَصَايَ﴾ جواب، والذي بعده ذكر ما أنعم الله عليه بالعصا من المنافع [29/ب] وكان ما بعد قوله: ﴿عَصَايَ﴾ لسان الشكر. قال ابن عطاء في قوله: ﴿عَصَايَ﴾ أضافها بالملك إلى نفسه، ولم يكن يجب له في الحقيقة أن يرى لنفسه ملكاً وهو بين أيدي الحق، فلماً أضافها إلى نفسه قال: ألقها، فألقها فإذا هي حية تسعى، قال: خذها أي خذ عصاك ولا تهرب مما ادعيت فيه من الملك لنفسك، وخاف وتبرأ من إضافتها إلى نفسه ملكاً، فتعطف الحق عليه، فقال: خذها ولا تخف فإنها لن تضرك. انتهى كلام السلمي².

﴿وَلِيٌّ فِيهَا مَارِبٌ أُخْرَى﴾ [طه: 18] جمع ماربة بالحركات الثلاث، وهي الحاجة ﴿أُخْرَى﴾ [طه: 18] والقياس أخر، وإنما قال: أخرى رداً إلى الجماعة، أو لنسق الآي، وكذا الكبرى. قال في التحرير: وفي قوله: ﴿أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي﴾ [طه: 18] الآية، لعلماء التفسير أقوال:

يقتدى به. من مصنفاته: رسائل، دواء الأرواح، توفي: سنة 297هـ. ابن خلكان، وفيات الأعيان، 373/1. الذهبي، ميزان الاعتدال، 520/3. عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، 162/3. الزركلي، الأعلام، 141/2.

¹ هو أبو بكر البلخي، محمد بن عمر الوراق الحكيم، من ترمذ، أقام ببلخ وأسند الحديث، له الكتب في المعاملات، توفي سنة: 240. أبو نعيم، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، 10/235. ابن الجوزي جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، صفة الصفوة، (القاهرة: دار الحديث، ط: 1421هـ)، 2/343.

² السلمي، حقائق التفسير، 438/1-439.

الأول: أن هذا الكلام جواب لسؤال آخر، وهو ما حكاه المفسرون أن الله تعالى لما قال له: ﴿هِيَ عَصَاي﴾ [طه: 18]، قال: فما تصنع بها؟ قال: ﴿أَتَوَكَّلُ عَلَيْهَا وَأَهْشُ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَّارِبٌ أُخْرَى﴾ [طه: 18]، قالوا: أتى بالجواب وزاد عليه بالإضافة إلى نفسه، وكان الجواب أن يقول: هي عصاً، ثم زاد عليه بيان ما تعلق بها تفصيلاً وإجمالاً، التفصيل في قوله: ﴿أَتَوَكَّلُ عَلَيْهَا وَأَهْشُ﴾، والإجمال قوله: ﴿وَلِي فِيهَا مَّارِبٌ أُخْرَى﴾. الثاني: أن الله تعالى سأله عن شيئين، سأله عن العصا بقوله: ﴿وَمَا تِلْكَ﴾ فأجابه بقوله: ﴿هِيَ عَصَاي﴾، وعن قوله: ﴿بِئْسَ بَيْتُكَ﴾، فأجاب بقوله: ﴿أَتَوَكَّلُ عَلَيْهَا وَأَهْشُ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَّارِبٌ أُخْرَى﴾ [طه: 18]. الثالث: أنه قال ذلك زيادة في البيان، والزيادة في الجواب جائزة، كما في قوله صلى الله عليه وسلم لما سئل عن ماء البحر: «هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ، الْحِلُّ [1/30] مَيْتَتُهُ»¹. وسألته المرأة عن الصغير حين رفعته إليه، فقالت: «أَلِهَذَا حَجٌّ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَلَكِ أَجْرٌ»². الرابع: أنه إنما زاد على الجواب؛ ليطول مناجاته لله تعالى ومكالمته له، فيزداد تلذذاً من سماع الخطاب. الخامس: أنه إنما أظهر فوائدها ويبيّن حاجته إليها؛ خوفاً من أن يأمره بإلقائها. السادس: أنه إنما زاد على الجواب؛ تعداداً للنعم، وشكراً واعترافاً بشكر مواقع المنن، وشكراً لإحسان ربه إليه في السر والعلن³. قال الزمخشري: ذكر على التفصيل والإجمال المنافع المتعلقة بالعصا، كأنه أحسن بما يعقب هذا السؤال من أمر عظيم يُخَدِّثُهُ اللهُ تعالى فقال: ما هي إلا عصاً لا تنفع إلا منافع بنات جنسها، وكما تنفع العيوان، وليكون جوابه مطابقاً للغرض الذي فهمه من فحوى كلام ربه، ويجوز أن يريد عز وجل أن يعدد

¹ أخرجه أبو داود، سنن أبي داود، باب: الوضوء بماء البحر، 21/1، حديث رقم: 83. وأخرجه الترمذي، سنن الترمذي، باب: ما جاء في ماء البحر أنه طهور، 100/1، حديث رقم: 67. وابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجه، أبواب الطهارة وسننها، باب: الوضوء بماء البحر، (بيروت: دار الرسالة العالمية، ط1، 1430هـ)، 250/1، حديث رقم: 386، صحيح.

² أخرجه مسلم، صحيح مسلم، كتاب الحج، باب: صحة حج الصبي وأجر من حج به، 974/2، حديث رقم: 1336.

³ لم أجده، لان المصدر مخطوط، ووجدته لدى: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (بيروت: دار الكتاب العربي، ط1، 1422هـ)، 15/3.

موسى عليه السلام المرافق الكثيرة التي علّقها بالعصا، ويستكثرها ويستعظمها، ثم يريه على عقب ذلك الآية العظيمة، كأنه يقول له: أين أنت عن هذه المنفعة العظمى، والمأربة الكبرى المنسية عندها كل منفعة ومأربة كنت تعتد بها، وتحتفل بشأنها. وقالوا: إنما أجمل موسى ليسأله ربه عن تلك المأرب، فيزيد في إكرامه. وقالوا: انقطع لسانه بالهيبه فأجمل. وقالوا: اسم العصا نبعة¹. والمأرب الأخر التي أجملها فصلها المفسرون، فقالوا: كانت ذات شعبتين ومحجن، فإذا طال الغصن حناه بالمحجن، وإذا طلب كسره لواه بالشعبتين، وإذا سار ألقاها على عاتقه، فعلق بها [30/ب] إداوته من القوس والكنانة والحلاب وغيرها، وإذا كان في البرية ركزها، وعرض الزندين على شعبتيها، وألقى عليها الكساء واستظل، وإذا قصر رشاؤه وصله بها، وكان يقاتل بها السباع عن غنمه. وقيل: كان فيها من المعجزات أنه كان يستقي بها فتطول بطول البئر وتصير شعبتها دلوأ، وتكونان شمعتين بالليل تضئ له في الليالي المظلمة، وإذا ظهر عدو حاربت عنه، وإذا اشتهى ثمرة ركزها فأورقت وأثمرت، وكان يحمل عليها زاده وسقائه، فجعلت تماشيه، أي: تمشي معه عليه السلام، ويركزها فينبع الماء، وإذا رفعها نضب، وكانت تقيه الهوام. انتهى كلام الزمخشري². وزاد غيره أنها كانت تماشيه وتحديثه، وأنها كانت تحارب عنه العدو والسباع وتناضل عنه، وأنه كان يضرب بها الأرض، فيخرج منها ما يأكل يومه ذلك، وأنه كان يرد بها غنمه وإن بعدوا، وأنه كان إذا اشتهى ثمرة فركزها تَعَصَّنَتْ عُصْن تلك الشجرة وأورقت وأثمرت³. وقال في التحرير: ومنها خصائص لم يعلمها موسى، منها: انقلابها ثعباناً، ومنها: أنها تلقف جميع ما خيل به السحرة من عصيهم وحبالهم، ومنها: أنه ضرب بها البحر فانفلق، ومنها: أنه كان إذا أصابه الحر غرسها فتصير شجرة يستظل بها. قال المؤرخون: هذه العصا التي كانت مع موسى هي العصا التي أخذها من بيت عَصِيّ الأنبياء حين كانت

¹ من قول مقاتل بن سليمان. مقاتل، تفسير مقاتل، 25/3.

² الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 57/3-58.

³ البغوي، معالم التنزيل، 259/3.

عند شعيب عليه السلام، فقال له شعيب: خذ عصاً [31/أ] من ذلك البيت، فوقعت بيده تلك العصا، وكانت عصا آدم عليه السلام، هبط بها من الجنة. وقيل: إنها كانت من آس الجنة. وقيل: أتاها جبريل عليه السلام بها، وكان طولها عشرة أذرع. وقيل: كان طولها اثني عشر ذراعاً بذراع موسى على ما حكاه المفسرون¹. قال صاحب التحرير والتحبير: وهذا الذي حكاه المفسرون من تفصيل المآرب، وجنس العصا وطولها لم يرد منها شيء في الكتاب العزيز، ولا في الحديث الصحيح، وإنما الصحيح من ذلك أنه كان له فيها مآرب وكان يعلمها، فإن وجد نقل بحبر هذه الأمور تيقنا صحتها، وإلا فالعهدة فيها على ناقلها. انتهى². قال القرطبي: عن ابن عباس³ قال: إمساك العصا سنة الأنبياء عليهم السلام، وعلامة للمؤمن⁴. وقال الحسن البصري: فيها ست خصال: سنة الأنبياء، وزينة الصلحاء، وسلاح على الأعداء، وعون الضعفاء، وغم المنافقين، وزيادة في الطاعات. ويقال: إذا كان مع المؤمن العصا يهرب منه الشيطان، ويخشع منه المنافق والفاجر، وتكون قبلته إذا صلى، وقوته إذا أعيأ. ولقي الحجاج⁵ أعرابياً فقال: من أين أقبلت يا أعرابي؟ قال: من البادية، قال: وما في يدك؟ قال: عصاي، أركزها لصلاتي، وأعدّها لعداتي، وأسوق بها دابتي، وأقوى بها على سفري، وأعتمد بها في مشيبي؛ ليتسع بها خطوي، وأسبُرُ بها النَّهْرَ، وتؤمّني العنّ، وألقي عليها كسائي، فتقيني الحر، وتدفيني من القر، وتُدنيني إلى ما بعد مني، وهي تحمل سُفرتي، وعلاقة أدواتي، أعصي بها عند الضراب، وأفرغُ بها الأبواب، وأتقي بها عقوق الطُّلاب [31/ب]

¹ ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 528/3. البغوي، معالم التنزيل، 532/3. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 190/11.

² لم أجده.

³ ورد بتفسير القرطبي مئُموً بُنٌ مَهْرَانٌ وليس ابن عباس.

⁴ أخرجہ الديلمي، أحمد بن علي بن محمد بن علي بن حجر العسقلاني، الغرائب الملتقطه من مسند الفردوس المسمى «زهر الفردوس»، (دي: جمعية دار البر، ط1، 1439هـ)، 129/1، موضوع.

⁵ هو الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفي، أبو محمد، ولد ونشأ في الطائف، وانتقل إلى الشام، قلده عبد الملك أمر عسكره، وأمره بقتال عبد الله بن الزبير، فقتل عبد الله وفرق جموعه، فولاه عبد الملك مكة والمدينة والطائف، ثم أضاف إليها العراق والثورة قائمة فيه، بنى مدينة واسط. كان سفاحاً باتفاق معظم المؤرخين. مات بواسطة سنة: 95هـ. ابن خلكان، وفيات الأعيان، 32/2. الزركلي، الأعلام، 168/2.

وتنوب عن الرمح في الطعان، وعن السيف عند المنازلة الأقران، وورثتها عن أبي، وأورثها بعدي ابني، وأهش بها على غنمي، ولي فيها مآرب أخرى، كثرة لا تحصى. قال القرطبي: منافع العصا كثيرة، ولها مدخل في مواضع من الشريعة، منها: أنها تُتخذ قبلة في الصحراء، وقد كان للنبي صلى الله عليه وسلم عنزة¹ تركر له فيصلي إليها كما ثبت في الصحيح²، والحربة والعنزة شيء واحد، وكان له محجن وهي عصاً معوجة الطرف، يشير بها إلى الحجر الأسود إذا لم يستطع أن يقبله، كما ثبت في الصحيح أيضاً³. وفي الصحيحين: «أَنَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَ لَهُ مِخْصَرَةٌ»⁴. والإجماع منعقد على أن الخطيب خطب متوكئاً على سيف وعصاً، والعصا مأخوذة من أصل كريم ومعدن شريف، ولا ينكرها إلا جاهل، وقد جمع الله لموسى في عصاه البراهين العظام، والآيات الجسام، ما آمن به السحرة المعاندون، واتخذها سليمان لخطبته وموعظته وطول صلاته، وكان ابن مسعود صاحب عصا النبي صلى الله عليه وسلم وعنزته، وكان يخطب بالقضيب، وكفى بذلك فضلاً على شرف حال العصا، وعلى ذلك الخلفاء وكبراء الخطباء، وعادة العرب العرباء اللسان البلغاء أخذ المخصرة والعصا والاعتماد عليها عند الكلام في المحافل والخطب،

¹ العنزة: مثل نصف الرمح أو أكبر شيئاً وفيها سنان مثل سنان الرمح. ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، 308/3.

² أخرجه البخاري من حديث عبد الله بن عمر: «أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يركر له الحربة فيصلي إليها». البخاري، صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب: الصلاة إلى الحربة، 106 / 1، حديث رقم: 498. ومسلم بلفظ: عن ابن عمر، «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا خرج يوم العيد، أمر بالحربة فتوضع بين يديه، فيصلي إليها. والناس وراءه. وكان يفعل ذلك في السفر. فمن ثم اتخذها الأمراء» مسلم، صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب: الصلاة إلى الحربة والعنزة، 359 / 1، حديث رقم: 501.

³ أخرج مسلم عن معروف بن خربوذ قال: سمعت أبا الطفيل يقول: «رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ، وَيَسْتَلِمُ الرُّجْنَ بِمِخْجَنِ مَعَهُ، وَيُقْبِلُ الْمِخْجَنَ». مسلم، صحيح مسلم، كتاب الحج، باب: جواز الطواف على بعير وغيره، واستلام الحجر بمحجن ونحوه للراكب، 68/4، حديث رقم: 1275.

⁴ المخصرة: ما يتوكأ عليه من عصا وغيرها. أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب: موعظة المحدث عند القبر، وقعود أصحابه حوله، 2 / 96، حديث رقم: 1362. ومسلم، صحيح مسلم، كتاب القدر، باب: كيفية خلق آدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، 4 / 2039، حديث رقم: 2647.

وأنكرت الشعوبية¹ على عظماء العرب أخذ المخصرة والإشارة بها في المعاني، والشعوبية تبغض العرب وتفضل العجم، قال مالك رحمه الله: كان عطاء بن السائب² يمسك المخصرة فيستعين بها³. وقال مالك: والرجل إذا كبر لم يكن مثل الشاب يقوى بها عند قيامه⁴[32/أ]. قال القرطبي: وفي مَشْيِهِ أيضاً كما قال بعضهم⁵:

وَكُنْتُ أَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ مُعْتَمِداً فَصِرْتُ أَمْشِي عَلَى أُخْرَى مِنَ الْحَشْبِ

وقال مالك رحمه الله: وقد كان الناس إذا جاءهم المطر خرجوا بالعصي يتوكؤون عليها، حتى لقد كان الشباب يحتسون عصيهم، وربما أخذ ربيعة العصا من بعض من يجلس إليه حين يقوم⁶. ومن منافع العصا: ضَرْب الرجل نساءه فيما يصلحهم، ويُصلح حاله وحالهم معه. ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: «أَمَّا أَبُو جَهْمٍ⁷ فَلَا يَضَعُ عَصَاهُ عَنْ عَاتِقِهِ»⁸ في أحد التأويلات، وقد روي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال لرجل

¹ فرقة تعصّب على العرب وتحتقرها، وكانت ظاهرة الشعوبية كنتيجة طبيعية للصدام السياسي والحضاري بين العرب والموالي. زاهية قدوره، الشعوبية وأثرها الاجتماعي والسياسي في الحياة الإسلامية في العصر العباسي الأول، (بيروت: المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، ط1، 1988م)، 23. الماتريدي، تأويلات أهل السنة، 56/1.

² عطاء بن السائب الثقفي، أبا زيد، ثقة، كثرت عنه الرواية من المتقدمين. وقد كان تغير حفظه آخر حياته، واختلط في آخر عمره توفي سنة: 130هـ. البغدادي، الطبقات الكبرى، 328/6.

وكان ثقة. وقد روى عنه المتقدمون. وقد كان تغير حفظه بآخره واختلط في آخر عمره

³ سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الأنصاري الشافعي المعروف بـ ابن الملقن، التوضيح لشرح الجامع الصحيح، (دمشق: دار النوادر، ط1، 1429هـ)، 647/28.

⁴ أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي، البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل لمسائل المستخرجة، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط2، 1408هـ)، 195/18.

⁵ من قول أبي حية النميري. عمرو بن بحر بن محبوب الكناي بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ، الحيوان، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط2، 1422هـ)، 579/6.

⁶ أبو الوليد القرطبي، البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل لمسائل المستخرجة، 195/18.

⁷ هو غامر، وقيل: عُبيد بن حذيفة بن غانم بن غامر بن عبد الله القرشي العدوي، أسلم عام الفتح، وصحب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَانَ معظمًا في قريش مقدما فيهم، قَالَ الزبير: كَانَ أَبُو جَهْمٍ بن حذيفة من مشيخة قريش، عالماً بالنسب، وَكَانَ من المعمرين من قريش، شهد بنيان الكعبة مرتين، مرة في الجاهلية حين بنتها قريش، ومرة حين بناها ابن الزبير. وهو أحد الَّذِينَ دَفَنُوا عثمان رضي الله عَنْهُ، توفي أيام معاوية. ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، 56/6. ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، 1623/4.

⁸ أخرجه مسلم، صحيح مسلم، كتاب الطلاق، باب: المطلقة ثلاثا لا نفقة لها، 1114/2، حديث رقم: 1480. النسائي، سنن النسائي، كتاب النكاح، باب: إذا استشارت المرأة رجلا فيمن يخطبها هل يخطبها بما يعلم، 75/6، حديث رقم: 3245.

أوصاه: «لَا تَرْفَعْ عَصَاكَ عَنْ أَهْلِكَ أَحْفَهُمْ فِي اللَّهِ»¹، أخرجه النسائي عن عبادة بن الصامت² 3. ومن هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم: «عَلَّقَ سَوْطَكَ حَيْثُ يَرَاهُ أَهْلُكَ»⁴، وقد تقدم هذا في سورة النساء. ومن فوائد العصا: التنبيه على الانتقال من هذه الدار، كما قيل لبعض الزهاد: ما لك تمشي على عصاً، ولست بكبير ولا مريض؟ قال: إني أعلم أني مسافر وأنها دار بلغة، وإن العصا من آلة السفر فأخذه بعض الشعراء فقال⁵:

حَمَلْتُ الْعَصَا لَا الضَّعْفُ أَوْجَبَ حَمَلَهَا عَلَيَّ وَلَا أَيُّ تَحَنُّتٍ مِنْ كِبَرٍ

ولكنني أَلَزَمْتُ نَفْسِي حَمَلَهَا لِأَعْلَمَهَا أَيُّ مَقِيمٍ عَلَى السَّفَرِ

انتهى كلام القرطبي⁶.

¹ لم يرد العصا التي يُضرب بها، ولا أمر أحداً قط بذلك، ولكنه أراد الأدب. أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي، غريب الحديث، (القاهرة: الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ط1، 1404هـ)، 3/ 359.

² هو عبادة بن الصامت بن قيس، أبو الوليد، الأنصاري الخزرجي. صحابي جليل، شهد بدرًا والمشاهد كلها، أخى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بينه وبين أبي مرثد الغنوي، وشهد فتح مصر. وهو أول من ولي القضاء بفلسطين، مات بالرملة أو بيت المقدس. روى 181 حديثاً، اتفق البخاري ومسلم على ستة منها. وكان من سادات الصحابة. توفي سنة: 34هـ. أسد الغابة في معرفة الصحابة، 3/ 158. ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، 2/ 807. الزركلي، الأعلام، 3/ 258.

³ لم أجده لدى النسائي. أخرجه محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله من حديث أبي الدرداء، صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري، باب: يبر والديه ما لم يكن معصية، (دار الصديق للنشر والتوزيع، ط4، 1418هـ)، 39، رقم: 18، وذكره الهيثمي أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، كتاب الوصايا، باب: وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم، (القاهرة: مكتبة القدسي، 1414 هـ)، 4/ 217، حديث رقم: 394، حسن.

⁴ أخرجه الطبراني، المعجم الكبير، علي بن عبد الله بن عباس عن أبيه، 10/ 285، حديث رقم: 10672. وأخرجه أبو عبد الله الحسين بن الحسن بن حرب السلمي المروزي، البر والصلة، باب بر الوالدين والأبناء والنفقة عليهم والصدقة وأدبهم، (الرياض: دار الوطن، ط1، 1419هـ)، 98، حديث رقم: 187، ضعيف.

⁵ البيت من قول: محمد بن وشاح بن عبد الله. شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزؤغلي بن عبد الله المعروف بـ «سبط ابن الجوزي» مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، (بيروت: دار الرسالة العالمية، ط1، 1434هـ)، 19/ 248. محمد بن أيدير المستعصمي، الدر الفريد وبيت القصيد، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1436هـ)، 6/ 118.

⁶ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 11/ 188-189.

﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى﴾ [طه: 19] يجوز أن يكون القائل له ذلك الملك بإذن الله تعالى، فيكون من باب الوحي، بدليل قوله: ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ [طه: 13]، ويجوز أن الله تعالى [32/ب] كلمه بذلك كفاحاً، بدليل قوله في غير هذه السورة: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: 164]، وهذا الذي عليه الأكثرون. قال في المدارك ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى﴾ اطرح عصاك لتفزع مما تتكى عليه، فلا تسكن إلا بنا، وترى كنه ما فيها من المآرب، فتعتمد علينا في المطالب. انتهى¹. وفي التحرير والتحرير: قال أصحاب التحقيق: لما ذكر موسى اعتماده عليها واحتياجه إليها أمره بإلقائها وأراه فيها من آياتها ما يفتر به عنها، وعن الاعتماد عليها حتى لا يعتمد على غير الله، ولا يرى قضاء الحاجات إلا من الله، ولا تطمئن نفسه إلا إليه، ولا يطلب مآربه إلا لديه. انتهى². قال البرهان النسفي: في قوله: ﴿أَلْقِهَا يَا مُوسَى﴾ من النكات وجوه، أحدها: أنه عليه السلام لما قال: ﴿وَلِي فِيهَا مَآرِبٌ أُخْرَى﴾ [طه: 18] أراد الله تعالى أن يعرفه أن فيها من المآرب ما لا يعرفها، فقال: ﴿أَلْقِهَا يَا مُوسَى﴾، ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حِيَّةٌ تَسْعَى﴾. وثانيها: كان في رجله شيء وهو النعل، وفي يده شيء، وهو العصا، والرجل آلة الهرب، واليد آلة الطلب، فقال أولاً: ﴿فَأَخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾، وإنه إشارة إلى ذلك الهرب، ثم قال: ﴿أَلْقِهَا يَا مُوسَى﴾، وهو إشارة إلى ذلك الطلب، كأنه قال: إنك ما دمت في مقام الهرب والطلب كنت مشغلاً بنفسك وطالباً لحظك، فلا تكون خالصاً لمعرفتي، فاترك الهرب والطلب لتصير خالصاً لي. وثالثها: أن موسى عليه السلام مع علو درجته وكمال منصبه لما وصل إلى الحضرة لم يكن معه إلا النعلين والعصا،

¹ النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 361/2.

² لم أجده.

فأمره بإلقائهما حتى أمكنه الوصول إلى الحضرة، فالعبد العاصي مع جميع تعلقاته كيف يمكنه الوصول إلى جنباه؟ وفيه إشارة إلى التجريد وقطع التعلقات¹.

﴿فَأَلْقَاهَا﴾ [طه: 20] فطرحها ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ [طه: 20] تمشي سريعاً. قال القرطبي

[33/أ] لما أراد الله تعالى أن يدرجه في تلقي النبوة وتكاليفها أمره بإلقاء العصا، فألقاها موسى، فقلب الله

أوصافها وأعراضها، فكانت عصاً ذات شعبتين، فصارت الشعبتان لها فماً، وصارت حية تسعى، أي:

تنتقل وتمشي وتلتقم الحجارة². قال في معالم التنزيل: قال وهب: ظنَّ موسى أنه يقول: ارفضها فألقاها

على وجه الرفض، ثم حانت منه نظرة، فإذا هي حية تسعى صفراء من أعظم ما تكون من الحيات تمشي

بسرعة على بطنها، قد صارت شعبتها شديقين، والمحجن عنقاً وعزفاً تهتز كالنيازك، وعيناها تتقدان كالنار،

تمر بالصخرة العظيمة مثل الخلفة من الإبل فتلتقهما، وتقصف الشجرة بأنيابها، وتسمع لأسنانها صريفاً

عظيماً، فلما عين ذلك موسى ولى مدبراً وهرب، ثم ذكر ربه فوقف استحياء، ثم نودي يا موسى أقبل،

ارجع حيث كنت، فرجع وهو شديد الخوف. انتهى³. قال الإمام فخر الدين: فإن قلت: ما الحكمة في

قلب العصا حية في ذلك الوقت؟ الجواب عنه بوجوه، منها: أنه تعالى قلبها حية لتكون معجزة تدل على

نبوته، وذلك؛ لأنه عليه السلام إلى ذلك الوقت ما سمع إلا النداء، والنداء ليس من المعجزات، والعجب

أنَّ موسى عليه السلام قال: أتوكأ عليها، فصدقه الله تعالى وجعلها متكأ له بأن جعلها معجزة له. ومنها:

أنَّ النداء كان إكراماً له، فقلب العصا حية في ذلك الوقت، ليكون سبباً لزوال الوحشة عن قلبه. ومنها:

أنَّه عرضها عليه ليشاهدها أولاً، حتى إذا شاهدها عند فرعون لا يخافها. فإن قلت: كيف دُكرت بألفاظ

¹ الرازي، مفاتيح الغيب، 26/22.

² القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 190/11.

³ البغوي، معالم التنزيل، 269/5.

مختلفة، قال في هذا الموضوع: حية، وفي موضع آخر: ثعبان، وفي موضع آخر: جانّ، فما الحكمة فيه؟ [33/ب] قلت: أمّا الحية فاسم جنس يقع على الذكر والأنثى والصغير والكبير، وأمّا الثعبان والجانّ فبينهما تناف؛ لأنّ الثعبان العظيم من الحيات والجانّ الدقيق، وفي ذلك وجهان: أحدهما: أنها كانت وقت انقلابها حية تنقلب حية صفراء دقيقة، ثم تتورّم ويتزايد جرمها حتى تصير ثعباناً، فأريد بالجانّ أول حالها، وبالثعبان مآلها. والثاني: أنها كانت في شخص الثعبان، وسرعة حركة الجانّ، والدليل عليه قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَرُ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ [القصص: 31]. وقال الدميري في حياة الحيوان: لأنها كانت كالحية لعدوها، والجانّ لتحركها، والثعبان لا يتلاعبها، ويقال: حية لموسى، وثعبان لفرعون، وجانّ للسحرة، انتهى كلامه¹. فإن قلت: كيف صفة تلك الحية؟ فالجواب: قيل: لها عُرف كعُرف الفرس، وكان بين لحييها أربعون ذراعاً، تبتلع كلما مرّت به من الأشجار والأحجار، حتى سمع موسى عليه السلام صرير الحجر في فمها². قال في التحرير: وفي إظهار هذه الآية ليلة المخاطبة قولان، أحدهما: لئلا يخاف منها إذا ألقاها بين يدي فرعون. الثاني: ليُريه أن الذي أبعثك إليه دون ما أريتك، فلما ذللت لك الأعظم وهو الحية أذل لك الأدنى، انتهى³.

﴿قَالَ﴾ [طه: 21] له رَبُّهُ ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ [طه: 21] الضمير في ﴿خُذْهَا﴾ يجوز أن يكون عائداً على العصا، وأن يكون عائداً على الحية، وقوله: ﴿وَلَا تَخَفْ﴾ يشعر بمحذوف تقديره: فلماً صارت حية خاف، فقال له تعالى: لا تخف. قال في المدارك: بلغ من ذهاب خوفه أن أدخل يده في فمها وأخذ بلحْيَيْهَا. انتهى⁴. قال الزمخشري: فلماً رآها تبتلع كل شيء خاف ونفر. وعن بعضهم [34/أ] إنما

¹ الرازي، مفاتيح الغيب، 27/22. الدميري، حياة الحيوان الكبرى، 1/265.

² الرازي، مفاتيح الغيب، 27/22. وهذه القصص وأمثالها من الإسرائيليات المنكرة..

³ جمال الدين الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، 3/156.

⁴ النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 2/361.

خافها لأنه عرف ما لقي آدم عليه السلام منها¹. وقيل: لأنها كانت من الشجرة التي أكل منها آدم عليه السلام². ﴿سَنَعِيدُهَا﴾ [طه: 21] سنرُدُّها ﴿سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ [طه: 21] تأنيث الأول، والسيرة الحالة التي يكون عليها الإنسان غريزية كانت أو مكتسبة، وهي في الأصل فِغْلَةٌ من السَّيْرِ، كالرَّكْبَةِ من الركوب، ثم استعملت بمعنى الحالة والطريقة، وانتصبت على الظرف، أي: سنعيدها في طريقها الأولى، أي: في حال ما كانت عصاً، والمعنى: نرُدُّها عصاً كما كانت³. قال في التحرير: قال المفسرون: إنَّ الله تعالى لما أمره بأخذها وضع يده عليها، فانقلبت عصاً كما كانت. وقيل: لما أمره الله بأخذها كان عليه مدرعة من صوف فلَقَّها على يده، فأمره الله بكشف يده فكشفها وأدخلها في فيها. وحكى مكي⁴ في تفسيره⁵: أنه نودي يا موسى خذها، فلم يأخذها فنودي ثانية، فلم يأخذها، ثم نودي الثالثة: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنَعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ [طه: 21]، أي: هيئتها الأولى عصاً كما كانت فأخذها⁶. وحكى البغوي في تفسيره: أنه كان على موسى مدرعة⁷ من صوف قد خللها بعيدان، فلَمَّا قال الله له: ﴿خُذْهَا﴾ لَفَّ طرف المدرعة تغني عنك شيئاً، قال: لا، ولكني ضعيف ومن ضَعْفٍ خُلِقْتُ، فكشف عن يده قال له ملك: أرايت لو أذن الله بما تحاذره أكانت المدرعة تغني عنك شيئاً؟ قال: لا، ولكني ضعيف ومن ضَعْفٍ

¹ الرمحشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 58/3.

² عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، معترك الأقران في إعجاز القرآن، ويُسمَّى (إعجاز القرآن ومعترك الأقران)، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1408هـ)، 65/3.

³ النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 361/2.

⁴ مكي بن أبي طالب حموش بن محمد بن مختار القيسي المقرئ أبو محمد القيرواني، من أهل التبصر في علوم القراءات والعربية، من كتبه: الهداية إلى بلوغ النهاية في معاني القرآن الكريم وتفسيره، والموجز في القراءات، والتبصرة في القراءات، توفي سنة: 437هـ. ابن العماد، العكري عبد الحي بن أحمد بن محمد الحنبلي، أبو الفلاح، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، (بيروت: دار ابن كثير، ط1، 1406 هـ)، 175/5.

ودفن بالربيع

⁵ ويسمى: الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه.

⁶ مكي، الهداية إلى بلوغ النهاية، 4627/7.

⁷ هي ثوب من صوف وجبة. أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري، التلخيص في معرفة أسماء الأشياء، (دمشق: دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط2، 1996م)، 145.

خُلقتُ، فكشفت عن يده ثم وضعها في فم الحية، فإذا هي عصاً كما كانت، ويده في شعبتها في الموضع الذي يضعها إذا توكأ¹. وأدخل السين في "سَنُعِيدُهَا" لوقوع الإعادة بعد الأمر بالأخذ، فكانت في حكم المخصّص للاستقبال. قال الإمام فخر الدين: فإن قلت: لما نودي يا موسى، وحُص بتلك الكرامات العظيمة، وعلم أنه مبعوث من عند الله تعالى إلى الخلق فلماذا خاف؟ فالجواب [34/ب] من وجوه، أحدها: أن ذلك الخوف كان من نَفرة الطبع؛ لأنّه عليه السلام ما شاهد مثل ذلك قط، وأيضاً فهذه الأشياء معلومةٌ بدلائل العقل، وعند الفزع الشديد قد يذهل الإنسان عنه. قال الشيخ أبو القاسم الأنصاري² رحمه الله: وذلك الخوف من أقوى الدلائل على صدقه في دعوى النبوة؛ لأنّ السّاحر يعلم أنّ الذي أتى به تمويه، فلا يخافه البتة. وثانيها: قال بعضهم: خافها لأنّه عليه السلام عرف ما لقي آدم منها. وثالثها: أنّ مجرد قوله: "لا تخف" لا يدل على حصول الخوف، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾ [الأحزاب: 48]، لا يدلُّ على وجود تلك الطاعة، لكن قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَاهَا تَمْتَرُ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلِي مُدَبِّرًا﴾ [النمل: 10] يدلُّ عليه، وذلك الخوف إنما ظهر ليظهر الفرق بينه وبين محمد صلى الله عليه وسلم، فما أظهر الرغبة في الجنّة ولا النفرة من النار. فإن قلت: متى أخذها؟ أبعدها انقلاباً عصياً أو قبل ذلك؟ فالجواب: روي أنّه أدخل يده في لسانها فانقلبت خشبة، وكما أنّ انقلاب العصا حية معجزةً، فكذلك إدخال اليد من موسى عليه السلام وانقلابها خشبة أيضاً معجزة. فإن قلت: كيف أخذها مع ثوبه أو بدونه؟ فالجواب: روي مع الثوب، وهذا بعيد، فإنه عليه السلام أعلمه الله تعالى أنّها عند الأخذ يعيدها

¹ البغوي، معالم التنزيل، 5/ 270.

² هو سلمان بن ناصر بن عمران بن محمد بن إسماعيل بن إسحاق بن يزيد بن زياد بن ميمون بن مهران أبو القاسم الأنصاري الصوفي الإمام الدّين الورع الزاهد، أصولي مفسر، صنف كتاب "الغنية" في فقه الشافعية، و "شرح الإرشاد لإمام الحرمين"، توفي سنة: 511هـ. الذهبي، سير أعلام النبلاء، 412/19. الزركلي، الأعلام، 3/ 112.

سيرتها الأولى، فكيف يستمر خوفه؟ وقال بعضهم: لما قال له ربه: لا تخف بلغ من ذهاب خوفه وطمأنينة نفسه أن أدخل يده في فمها وأخذ بلحيها. انتهى¹.

﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ﴾ [طه: 22] إلى جنبك تحت العضد، وجناحاه جنباه، والأصل المستعار منه جناح الطائر، سُمِّيَا جناحين؛ لأنَّهُ يُجْنِحُهُمَا عند الطيران [35/أ]، دلَّ على ذلك قوله: ﴿تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ [طه: 22]، والسوء: الرداء والقبح في كل شيء، فكُنِّي به عن البرص، كما كُنِّي عن العورة بالسَّوء، وكان جذيمة صاحب الزَّبَاء² أبرش³، فكَنُوا عنه بالأبرص، والبرص أبغض شيء إلى العرب، وبِهِم عنه نَفْرَةٌ عظيمة، وأسماعهم لاسمه مَجَّاجَةٌ، فكان جديراً بأن يُكْنَى عنه، ولا ترى أحسن ولا أطف ولا أحرَّ للمفاصل من كنايات القرآن وآدابه. كذا في الكشف⁴. هذا هو المعجزة الثانية، وقال في الآية الأخرى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ [النمل: 12]، وقال مجاهد: الجناح العضد⁵ ﴿تَخْرُجُ بَيْضَاءَ﴾ [طه: 22] لها شعاع كشعاع الشمس يُعْشِي البصر⁶. قال في التحرير: لما أراه الله سبحانه تلك الآية، وأعلمه بأنها معجزة كبرى، يقوم له بها الحجة على فرعون وقومه إذا أذن له في دعائهم إليه، وكان في سابق علمه أنهم لا يقنعون بآية واحدة ولا باثنتين ولا بثلاث، فأمدَّ الله تعالى بتسع آيات، أحدها: العصا، وقد كان فيها من المعجزات ما قدمنا ذكره، ثم أتبعها باليد البيضاء؛ لأنَّها مقاربة لها في الإعجاز، فإنَّه عليه السلام آدم اللون، وكان إذا أدخل يده في جيبه وأخرجها تخرج بيضاء نقية، لها شعاع

¹ الرازي، مفاتيح الغيب، 27/22-28.

² جذيمة: ملك من ملوك الحيرة، والزباء: ملكة الجزيرة، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، نزهة الألباب في الألقاب، (الرياض: مكتبة الرشد، ط1، 1409هـ)، 55/1. الفارابي، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، 142/1.

³ البرش: لون مختلط بنقطة حمراء وأخرى سَوْدَاء، أو غَبْرَاء، أو نحو ذلك، وسُمِّي جذيمة الأبرش الذي أصابه خَرَقٌ فبقي فيه من أثر الخَرَقِ نقطٌ سُودٌ وحمُرٌ، فقليل: جذيمة الأبرش. الفراهيدي، كتاب العين، 260/6.

⁴ الزمخشري، الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، 59/3.

⁵ العضد هو ما بين المرفق إلى المنكب. ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، 157/1.

⁶ الزمخشري، الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، 59/3.

كشعاع الشمس والقمر، وظهور هذا النور من يد مكوَّنةٍ من لحم ودم وعظم وأعصاب، وغير ذلك في غاية ما يكون من الإعجاز، فلذلك جعلها تعالى آيةً أخرى، وقد سمى الله تعالى هاتين الآيتين برهانان في قوله: ﴿فَدُنِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ [القصص: 32] انتهى¹. ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ [طه: 22] من غير برص، وهذا عند أرباب علم اللسان يقال له: الاحتراس، فإنه لو اقتصر على قوله: ﴿بِيضَاءً﴾ لأوهم أن يكون ذلك من برص، فاحترز بقوله: ﴿غَيْرِ سُوءٍ﴾ وهو [35/ب] كناية عن البرص والبهق، فأجمل الخطاب كما أجمله في قوله تعالى: ﴿هُنَّ لِيَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَاسٌ هُنَّ﴾ [البقرة: 187]² ﴿آيَةٌ أُخْرَى﴾ [طه: 22] لِنُبُوتِكَ، آية: منصوب على البدل من بيضاء، و"بيضاء وآية": حالان معاً، و"من غير سوء" من: صلة بيضاء، كما تقول: ابيضت من غير سوء، وفي نصب آية: وجه آخر، وهو أن يكون بفعل مضمّر تقديره: خذ، أو دونك، وما أشبه ذلك، حذف لدلالة الكلام، وقد تعلق بهذا المحذوف لام. ﴿لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا﴾ [طه: 23]، ﴿الآيَةُ الْكُبْرَى﴾ [طه: 23] أي: خذ هذه الآية أيضاً بعد قلب العصا حية؛ لنريك بهاتين الآيتين بعض آياتنا الكبرى العظمى، أو لنريك بهما الكبرى من آياتنا، والمعنى: فعلنا ذلك لنريك من آياتنا الكبرى، وأخرى: وصف آية، بمعنى آية مع الآية التي تقدمت وهي العصا. قال النسفي: يُروى أنه عليه السلام كان شديد الأدمة، فكان إذا أدخل يديه اليمنى في جيبه فأدخلها تحت إبطه الأيسر وأخرجها فكانت تبرق مثل البرق. وقيل: مثل الشمس من غير برص، ثم إذا ردها عادت إلى لوّنها الأول بلا نور. انتهى³. فإن قيل: الكبرى من نعت الآيات، فلم لم يقل الكُبرى؟ فنقول: بل هي نعتُ الآية، والمعنى: لنريك الآية الكبرى، ولئن سلمنا ذلك، فهو كما قدمنا في قوله: ﴿مَا رَبُّ أُخْرَى﴾ والأسماء الحسنى، فإن قلت: أي آية هي الموصوفة بالكبرى؟ اليد أم العصى؟ قيل: قال الحسن: اليد أعظم في

¹ لم أجده.

² بتصرف. أبو حيان، البحر المحيط في التفسير، 225/7.

³ الرازي، مفاتيح الغيب، 28 / 22.

الإعجاز من العصا¹؛ لأنه تعالى ذكر ﴿لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ [طه: 23] عقب ذكر البلد، وهذا ضعيف لأنه ليس في اليد إلا تغيير اللون، وأما العصا ففيها تغيير اللون [36/أ] وخلق الزيادة في الجسم وخلق الحياة والقدرة والأعضاء المختلفة وابتلاع الشجر والحجر وتغيير الجمادية بالحيوانية، وتغيير العجز بالقدرة، ثم لما عادت عصاً بعد ذلك فقد وقع التغيير مرة أخرى في جميع هذه الأمور، فكانت العصا أعظم، وأما قوله: ﴿لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ فقد بينا أنه عائد إلى الكل، وأنه غير مختص باليد. وقيل: إنَّ هذا وصف الآيات التسع التي آتاه الله إياها، وإنَّ كل واحدة منها كبرى، وعلى هذا يجوز أن تكون "من" للتبويض، وأن تكون للجنس².

﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ [طه: 24] جاوز حد العبودية إلى دعوى الربوبية، إنَّه تعالى لما أظهر له هذه المعجزات عقبها بأن أمره بالذهاب إلى فرعون، وبين العلة في ذلك وأنه طغى، وإنما خصَّ فرعون بالذكر مع أنَّ موسى عليه السلام كان مبعوثاً إلى الكل؛ لأنه ادعى وتكبر وكان مبتدعاً متبوعاً، وكان ذكره أولى³. قال في التحرير: قال وهب بن منبه: قال الله تعالى لموسى: اسمع كلامي، واحفظ وصيتي، وانطلق برسالتي، أركانك بعيني وسمعي، فإنَّ معك يدي وبصري، وألبسك جنة من سلطاني تستكمل بها القوة في أمري، أبعثك إلى خلق ضعيف من خلقي بَطْر نعمتي، وأمن مكري، وغرته الدنيا حتى جحد حقي، وأنكر ربوبيتي، أقسم بعزتي لولا الحجة والقدر التي وضعت بيني وبين خلقي لبطشْتُ به بطشة جبار، ولكن هان عليّ وسقط من عيني، فبلغه رسالتي، وادعه إلى عبادتي، وحذره نقمتي

¹ قال أبو حيان: "ويعد ما قيل من أن اليد أعظم في الإعجاز من العصا؛ لأنه ليس في اليد إلا تغيير اللون، وأما العصا ففيها تغيير اللون، وخلق الزيادة في الجسم، وخلق الحياة، والقدرة، والأعضاء المختلفة، وابتلاع الشجر والحجر ثم عادت عصا بعد ذلك فقد وقع التغيير مراراً فكانت أعظم من اليد". أبو حيان، البحر المحيط، 326/7.

² الرازي، مفاتيح الغيب، 28/22-29.

³ الرازي، مفاتيح الغيب، 28/22-29.

[36/ب]، وقل له قولاً لئِنَّا لَا يَغْتَرَّ بلباس الدنيا، فَإِنَّ ناصيته بيدي، لَا يُطْرَف وَلَا يَتَنَفَس إِلَّا بعلمي، في كلام طويل، قال: فسكت موسى سبعة أيام، ثم جاءه ملك، فقال: أجب ربك فيما أمرك فعنده¹.

﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ [طه: 25] وسَّعه ليحتمل الوحي والمشاق ووردِي الأخلاق من فرعون وجنده². قال الزمخشري: لما أمره بالذهاب إلى فرعون الطاغوي لعنه الله عرف أنه كُلف أمراً عظيماً، وخطباً جسيماً، يحتاج معه إلى احتمال ما لا يحتمله إلا ذو جأش رابط، وصدر فسيح، فاستوهب ربه أن يشرح صدره ويفسح قلبه ويجعله حليماً حمولاً، يستقبل ما عسى يرد عليه من الشدائد التي يذهب معها صبر الصابر بجميل الصبر، وحسن الثبات، وأن يسهل عليه في الجملة أمره الذي هو خلافة الله في أرضه، وما يصحبها من مزاولة معازم الشؤون، ومقاساة جلائل الخطوب. انتهى³. قال في معالم التنزيل: وكان موسى يخاف فرعون خوفاً شديداً؛ لشدة شوكته وكثرة جنوده، فسأل الله تعالى أن يوسع قلبه للحق، حتى يعلم أن أحداً لا يقدر على نصرته إلا بإذن الله تعالى، وإذا علم ذلك لم يخف فرعون، انتهى⁴. سأل موسى من ربه أموراً ثمانية، ثم ختمها بما جرى مجرى العلة لها، الأول: قوله: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾. قال في التحرير: وإنما بدأ بشرح الصدر لما حُمِلَ به من دعاء فرعون ومكالمته لما يعرفه من جبروته وفرعنته وتمرده، فسأل الله تعالى أن يوسع صدره عند مكالمته فرعون ومعاودته. وقيل: إنَّه عبَّر بالصدر عنا عن القلب؛ لأنَّ الصدر محله، قال تعالى: ﴿فِيهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ﴾ [37/أ] ﴿وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: 46]، قال النسفي: السبب في هذا السؤال ما حكى الله عنه في موضع آخر: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي﴾ [الشعراء: 13]، فسأل الله تعالى حتى تبدل ذلك الضيق بالسعة.

¹ المصدر نفسه، 29/22.

² النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 362/2.

³ الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 60/3.

⁴ البغوي، معالم التنزيل، 270/5.

وقيل: اشرح لي صدري فَأَفْهَمَ عَنْكَ مَا أَنْزَلْتَ عَلَيَّ مِنَ الْوَحْيِ. وقيل: شخصي، لأجتري به على مخاطبة فرعون¹. قال الإمام فخر الدين: ثم الكلام فيه متعلق بأمور: أحدها: فوائد الدعاء وشرايطه. وثانيها: ما السبب في أن الإنسان لا يذكر وقت الدعاء من أسماء الله تعالى إلا الرب. وثالثها: ما معنى شرح الصدر. ورابعها: بماذا يكون شرح الصدر؟. وخامسها: كيف كان شرح الصدر في حق موسى عليه السلام؟. وسادسها: صدر موسى هل كان منشرحاً أو لم يكن؟ ولا وجه لكل واحد منهما. أما الأول فظاهر، وأما الثاني فلاظهار الكرامات والتشريفات في حقه كما مر، ولأنه إذا لم يكن منشرح الصدر لا يكون لائقاً بمنصب الرسالة، وقد فوض الله الرسالة إليه، أما البحث الأول، وهو فوائد الدعاء وشرايطه، فقد تقدم في تفسير قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: 286]، إلا إنا نذكر منها نبذة الفوائد المتعلقة بهذا الموضوع، فنقول: اعلم أن للكمال مراتب ودرجات، وأعلاها أن يكون كاملاً في ذاته ومكماً لغيره، أمّا كونه كاملاً في ذاته فكل من كان كاملاً في ذاته كان كماله من لوازم ذاته، لكنه لا يكون مكماً في الأزل إلا بالتكميل في لا يزال، إذ المكمل عبارة عن جعل الشيء كاملاً وذلك ممتنع في الأزل، إذا ثبت هذا فنقول: إنه تعالى لما قصد إلى التكوين، وكان المقصود منه تكميل الناقص لما أن الممكن قابل [37/ب] للوجود والعدم، وصفة الوجود صفة الكمال فاقتضت قدرة الله تعالى على التكميل وضح فائدة الكمال للممكنات، إذا عرفت هذا فهذا الوجود الفائض من نور رحمته على جميع الممكنات، وهو المراد بقوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: 156]، ثم الموجودات منقسمة إلى الجمادات وإلى غير الجمادات، نحو: الحيوانات، والجماد بالنسبة إلى الحيوان كالعدم بالنسبة إلى الوجود، وكالعبد بالنسبة إلى مولاه، فإن الحيوان يستعمل الجمادات في أغراض لنفسها، فكانت الحياة أفضل من الجمادية، والحياة بالنسبة إلى الجمادية كالنور بالنسبة إلى الظلمة، ثم قالت الأحياء عند ذلك:

¹ الرازي، مفاتيح الغيب، 29/22.

يا رب الأرباب، إنا وجدنا خلعة الوجود وخلعة الحياة، لكننا نحتاج إلى طلب الملائم ودفع المناهي، فإن لم يكن لنا قدرة على الطلب والهرب والجذب والدفع، لبقينا كالزمن المقعد على الطريق عرضةً للآفات والبلبيات، فأعطينا من خزائن رحمتك القدرة والقوة التي بها تتمكن من الطلب تارة والهرب أخرى، فاقترضت الرحمة التامة تخصيص بعض الأحياء بالقدرة كما اقتضت تخصيص بعض الموجودات بالحياة تخصيص بعض المعدومات بالوجود، فقال القادرون عند ذلك: إلهنا الكريم الرحيم إن الحياة والقدرة بلا عقل لا تظهر إفاذتهما كما ينبغي، فأفض علينا من العقل الذي هو أشرف مخلوقاتك وأعز مبتدعاتك، فأعطاهم الله تعالى العقل، ونفث في أرواحهم نور البصيرة وجوهر الهداية، فعند هذه الدرجة فازوا بالخلع الأربع: الوجود، والحياة، والقدرة، والعقل، فالعقل خاتم الكل، والخاتم يجب أن يكون أفضل، ألا ترى أن الإنسان خاتم المخلوقات الجسمانية، فكان أفضلها، وأن محمداً [1/38] خاتم النبيين، فكان أفضلهم، وذلك العقل لما كان خاتم الخلع الفائضة من حضرة ذي الجلال كان أفضل الخلع وأكملها، ثم نظر العقل في نفسه، فرأى نفسه كالشمس يظهر بنورها الأشياء النفيسة والخسيسة، ويتميز بعضها عن البعض، فلمّا نظر العقل إلى تلك الأشياء، رأى رقم الحدوث على حياة تلك الأشياء، فاستدل بتلك الأرقام على الرقم، وعرف أن الرقم غير الرقم فانفتح له من أعلى عالم المحدثات طرائق إلى أنوار عالم القدم ولوائجها، وطالع تلك الألواح الأزلية وعجائبها، فبقي متحيراً فالتجأ بطبعه إلى مفيض الأنوار، فقال: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ [طه: 25]، فإن البحار عميقة، والظلمات متكاثفة، وفي قطاع الطريق من الأعداء الداخلة والخارجة وشياطين الإنس والجن كثرة، فإن لم تشرح لي صدري، ولم تكن عوناً لي في جميع الأمور، انقطعت وصارت هذه الخلع سبباً لنيل الآفات، لا للفوز بالدرجات، فهذا هو المراد بقوله: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾، ثم قال: ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ [طه: 26]، وذلك لأن كل ما يصدر من العبد من الأفعال والأقوال والحركات والسكنات، فلمّا لم يصير العبد مريداً، استحال أن يصير فاعلاً لذلك، فهذه الإرادة صفة محدثة، فلا بدّ

لها من فاعل، وفاعله إن كان هو العبد افتقر في تحصيل تلك الإرادة إلى إرادة أخرى، ولزم التسلسل، بل لا بد من الانتهاء إلى إرادة خالقها مدبر العالم، فيكون في الحقيقة هو الميسر للأمور، وهو المتمم لجميع الأشياء، وتام التحقيق: أن حدوث الصفة لا بد له من قابل وفاعل، فعبر عن استعداد القابل بقوله: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾، وعبر عن حصول الفاعل بقوله: ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾، وفي التيسير على أنه سبحانه هو الذي يعطي [38/ب] القابل قابليته، والفاعل فاعليته، ولهذا كان السلف يقولون: يا مبتدئ النعمة قبل استحقاقها، ومجموع هذين الكلامين كالبرهان القاطع، على أن جميع الحوادث في هذا العالم واقع بقضائه وقدره، ويمكن أن يقال أيضاً: كأن موسى عليه السلام قال: إنني لا أكتفي بشرح الصدر، ولكن أطلب منك تنفيذ الأمر وتحصيل الغرض، ولهذا قال: ويسر لي أمري، ويمكن أن يقال: لما كان أمره مع العدو كان محتاجاً إلى الشجاعة والقدرة والقوة، فكأنه عليه السلام طلب الشجاعة بقوله: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ وطلب القدرة والقوة قوله: ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ فإن الشجاعة بدون القدرة لا تفيد.

الفصل الثاني: في قوله تعالى: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ اعلم أن الدعاء سبب القرب من الله تعالى فإنما اشتغل موسى عليه السلام؛ طلباً للقرب فيفتقر إلى بيان أن الدعاء سبب القرب، ثم إلى بيان أنه عليه السلام طلب بهذا الدعاء القرب، أما الأول: فلأنه تعالى ذكر السؤال والجواب في كتابه في عدة مواضع، منها أصولية، ومنها فروعية، أمّا الأصولية: فمنها قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: 189]، ومنها: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: 85]، ومنها: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ قُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ [طه: 105]، ومنها: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ [الأعراف: 187]، وأما الفروعية: فمنها: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾ [البقرة: 215]، ومنها: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: 217]، ومنها: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخمرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: 219]، ومنها:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ [البقرة: 219]، [39/أ] ومنها: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلِ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ [البقرة: 220]، ومنها: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلِ هُوَ أَدْنَىٰ﴾ [البقرة: 222]، ومنها: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [الأنفال: 1]، ومنها: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْبَيْنِ قُلِ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: 83]، ومنها: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلِ إِي وَرَبِّي﴾ [يونس: 53]، ومنها: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ﴾ [النساء: 127]، ومنها: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: 186] إذا عرفت هذا فنقول: هذه الأسئلة والأجوبة على صور مختلفة، فالأغلب فيها أنه تعالى لما ذكر السؤال قال لمحمد: قل، وفي صورة واحدة قال: فقل، بفاء التعقيب، وفي الصورة الثالثة ذكر السؤال ولم يذكر الجواب، وهو قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ [الأعراف: 187]، وفي الرابعة ذكر الجواب ولم يذكر لا لفظ: قل، ولا لفظ: فقل، وهو قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: 186]، ولا بدّ لهذه الأشياء من الفائدة، فنقول: أمّا الأجوبة الواردة بلفظ: قل، فلا إشكال فيها؛ لأنّ قوله تعالى: ﴿قُل﴾ كالتوقيع المجرد في إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وكالتشريف المجدد في كونه مخاطباً من الله تعالى بأداء الوحي والتبليغ. أما الصورة الثانية، وهي قوله تعالى: ﴿فَقُلْ يَنْسِفُهَا﴾ فالسبب أنّ قولهم: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ سَوَالٌ، إمّا عن قَدَمِهَا، وإمّا عن وجوب بقائها، وهذه المسألة من أمهات مسائل أصول الدين، فلا جرم أمر الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم أن يجيب بلفظ الفاء المفيد للتعقيب، كأنّه سبحانه قال: أجب عن هذا السؤال في الحال لئلا يقعوا في الشك، فإنّ الشك فيه كفر، ثم كيفية الجواب أنّه قال: ﴿فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي﴾، ولا شك أنّ النسف ممكن؛ لأنّه ممكن في كل جزء من أجزاء الجبل، فيكون ممكناً في الكل، وذلك يدلُّ على أنّه ليس بقديم، فإن قيل: إنهم قالوا: أخبرنا عن إهلك أهو ذهب [39/ب] أم فضة أم حديد؟ فقال: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الصمد: 1]، ولم يقل: فقل، مع أنّ هذه المسألة من المهمات، فنقول: إنّه

تعالى لم يحك في هذا الموضوع سؤالهم، وحرف الفاء من الحروف العاطفة، فيستدعي سبق كلام، فلمّا لم يوجد فقد ترك الفاء، بخلاف هذه الصورة. وأمّا الصورة الثالثة: وهي أنّه تعالى لم يذكر الجواب في قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ [الأعراف: 187]، فالحكمة فيه أنّ معرفة الساعة على التعيين مشتملة على المفاسد التي مر ذكرها فيما سبق، فلهذا لم يذكر الجواب، وذلك يدلّ على أنّ من الأسئلة ما لا يجاب عنها. وأمّا الصورة الرابعة، وهي قوله تعالى: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ ولم يذكر فيه لا: قُلْ، ولا: فُكُلْ، ففيه وجوه، أحدها: أنّ ذلك يدلّ على تعظيم حال الدعاء، وأنّه من أعظم العبادات، فكأنه تعالى يقول: يا عبدي أنت لا تحتاج إلى الوساطة في مقام الدعاء، فكأنّه سبحانه قال: إذا سئلت عن غيري فقل: أنت، وإذا سئلت عني فاسكت أنت. وثانيها: أن قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾ فإنه يدلّ على أنّ العبد له، وقوله تعالى: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ يدلّ على أنّه للعبد. وثالثها: لم يقل: فالعبد مني قريب، بل قال: أنا منه قريب، وفيه سر، فإن العبد ممكن الوجود، فهو من حيث هو في مركز العدم وحضيض الفناء، فكيف يكون قريباً؟ بل القريب هو الحق سبحانه، فإنه بفضل وإحسانه جعله موجوداً وقربه من نفسه، فالقرب منه لا من العبد. ورابعها: أنّ الداعي ما دام خاطره مشغولاً بغير الله تعالى، فإنّه لا يكون داعياً لله، فإذا فني عن الكل صار مستغرقاً بمعرفة الله تعالى، وفي هذا المقام رُفعت الوساطة [40/أ] من البين، فما قال: فُكُلْ: إني قريب، بل قال: إني قريب، ثم من شأن العبد أنّه إذا سأل من حضرة الله شيئاً أظهر عجزه عن تحصيل ما يطلبه منه، فإنّ إظهار العجز في الحضرة الإلهية من أعظم العبادات، فلا جرم أظهر موسى عليه السلام عجزه عن إتمام ما أمر به، فقال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ [طه: 25-26].

الوجه الثاني في بيان فضل الدعاء: اعلم أنّ من الدلائل ما يدلّ على أنّ الدعاء نوع من أنواع العبادة، فكما أنّه سبحانه أمر بالصلاة والصوم، وكذلك بالدعاء، ويدلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: 186]، وقوله: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: 60]، و ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ

تَضَرُّعاً وَخُفِيَةً ﴿٥٥﴾ [الأعراف: 55]، فهذه الآيات وأمثالها تدلُّ على أنَّ الدعاء عبادة، ويدلُّ عليه أيضاً من الأخبار قوله صلى الله عليه وسلم: «الدُّعَاءُ مُخُّ الْعِبَادَةِ»¹، ومخ الشيء خلاصة ذلك الشيء، فيكون الدعاء خلاصة العبادة، وأمَّا قول من قال: إنَّ الدعاء على خلاف العقل، فذلك ضعيف جداً، وإن احتج عليه بوجوه، أحدها: أنَّه علام الغيوب يعلم السر وأخفى، فأبي حاجة إلى الدعاء؟ وثانيها: أنَّ المطلوب إن كان معلوم الوقوع فلا حاجة إلى الدعاء، وإن كان معلوم اللاوقوع فلا فائدة فيه. وثالثها: أنَّ الدعاء يشبه الأمر والنهي، وذلك من العبد في حق المولى ترك الأدب. ورابعها: أنَّ المطلوب من الدعاء إن كان من المصالح فالحكيم لا يُهمله، وإن لم تكن من المصالح لم يجز طلبه. وخامسها: أنَّ أعظم مقامات الصلِّيقين الرضا بقضاء الله والدعاء ينافي ذلك، وسادسها: قال صلى الله عليه وسلم رواية عن الله سبحانه: «مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِيَ السَّائِلِينَ»²، فدلَّ [40/ب] أنَّ الأولى ترك الدعاء. وسابعها: أنَّ إبراهيم عليه السلام لما ترك الدعاء واكتفى بقوله: حسبي من سؤالي علمه بحالي استحق المدح، وذلك يدلُّ على أنَّ الأولى ترك الدعاء. فيقال في الجواب عن الأول: إنَّه ليس الغرض من الدعاء الإعلام، بل نوع تضرع كسائر التضمرعات. وعن الثاني: أنَّه يجري مجرى قول الجائع: إن كان الشبع معلوم الوقوع فلا حاجة إلى الأكل، وإن كان معلوم اللاوقوع فلا فائدة، وهذا في جملة ما مر الكلام فيه، أنَّ فعل العبد على حسب ما يعلمه في الظاهر، لا بحسب ما لا يعلمه من الوقوع واللاوقوع. وعن الثالث: أنَّ الصيغة وإن كانت صيغة الأمر، إلا أنَّ صورته صورة التضرع والخشوع، فيصرفه ذلك. وعن

¹ أخرجه الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي، الدعاء، باب تأويل قول الله عز وجل {ادعوني أستجب لكم} إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين} [غافر: 60]، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1413هـ)، 24، حديث رقم: 8. الترمذي، سنن الترمذي، أبواب الدعوات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب: منه، 456/5، حديث رقم: 3371. ضعيف.

² أخرجه البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة، أبو عبد الله، التاريخ الكبير، باب: بُكَيْرٍ، (الرياض: الناشر المتميز للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1440هـ)، 519/2، حديث رقم: 1871. والبيهقي، شعب الإيمان، فصل: في إدامة ذكر الله تعالى، 96/2، حديث رقم: 569، ضعيف.

الرابع: يمكن أن يصير من المصالح بشرط سبق الدعاء. وعن الخامس: أنه إذا دعا إظهاراً للتضرع، ثم رضي بما قدره الله فذلك أعظم المقامات، وهو الجواب عن الوجوه الباقية. واعلم أن الوجوه الدالة على فضيلة الدعاء متعددة غاية التعداد، والله تعالى بالغ في بيان هذه الفضيلة لما بين أنه يغضب إذا لم يُسأل، فقال: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنعام: 43] الآية، ثم إنه تعالى جعل العباد على أقسام كثيرة، منها: أن يكون عند العصمة ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الإسراء: 64]، ومنها: عند الصفوة ﴿وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: 59]، ومنها: عند البشارة ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ﴾ [الزمر: 17]، ومنها: عند الكرامة ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ [الزخرف: 68]، ومنها: عند القربة ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: 186]، وكان موسى عليه السلام مخصوصاً بالعصمة ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ ومخصوصاً بالصفوة ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الأعراف: 144]، ومخصوصاً بالبشارة ﴿وَأَنَا اخْرَجْتُكَ﴾ [طه: 13]، ومخصوصاً [41/أ] بالكرامة ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: 46] ومخصوصاً بالقربة ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: 52] فأراد موسى عليه السلام مزيد العصمة والصفوة والبشارة والكرامة والقربة، فقال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ [طه: 26-27].

الفصل الثالث في قوله: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾

وفيه وجوه: أحدها: أن الله تعالى لما خاطبه بالأشياء الستة، وهي معرفة التوحيد ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ العباداة ﴿فَاعْبُدْنِي﴾ معرفة الآخرة ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ﴾ حكمة أفعاله في الدنيا ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ﴾ عرض المعجزات القاهرة ﴿لَتُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا﴾ إرساله إلى أعظم الناس عتوّاً ﴿أَذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ فكانت هذه التكاليف الشاقة سبباً للقهر، فأراد موسى عليه السلام جبر هذا القهر بفخر

القرب منه، فقال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾. وثانيها: أراد الذهاب إلى فرعون، فأراد أن يقطع طمع الخلق عن نفسه بالكلية، فعرف أن من دعائه قربة له وهدية لديه، فحينئذ قطع الطمع عن الخلق، فقال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾. وثالثها: الوجود كالنور والعدم كالظلمة، وكل ما سوى الحق فهو في حكم العدم ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: 88] فالكل كأهم في ظلمات العدم، فقال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ حتى يسكن قلبي في بهو ضوء المعرفة ووسادة شرح الصدر، والسّاكن في الضوء لا يرى من كان ساكناً في الظلمة، فلا يرى أحداً في الوجود فلماذا عقبه بقوله: ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾، فإنَّ العبد في مقام الاستغراق لا يتفرغ لشيء من المهمات. ورابعها: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ فإنَّ عين العقل ضعيفة فأطلع يا إلهي شمس التوفيق حتى أرى كل شيء كما هو، وهذا في معنى قول محمد صلى الله عليه وسلم: «أَرِنَا الْأَشْيَاءَ كَمَا هِيَ»¹. وخامسها: قال موسى عليه السلام [41/ب] ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾، وقال محمد: «أَرِنَا الْأَشْيَاءَ كَمَا هِيَ»، وشرح الصدر مقدمة لسطوع الأنوار الإلهية في القلب، والاستماع مقدمة للفهم الحاصل من سماع الكلام، فالله تعالى أعطى موسى المقدمة، وهي قوله: ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾، فلا جرم نسج موسى عليه السلام على ذلك المنوال، فقال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾، وهذا طلبٌ للمقدمة، ولما آل الأمر إلى محمد صلى الله عليه وسلم قيل له: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ والعلم هو المقصود من شرح الصدر، فلما كان موسى كالمقدمة لمقصود محمد صلى الله عليه وسلم لا جرم أُعطي نبينا المقصود، فسبحانه ما أدقَّ حكمته في كل شيء. وسادسها: للداعي صفتان، أحدهما: أن يكون عبد القرب ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: 186]، والثاني: أن يكون الرب له ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: 60]، أضاف نفسه إلينا وما أضافنا إلى نفسه، فالمشتغل بالدعاء

¹ لم أقف على حديث باللفظ المذكور، وورد في صيد الخاطر قال: "قد جاء في الأثر: اللهم! أرنا الأشياء كما هي! وهذا كلام حسن غاية...." ابن الجوزي، صيد الخاطر، فصل: اللهم أرنا الأشياء كما هي، 429/1، حديث رقم: 1393.

قد صار كاملاً من هاتين الصفتين، فأراد موسى عليه السلام أن يرتع في هذا البستان فقال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾. وسابعها: أن موسى شرفه الله بقوله: ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ [مریم: 52] فكأن موسى عليه السلام قال: إلهي لما قلت ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ صرت قريباً منك، ولكني أريد قربك مني، فقال تعالى: يا موسى أما سمعت قولي: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ فادعني حتى أصير قريباً منك، فعند ذلك قال موسى: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾، وقال محمد: ﴿أَمْ نَشْرَحُ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الإنشراح: 1]، ثم إنَّه تعالى ما تركه على هذه الحالة، بل قال: ﴿وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب: 46] فانظر إلى التفاوت بين محمد وموسى كالتفاوت بين الآخذ والمعطي، ثم نقول: إلهنا، كلمة لا إله إلا الله نور، والتوفيق نور، والصلاة نور، والصبر نور، والجنة نور، فبحق [42/أ] أنوارك التي أعطيتنا لا تحرمنا أنوار فضلك وإحسانك يوم القيامة. الفصل الرابع في قوله: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾: «سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ شَرْحِ الصَّدْرِ فَقَالَ: نُورٌ يُفْدَفُ فِي الْقَلْبِ، فَقِيلَ: وَمَا أَمَارَتُهُ فَقَالَ: التَّجَافِي عَنِ دَارِ الْغُرُورِ وَالْإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ وَالِاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ النَّزُولِ»¹، ويُدلُّ على أنَّ شرح الصدر عبارة عن النور قوله تعالى: ﴿أَفَمَن

شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر: 22]. واعلم أنَّ الله نور ذكر عشرة أشياء ووصفها بالنور، أحدها: وصف ذاته بالنور ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: 35]. وثانيها: الرسول ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: 15]. وثالثها: القرآن ﴿وَاتَّبِعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ﴾ [الاعراف: 175]. ورابعها: الإيمان ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾ [التوبة: 32]. وخامسها:

¹ أخرجه البيهقي من طرق عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نزلت هذه الآية {فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام} قال «إذا أدخل الله النور القلب انشرح وانفسخ. قالوا: فهل لذلك من آية يعرف بها؟ قال: الإجابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزول الموت». البيهقي، شعب الإيمان، باب: الزهد وقصر الأمل، 13/ 133، حديث رقم: 10068. وابن أبي الدنيا أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي، قصر الأمل، باب المبادرة بالعمل، (بيروت: دار ابن حزم، ط2، 1417هـ)، 99، حديث رقم: 131. الحاكم، المستدرک علی الصحیحین، كتاب الرقائق، 4/ 346، حديث رقم: 7863، ضعيف.

عدل الله ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: 69]. وسادسها: ضياء القمر ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح: 16]. وسابعها: النهار ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: 1]. وثامنها: البيئات ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: 44]. وتاسعها: الأنبياء ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ [النور: 35]. وعاشرها: المعرفة ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور: 35]، إذا ثبت هذا فنقول: كأن موسى عليه السلام قال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ باتباع وحيك وامتنال أمرك ونحيك، رب اشرح لي صدري بنور الإيمان بك، والإيقان بعظمة حضرتك، رب اشرح لي صدري بالاطلاع على أسرار عدلك في تحكّمك، رب اشرح لي صدري بالانتقال من نور شمسك وقمرك إلى نور جلال عزتك، رب اشرح لي صدري من مطالعة نهارك وليلك إلى مطالعة نهار فضلك وليل عدلك، رب اشرح لي صدري بالاطلاع [42/ب] على مجامع آياتك ومعاهد بيناتك في أرضك وسماواتك، رب اشرح لي صدري في أن أكون خَلْفَ صدق الأنبياء المتقدمين، ومتشبهاً في الانقياد لحكم رب العالمين، رب اشرح لي صدري بأن تجعل سراج الإيمان في قلبي كالمشكاة التي فيها المصباح. واعلم أنّ شرح الصدر عبارة عن إيقاد النور في القلب حتى يصير القلب كالسراج، وذلك النور كالنار، ومعلوم أنّ من أراد أن يستوقد سراجاً احتاج إلى سبعة أشياء: زُند، وحجر، وخرّاق، وكبريت، ومسرّجة، وفتيلة، ودُهْن، فالعبد إذا طلب النور الذي هو سراج الصدر، فلا بد له من زُند المجاهدة ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ [العنكبوت: 69] ومن حجر التضرع ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: 55] ومن خرّاق منع الهوى ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ [النازعات: 40]، ومن كبريت الإنابة ﴿وَأَنبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر: 54]، ومن مسرّجة الصبر ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: 45]، ومن فتيلة الشكر ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: 7]، ومن دُهْن الرضا ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الطور: 48]، أي: ارض بقضائه، فإذا حصّلت هذه الأدوات فلا تعوّل عليها، بل ينبغي ألا تطلب المقصود إلا من الله تعالى ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ

رَحْمَةً ﴿ [فاطر: 2] ثم اطلبها بالخشوع والخضوع ﴿ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ [طه: 108]، فعند ذلك ترفع يد التضرع، وتقول: رب اشرح لي صدري، فهناك تسمع قد أوتيت سؤالك يا موسى. ثم اعلم أن هذا النور المسمى بشرح الصدر أفضل من نور الشمس بوجه عشرة، أحدها: الشمس يحجبها غمامة وشمس المعرفة لا يحجبها شيء. وثانيها: الشمس تغيب ليلاً وشمس المعرفة لا تغيب أصلاً. وثالثها: [43/أ] الشمس تتغير ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ [التكوير: 1]، وشمس المعرفة لا تتغير. ورابعها: الشمس إذا قابلها القمرُ انكسفت، وشمس المعرفة إذا قابلها نور العبادة أشرفت. وخامسها: الشمس تسود الوجه، وشمس المعرفة تبيضها ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران: 106]. وسادسها: الشمس تصدع المعرفة وتصعد ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾ [فاطر: 10]. وسابعها: الشمس في السماء زينة لأهل الأرض، والمعرفة في الأرض زينة لأهل السماء. وثامنها: الشمس تنفع للأعداء وغير الأعداء، والمعرفة لا تنفع إلا للأولياء، وتوسعها: الشمس فانية، والمعرفة باقية. وعاشرها: الشمس تُعرِّف صفات الخلق، والمعرفة تُعرِّف صفات الخالق. ولنقتصر على هذا القدر، فإن المرجحة كثيرة في هذا الباب، والبيان يفضي إلى الإطناب، ثم المعرفة لما كانت متصفة بهذه الصفات النفيسة توجه إليها موسى، وقال: ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾. وأما النكت فكثيرة أيضاً، منها: أن الشمس سراج استوقدها الله تعالى في السماء لتزِيل الظلمة عن الشك مع بُعدها عنك، والمعرفة سراج أوقدها الله تعالى في قلب المؤمن، أفلا تزيل ظلمة المعصية والكفر عن القلب مع قربها منك. ومنها: من استوقد سراجاً فإنه لا يزال يتعهده ويُمدُّه، والله تعالى أوقد سراج المعرفة ولكن الله حبيب إليكم الإيمان، أفلا يمدّه؟ وهو معنى قوله: رب اشرح لي صدري. ومنها: السراج يدفع ضرراً للصوص، فسراج المعرفة أفلا يدفع ضرر الشياطين، فلماذا قال: رب اشرح لي صدري. ومنها: أن الجوس أوقدوا ناراً لمصلحة هي على وفق اعتقادهم فلا يريدون إطفاءها [43/ب]، فالملك القدوس أوقد سراج المعرفة في قلب المؤمن لحكمة بالغة ومصلحة سابعة،

فكيف يريد إطفاءها ويرضى بذلك؟. واعلم أنه تعالى أعطى قلب المؤمن عشر كرامات، أحدها: الحياة ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام: 122]، فلما رغب موسى عليه السلام في الحياة الروحانية، قال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾. وثانيها: الشفاء ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: 14]، فلما رغب موسى عليه السلام في الشفاء رفع الأيدي، وقال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ [طه: 25]. وثالثها: الطهارة ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾ [الحجرات: 3]، فلما رغب موسى في ازدياد طهارة التقوى قال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾، وعلى هذا قال في الرابع منها، وهو الهداية: ﴿وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: 11]. وفي الخامس: وهو الكتابة: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ [المجادلة: 22]، وفي السادس: وهو السكينة ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: 4]. وفي السابع، وهو المحبة والزينة ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: 7]. وفي العاشر: وهو الطمأنينة ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28]، ثم في كل قسم من هذه الأقسام نكتة لائقة بالوعظ والنصيحة، كما يقال في الأولى منها: «إنَّ العبد إذا أحيأ أرضاً ميتة فهي له، وهو في حفظها»¹، فالرب سبحانه لما أحيأ أرضاً ميتة، وهي قلب الكافر، كان ذلك القلب له وهو في حفظه وعنايته لا محالة. وفي الثاني: أنه تعالى لما وضع الشفاء في العسل بقي شفاء أبداً، فلما وضع الشفاء في الصدر كيف لا يبقى. وفي الثالث: أنَّ الصائغ إذا امتحن الذهب بالنار مرة، فلا يُدخله بعد ذلك في النار، فالصائغ لما امتحن قلب المؤمن [44/أ] فكيف يُدخله النار؟ وعلى هذا يُذكر في كل قسم ما يناسبه ويليق به، وذلك يُعرف بالتأمل. ولما عرفت حقيقة شرح الصدر للمؤمنين فاعرف ما كان على الصدر في قلوب الكافرين، ومنها: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: 5]. ومنها: ﴿ثُمَّ انصَرَفُوا

¹ ورد في الحديث الشريف: «مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَيِّتَةً فَهِيَ لَهُ وَلَيْسَ لِعَرَبِيٍّ ظَلْمٌ حَقٌّ». الترمذي، سنن الترمذي، أبواب الأحكام، باب ما ذكر في إحياء أرض الموت، 654/3، حديث رقم: 1378. صحيح.

صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴿التوبة: 127﴾ ومنها: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [البقرة: 10]. ومنها: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ [المائدة: 13]. ومنها: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ [الأنعام: 25]. ومنها: ﴿حَتَّمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: 7]. ومنها: ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: 24]. ومنها: ﴿بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [المطففين: 14]. ومنها: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: 155]¹.

الفصل الخامس في حقيقة شرح الصدر

العلماء ذكروا فيه وجهين: أحدهما: ألا يبقى للقلب التفاتٌ إلى الدنيا، لا بالرغبة ولا بالرهبة، أمّا الرغبة: فهي أن يكون متعلق القلب بالأهل والولد، وبتحصيل مصالحهم ودفع المضار عنهم، وأمّا الرهبة فهي: أن يكون خائفاً من الأعداء والمنازعين، فإذا شرح الله صدره، صَعُرَ كَلِّمَا يتعلق بالدنيا في عين همته، ولا تدعوه رغبة إليها، ولا تمنعه رهبة عنها، فيصير الكل عنده كالعدم، وحينئذ يميل القلب بالكلية إلى طلب مرضاة الله تعالى، فسأل موسى عليه السلام ربه أن يشرح صدره، بأن يُوقفه على طلب الدنيا وقبح صفاتها، حتى يصير قلبه نافراً عنها، فإنه إذا حصلت النفرة توجه إلى عالم القدس ومنازل الروحانيات بالكلية. الثاني أن موسى عليه السلام لما نُصِّبَ ذلك المنصب العظيم، احتاج إلى تكاليف شاقة، منها: ضبط الوحي، والمواظبة على خدمة الخالق سبحانه. ومنها: إصلاح العالم الجسداني، فكأنه صار مكلفاً بتدبير العالمين الجسداني [44/ب] والروحاني، والاتفات إلى أحدهما يمنع الاشتغال بالآخر، وأن موسى عليه السلام كان محتاجاً إلى الكل، ومن استأنس بالحق استوحش عن الخلق، فسأل موسى أن يشرح صدره بأن يفيض عليه كملاً من القوة، لتكون قوته وافية بضبط إصلاح العالمين، فهذا هو المراد من شرح الصدر، ثمَّ العلماء ذكروا لهذا المعنى أمثلة، منها: أنَّ البدن بالكلية كالمملكة، والصدر كالقلعة، والفؤاد

¹ الرازي، مفاتيح الغيب، 30/22-32-33-إلى 39.

كالقصر، والقلب كالتخت، والروح كالملك، والعقل كالوزير، والشهوة كالعامل الكبير الذي يجلب النعم إلى البلدة، والغضب كالشحنة يشتغل بالضرب والتأديب أبداً، والحواس كالجواسيس، وسائر القوى كالعملة والصُّناع، ثم إن الشيطان حَصَمَ هذه الولاية، ولهذه القلعة، ولهذا الملك، فإنَّ الشيطان كالسلطان، والهوى والحرصُ وسائر الأخلاق الذميمة جنوده، فكما أنَّ الوزير وهو العقل يدعو إلى خدمة حضرة الله سبحانه، فالهوى يدعو إلى متابعة الشيطان، وكما أنَّ الروح وهو الملك أخرج الفطنة وأمدَّها بالفكرة ليقف على الحاضر والغائب، قال عليه السلام: «تَفَكَّرُ سَاعَةً خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ سَنَةٍ»¹، فالشيطان أخرج في مقابلة الفكرة الغفلة، ثم أخرج الروحَ التوقفَ والعلمَ والثبات، فإنَّ العجلة تُري الحسن قبيحاً، والقبيح حسناً، والعلم يُوقف العقلَ على فتح الدنيا، فأخرج الشيطان في مقابلة التوقف والعلم العجلة والسرعة، فلهذا قال صلى الله عليه وسلم: «ما دَخَلَ الرَّفِيقُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا الْخُرْقُ إِلَّا شَانَهُ»²، ولهذا أيضاً خلق الله السموات [45/أ] والأرض في ستة أيام، وهذه هي الخصومة الحاضرة بين الطائفتين والصدر هو المعركة، ثم لهذا الصدر الذي هو القلعة خندقٌ وهو الزهد في الدنيا، ولها سور، وهو الرغبة في الآخرة، ومن المعلوم أنَّ الخندق إذا كان عميقاً، والسور إذا كان قوياً عالياً، كان عجز الخصم عن الدخول أغلب وأكثر، ولو كان على العكس، فالأمر على العكس فاعتبر بما عرفت. الفصل السادس في الصدر: اعلم أنه يجيء والمراد منه القلب، قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الزمر: 22]، وقد يجيء والمراد منه الفضاء الذي فيه الصدر قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [

¹ هذا ليس بحديث، وإنما هو من كلام السلف. علي بن (سلطان) محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري، المصنوع في معرفة الحديث الموضوع (الموضوعات الصغرى)، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط2، 1398هـ)، 82، حديث رقم: 94. محمد بن خليل بن إبراهيم، أبو المحاسن القاوقجي الطرابلسي الحنفي، اللؤلؤ المرصوع فيما لا أصل له أو بأصله موضوع، (بيروت: دار البشائر الإسلامية، ط1، 1415هـ)، 66، حديث رقم: 151، موضوع.

² لم أجده بلفظه وأخرجه مسلم بلفظ: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه»، والبزار بلفظ: ما كان الرفق في شيء قط إلا زانه، ولا كان الخرق في شيء قط إلا شانه، وإن الله رفيق يحب الرفق. مسلم، صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب: فضل الرفق، 4/2004، حديث رقم: 2594.

الحج: 46]، واختلف الناس في أنّ محل العلم هو القلب أو الدماغ، وجمهور المتكلمين على أنّه هو القلب، وسيأتي ذكر هذه المسألة في سورة الشعراء عند قوله: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: 192]. ومنهم من قال: المراتب أربع: الصدر، والقلب، والفؤاد، واللّب، فالصدر مقرّ الإسلام ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الزمر: 22]، والقلب مقرّ الإيمان ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَزَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: 7]، والفؤاد مقرّ المعرفة ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم: 11] واللّب مقرّ التوحيد ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد: 19]. واعلم أنّ القلب أوّل ما بعث إلى هذا العالم بعث خالياً عن النفس، كاللوح الساذج، وهو في عالم البدن كاللوح المحفوظ، ثم إنّه تعالى يكتب فيه بقلم الرحمة والعظمة جميع ما يتعلّق بعالم العقل من نقوش الموجودات، وصور الماهيات، وذلك يكون كالسطر الواحد إلى آخر قيام القيامة لهذا العالم الأصغر [45/ب] حتى لا يُكَلِّمَ غيره إلا بإذنه. قال الإمام فخر الدين: هنا مسائل، المسألة الأولى: اعلم أنّ النطق فضيلة عظيمة يدلُّ عليه وجوه، أحدها: قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [البقرة: 4-5]، ولم يقل: وعلمه البيان؛ لأنّه إذا عطفه عليه كان مغايراً له، أمّا إذا ترك حرف العطف صار قوله: ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ كالتفسير لقوله: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ كأنّه إنما يكون خالقاً للإنسان إذا علمه البيان، وذلك يرجع إلى الكلام المشهور من أنّ ماهية الإنسان هي الحيوان الناطق. وثانيها: اتفق العقلاء على تعظيم أمر اللسان، قال زهير¹:

لسانُ الفَتَى نِصْفٌ وَنِصْفٌ فُؤَادُهُ فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا صُورَةُ اللَّحْمِ وَالِدَمِّ

¹ زهير بن أبي سلمى، ربيعة بن رباح المزني، من مضر: حكيم الشعراء في الجاهلية، وأحد الثلاثة المقدمين على سائر الشعراء، وفي أئمة الأدب من يفضلّه على شعراء العرب كافة، توفي سنة (631) لميلاد المسيح عليه السلام. الزركلي، الأعلام، 52/3.

وقالوا: ما الإنسان لولا اللسان لكان بهيمة مُرْسَلَةً أو صورةً مُثَلَّةً، يعني لو أزلنا الإدراك الذهني والنطق اللساني لم يبق من الإنسان إلا القَدْرُ الحاصلُ في البهائم. وقالوا: المرء بأصغريه، قلبه ولسانه¹، وقالوا: المرء محبُّو تحت لسانه². وثالثها: أن في مناظرة آدم مع الملائكة ما ظهرت الفضيلة إلا بالنطق حيث قال تعالى: ﴿يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: 33]. ورابعها: أن الإنسان جوهر مركّب من الروح والقلب، وروحه من عالم الملائكة، فهو يستفيد أولاً صور المغيبات من عالم الملائكة، ثم بعد ذلك يفيضها إلى عالم الأجسام، وواسطته في تلك الاستفادة هي العلم الذهني، وواسطته في هذه الإفادة هي النطق اللساني، فكما أن تلك الواسطة أعظم العبادات، حتى قيل: تفكر ساعة خير من عبادة سنة³، فكذا الواسطة في الإفادة يجب أن تكون [47/أ] أشرف الأعضاء، فقوله: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ إشارة إلى طلب النور الواقع في الروح، وقوله: ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾، إشارة إلى تسهيل ذلك التحصيل، وعند ذلك يحصل الكمال في تلك الاستفادة الروحانية، فلا يبقى بعد ذلك إلا المقام الثاني، وهو إفاضة ذلك الكمال على الغير، وذلك لا يكون إلا باللسان، فلهذا قال: ﴿وَأَحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾. وخامسها: وهو أن العلم أفضل المخلوقات على ما عُرف، والجود والإعطاء أفضل الطاعات، فاليدُ لما كانت آلة في العطيّة الجسمانية، قيل: اليدُ العليا خير من اليد السفلى، فالعلم الذي هو خير من المال، كان آلة إعطائه أشرف الأعضاء – ولا شك أن اللسان هو الآلة في إعطاء المعارف – فيجب أن يكون أشرف الأعضاء، ومن الناس من مدح الصمت بوجوه: أحدها:

¹ ذكره أبو عمر، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه ابن حبيب ابن حدير بن سالم المعروف بابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1404هـ)، 4/ 271.

² من قول علي، رضي الله عنه. أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري، شهاب الدين النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، (القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ط1، 1423هـ)، 2/ 96.

³ محمد طاهر بن علي الصديقي الهندي الفتني، تذكرة الموضوعات، (مصر: إدارة الطباعة المنيرية، ط1، 1343هـ)، 188، موضوع.

قوله صلى الله عليه وسلم: «الصَّمْتُ حِكْمَةٌ، وَقَلِيلٌ فَاعِلُهُ»¹. وثانيها: أنَّ الكلام على خمسة أقسام، إما نفع محض، وإما ضرر محض، وإما أن يكون النفع فيه مساوياً مع الضرر، وإما أن يكون النفع راجحاً، وإما أن يكون على العكس، والأكثر من هذه الأقسام واجب الترك، فيكون تركه أولى. وثالثها: أنه ما من موجود أو معدوم خالق أو مخلوق معلوم أو موهوم إلا واللسان يتناوله، ويتعرض له، إمّا بإثبات وإما بنفي، فإن كان ما يتناوله الضمير عبّر عنه باللسان بحق أو باطل، فهذه خاصية لا توجد في سائر الأعضاء، فيكون في اللسان ما لا يكون في الغير، وحينئذ يلزم أن يكون ترك الكلام أولى. ورابعها: قالوا: ترك الكلام له أربعة أسماء: الصمت، والسكوت، والإنصات، والإصاغة، أمّا الصمت فهو أعمها، لأنه يستعمل فيما يقوى [47/ب] على النطق، وفيما لا يقوى عليه، ولهذا يقال: مألٌ ناطق، وصامتٌ، وأمّا السكوت، فهو ترك الكلام ممن يقف على الكلام، وأمّا الإنصات فهو سكوتٌ مع استماع، ومتى انفك أحدهما عن الآخر لا يقال له: إنصات، قال تعالى: ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ [الأعراف: 204]، وأمّا الإصاغة فهي استماع إلى ما يصعب إدراكه. واعلم أنَّ الصمت عدمٌ ولا فضيلة فيه، بل النطق في نفسه فضيلة والرديلة فيما يتعلق به، ولولاه لما سأل كلیم الله في قوله: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾. المسألة الثانية: اختلفوا في تلك العقدة التي كانت في لسان موسى عليه السلام على قولين: أحدها: كان ذلك التعقد خلقياً، فسأله الله تعالى إزالته. وثانيهما: أنَّ السبب فيه أنَّه عليه السلام أخذ لحية فرعون وبتفها، فهَمَّ فرعون بقتله، وقال: هذا هو الذي يزول ملكي على يده، فقالت آسية: إنه صبي لا يعقل، وعلامته أن يُقَرَّب إليه التمرُّ

¹ أخرجه أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيبان، الزهد، بقية زهد عيسى عليه السلام، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط2، 1420هـ)، 88، حديث رقم: 545. وورد أنه من قول لقمان الحكيم. عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي، أبو محمد المصري، الجامع في الحديث، في الكلام لما لا ينبغي ولا يحسن، (الرياض: مكتبة ابن الجوزي، ط1، 1416هـ)، 507، حديث رقم: 394.

والجمرة فُقُرْبًا إليه فأخذ الجمرة فجعلها في فيه، وهؤلاء اختلفوا، منهم من قال: لم تحترق اليد ولا اللسان؛ لأنَّ اليد آلة أخذ العصا، وهي الحجَّة، واللسان آلة الذكر فكيف تحترق؟. ومنهم من قال: احترق اليد دون اللسان؛ لئلا يحصل بينهما حق المؤاكلة والمخالطة. ومنهم من قال: احترق اللسان دون اليد لأنَّ الوُصْلَةَ طَهَّرَتْ باليد، أما اللسان فقد خاطبه بقوله: يا أبت. ومنهم من قال: احترق اليد واللسان كيلا يحصل المؤاكلة ولا المخاطبة. المسألة الثالثة: اختلفوا في أنَّه عليه السلام لِمَ طلب حل تلك العقدة على وجوه؟ منها: لئلا يقع في أداء الوحي خلل. ومنها: لإزالة النفور لأن العقدة في اللسان قد يُفضي إلى الاستحقار [48/أ] بقائلها، وعدم الالتفات إليه. وثالثها: لإظهار المعجزة، فكما أن حبس لسان زكريا عليه السلام كان معجزاً في حقه، فكذا إطلاق لسان موسى عليه السلام معجز في حقه. ورابعها: طلب السهولة لأن إيراد مثل هذا الكلام على مثل فرعون في جبروته عَسِيراً جداً، فإذا انضم إليه تعقُّد اللسان بلغ العسر إلى النهاية، فسأل ربه إزالة تلك العقدة تخفيفاً وتسهيلاً، المسألة الرابعة: قال الحسن رحمه الله: إن تلك العقدة زالت بالكلية، بدليل قوله: ﴿قَدْ أُوتِيَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾، [طه: 36] وهو ضعيف؛ لأنَّه عليه السلام لم يقل: واحلل العُقْدَ من لساني، بل قال: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي﴾، فإذا حلَّ عقدة واحدة فقد آتاه الله سؤاله. والحق أنَّه انحل أكثر العقدة، وبقي منها شيء؛ لقوله تعالى حكاية عن فرعون: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: 52]، أي: يقارب ألا يبين، وفي ذلك دلالة على أنَّه كان يبين مع بقاء قدرٍ من الانعقاد في لسانه، وأجيب عنه من وجهين: أحدهما: المراد بقوله: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾، أي: لا يأتي ببيان وحجَّة، وثانيها: أنَّ كَادَ بمعنى قُرْب، فلو كان المراد هو البيان اللساني لكان معناه: أنَّه لا يقارب البيان، فكان فيه نفي البيان بالكلية، وذلك باطل؛ لأنَّه خاطب فرعون، والجمع كانوا يفهمون، فكيف يمكن نفي البيان أصلاً؟ بل إنما قالوا ذلك تمويهاً ليصرفوا الوجوه عنه، قال أهل الإشارة: إنما قال: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي﴾؛ لأنَّ حل العُقْدَ كلها نصيب محمد صلى

الله عليه وسلم، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: 152]، فلما كان ذلك حقاً لیتيم أبي طالب، لا جرم ما دار حوله¹. وقال الزمخشري: واختلف في زوال العقدة بكما لها، فقيل: بقي بعضها، لقوله تعالى: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ [48/ب]، وقوله: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ وكان في لسان الحسين بن علي رضي الله عنهما رُتَّةٌ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « وَرَثَهَا مِنْ عَمِّهِ مُوسَى »²، وقيل: زالت لقوله: ﴿قَدْ أُوتِيَ سؤُوكَ﴾، وفي تنكير العقدة ولم يقل: واحلل عقدة لساني أنه طلب حل بعضها إرادة أن يُفهم عنه فهماً جيداً، ولم يطلب الفصاحة الكاملة، ومن لساني صفة للعقدة كأنه قيل: عُقْدَةٌ من عقد لساني. انتهى³. وقال السلمي في تفسيره: قوله: واحلل عقدة من لساني، قال بعضهم: سأله حلَّ عُقْدَةِ الحياء، فإنه استحياً أن يخاطب عدو الله فرعون بلسان به الحق. انتهى⁴. ﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ [طه: 28] عند تبليغ الرسالة. المطلوب الرابع: قوله: ﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيْرًا مِنْ أَهْلِي﴾ [طه: 29] أي: معيناً وظهيراً أعتد عليه. اعلم أن طلب الوزير، إما أن يكون لأنه خاف على نفسه العجز عن القيام بذلك الأمر، أو لأنه رأى أن التعاون على الدين والتظاهر عليه مع مخالصة الودِّ وزوال النهمة له مزية عظيمة في أمر الدعاء إلى حضرة الله تعالى، ولذلك قال عيسى عليه السلام: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِثُونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ [آل عمران: 52]، وقال لمحمد صلى الله عليه وسلم: ﴿حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: 64]، وقال صلى الله عليه وسلم: « إِنَّ لِي فِي السَّمَاءِ وَزَيْرِينَ وَفِي الْأَرْضِ وَزَيْرِينَ، فَاللَّذَانِ فِي السَّمَاءِ جِبْرِيْلُ وَمِيكَائِيْلُ وَاللَّذَانِ فِي

¹ بتصرف، الرازي، مفاتيح الغيب، 39/22-40-41-42-43-44.

² الزيلعي، جمال الدين أبو محمد عبد الله بن يوسف بن محمد، تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزمخشري، الفصل التاسع في ظواهر السنة التاسعة وما فيها من الغزوات، (الرياض: دار ابن خزيمة، ط1، 1414هـ)، 352/2، حديث رقم: 788، غريب جداً.

³ الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 61/3.

⁴ السلمي، حقائق التفسير، 442/1.

الأرضِ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ»¹. وهنا مباحث: الأول: الوزير من الوزر الثقل؛ لأنه يتحمل عن الملك أوزاره ومؤنه، أو من الوزاري الملجأ؛ لأنَّ الملك يعتصم برأيه ويلتجئ إليه في أموره، أو هو من المؤازرة وهي المعاونة. الثاني: في كتاب النسائي عن القاسم بن محمد² سمعت عمر يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ وُلِيَ مِنْكُمْ عَمَلًا فَأَرَادَ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا جَعَلَ لَهُ وَزِيرًا صَالِحًا [49/أ] إِنْ نَسِيَ دَكْرَهُ، وَإِنْ ذَكَرَ أَعَانَهُ»³، ومن هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم: «مَا بَعَثَ اللَّهُ مِنْ نَبِيٍّ، وَلَا اسْتَخْلَفَ مِنْ خَلِيفَةٍ، إِلَّا كَانَتْ لَهُ بَطَانَتَانِ: بَطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَحْضُهُ عَلَيْهِ، وَبَطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالشَّرِّ وَتَحْضُهُ عَلَيْهِ، فَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَ اللَّهُ تَعَالَى». رواه البخاري⁴ رحمه الله⁵.

¹ أخرجه الحاكم، المستدرک علی الصحیحین، 2/ 290، حدیث رقم: 3047. وأخرجه الترمذی عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من نبي إلا له وزيران من أهل السماء ووزيران من أهل الأرض، فأما وزيراي من أهل السماء فجبريل وميكائيل، وأما وزيراي من أهل الأرض فأبو بكر وعمر»، سنن الترمذی، باب: مناقب أبي بكر الصديق رضي الله عنه واسمه عبد الله بن عثمان ولقبه عتيق، 5/ 583، حدیث رقم: 7680، ضعيف.

² هو القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، أبو محمد وقيل أبو عبد الرحمن، من خيار التابعين، ثقة علماً فقيهاً، أحد فقهاء المدينة السبعة، كان من أفضل أهل زمانه، توفي: سنة 101هـ. ابن خلكان، وفيات الأعيان، 4/ 59. المزي، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، 23/ 435.

³ أخرجه النسائي، المجتبى من السنن، كتاب البيعة، باب: وزير الإمام، 7/ 159، حدیث رقم: 4204، وأبو داود، سنن أبي داود، أول كتاب الخراج والفيء والإمارة، باب: في اتخاذ الوزير، 5/ 431، حدیث رقم: 2932، صحيح.

⁴ هو محمد بن إسماعيل بن إبراهيم أبو عبد الله البخاري، وكان حاد الذكاء مبرزاً في الحفظ. رحل في طلب الحديث، وسمع من نحو ألف شيخ بخراسان والشام ومصر والحجاز وغيرها. من مصنفاته:

«الجامع الصحيح» الذي هو أوثق كتب الحديث، التاريخ، الضعفاء، الأدب المفرد، وغيرها. توفي سنة: 256هـ. الذهبي، سير أعلام النبلاء، 10/ 79. الذهبي، تذكرة

الحفاظ، 2/ 104. الزركلي، الأعلام، 6/ 34.

⁵ أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب: حجة الوداع، 5/ 167، حدیث رقم: 4402. والنسائي، المجتبى من السنن، كتاب البيعة، باب: بطانة الإمام، 7/ 158، حدیث رقم: 4202.

وكان أنوشروان¹ يقول: لا يستغني أجودُ السيوف عن الصقل، ولا أكرمُ الدواب عن السّوط، ولا أعلمُ الملوك عن الوزير. انتهى². قال الإمام فخر الدين: فإن قيل: الاستعانة بالوزير إنما يحتاج إليها الملوك لقصور عقلهم وصلاحتهم، فأما الرسول المكلف بتبليغ الوحي من حضرة الله سبحانه فمن أين يحتاج إليها؟ والجواب: قد مرّ من قبل أنّ التعاون على الأمر والتظاهر عليه مع مخالصة الويّ وزوال التهمة له مزية عظيمة في أمر الدعاء إلى الله تعالى. المطلوب السادس: أن يكون الوزير من أهله أخاه هارون، فقال: "هارون"، وإنما سأل ذلك؛ لأنّ التعاون على الدّين منفعة عظيمة، فأراد ألا تحصل هذه الدرجة إلا لأهله، ولأنّ كل واحد منهما كان في غاية المحبة لصاحبه، والموافقة له، وقوله: "هارون" عطف بيان لـ "وزيراً"، ووقوله: "أخي" بدل أو عطف بيان آخر، و"وزيراً" مفعول أول لـ: ﴿وَأَجْعَلْ﴾، والمفعول الثاني قوله: "من أهلي" أو قوله: "لي وزيراً" مفعولاه، أو "وزيراً" و"هارون" مفعولاه، وقدم ثانيهما على أولهما عناية بأمر الوزارة. دعا موسى الله تعالى أن يجعل له وزيراً من أهله، لأنّه لم يرد أن يكون مقصوراً على الوزارة، حتى لا يكون شريكاً له في النبوة، ولولا ذلك لجاز أن يستوزره من غير مسألة، وعيّن فقال: هارون. واعلم أن هارون كان مخصوصاً بأمر: منها: الفصاحة؛ لقوله: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ [القصص: 43]. ومنها: أنه كان أكبر سنّاً منه، فقيل: كان أكبر من موسى [49/ب] بسنة، وقيل: بثلاث سنين. قال القرطبي: وكان هارون أكثر لحماً من موسى، وأتمّ طولاً وأبيض جسماء، وأفصح لساناً، ومات قبل موسى بثلاث سنين، وكان في جبهة هارون شامة، وعلى أرنبة أنف موسى شامة، وفي طرف لسانه شامة،

¹ هو كسرى الأول أنوشروان بن قباد، كان أعظم ملوك الساسانيين جميعاً، عادلاً مصلحاً. قام على إصلاح الحال في مملكته، فأمر بوضع دستور جديد للجباية يخفف عن كاهل الدافعين بعض الثقل، استراح الخلق في عصره وترفها، وأمر بإصلاح الأرض وتوزيعها على شعبه بالعدل وبالإنصاف بين الناس حتى عرف لذلك بالعدل، واستعان بمستشارين حكماء كانوا يعظونه ويرشدونه بطريقة الحكم والأمثال والعظات إلى كيفية سياسة الرعية وتدبير أمورها، كما ولى النواحي الروحية عنايته كذلك، فأعاد الزردشتية القديمة. مات سنة: 579هـ. جواد علي، *المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام*، (بيروت: دار الساقى، ط4، 1422هـ)، 160/7. البنكيتي، أبو سليمان داود بن أبي الفضل محمد، *روضة أولي الألباب في معرفه التواريخ والأنساب*، (القاهرة: المركز القومي للترجمة، ط1، 2007 م)، 76/1.

² بتصرف، الرازي، *مفاتيح الغيب*، 22/44-45.

ولم تكن على أحد قبله ولا تكون على أحد بعده. وقيل: إنَّه سبب العُقلة في لسانه، فالله أعلم. انتهى كلامه¹. وفي معالم التنزيل: وكان هارون أكبر من موسى بأربع سنين، كان أفصح منه لساناً، وأجمل وأوسم أبيض اللون، وكان موسى آدم، أفنى جعداً، انتهى². قال الإمام فخر الدين: وكان في هارون رفق بالغ؛ لقوله: ﴿يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ [طه: 94]. المطلوب السابع: قوله: ﴿أَشْدُّ بِهِ أَرْزِي﴾ [طه: 31]، قَوِّ به ظهري، وقيل: الأزرُّ القوة، إنَّه عليه السلام لما طلب من الله تعالى أن يجعل هارون وزيراً له سأل منه أن يشدَّ أزره ويجعله ناصرًا له؛ لأنَّه لا اعتماد على القرابة.

المطلوب الثامن: قوله: ﴿وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي﴾ [طه: 32] اجعله شريكاً في النبوة والرسالة، ابن عامر³: "أَشْدُّ" بفتح⁴ الألف، "وَأَشْرِكُهُ" بضمها على حكاية النفس على الجواب، وقرأ الباقر: "أَشْدُّ" بضم الألف ابتداءً، ومجذفه وصلاً، "وَأَشْرِكُهُ": بفتح الألف على الدعاء، والمسألة عطف على ما تقدم من قوله: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾، إنما قال ذلك؛ لأنَّه عليه السلام علم أنَّه يشد عضده وهو أكبر سنناً منه وأفصح لساناً. قال القرطبي: قال المفسرون: وكان هارون يومئذ بمصر، فأمر الله تعالى موسى أن يأتي هو وهارون، وأوحى الله إلى هارون وهو بمصر أن يلتقي بموسى فتلقاه إلى مرحلة وأخبره بما أوحى إليه، فقال له موسى: إنَّ الله أمرني أن آتي فرعون، فسألت ربي [50/أ] أن يجعلك معي رسولاً،

¹ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 194/11.

² البغوي، معالم التنزيل، 271/5.

³ هو عبد الله بن عامر بن يزيد بن تميم بن ربيعة بن عامر اليحصبي الشامي. وكنيته أبو عمران، إمام أهل الشام في القراءة، وأحد القراء السبعة، ولي قضاء دمشق في خلافة الوليد بن عبد الملك، توفي بدمشق سنة: 118هـ. شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قانماز الذهبي، معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1417هـ)، 46. الزركلي، الأعلام، 95/4.

⁴ البغدادي، السبعة في القراءات، 418.

انتهى¹. ثم إنَّه سبحانه حكى عن موسى ما لأجله دعا هذا الدعاء، فقال: ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ﴾ [طه: 33]

[33] نصلي لك وننزهك تسيحاً ﴿كَثِيراً وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً﴾ [طه: 34] في الصلوات وخارجها².

قال في التحرير: التسبيح يحتمل أن يكون باللسان، وأن يكون بالاعتقاد، وعلى كلا التقديرين، فالتسبيح:

تنزيه الله في ذاته وصفاته وأفعاله عما لا يليق به، وأما الذكر: فهو عبارة عن وصف الله تعالى بصفات

الجلال والكبرياء، ولا شك أنَّ النفي مقدم على الإثبات، ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً﴾ [طه: 35] عالماً

بأحوالنا. قال الرمخشري: أي: اجعله شريكاً في الرسالة حتى نتعاون على عبادتك وذكرك فإن التعاون

يتزايد به الخيرُ ويتكاثر ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً﴾ أي: عالماً بأحوالنا وبأن التعاضد مما يُصلحنا، وأنَّ هارون

نعم المعين والشادِّ لعضدي، فأَنَّهُ أكبر مني سنأ وأفصح لساناً³. انتهى. إنما قيَّد الدعاء بهذا القيد؛ إجلالاً

لربه عن أن يتحكم عليه وتفويضاً للأمر بالكلية إليه⁴. وقال في التحرير: وفي الكلام محذوف، تقديره:

إنك كنت بحالنا ومألنا بصيراً⁵. قال السلمي: في سؤال موسى عليه السلام آية شرح صدره وإطلاق

لسانه، ومؤازرة أخيه لم يسأله ضعفاً عن التبليغ؛ لأنَّ الله تعالى أيده بالثبات والتمكين، لكنه عليه السلام

وقف في مقام بين يدي حق بلسان حق بما قد سبق به علم الحق في الخلق. وقال أرباب الإشارة في قوله:

﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي﴾ لما كان ذهابه إلى فرعون سأل أن يصحب أخاه معه، ولما

ذهب لسماع كلام الله حين قال الله: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: 142] لم يسأل

هارون، ولم يستصحبه؛ لأنَّ الذهاب إلى الخلق يوجب الوحشة، فطلب الصحبة لتخف عليه كلفة المشقة.

¹ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 11/194.

² الرازي، مفاتيح الغيب، 22/45.

³ الرمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 3/62.

⁴ الرازي، مفاتيح الغيب، 22/46.

⁵ لم أجده.

وقالوا في قوله: ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ [50/ب] كَثِيرًا﴾ قال جعفر: قيل لموسى عليه السلام: استكثرت تسبيحك وتكبيرك ونسيت بدايات فضلنا عليك في اليم، وردك إلى أمك وتربيتك في حجر عدوك، وأكثر من هذا كله خطابنا معك وكلامنا إياك، وأكثر منه إخبارنا باصطناعنا لك. انتهى¹.

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ [طه: 36] أعطيت مسؤولك، والسؤال الطلبة، فُعل بمعنى مفعول، كخبر بمعنى محبوب ﴿سُؤْلَكَ﴾ بلا همز أبو عمرو. إنه عليه السلام لما سأل ربه تلك الأمور الثمانية، وكان من المعلوم أن قيامه بما كُلف به لا يتكامل إلا بإجابته إليها لا جرم أجابه الله إليها ليكون أقدر على الإبلاغ على الوجه الذي كُلف، فقال: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ وعد ذلك من النعم العظام عليه لما فيه من وجوه المصالح، ثم قال: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا﴾ [طه: 37] أنعمنا ﴿عَلَيْكَ مَرَّةً﴾ [طه: 37] كرة ﴿أُخْرَى﴾ قبل هذه. قال النسفي: نَبَّه بذلك على أمور، أحدها: كأنه تعالى قال: إني راعيت مصلحتك قبل سؤالك، فكيف لا أعطيك مرادك بعد السؤال؟. وثانيها: أي كنت قد ربيتك، فلو منعتك الآن مطلوبك لكان ذلك ردًا بعد القبول وإساءة بعد الإحسان، فكيف يليق بكرمي؟. وثالثها: إنا لما أعطيناك في الأزمنة السالفة جميع ما احتجت إليه، وربيناك من حالة نازلة إلى حالة عالية، دل هذا على أننا نصَّبناك لمنصب عالٍ ومهمّ عظيم، فكيف يليق بمثل هذه التربية المنع عن المطلوب؟. فإن قلت: لم ذكر تلك النعم بلفظ المنّة، مع أن هذه اللفظة مؤدّبة والمقام مقام اللطف؟ والجواب: إنما ذكر ذلك؛ ليعرف أن هذه النعم لا يكون شيء منها بالاستحقاق، بل بالتفضل والإحسان [51/أ]، فإن قلت: لم قال: مرة أخرى مع أنه تعالى ذكر منّا كثيرة؟ والجواب: ليس المراد بمرة أخرى مرة واحدة من المنن؛ لأن

¹ السلمي، حقائق التفسير، 1/440-442.

ذلك قد يقال في القليل والكثير، ثم فسّر المرة الأخرى فقال: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ﴾ [طه: 38]

إذ ظرف لمننًا، أي: مننا عليك ولا يحائنا إلى أمك حين وُلِدْتَ وكان فرعون يقتل أمثالك.

اعلم أنّ المنن المذكورة هنا ثمانية، الأولى: قوله: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ﴾، ثم إنهم اتفقوا على أنّ

أم موسى لم تكن من الأنبياء، فلا يكون المراد من هذه الوحي هو الوحي الواصل إلى الأنبياء بل هو غيره

لا محالة، واختلفوا في المراد منه على وجوه: أحدها: رؤيا رأتها أم موسى وكان تأويلها وضع موسى عليه

السلام في التابوت، وقدفّه في البحر وأنّ الله يرزّده عليها. وثانيها: أنّ المراد عزيمة إليها فظهر لها الرأي الذي

هو أقرب إلى الخلاص يقال لذلك الخاطر: إنّه وحي. وثالثها: المراد منه الإلهام وهو الإيقاع في الرّوع من

الخير. فإن قلت: الإلقاء في البحر نوع إهلاك، فكيف يصحّ الإقدام عليه صيانة عن الإهلاك؟ فنقول:

لعلها عرفت بالاستقراء صدق رؤياها فالغالب على ظنها هو السلامة. ورابعها: لعله أوحى إلى نبي من

الأنبياء في ذلك الزمان، ثم إنّ ذلك النبي عرّفها بوجه من الوجوه. فإن قلت: لو كان كذلك لِمَا لحقها من

أنواع الخوف ما لحقها. فنقول: إنّ ذلك من لوازم البشر، ألا ترى أنّ موسى عليه السلام كان يخاف من

فرعون مع أنّه تعالى أمره بالذهاب إليه. وخامسها: لعلّ الأنبياء المتقدمين كإبراهيم وإسحاق ويعقوب

عليهم السلام أخبروا بذلك الخبر، وانتهى ذلك الخبر إلى تلك المرأة. وسادسها: لعلّ الله تعالى بعث إليها

ملكاً لا على وجه النبوة كما بعث إلى مريم [51/ب] في قوله: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: 17]

وقوله: ﴿مَا يُوحَىٰ﴾ معناه: أوحينا إلى أمك ما يجب أن يوحى، وإنما وجب ذلك الوحي لأنّ الواقعة

واقعة عظيمة، ولا سبيل إلى معرفة المصلحة فيها إلا بالوحي. ثم فسّر ما يوحى بقوله: ﴿أَنِ اقْدِفِيهِ﴾

[طه: 38] ألقيه ﴿فِي التَّابُوتِ﴾ [طه: 38] وأنّ: مفسّرة لأنّ الوحي بمعنى القول، والتابوت صندوق من

خشب يُتَّخَذُ للميت، وهو بلغة قريش تابوت، وبلغة غيرهم تابوه، واختلف المفسرون في التابوت الذي

وضعت فيه من أي شيء كان؟ فقيل: كان من بُردى نسجه شخص يقال له: حزيبيل¹، وهو مؤمن آل فرعون، ومن قال: جبريل فقد صحف. وقيل: كان من جُمَيْرٍ² فسَدَّتْ خُرُوقَهُ، وَقَيَّرَتْهُ وفرشَتْ فيه نطعاً، وقيل: قطناً مخلوجاً وسَدَّتْ فمه وألقتَه في اليم ﴿فَأَقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ [طه: 39] اليم هو البحر، والمراد هنا: نيل مصر في قول الجميع، واليم اسم يقع على البحر وعلى النهر العظيم ﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾ [طه: 39] أي: الشاطئ، سُمِّي ساحلاً لأنَّ الماء يسحله أي: يَقْشِرُهُ. قال الزمخشري: والضماير كلها راجعة إلى موسى، ورجوع بعضها إليه وبعضها إلى التابوت فيه هُجْنَةٌ لما يُوَدِّي إليه من تنافر النظم، فإن قلت: المقذوف في البحر هو التابوت، وكذلك المُلقى إلى الساحل. قلت: ما ضَرَك لو قلت: المقذوفُ والملقى هو موسى في جوف التابوت حتى لا تُفَرِّق الضمائر فيتنافر عليك النظم الذي هو أمُّ إعجاز القرآن، والقانون الذي وقع عليه التحدي، ومراعاته أهمُّ ما يجب على المفسِّر³. قال في المدارك: وقوله: ﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ﴾ الصيغة أمرٌ لئِناسب ما تقدم، ومعناه الإخبار أي: يلقيه اليم بالساحل [أ/52]⁴. قال الزمخشري: لما كانت مشيئة الله وإرادته ألا تخطئ جزيئة ماء اليم الوصول به إلى الساحل إلقاءه إليه سلك في ذلك سبيل الحجاز، وجعل اليم كأنه ذو تمييز، أمر بذلك ليطيع الأمر ويمثل رسمه فقيل: ﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾، روي أنها جعلت في التابوت قطناً مخلوجاً، فوضعتَه فيه وخصَّصَتْه وَقَيَّرَتْه ثم ألقتَه في اليم، وكان يشرع منه إلى بستان فرعون هَرٌّ كبيرٌ، فبينما هو جالسٌ على رأس بركة مع آسية إذا بالتابوت، فأمر به فأخرج، ففتح، فإذا صبيُّ أصبح الناس وجهاً، فأحبه عدوُّ الله حباً شديداً لا يتمالك أن يصبر عنه. قال

¹ قال مقاتل والسدي: كان قبطيا ابن عم فرعون وهو الذي حكى الله عنه فقال: وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى [القصص: 20]، وقال قوم: كان إسرائيليا، ومجاز الآية: وقال رجل مؤمن يكتنم لإيمانه من آل فرعون، وكان اسمه حزيبيل عند ابن عباس، وأكثر العلماء. وقال ابن إسحاق: كان اسمه جبران. وقيل: كان اسم الرجل الذي آمن من آل فرعون حبيبا. البغوي، معالم التنزيل، 146/7.

² مفردة جُمَيْرَة نوعٌ من الشجر من الفصيلة التوتية، أوراقه عريضة ثمرة يشبه البَين، وهو يُؤكل. أحمد مختار عبد الحميد عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، (القاهرة):

علم الكتب، ط 1، 1429 هـ، 392/1.

³ الرازي، مفاتيح الغيب، 46/22 إلى 48. الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 63/3.

⁴ النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 364/2.

الزَمْخَشْرِي: وظاهر اللفظ على أَنَّ البحر ألقاه بساحله، وهو شاطئه، وقذف به ثَمَّةً فالتقطت من الساحل، إلا أن يكون قد ألقاه اليَمُّ بموضعٍ من الساحل، فيه فُوْهَةٌ نهر فرعون، ثم أداه النهر إلى حيثُ البركة، انتهى كلام الزَمْخَشْرِي¹.

﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ﴾ [طه: 39] يعني فرعون، قال القرطبي: فاتخذت تابوتاً وجعلت فيه قטיפَةً ووضعت فيه موسى وقيرت رأسه وخصائمه - يعني شقوقه - ثم ألقته في النيل، وكان يشرع منه نُهرٌ كبير في دار فرعون، وقيل: وجدته ابنة فرعون وكان بها برصٌ، فلما فتحت التابوت شفيت، وروي [52/ب] أنهم حين التقطوا التابوت عالجوا فتحه فلم يقدروا عليه، فإذا صبي نوره بين جبينه، وهو يمسُّ إبهامه لبناً فأحبهه، وكانت لفرعون بنتٌ برصاء وقالت لها الأطباء: لا تبرأ إلا من جهة البحر يوجد فيه شبه إنسان دواؤها ريقه، فلطخت البرصاء بريقه فبرأت. وقيل: لما نظرت إلى وجهه برأت، وقيل: وجدته جوارٍ لامرأة فرعون، فلما نظر إليه فرعون رأى صبياً من أصبح الناس وجهاً، فأحبه فرعون، فذلك قوله: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه: 39] انتهى². قال النسفي: وعلى قول من روى أن الآخذة هي امرأة فرعون³، فيكون المراد من أخذ فرعون قبوله له. فإن قيل: إن موسى عليه السلام لم يكن في ذلك الوقت يعادى، فما معنى قوله: ﴿وعدو له﴾ فنقول: أما كونه عدو الله من جهة كفره وعتوه فظاهر، وأما كونه عدواً لموسى عليه السلام فيحتمل من حيث إنَّه لو ظهر له حاله لقتله، ويحتمل أنَّه من حيث يؤول أمره إلى أن يُعادى، انتهى⁴. المنة الثانية قوله: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً﴾ [طه: 39] يتعلق (مِنِّي) بـ (وَأَلْقَيْتُ)،

¹ الزَمْخَشْرِي، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 63/3.

² القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 195/11-196.

³ هي آسية بنت مزاحم بن عبيد بن الريان بن الوليد، الذي كان فرعون مصر في زمن يوسف. وقيل إنها كانت من بني إسرائيل من سبط موسى. وقيل كانت عمته، وهي من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يوم القيامة. ابن كثير، البداية والنهاية، 37/2.

⁴ الرازي، مفاتيح الغيب، 48/22.

يعني أني أحببتك، ومن أحبه الله أحبته القلوب، فما رآه أحدٌ إلا أحبه، قال الزمخشري: ويجوز أن يتعلق بمحذوف هو صفة لمحبة، أي: محبة حاصلة أو واقعة مني قد ركزته أنا في القلوب وزرعته فيها، فلذلك أحبك فرعون وكل من أبصرك¹. قال قتادة: كان في عيني موسى ملاحه ما رآه أحد إلا أحبه وعشقه، ويروي كانت على وجهه مسحة جمال، وفي عينيه ملاحه لا يكاد يصبر عنه من رآه، وقال ابن زيد: جعلت من رآك أحبك حتى أحبك فرعون فسلمت من شره، وأحبتك آسية بنت مزاحم [53/أ] فتبنت بك، وقال الطبري: المعنى: وألقيت عليك رحمتي². قال السلمي في قوله: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ قال سري السقطي³: ألقى عليه لطفاً من لطفه يستجلب به قلوب عباده، وقال ابن عطاء: ألقى عليك محبة مني لك، فمن رأى فيك محبتي لك أحبك بحبي لك، وقال فارس: زينتك بملاحه من عندي حتى لا تصلح لغيري، ويجبك كل من يرى تلك الملاحه فيك، فقليل له: أليس يوسف أعطى شطر الحسن، فلم لم يكن يستوجب المحبة؟ فقال: الحسن لا يوجب المحبة، والملاحه توجب المحبة، ألا ترى النبي صلى الله عليه وسلم كانت عليه ملاحه ممزوجة بهيبة، وقال الواسطي في قوله: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ فقال: المحبة تمتزج لأقوام كرجل يكون سخياً شجاعاً فقيهاً فيفتن الناس على ذلك، والمحبة التي ألقى على موسى ما زالت ملقى عليه وهو في صلب عمران، ألا ترى فرعون لما شاهد الملقى عليه في صغره من غير مزاج كيف رباه مع ما كان يقتل من أولاد بني إسرائيل وذلك لإلقاء المحبة عليه، وقال سهل⁴: أظهر الله عليه ميراث

¹ الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 63/3.

² أخرجه الطبري بنحوه، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، 58/16.

³ هو سري بن المغلس السقطي، أبو الحسن: من كبار المتصوفة. ولد في بغداد وفيها توفي، وهو أول من تكلم في بغداد بأحوال الصوفية، وكان إمام البغداديين وشيخهم في وقته. وهو خال الجنيد، وأستاذه. قال الجنيد: ما رأيت أعبد من السري، أتت عليه ثمان وتسعون سنة ما رأى مضطجعاً إلا في علة الموت، توفي سنة: 253هـ. ابن خلكان، وفيات الأعيان، 357/2. الزركلي، الأعلام، 3/82.

⁴ هو سهل بن عبد الله بن يونس بن رفيع التستري، وكان صاحب كرامات. من تصانيفه: تفسير القرآن، رقائق المحبين. ابن خلكان، وفيات الأعيان، 249/2. الزركلي، الأعلام، 3/143.

عمله، فأورثه محبة في قلوب عباده¹. وقال بعضهم: ألقى عليك محبة مني عُجج بعينيك لا يراك أحدٌ إلا رَقَّ لك، ومال إليك، انتهى كلام السلمي². المنة الثالثة: قوله: ﴿وَلْتَصْنَعْ﴾ [طه: 39] معطوف على محذوف، وألقى عليك محبة مني لِتُحَبِّبَ وَلْتَصْنَعْ ﴿عَلَى عَيْنِي﴾ [طه: 39] أي: لِتُرَبِّيَ بمرأى مني، وأصله من صنع الفرسَ أي: أحسن القيام عليه، يعني أنا مراعيك وراقبك كما يُراعى الرجلُ الشيءَ بعينه إذا اعتنى به ﴿وَلْتَصْنَعْ﴾ بسكون اللام والجزم [53/ب] يزيد على أنه أمرٌ. قال الإمام فخر الدين: قال³: ﴿وَلْتَصْنَعْ عَلَى عَيْنِي﴾ أي: لِتُرَبِّيَ على عيني أي: على وفق إرادتي، وهذا مجاز، وفي كيفية المجاز قولان، أحدهما: المراد من العين العلم، أي: تُرَبِّيَ على علم مني، ولما كان العالم بالشيء يجرسه عن الآفات نحو الناظر أطلق لفظ العين على العلم، وثانيهما: المراد من العين الحراسة، وذلك لأن الناظر إلى الشيء يجرسه عما لا يريده بالعين، كأنها سبب الحراسة، فأطلق اسم السبب على المسبب مجازاً، وهو كقوله: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: 46]، ويُقال عين الله عليك إذا دُعِيَ له بالحفظ والحياطة، انتهى⁴. وقال القرطبي: ﴿وَلْتَصْنَعْ عَلَى عَيْنِي﴾ قال ابن عباس: يريد أن ذلك بعيني حيث جعلت في التابوت، وحيث ألقى التابوت في البحر وحيث التقطتك جواري امرأة فرعون، فأرادوا أن يفتحوا التابوت لينظروا ما فيه فقالت واحدة منهن: لا تفتحنه حتى تأتين به سيّدتكم، فهو أحظى لِكُنَّ عندها، وأجدر بألا تتهمكنَّ أنكن وجدتن فيه شيئاً فأخذتموه لأنفسكم، وكانت امرأة فرعون لا تشرب من الماء إلا ما استقتته أولئك الجواري فذهبوا بالتابوت إليها مغلقاً فلما فتحته رأته فيه صبيّاً لم ير مثله قط، وألقى عليها محبته فأخذته

1 الثستري، أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن رفيع، تفسير التستري، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط 1، 1423 هـ)، 102/1.

2 السلمي، حقائق التفسير، 443/1.

3 هو محمد بن علي الشاشي القفال، أبو بكر، من أكابر علماء عصره بالفقه، والحديث، والأدب واللغة. مولده ووفاته في الشاش (وراء نهر سيحون). من كتبه: أصول الفقه، محاسن الشريعة، شرح رسالة الشافعي. توفي: سنة 507 هـ. ابن خلكان، وفيات الأعيان، 200/4. الزركلي، الأعلام، 143/3.

4 الرازي، مفاتيح الغيب، 48/22-49.

فدخلت به على فرعون، فقالت له: قرّة عين لي ولك، فقال لها فرعون: أما لك فنعم، وأما لي فلا، وبلغنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لو أن فرعون قال: نعم، هو قرّة عين لي ولك لآمن وصدّق فقالت: هبّ لي، ولا تقتله، فوهبه لها»¹، انتهى كلام القرطبي². المنّة الرابعة قوله: ﴿إِذْ تَمْشِي﴾ [طه: 40] إذ: بدل من: إذ أوحينا، لأن مشي أخته كان منّة عليه، ﴿أُحْتَكَّ﴾ [طه: 40] واسمها مريم ﴿فَتَقُولُ هَلْ﴾ [54/أ] ﴿أَذُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ﴾ [طه: 40] [54/أ] قال الزمخشري: العامل في: إذ تمشي، ألقيت، أو: تصنع، ويجوز أن يكون بدلاً من: إذ أوحينا. فإن قلت: كيف يصح البدل والوقتان مختلفان متباعداً؟ قلت: كما يصح – وإن اتسع الوقت وتباعد طرفاه – أن يقول لك الرجل: لقيت فلاناً سنة كذا، فتقول: وأنا لقيته إذ ذاك، وربما لقيه هو في أولها وأنت في آخرها، انتهى³. وذلك أن أخته خرجت متعرفةً خبيرة، وكان موسى لما وهبه فرعون لامرأته طلبت له المراضع، وكان لا يأخذ من أحد حتى أقبلت أخته فأخذته ووضعته في حجرها، وناولته ثديها فمصّه وفرح به، فقالوا لها: تُقيمين عندنا، فقالت: إنّه لا لبن لي، ولكن أدلكم على من يكفله وهم له ناصحون، قالوا: ومن هي؟ قالت: أمي، فقالوا: لها لبن؟ قالت: لبن أخي هارون، وكان هارون أكبر من موسى بسنة، وقيل: بثلاث سنين، وقيل: بأربع، وذلك أن فرعون رحم بني إسرائيل ورفع عنهم القتل أربع سنين، فولد هارون فيها، قاله ابن عباس، فجاءت الأم، فقَبِلَ ثديها، فذلك قوله: ﴿فَرَجَعْنَاكَ﴾ [طه: 40] فرددناك ﴿إِلَى أُمِّكَ﴾ [طه: 40] كما وعدناها بقولنا: إنا رادوه إليك ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ [طه: 40] بلقائك ﴿وَلَا تُحْزَنَ﴾ [طه: 40] على فراقك، قال في التحرير: ومعنى تقرّ: تبرّد، مأخوذ من القَرّ وهو البرد، ولهذا قيل: دُمعة السرور قارة، أي: باردة، ودمعة الحزن حارة،

¹ لم أقف عليه في كتب الحديث.

² القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 11/ 196-197.

³ الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 3/ 64.

انتهى¹. قال الإمام فخر الدين: المراد من قوله: ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ أن المقصود من ردك إليها حصول السرور لها وزوال الحزن عنها. فإن قيل: لما قال أولاً: ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ كان قوله: ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ فضلاً [54/ب] لأنه متى حصل السرور وجب زوال الهم لا محالة، قلنا: المراد تقرُّ عينها بسبب وصولك إليها، ويزول عنها الحزن بسبب وصول ابن غيرها إلى باطنك، انتهى². المنه الخامسة: قوله: ﴿وَقَتَلْتَ﴾ [طه: 40] بعد كبرك ﴿نَفْسًا﴾ [طه: 40] قبطياً كافرأ، قتله خطأ، قال المفسرون أن موسى عليه السلام لما كبر وترعرع أو بلغ عمره اثني عشر سنة بينما هو يمشي إذ رأى رجلين يقتتلان، أحدهما: إسرائيلي، وهو الذي من شيعته، والآخر قبطي وهو الذي من عدوه فجاء إلى القبطي فوكزه وكزة قضى عليه. قال في التحرير: وكان حينئذ بمصر المعروفة به، والموضع معروف بمصر، وقد بني في كل مكان منهما مسجد، يسمى المسجد الأول بالوكزة، والآخر بالقضاء، والدار التي تزكى فيها موسى قريبة منهما، وفي الكلام حذف تقديره: وقتلت ذا نفسٍ لم يؤذن لك في قتلها. قال وهب: أوحى الله إلى موسى لو أن النفس التي قتلت أقرت ساعة من ليل أو نهار بأبي خالقها ورازقها لأذقتك طعم العذاب، ولكني عفوت عنك لأنها لم تُقر لي ساعة³. وفي صحيح مسلم: وكان قتله خطأ⁴، وهذا يدل على أنه لم يقصده بالوكزة، وإنما أراد أن يُهيّب عليه فأصابته، ولما قتله خاف من القبط أن يقتلوه، فجاءه رجل فقال له: إن الملائم يأترون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين فخرج كما أخبر الله عنه في قوله: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: 21]، وإليه الإشارة بقوله: ﴿فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾ [طه: 40] من القود. قيل: الغمُّ القتل، بلغة قريش، وقيل: اغتمَّ بسبب القتل خوفاً من عقاب الله تعالى، ومن اقتصاص فرعون فغفر الله له

¹ لم أجده.

² الرازي، مفاتيح الغيب، 49/22.

³ أخرجه أبو نعيم، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، وهب بن منبه، 60/2.

⁴ أخرجه مسلم، صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشرط الساعة، باب الفتنة من المشرق من حيث يطلع قرنا الشيطان، 2229/4، حديث رقم: 2905.

باستغفاره حين قال: ربّ إني ظلمت [55/أ] نفسي فاغفر لي، ونجاه من فرعون بأن ذهب به من مصر إلى مدين، كذا في المدارك¹. المنة السادسة: قوله: ﴿وَفْتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ [طه: 40] يجوز أن يكون الفتون مصدرًا، كالتعود والشور والنشور والكفور، أو جمع فتنة كحجور جمع حجرة، ويُدور، جمع بَدْرَة، أي: فتناك ضروبًا من الفتن، والفتنة المحنة، وكل ما يتلي الله به عباده فهو فتنة، ونبلوكم بالخير والشر فتنة. قال الإمام فخر الدين: فإن قيل: إنّه تعالى عدّ أنواع نعمه على موسى عليه السلام في هذا المقام فكيف يليق بهذا الموضوع قوله: ﴿وَفْتَنَّاكَ فُتُونًا﴾؟ والجواب عنه من وجهين: أحدهما: أن الفتنة شدة المحنة، يقال: فُتِن فلان عن دينه إذا اشتدت عليه المحنة حتى رجع عن دينه، قال تعالى: ﴿فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ [العنكبوت: 10]، وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: 214]، فالزلازلُ ومسُّ البأساء والضراء هي الفتون، ولما كان التشديد في المحنة مما يوجب كثرة الثواب لا جرم عدّه الله تعالى من جملة النعم. وثانيهما: ﴿وَفْتَنَّاكَ﴾ أي: خلصناك من قولهم: فتنت الذهب إذا أردت تخلصه. فإن قيل: فهل يجوز إطلاق اسم الفتان عليه سبحانه اشتقاقاً من قوله: ﴿وَفْتَنَّاكَ فُتُونًا﴾؟ فالجواب: لا، لأنّه صفة ذم في العرف وأسماء الله تعالى توقيفية لا سيّما فيما يُوهّم ما لا ينبغي. انتهى كلام الإمام فخر الدين². قال الزمخشري: [55/ب] سأل سعيد بن جبیر ابن عباس رضي الله عنهما عن هذه الآية فقال: خلصناك من محنة بعد محنة، ولد في عام كان يُقتل فيه الولدان، فهذه فتنة يا بن جبیر، وألقته أمه في البحر، وهمّ فرعونُ بقتله وقتل قبطياً، وآجر نفسه عشر سنين، وضل الطريق، وتفرّقت غنمه في ليلة مظلمة، وكان ابن عباس يقول عند كل واحدة: فهذه فتنة يا

¹ النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 365/2.

² الرازي، مفاتيح الغيب، 50/22.

بن جبير، انتهى¹. قال القرطبي: قال ابن عباس: ﴿وَفَتَنَّاكَ﴾ أي: اختبرناك بأشياء قبل الرسالة، أولها حملته أمه في السنة التي كان فرعون يذبح فيها الأطفال ثم إلقاءه في اليم، ثم منعه من الرضاع إلا من ثدي أمه، ثم جرّه بلحية فرعون، ثم تناوله الجمرة بدل الدرة فدرأ ذلك عنه قتل فرعون، ثم قتله القبطي وخروجه خائفاً يتربص، ثم رعاية الغنم ليتدرب بها على رعاية الخلق، فيقال: إنّه ندّد له من الغنم جدّي فاتّبعه أكثر النهار فاتّبعه ثم أخذه فقَبَله وضَمّه إلى صدره وقال له: أتعبتني وأتعبت نفسك، ولم يغضب عليه، قال وهب بن منبه: ولهذا اتخذ الله كليماً، انتهى². المنة السابعة: قوله: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدِينٍ﴾ [طه: 40] مَدِينٌ³: هي بلدة شعيب عليه السلام، قال وهب: لبث عند شعيب ثمانياً وعشرين سنة، عشرٌ منها مهرٌ لابنة شعيب عليه السلام وهي صفوراء، وثمانية عشر سنة أقامها عند شعيب حتى ولد له أولاد⁴.

﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ﴾ [طه: 40] على قدر: أي: موعد مُقَدَّرٍ في علمي أنك تجيء وأستنبئك فيه، وكان مجيئه على رأس أربعين سنة، قال [56/أ] ابن عباس وقتادة وعبد الرحمن بن كيسان⁵: يريد موافقاً للنبوّة والرسالة، لأنّ الأنبياء لا يبعثون إلا أبناء أربعين سنة، المعنى: جئت في الوقت الذي أردنا إرسالك فيه، قال الشاعر⁶:

¹ الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 64/3.

² القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 198/11.

³ إسحاق بن الحسين المنجم، آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان، (بيروت: عالم الكتب، ط1، 1408هـ)، 91.

⁴ الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 65/3.

⁵ هو عبد الرحمن بن كيسان، الأصم، ويقال فيه: ابن كيسان، من شيوخ المعتزلة، من تصانيفه: تفسير القرآن، خلق القرآن، الحجة والرسول، الأسماء الحسنى، افتراق الأمة. توفي سنة: 201هـ. ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد، لسان الميزان، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط2، 1390هـ)، 427/4. الزركلي، الأعلام، 323/3.

⁶ هو من قول جرير. والشاهد: وكانت له. ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 166/1.

نال الخِلافةَ أو كانتَ له قَدراً كما أتى رَبُّهُ مُوسَى على قَدَرٍ

قال الإمام فخر الدين: فإن قيل: كيف ذكر الله تعالى مجيء موسى عليه السلام في ذلك الوقت من جملة مننه عليه؟ قلنا: لأنَّه لولا توفيقه لما تهيأ له شيء من ذلك. المنة الثامنة قوله: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه: 41] اخترتك واصطفيتك لوحيي ورسالتي ومحبتني، وقال الزجاج¹: اخترتك لأمرني وجعلتك القائم بحجتي، والمخاطب بيني وبين خلقي، كأني أقمت عليهم الحجة وخاطبتهم². قال الإمام فخر الدين: فإن قيل: إنَّه تعالى غيَّب عن الكل، فما معنى قوله: ﴿لِنَفْسِي﴾؟ والجواب عنه من وجوه، أحدها: أن هذا تمثيل، فإنه تعالى لما أعطاه من منزلة التقريب والتكريم والتكليم مثَّل حاله بحال من يراه بعضُ الملوك لجوامع خصال فيه أهلاً لأن يكون إلا أقرب الناس منزلة إليه وأشدَّهم قرباً منه. وثانيها: قالت المعتزلة: إنَّه إذا كلف عباده وجب عليه أن يلطف بهم، ومن جملة الألفاظ ما لا يُعلم إلا سمعاً، فلو لم يصطفه بالرسالة لبقني في عهدته الواجب، فصار موسى عليه السلام كالنائب عن ربه تعالى، وإذا وجب عليه تعالى صح أن يقول: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾. وثالثها: قوله: ﴿لِنَفْسِي﴾ أي: أُصَرِّفُكَ في أوامري كيلا تشتغل إلا بما أمرتك به، وهو إقامة حُجتي وتبليغ رسالتي، وأن تكون حركاتك وسكناتك لي لا لنفسك [56/ب] ولا لغيرك، انتهى³. قال السلمي في الحقائق: ألا ترى إلى قوله: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى﴾ [طه: 36-37]، فذكر أيام حادثته، ثم رَدَّه إلى أصله، ثم رَدَّه من أصله إلى أصل الأصل، فقال: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾، فأضافه إلى نفسه ثم أكد ذلك بقوله: ﴿إِنِّي

1 هو إبراهيم بن محمد بن السري بن سهل أبو إسحاق، عالم نحوي، ضليع باللغة والتفسير، أخذ الأدب عن المبرد وتعلب، من تصانيفه: معاني القرآن، الاشتقاق، خلق الإنسان، الأمالي. توفي سنة: 311هـ. ابن خلكان، وفيات الأعيان، 49/1. الذهبي، سير أعلام النبلاء، 222/1. الزركلي، الأعلام، 40/1.

2 الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، 365/3.

3 الرازي، مفاتيح الغيب، 50/22-51.

اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي ﴿ [الأعراف: 144]. قال السلمي: وقوله: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ أي: استخلصتك لسري واختصصتكم لمخاطبتي، وقيل: أخلصتك لي حتى لا تصلح لغيري، وقال أبو سعيد الخراز¹ في بعض كتبه: إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ رَهَائِئُ اللَّهِ فِي أَشْبَاحِهِمْ، قَدْ خَبَأَهُمْ وَأَخْفَاهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ لِنَفْسِهِ، وَهَذَا مَقَامُ الْإِصْطِنَاعِ الَّذِي قَالَ اللَّهُ لِمُوسَى: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾، قال الواسطي: حتى لا يملك غيري فإن نفوس المؤمنين نفوس أئمة استرقها الحق فلا يملكها سواه. وقال أبو سعيد الخراز: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ﴾ أي: فطرتك صنعة لا تصلح إلا لعبادتي، وقيل: صنعتك صنعة تدعو إلي لا إلى نفسك، وغيرك يدعو إلى نفسه لا إلي. انتهى كلام السلمي².

﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ﴾ [طه: 42] إلى الناس. اعلم أنه سبحانه لما عدّد المنن الثمانية في مقابلة تلك الالتماسات الثمانية، ربّب على ذلك أمراً ونهيّاً، أمّا الأمر فهو أنه سبحانه أعاد الأمر الأول فقال: ﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي﴾ [طه: 42] واعلم أنه تعالى لما قال: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ عقبه بذكر ما له اصطنعه وهو الإبلاغ والأداء ﴿بِآيَاتِي﴾ [طه: 42] بمعجزاتي، الباء هنا بمعنى: مع، وذلك لأنهما إذا ذهبا إليه دون آية معهما لم يلزمه الإيمان، وذلك من أقوى الدلائل على فساد التقليد [57/1] واختلفوا في الآيات المذكورة هنا، فقيل: هي الآيات التسع التي أنزلت عليه، وقيل: هي العصا واليد؛ لأنهما اللذان جرى ذكرهما في هذا الموضع، وفي سائر المواضع، قال تعالى: ﴿فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ فَآلَقَىٰ عَصَاهُ﴾ [الأعراف: 106-107] الآية، وقال هناك: ﴿فَدَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ [

¹ هو أحمد بن عيسى بن زيد بن علي، أبو عبد الله الحسيني العلوي الطالبي: من زعماء الزيدية في العصر العباسي، نشأ فاضلاً عالماً بالدين والحديث. وصحب سريراً السقطي وبشراً الحافي وغيرهما، توفي: سنة 279 وقيل: 286. الشَّعْرَانِي، أبو محمد عبد الوهاب بن أحمد بن علي الحنفي، نسبه إلى محمد ابن الحنفية، الطبقات الكبرى = لوائح الأنوار في طبقات الأخيار، (مصر: مكتبة محمد المليجي الكنتي وأخيه، 1315 هـ)، 78/1. الزركلي، الأعلام، 191/1.

² السلمي، حقائق التفسير، 444-443/1.

القصص: 32]، ولا يقال: كيف يُطلق لفظ الجمع على الاثنين؟ لأننا نقول: العصا ما كانت آية واحدة، بل هي آيات كثيرة كما مرَّ من قبل، وكذلك اليد، ثمَّ من الناس من قال: أقل الجمع اثنان، وقيل: إنَّ قوله: اذهبَا بآياتي معناه: أُنِي أمدكما بآياتي، وأُظهر على أيديكما من الآيات، فاذهبَا فإن آياتي معكما، وقيل: إنَّه تعالى آتاه العصا واليد وحل عُقدة لسانه، وذلك أيضاً معجزة، فكانت الآيات ثلاثة، فهذا شرح الأمر. وأما النهي فهو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنِيَا﴾ [طه: 42] نفثوا من الوني، وهو: الفتور والتقصير ﴿فِي ذِكْرِي﴾ [طه: 42] أي: لا تنسياني، ولا أزل منكما على ذكر حيث ما تقلبتما، واتخذَا ذكري جناحاً تطيران به، مستمدَّين بذلك العون والتأييد مني، معتقدين أنَّ أمراً من الأمور لا يتمشى لأحد إلا بذكري، ويجوز أن يريد بالذكر تبليغ الرسالة، فإنَّ الذكر يقع على سائر العبادات، وتبليغ الرسالة من أجلها وأعظمها، فكان جديراً بأن يطلق عليه اسم الذكر، كذا في الكشاف¹. قال الإمام فخر الدين: وقيل: لا نيا في ذكري عند فرعون، وكيفية الذكر هو أن تذكرَا فرعون وقومه أنَّ الله لا يرضى منهم بالكفر، وتذكرَا لهم أمر الثواب والعقاب والترغيب والترهيب. وقيل: ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ أي: تذكرَا [57/ب] لفرعون آلاء الله ونعمائه وأنواع إحسانه إليه.

﴿أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ [طه: 43] فإن قيل: ما الفائدة في ذلك بعد قوله: ﴿أَذْهَبَا أَنْتَ وَأَخُوكَ﴾؟ قيل: قوله: ﴿أَذْهَبَا أَنْتَ وَأَخُوكَ﴾ يحتل أن يكون كل واحد منهما مأموراً بالذهاب فقيل مرة: ﴿أَذْهَبَا أَنْتَ وَأَخُوكَ﴾ وقيل مرة ﴿أَذْهَبَا أَنْتَ وَأَخُوكَ﴾، وقيل مرة أخرى: "أَذْهَبَا" ليعرف أن المراد منه أن يشتغلا بذلك جميعاً، لا أن ينفرد به موسى دون هارون أو هارون دون موسى. وقيل: إن قوله: ﴿أَذْهَبَا أَنْتَ وَأَخُوكَ﴾ أمرٌ بالذهاب إلى جميع الناس من بني إسرائيل وقوم فرعون ثم قوله ﴿أَذْهَبَا

¹ الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 65/3.

إِلَى فِرْعَوْنَ ﴿ أَمَرَ بِالذَّهَابِ إِلَى فِرْعَوْنَ وَحده. فَإِنْ قُلْتَ: قوله: ﴿ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ ﴾ خطاب مع موسى وهارون، وهذا مشكل لأن هارون عليه السلام لم يكن حاضراً هناك، وكذا في قوله: ﴿ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ ﴾ فالجواب عنه من وجوه: منها أن الكلام كان مع موسى عليه السلام إلا أنه كان متبوع هارون، فجعل الخطاب معه خطاباً مع هارون وكلاماً هارون على سبيل التقدير. ومنها: يحتمل أن الله تعالى لما قال: ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴾ سكت حتى لقي أخاه، ثم خاطبهما تعالى بقوله: ﴿ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ ﴾ انتهى¹. قال في الكشاف: روي أنّ الله تعالى أوحى إلى هارون وهو بمصر أن يتلقى موسى، وقيل: سمع بإقباله فتلقيه، وقيل: أُلهم ذلك، انتهى². ﴿ إِنَّهُ طَغَى ﴾ [طه: 43] جاوز الحد بادعاء الربوبية، قال السلمي: قوله: ﴿ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ قال ابن عطاء: الإشارة إلى فرعون وهو المبعوث في الحقيقة إلى السحرة، فإن الله لا يرسل أنبياءه إلى أعدائه، ولم يكن لأعدائه عنده من الخطر ما يُرسل إليهم أنبياءه، ولكن يبعث الأنبياء ليُخرج أوليائه المؤمنين من بين أعدائه الكفرة [58/أ] انتهى³.

﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا ﴾ [طه: 44] فَإِنْ قُلْتَ: لم أمر الله تعالى موسى باللين مع الكافر؟ الجواب: لوجهين، أحدهما: أنه عليه السلام قد رآه فرعون فأمره أن يُخاطبه بالرفق رعايةً لتلك الحقوق، وثانيهما: أنّ من عادة الجبابة إذا أغلظ لهم في الوعظ أن يزدادوا عُتُوًّا وتكبراً، والمقصود حصول النفع لا زيادة الضرر، فإن قلت: كيف كان ذلك الكلام اللين؟ قيل: القول اللين، نحو قوله تعالى: ﴿ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴾ [النازعات: 18-19] لأنّ ظاهره الاستفهام والمشورة، وعرض ما فيه الفوز العظيم، وقيل: قال له موسى: تؤمن بما جئتُ به، وتعبد رب العالمين على أن لك شباباً لا يهرم

¹ الرازي، مفاتيح الغيب، 52/22.

² الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 65/3.

³ السلمي، حقائق التفسير، 445/1.

بعده، ومُلكاً لا يُنزع منك إلا بالموت، وأن تبقى لك لذة المطعم والمشرب والمنكح إلى حين الموت، ويُنسأ في أجلك أربعمئة، فإذا متَّ دخلت الجنة، فهذا القول للدين. وقيل: القول للدين قول موسى: يا فرعون أنا رسول رب العالمين، فسماه بهذا الاسم لأنه كان أحب إليه مما قيل له، كما يُسمى عبداً بالملك ونحوه، وقيل: ﴿قَوْلًا لِّبَنَاءٍ﴾ أي: كنيته، وهو من ذوي الكنى الثلاث: أبو العباس، وأبو الوليد، وأبو مُرَّة، وهي كنية إبليس لعنه الله¹. قال القرطبي: فعلى هذا القول تكتية الكفار جائزة إذا كان وجيهاً ذا شرفٍ وطَمَعٍ في إسلامه، وقد يجوز ذلك وإن لم يطمع في إسلامه لأن الطمع ليس بحقيقة توجب عملاً، وقد قال صلى الله عليه وسلم: « إِذَا أَتَاكُمْ كَرِيمٌ قَوْمٍ فَأَكْرَمُوهُ »² ولم يقل: إن طمعتم في إسلامه، ومن الإكرام دعاؤه بالكنية، وقد قال صلى الله عليه وسلم لصفوان بن أمية³: «انزل أبا وهيب»⁴ وكنناه، وقال لسعد⁵: «ألم

¹ الرازي، مفاتيح الغيب، 52/22-53.

² أخرجه ابن أبي شيبة، أبو بكر، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواسني العبسي، المصنف في الأحاديث والآثار، كتاب الأدب، باب: الوسادة تطرح الرجل، (الرياض، مكتبة الرشيد، ط1، 1409هـ)، 5/234، حديث رقم: 25585. وأخرجه ابن ماجه، سنن ابن ماجه، كتاب الأدب، باب: إذا أتاكم كريم قوم فأكرموا. 2/1223، حديث رقم: 3712. والبزار، مسند البزار، المنشور باسم البحر الزخار مسند ابن عباس، 12/188، حديث رقم: 5846، حسن.

³ هو صفوان بن أمية بن خلف بن وهب بن حذافة، القرشي، صحابي، كان من أشرف قريش في الجاهلية والإسلام، أسلم بعد الفتح، وكان من المؤلفات قلوبهم، روى مسلم عن صفوان قال: أتيت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأعطيني فما زال يعطيني حتى إنه لأحب الخلق إلي، روى عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. مات سنة: 41هـ. ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، 3/24. ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، 2/718. الزركلي، الأعلام، 3/205.

⁴ في تفسير القرطبي: انزل أبا وهب. عبد الرزاق، أخرجه مالك بن أنس، الموطأ، كتاب النكاح، باب: نكاح المشرك إذا أسلمت زوجته قبله، (الإمارات: مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان، ط1، 1425هـ)، 3/780، حديث رقم: 2001. أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني، المصنف، كتاب أهل الكتاب، باب: المسلم يكنى المشرك، (بيروت: المكتب الإسلامي، ط2، 1403هـ)، 6/22، حديث رقم: 10195.

⁵ هو الصحابي سعد بن عباد بن دليم بن حارثة بن أبي خزيمة، أبو ثابت الخزرجي الأنصاري، من أهل المدينة، كان سيد الخزرج وأحد الأمراء الأشراف في الجاهلية والإسلام وشهد العقبة، وأحدا، والخندق، وغيرهن. قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «جزى الله عنا الأنصار خيراً لا سيما عبد الله بن عمرو بن حرام، وسعد بن عباد». مات سنة: 14هـ. ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، 2/441. ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، 2/598. الزركلي، الأعلام، 3/85.

تسمع ما قال أبو حُباب؟¹ يعني [58/ب] يعني عبد الله بن أبي². وفي الإسرائيليات: أن موسى عليه السلام قام على باب فرعون سنة لا يجد رسولاً يبلغ كلامه حتى خرج، فجرى له ما قصَّ الله علينا من ذلك، وكان تسليية لمن جاء بعده من المؤمنين في سيرتهم مع الظالمين، وربك أعلم بالمهتدين. قال القرطبي: القول اللين: هو القول الذي لا خشونة فيه، فإذا كان موسى أمر أن يقول لفرعون قولاً ليناً، فما دونه أخرى بأن يقتدي بذلك في خطابه وأمره بالمعروف في كلامه، وقد قال الله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [النازعات: 83] على ما تقدم في البقرة، انتهى³. قال السلمي رحمه الله: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾، قال يحيى بن معاذ⁴: هذا رفقك بمن يدعي الربوبية، فكيف رفقك بمن يدعي العبودية، وقال: هذا رفقك بمن آذاك، فكيف رفقك بمن يؤذي فيك؟ وهذا رفقك بمن عاداك، فكيف رفقك بمن عادى فيك؟ وهذا رفقك مع الأعداء فكيف رفقك مع الأولياء؟ قال التَّهْرَجُورِيُّ⁵: هذا رفقك بمن جحدك ونابدك، فكيف رفقك بمن عبدك وخضع لك؟ وقال أيضاً: قال الله لموسى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾، قال الله لموسى: إنَّه أحسن إليك في ابتداء أمرك، فلم تكافئه، فأحببت أن أكافئه عنك، انتهى كلام السلمي⁶.

¹ البخاري، صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب: {ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً} [آل عمران: 186]. 39/6، حديث رقم: 4566.

² هو عبد الله بن أبي من مالك بن الحارث ابن عبيد الخزرجي، أبو الحباب، ابن سلول، رأس المنافقين في الإسلام، كان سيد الخزرج في آخر جاهليتهم. وأظهر الإسلام بعد وفاة بدر تقيية. ولما مات تقدم النبي صلى الله عليه وآله فصلى عليه فنزلت: "ولا تصلّ على أحد منهم" الآية. مات سنة: 9 هـ. النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف، تهذيب الأسماء واللغات، (بيروت: دار الكتب العلمية عن الطباعة المنيرية)، 260/1. الزركلي، الأعلام، 65/4.

³ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 200/11.

⁴ هو يحيى بن معاذ بن جعفر الرازي، أبو زكريا: واعظ زاهد، من أهل الري، أحد رجال الطريقة، ذكره أبو القاسم القشيري في الرسالة القشيرية، وعده من جملة المشايخ، خرج إلى بلخ وأقام بها مدة، ورجع إلى نيسابور ومات بها سنة: 258 هـ. ابن خلكان، وفيات الأعيان، 165/6. الزركلي، الأعلام، 172/8.

⁵ هو إسحاق بن محمد النهرجوري، أبو يعقوب: من علماء الصوفية، رحل إلى الحجاز، وجاور بالحرم سنين كثيرة حتى مات بمكة سنة: 330 هـ، من كلامه: الصدق موافقة الحق في السر والعلانية. ابن الملن، طبقات الأولياء، 105/1. الزركلي، الأعلام، 296/1.

⁶ السلمي، حقائق التفسير، 445/1.

وروى البيهقي¹ في شعب الإيمان عن ابن عباس قال: قال موسى عليه السلام: يا رب أمهلت فرعون أربعمئة سنة، وهو يقول: أنا ربكم الأعلى ويكذب بآياتك ويحدد رسلك، فأوحى الله إليه أنه كان حسن الخلق سهل الحجاب، فأحببت أن أكافئه. انتهى². ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ﴾ [طه: 44] أي: يتعظ ويتأمل فيبدل النَّصْفَةَ من نفسه، فيُذعن للحق ﴿أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: 44] أي: يخاف أن يكون الأمر كما تصيفان فيجُرُّه إنكاره إلى الهلكة [59/أ] وإنما قال: ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ﴾ مع علمه أنه لا يتذكر؛ لأنَّ الترجي لهما، أي: اذهبا على رجائكما وطمعكما، وباشرا الأمر مباشرة من يطمع ويرجو أن يُثمر عمله، ولا يخيب سعيُّه، فهو يجتهد بطوقه ويحتشد بأقصى وسعته، وجدوى إرسالهما إليه مع العلم بأنَّه لن يؤمن إلزام الحجة وقطع المعذرة، ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله ﴿لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ﴾ [طه: 134]. وقيل: معناه: لعله يتذكر مُتَذَكِّرٌ أو يَخْشَى خاشٍ، وقد كان ذلك من كثير من الناس، وقيل: لعلَّ من الله واجبٌ، وقد تذكَّر فرعون حين أدركه الغرق وخشي، فقال: آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين، ولكن لم ينفعه ذلك، وتُليت هذه الآية عند يحيى بن معاذ، فبكى فقال: هذا رفقك بمن يقول: أنا الإله، فكيف رفقك بمن يقول: أنت الإله، وهذا رفقك بمن قال: أنا ربكم الأعلى، فكيف بمن قال: سبحان ربي الأعلى. قال القرطبي: وقد قيل: إنَّ فرعون ركن إلى قول موسى لما دعاه وشاور امرأته فآمنت وأشارت عليه بالإيمان، فشاور هامان، فقال: لا تفعل بعد أن كنت مالكا

¹ هو أحمد بن الحسين بن علي بن عبد الله، أبو بكر البيهقي، فقيه شافعي، مكثر من التصنيف، غلب عليه الحديث واشتهر به ورحل في طلبه، كان من أكثر الناس نصراً لمذهب الشافعي. من تصانيفه: السنن الكبير، السنن الصغير، الخلاف مناقب الشافعي، توفي سنة: 458هـ. ابن خلكان، وفيات الأعيان، 75/1. الزركلي، الأعلام، 116/1.

² أخرجه البيهقي، شعب الإيمان، باب: حسن الخلق، 393/10، حديث رقم: 7682.

تصير مملوكاً، وبعد أن كنت رباً تصير مربوباً، وقال له: أنا أردك شاباً فخصب لحيته بالسواد، فهو أول من خصب. انتهى¹.

﴿قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا﴾ [طه: 45] يعجل علينا بالعقوبة ويبادرنا بها، ومنه الفارط² الذي يتقدم الواردة، وفرس فرط أي: يسبق الخيل، يقال: فرط عليه أي: عجل³ ﴿أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾ [طه: 45] يجاوز الحد في الإساءة إلينا⁴، قال الزمخشري: خافا أن يحمله حامل على المعالجة بالعقاب من شيطان [59/ب] أو من جبروته واستكباره وادعائه الربوبية، أو من حبه للرياسة، أو من قومه القبط المتمردين الذين حكى عنهم رب العزة ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ﴾ [الأعراف: 60] ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ﴾ [المؤمنون: 33]، قال الزمخشري: ﴿أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾ يجاوز الحد في معاقبتنا إن لم يعاجل بناء على ما عرفنا وجرباً من شرارته وعُتُوّه، أو أن يطغى بالتخطي إلى أن يقول فيك ما لا ينبغي لجرأته عليك، وقسوة قلبه. قال الزمخشري: وفي المجيء به هكذا على الإطلاق وعلى سبيل الرمز باب من حسن الأدب، وتحاش عن التفوه بالعظيمة. انتهى كلامه⁵. قال الإمام فخر الدين: إن موسى عليه السلام قال: ﴿رَبِّ أَسْرَحْ لِي صَدْرِي﴾، فأجابه الله تعالى بقوله: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾، وهذا يدل على أنه قد انشرح صدره، وتيسر له ذلك الأمر، فكيف قال بعده: "إِنَّا نَخَافُ" ، فإن حصول الخوف يمنع من حصول شرح الصدر؟ والجواب: شرح الصدر عبارة عن قوته على ضبط تلك الأوامر والنواهي وحفظ تلك الشرائع على وجه لا يتطرق إليها التحريف وذلك شيء آخر غير زوال الخوف. فإن قيل: لما تكرر الأمر

¹ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 201/11.

² الهروي، تهذيب اللغة، 225/13.

³ الرازي، مفاتيح الغيب، 54/22.

⁴ النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 336/2.

⁵ الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 66/3.

من الله تعالى بالذهاب، فعدم الذهاب والتعلل بالخوف هل يدلُّ على المعصية؟ فالجواب: لو اقتضى الأمر الفور، لكان ذلك من أقوى الدلائل على المعصية، لكن الأمر لم يقتض الفور، فزال السؤال، لا سيما وقد أكثر الله تعالى من أنواع التشريف وتقوية القلب وإزالة الغم. قال الإمام فخر الدين: اعلم أنَّ من أمر بشيء فحاول دفعه لأعدار يذكرها، فلا بدَّ أن يختم كلامه بما هو الأقوى، وهذا كما أنَّ الهدهد ختم عذره بقوله: ﴿وَجَدْتُمَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [النمل: 24]، فكذا هاهنا بقوله: ﴿أَنْ يَقْرُطَ عَلَيْنَا﴾ [طه: 45]، وختم بقوله: ﴿أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾ [طه: 45] لما أنَّ طغيانه [60/أ] في حق الله تعالى أعظم من إفراطه في حق موسى وهارون. انتهى كلامه¹.

﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا﴾ [طه: 46] حافظكما وناصركما، ﴿أَسْمِعْ﴾ [طه: 46] أقوالكم ﴿وَأَرَى﴾ [طه: 46] أفعالكم. قال ابن عباس رضي الله عنهما: أسمع دعاءكما فأجيبه وأرى ما يراد بكما فأمنع عنكما، لست بغافل عنكما فلا تهتما. قال القفال: قوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ وَأَرَى﴾ يحتمل أن يكون مقابلاً لقوله: ﴿يَقْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾ [طه: 45]، والمعنى يفرط علينا بالأ يسمع منا، أو أن يطغى بأن يقتلنا، فقال إنني معكما أسمع كلامك وأرى أفعاله. قال العلماء: لما لحقهما ما يلحق البشر من الخوف على أنفسهما عرفهما الله أن فرعون لا يصل إليهما ولا قومه، وهذه الآية تدلُّ على أنَّ من قال: إنَّه لا يخاف من الأعداء فهو مخطئ، والخوف من الأعداء سنة الله في أنبيائه وأوليائه مع معرفتهم وثقتهم بالله. ولقد أحسن الحسن البصري رضي الله عنه لما أخبره مُخْبِر عن عامر بن عبد الله² أنه نزل مع أصحابه في طريق الشام على ماء، فحال الأسد بينهم وبين الماء، فجاء عامر إلى الماء فأخذ منه حاجته، فقيل له:

¹ الرازي، مفاتيح الغيب، 54/22.

² هو أبو عبد الله، ويقال: أبو عمرو التميمي العنبري البصري. القدوة الولي الزاهد، كان ثقة، من عباد التابعين، رآه كعب الأحبار، فقال: هذا راهب هذه الأمة. كان يعرف بابن عبد قيس، توفي في زمن معاوية في بيت المقدس. الذهبي، سير أعلام النبلاء، 517/4. ابن الجوزي، صفة الصفوة، 119/2. ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، 77/5.

قد خاطرت بنفسك، فقال: لَأَنَّ تَخْتَلِفَ الْأَسِنَّةُ فِي جَوْفِي، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَعْلَمَ اللَّهُ أَنِّي أَخَافُ شَيْئاً سِوَاهُ، فَقَالَ عِنْدَ ذَلِكَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: قَدْ خَافَ مِنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْ عَامِرٍ، مُوسَى صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ حِينَ قِيلَ لَهُ: ﴿إِنَّ الْمَلَائِكَةَ يَأْتُرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِلَيَّ لِكَ مِنَ النَّاصِحِينَ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: 21]، وقال: ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: 18]، وقال حين ألقى السحرة حياهم وعصيتهم: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾¹ [طه: 67]. قال القرطبي: ومنه حَفْرُ [60/ب] النبي صلى الله عليه وسلم الخندق حول المدينة، تحصيناً للمسلمين وأموالهم، مع كونه من التوكل والثقة بربه بمحلٍ لم يبلغه أحد، ثم كان من أصحابه ما لا يجهله أحد من تحولهم عن منازلهم مرة إلى الحبشة ومرة إلى المدينة، تخوفاً على أنفسهم من مشركي مكة، وهرباً بدينهم أن يفتنوهم عنه بتعديدهم. وقد قالت أسماء بنت عميس² لعمر لما قال لها: «سبقناكم للهجرة، فنحن أحق برسول الله صلى الله عليه وسلم كذبت يا عمر، كلا والله كنتم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، يطعم جائعكم، ويعظ جاهلكم، وكنا في دار أو أرض البُعْدَاءِ³ البُعْضَاءِ فِي الْحَبَشَةِ، وَذَلِكَ فِي اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَإِئِمُّ اللَّهُ لَا أَطْعُمُ طَعَاماً، وَلَا أَشْرَبُ شَرَاباً حَتَّى أَذْكَرَ مَا قَلَّتْ

¹ ابن بطال، شرح صحيح البخارى لابن بطال، 406/9.

² هي أسماء بنت عميس بن معد بن تيم بن الحارث الخثعمي، صحابية جلييلة، كان لها شأن. أسلمت قبل دخول النبي صلى الله عليه وسلم دار الأرقم بمكة، وهاجرت إلى أرض الحبشة مع زوجها جعفر بن أبي طالب، ثم تزوجها أبو بكر الصديق ثم تزوجها علي بن أبي طالب، وماتت بعد علي. توفيت سنة: 40هـ. ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، 1784/4. ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، 14/6. الزركلي، الأعلام، 306/1.

³ قال النووي: "قولها لعمر رضي الله عنه (كذبت): أي أخطأت، وقد استعملوا كذب بمعنى أخطأ، قولها (وكنا في دار البعداء البغضاء) قال العلماء: البعداء في النسب البغضاء في الدين لأنهم كفار إلا النجاشي، وكان يستخفي بإسلامه عن قومه ويورى لهم قولها (يأتوني أرسالا): بفتح الهمة أي أفواجا". النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل جعفر بن أبي طالب وأسماء بنت عميس وأهل سفينتهم رضي الله عنهم، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط2، 1392هـ)، 65/16، حديث رقم: 2503.

لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ونحن كنا نؤذى فنخاف». الحديث بطوله خرّجه مسلم¹، قال العلماء: فالمخبر عن نفسه بخلاف ما طبع الله نفوس بني آدم كاذب، وقد طبعهم على الهرب مما يضرها ويؤلمها ويتلفها، قالوا: ولا ضار أضر من سبّع عاد في فلاة من الأرض على من لا آلة معه، يدفعه بما عن نفسه من سيف أو رمح أو نبل أو قوس، وما أشبه ذلك. انتهى كلام القرطبي².

﴿فَأْتِيَاهُ﴾ [طه: 47] أي: فرعون ﴿فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: 47] إليك، في الكلام حذف تقديره: "فأتياه"، فقالا: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ إنّه تعالى أعاد التكليف، فقال: ﴿فَأْتِيَاهُ﴾ لأنّه سبحانه قال في المرة الأولى: ﴿لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَىٰ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ [طه: 23-24]، وفي الثانية قال: ﴿اِذْهَبْ أَنْتَ وَأُخُوكَ بِآيَاتِي﴾ [طه: 42]، وفي الثالثة: ﴿اِذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا﴾ [طه: 44]، فإن قيل: إنّه تعالى أمرهما في المرة الثانية بأن يقولوا له [61/أ] قولاً ليناً، وفي الرابعة أمرهما بأن يقولوا: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [طه: 47] وفيه تغليظ من وجوه، أحدها: أن قوله: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ فيه إيجاب انقياد لهما وإلزام لطاعتهما، وذلك يعظم على الملك المتبوع. وثانيها: قوله: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ فيه إدخال النقص على ملكه؛ لأنّه كان محتاجاً إليهم فيما يريد من الأعمال. وثالثها: قوله: ﴿إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَدِّبُهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ﴾ [طه: 47] فما الفائدة في التليين أولاً والتغليظ ثانياً؟ فنقول: لأنّ الإنسان إذا ظهر لحاجة فلا بدّ من التغليظ. قاله الإمام فخر الدين³. ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [طه: 47] أي: أطلقهم عن الاستعباد

¹ أخرجه مسلم، صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب: من فضائل جعفر بن أبي طالب وأسماء بنت عميس وأهل سفينتهم رضي الله عنهم، 4/ 1946، حديث رقم: 2503.

² القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 11/ 202-203.

³ الرازي، مفاتيح الغيب، 22/ 55.

والاسترقاق ﴿وَلَا تُعَذِّبُهُمْ﴾ [طه: 47] بتكليف المشاق¹، وكانت بنو إسرائيل عند فرعون في عذاب شديد، يُدبِّح أبناءهم ويستخدم نساءهم، ويكلفهم من العمل في الطين واللبن وبناء المدائن ما لا يطيقونه.

﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ﴾ [طه: 47] بحجة ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ [طه: 47] على صدق ما ادعيناه². قال الزمخشري: وهذه الجملة جارية من الجملة الأولى وهي: ﴿إِنَّا رَسُولًا رَبِّكَ﴾ مجرى البيان والتفسير لأنَّ دعوى الرسالة لا تثبت إلا ببيئتها، وهي المحييء بالآية³، فقال فرعون: وما هي، فأدخل يده في جيب قميصه، ثم أخرجها بيضاء لها شعاع كشعاع الشمس، غلب نورها على نور الشمس، فعجب منها ولم يُره العصا إلا يوم الزينة⁴. قال الإمام فخر الدين: فإن قيل: أليس أنَّ الأولى أن يقولوا: إِنَّا رَسُولًا رَبِّكَ قد جئناك بآية من ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم، لأنَّ ذكر المعجزة مقروناً بادعاء الرسالة أولى من تأخيره عنه؟ فنقول: بل هذا أولى؛ لأنَّهما ذكرا مجموع الدعاوى، ثمَّ استدلّا على ذلك المجموع بالمعجزة، فإن قلت: قوله: ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ﴾ [طه: 47] وأنَّه يدلُّ على أنها كانت آية والله سبحانه [61/ب] وتعالى أعطاه اثنتين: العصا واليد، ثم قال: ﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي﴾ [طه: 42] وذلك يدلُّ على أنها كانت ثلاث آيات، فكيف الجمع بينها؟ أجاب القفال: بأن معنى الآية الإشارة إلى جنس الآيات كأنه قال: قد جئناك بحجة ومعجزة وبرهان على ما ادعيناه من الرسالة بآية إن كنت من الصادقين أو لو جئتك بشيء مبین. ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ [طه: 47] أي: سلِّم من العذاب من أسلم، وليس هذا بتحية، وقيل: المعنى: وسلامُ الملائكة الذين هم خزنة الجنة على المهتدين، وتوبيخُ خزنة النار والعذاب على المكذِّبين. قال في التحرير: جمهور المفسرين على أنَّ هذا ليس بتحية؛ لأنَّه ليس بابتداء لقاء

¹ النسقي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 267/2.

² القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 203/11.

³ الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 98/3.

⁴ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 203/11.

ولا خطاب ولا كلام، قال بعضهم: هو من قول الله تعالى لهما: كأنه قال: فقولا إنا رسولا ربك، وقولا له: السلام على من اتبع الهدى، وقال ابن عطية: ويحتمل أن يكون كلام الله تعالى قد تمَّ عند قوله: قد جئناك بآية من ربك، وقوله بعد ذلك: والسلام على من اتبع الهدى وَعَدُّ من قَبْلِهِما لمن آمن وصدَّق بالسلامة له من عقوبات الدنيا والآخرة، انتهى¹. وفي الحديث الصحيح أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم كتب إلى هرقل² عظيم الروم: «سلام على من اتبع الهدى»³. وعن قتادة قال: التسليم على أهل الكتاب إذا دخلت عليهم بيوتهم أن تقول: السلام على من اتبع الهدى⁴. قال السلمي: قال الواسطي: اتبع الهدى سابقة الهدى لمن سبقت له الهداية من الله تعالى اتبع الهدى في جميع أحواله⁵.

﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ﴾ [طه: 48] في الدنيا والعقبى ﴿عَلَى مَنْ كَذَّبَ﴾ [طه: 48]

بالرسل ﴿وَتَوَلَّى﴾ [طه: 48] أعرض عن الإيمان، وهذه الآية أرجى أي القرآن؛ لأنه جعل جنس السلام للمؤمن وجنس العذاب على المكذب وليس وراء الجنس شيء. قال ابن عباس: هذه أرجى آية للمؤمنين والموحدين؛ لأنهم لم يكذبوا ولم يتولوا. قال الإمام فخر الدين: هذه الآية [62/أ] من أقوى الدلائل على أنَّ عقاب المؤمن لا يدوم، وذلك لأنَّ الألف واللام في العذاب تفيد الاستغراق، وأنَّه يقتضي انحصار هذا الجنس فيمن كذب وتولى، وأيضاً فقوله: ﴿السَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ [طه: 47] يقتضي حصول السلام لكل من اتبع الهدى، والعارف بالله قد اتبع الهدى، فوجب أن يكون صاحب السلامة⁶. قال في

¹ بتصرف، الرازي، مفاتيح الغيب، 55/22.

² هرقل: هو ملك الروم. وهذا اسمه ولقبه: قيصر، كما يلقب ملك الفرس كسرى. ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، 33/1.

³ البخاري، صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله، 8/1، حديث رقم: 7. مسلم، صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب: كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل يدعو إلى الإسلام، 1393/3، حديث رقم: 1773.

⁴ الصنعاني، المصنف، كتاب أهل الكتاب، السَّلَامُ عَلَى أَهْلِ الْكُتَابِ، 131/6، رقم: 10683.

⁵ السلمي، حقائق التفسير، 445/1.

⁶ الرازي، مفاتيح الغيب، 55/22.

التحرير: قال: "أوحى إلينا"، ولم يذكر اسم الذي أوحى؛ لأن فرعون لعنه الله كانت له بادرة، فرما صدر منه في حق الموجي ما لا يليق، فأجرى الكلام على حكم ما لم يسم فاعله¹.

﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾ [طه: 49] قال الزمخشري: خاطب الاثنين ووجه النداء إلى أحدهما، وهو موسى عليه السلام؛ لأنه الأصل في النبوة، وهارون وزيره وتابعه، ويحتمل أن يحمله خبثه ودعائه، على استدعاء كلام موسى دون كلام أخيه، لما عرف من فصاحة هارون الرثة في لسان موسى، ويدل عليه قوله: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: 52] انتهى². قال القرطبي: ذكر فرعون موسى دون هارون لرؤوس الآي. وقيل: خصّصه بالذكر؛ لأنه صاحب الرسالة والكلام. وقيل: إنهما جميعاً بلغا الرسالة، وإن كان هارون ساكتاً؛ لأنه في وقت الكلام إنما يتكلم واحد، فإذا انقطع وزره الآخر وأتيه، وصار لنا في هذه الآية فائدة علم أن الاثنين إذا قُلبا أمراً، فقام به أحدهما والآخر شخصه هناك موجود، يُستغنى عنه في وقت دون وقت إن هما أديا الأمر الذي قُلبا وقاما به، واستوجبا الثواب؛ لأن الله تعالى قال: ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾، وقال: ﴿أَذْهَبْ أَنْتَ وَأُخُوكَ بِآيَاتِي﴾، وقال: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا﴾، فأمرهما جميعاً [62/ب] بالذهاب وبالقول، ثم أعلمنا في وقت الخطاب بقوله: ﴿فَمَنْ رَبُّكُمَا﴾ أنه كان حاضراً مع موسى. انتهى كلام القرطبي³. قال الإمام فخر الدين: اعلم أنهما لما قالوا: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: 47] قال ﴿فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾ [طه: 49]. واعلم أن هنا مباحث، الأول: أن فرعون كان شديد القوة، عظيم الغلبة، كثير العسكر. ثم إن موسى عليه السلام لما دعاه إلى حضرة الله تعالى لم يشغل معه فرعون بالبطش والإيذاء، بل خرج معه في المناظرة؛ لأنه لو شرع

¹ ابن حيان، البحر المحيط في التفسير، 339/7.

² الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 67/3.

³ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 204/11.

أولاً في الإيداء، نُسب إلى الجهل والسفاهة فاستنكف من ذلك وشرع أولاً في المناظرة، وذلك يدلُّ على أنَّ السفاهة من غير الحجة لا تليق بالكافر الجاهل، فكيف يليق ذلك بمن يدعي الإسلام والعلم؟! ثم إنَّ فرعون لما سأل موسى عليه السلام عن ذلك، قبل موسى ذلك السؤال، واشتغل بإقامة الدليل على وجود الصانع، وذلك يدلُّ على فساد التقليد. الثاني: دلَّت الآية على أنَّ المحقِّق يجب عليه استماع شبهة المبتطل، والجواب عنها من غير إيداء وإيحاء كما فعل موسى بفرعون، وكما أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم في قوله: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: 125]. الثالث: اختلف الناس في أنَّ فرعون هل كان عارفاً بالله تعالى؟ فقيل: إنَّه كان عارفاً إلا أنه كان يُظهر الإنكار تكبراً وتجبراً وزوراً وبهتاناً، واحتجوا عليه بوجوه: منها قوله تعالى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الإسراء: 102] فمن فتح التاء في "علمت" كان ذلك خطاباً لموسى عليه السلام مع فرعون، وذلك يدلُّ على أنَّ فرعون كان عالماً بذلك، ومنها قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: 14]. ومنها أنَّه كان عاقلاً وإلا لما كان مُكلفاً، وكل من كان [63/أ] عاقلاً علم بالضرورة أنَّه كان حادثاً، وكل حادث مفتقر إلى محدث، واتفقوا على أنَّ العاقل لا يجوز أن يعتقد في نفسه أنَّه خالق هذه السموات والأرضين، وأنَّه خالق نفسه أيضاً، ومن الناس من قال إنَّه كان جاهلاً بربه، ثم اختلفوا في كيفية جهله بالله، فيحتمل أنَّه كان دهرياً منكرًا للمؤثر، ويحتمل أنَّه كان فلسفياً قائلاً بالعلة الموجبة، ويحتمل أنَّه كان من عبدة الكواكب، ويحتمل أنَّه كان حلولياً¹، وهذا أقرب، وأمَّا ادعاؤه الربوبية لنفسه فبمعنى أنَّه يجب عليهم طاعته والانقياد له. البحث الرابع: أنَّه تعالى حكى عنه في هذه السورة أنَّه قال: ﴿فَمَنْ رَبُّكُمْ يَا مُوسَى﴾، وقال في سورة الشعراء: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: 23]، فالسؤال هنا بـ"من" وهو عن الكيفية، وفي تلك السورة بـ"ما" وهو عن الماهية، وهذا أيضاً يدلُّ على أنَّه

¹ الحلول: هو عبارة عن كون أحد الجسمين ظرفاً للآخر، كحلول الماء في الكوز. الجرجاني، التعريفات، 92.

كان عالماً بالله. البحث الخامس: إنما قال: "فَمَنْ رَبُّكُمَا"، ولم يقل: "فمن إلهكما"؛ لأنه أثبت نفسه رباً له في قوله: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ [الشعراء: 18]، فذكر ذلك على سبيل التعجب؛ كأنه قال: "أنا ربك"، فلم تدعي رباً آخر، وهذا الكلام شبيه بكلام نمrod؛ لأن إبراهيم عليه السلام لما قال: ﴿رَبِّي الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ﴾ [إبراهيم: 285]، ولم يكن الإحياء والإماتة من الجانبين بمعنى واحد، كما أن الربوبية هنا من الجانبين ليست بمعنى واحدة. انتهى كلام الإمام فخر الدين¹.

﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ [طه: 50]، خلقه: أول مفعولي أعطى، أي: خليقته كل شيء يحتاجون إليه ويرتفقون به، أو ثانيهما، أي: أعطى كل شيء صورته وشكله الذي يطابق المنفعة المنوطة به، كما أعطى العين الهيئة التي تطابق الإبصار، والأذن الشكل الذي [63/ب] يوافق الاستماع، وكذلك الأنف واليد والرجل واللسان كل واحد منهما مطابق لما عُلق به من المنفعة غير ناب عنه، أو أعطى كل حيوان نظيره في الخلق والصورة، حيث جعل الحصان والحجيرة² زوجين، والبعير والناقة، والرجل والمرأة، فلم يزواج منها شيء غير جنسه، وما هو على خلاف خلقه، وقرئ: "خَلْقَهُ" صفة للمضاف أو للمضاف إليه، أي: أعطى كل شيء مخلوقاً عطاه، أي: كل شيء خلقه الله لم يُخله من عطائه، كذا في الكشاف والمدارك³. قال الإمام فخر الدين: إن موسى عليه السلام استدلل على إثبات الصانع بأحوال المخلوقات، وهو قوله: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: 50]، وسيأتي تقريره في سورة الشعراء. واعلم أنه يشبه أن يكون الخلق عبارة عن تركيب القوالب والأبدان، والهداية عبارة عن إيداع القوى المدركة والحركة في تلك الأجسام، وعلى هذا يكون الخلق مقدماً على الهداية، ولذلك قال:

¹ الرازي، مفاتيح الغيب، 56/22-57.

² الحجيرة: الأنثى من الخيل. وإثبات الهاء في آخره لحن؛ لأنه اسم لا يشترك فيه المذكور. الزبيدي، تاج العروس، 10/536.

³ الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 67/3. النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 2/367-368.

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [الحجر: 29]، فالتسوية راجعة إلى القلب، ونفخ الروح إلى إيداع القوى، فالله تعالى أنعم على الخلائق بما فيه قوامهم من الطعام، والمشروب والملبوس والمنكوح، هم هداهم إلى كيفية الانتفاع بها، فيستخرجون الجواهر من الجبال، والآلئ من البحار، ويُرَكَّبون الأدوية والأطعمة المختلفة، فَعُلِمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الَّذِي خَلَقَ الْأَشْيَاءَ، ثُمَّ أَعْطَاهُمُ الشُّعُورَ الَّذِي بِهِ تَوَصَّلُوا إِلَى كَيْفِيَةِ الْإِنْتِفَاعِ بِهَا، وَهَذَا غَيْرُ مَخْتَصٍ بِالْإِنْسَانِ، بَلْ هُوَ عَامٌ فِي الْحَيَوَانَاتِ، فَأَعْطَى الْإِنْسَانَ زَوْجَةً، وَالْحَمَارَ أَتَانًا، وَالْبَعِيرَ نَاقَةً، ثُمَّ هَدَاهَا لَهَا [64/أ] لِيَدُومَ التَّنَاسُلُ، وَهَدَى الْأَطْفَالَ لِثَدْيِ الْأُمّهَاتِ، وَهَذَا أَيْضًا غَيْرُ مَخْتَصٍ بِالْحَيَوَانَاتِ، بَلْ هُوَ حَاصِلٌ فِي كُلِّ عَضْوٍ مِنْ أَعْضَائِهَا، فَإِنَّهُ سَبَّحَانَهُ خَلَقَ الْيَدَ عَلَى تَرْكِيْبٍ خَاصٍ وَأَوْدَعَ فِيهَا قُوَّةَ الْبَطْشِ وَخَلَقَ الرَّجْلَ عَلَى تَرْكِيْبٍ خَاصٍ وَأَوْدَعَ فِيهَا قُوَّةَ الْمَشْيِ، وَعَلَى هَذَا فِي الْعَيْنِ وَالْأُذُنِ وَسَائِرِ الْأَعْضَاءِ، ثُمَّ رَبَطَ الْبَعْضَ بِالْبَعْضِ عَلَى وَجْهِ يَحْصُلُ مِنْ مَجْمُوعِهَا شَيْءٌ وَاحِدٌ وَهُوَ الْإِنْسَانُ مَثَلًا، وَإِنَّمَا دَلَّتْ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ عَلَى وَجُودِ الصَّانِعِ لِأَنَّ اتِّصَافَ كُلِّ جِسْمٍ مِنْ هَذِهِ الْأَجْسَامِ بِتِلْكَ الصِّفَةِ أَمْرٌ مُمْكِنٌ، وَالْمُمْكِنُ مُفْتَقِرٌ فِي الْوُجُودِ إِلَى الْمَوْثَرِ، وَهُوَ الْوَاجِبُ الْوُجُودَ لِدَاتِهِ، وَظَهَرَ بِهَذِهِ الدَّلَالَةِ الَّتِي تَمَسَّكَ بِهَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَنَبَّهَ عَلَى تَقْدِيرِهَا اسْتِنَادًا الْعَالَمِ إِلَى مَدَبِّرٍ لَيْسَ بِجِسْمٍ وَلَا جِسْمَانِي وَاجِبُ الْوُجُودَ لِدَاتِهِ وَصِفَاتِهِ، عَالَمٌ بِجَمِيعِ الْمَعْلُومَاتِ، وَقَادِرٌ عَلَى جَمِيعِ الْمَقْدُورَاتِ، وَذَلِكَ هُوَ اللَّهُ سَبَّحَانَهُ¹. ﴿ثُمَّ هَدَى﴾ أي: عَرَّفَ كَيْفَ يَرْتَفِقُ بِمَا أُعْطِيَ لِلْمَعِيشَةِ فِي الدُّنْيَا وَالسَّعَادَةِ فِي الْعَقْبِ². قَالَ الرَّمَحْشَرِيُّ: وَلِلَّهِ دُرٌّ هَذَا الْجَوَابُ، أَي: جَوَابُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، مَا أَخْصَرَهُ وَمَا أَجْمَعَهُ وَمَا أَبَيَّنَهُ لِمَنْ أَلْقَى الذَّهْنَ وَنَظَرَ بَعَيْنِ الْإِنصَافِ، وَكَانَ طَالِبًا لِلْحَقِّ. ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ [طه: 51] فَمَا حَالُ الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ وَالرَّمَمِ الْبَالِيَةِ، سَأَلَهُ عَنِ حَالِ مَنْ تَقَدَّمَ مِنَ الْقُرُونِ، وَعَنْ شِقَاءِ مَنْ شَقِيَ مِنْهُمْ، وَسَعَادَةِ مَنْ سَعِدَ ﴿قَالَ﴾ [طه: 52] مُوسَى

¹ الرازي، مفاتيح الغيب، 58/22-59 بتصرف.

² النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 368/2.

جيباً ﴿عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ [طه: 52] مبتدأ وخبر، أجابه بأن هذا سؤال عن الغيب، وقد استأثر الله به لا يعلمه إلا هو، وما أنا إلا عبد مثلك لا أعلم منه إلا ما أخبرني به علام الغيوب، وعلم أحوال القلوب مكتوب عنده في اللوح المحفوظ¹. قال الإمام فخر الدين: اعلم أن في ارتباط [64/ب] قوله: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ بما قبله وجوه، منها: أن موسى عليه السلام هدّده بالعذاب أولاً في قوله: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [طه: 48] فقال فرعون: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾، فإنها كذبت، ثم إنهم ما عُذّبوا. ومنها: وهو الأظهر أن فرعون لما قال: ﴿فَمَنْ رَبُّكُمْ يَا مُوسَى﴾، فذكر موسى عليه السلام دليلاً ظاهراً وبرهاناً باهراً على هذا المطلوب، فقال: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: 50] فخاف فرعون أن يزيد في تقرير تلك الحجة، فأراد أن يصرفه عن ذلك الكلام، وأن يشغله بالحكايات، قال: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ فلم يلتفت موسى إلى ذلك الحديث، وقال: ﴿عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾، ثم عاد إلى تتميم الكلام الأول الذي يدل على الوحدانية فقال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾ [طه: 53] الآية². ﴿فِي كِتَابٍ﴾ [طه: 52] إلى اللوح المحفوظ، خبر ثان ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي﴾ [طه: 52] لا يخطئ شيئاً، يقال: "ضَلِلْتُ الشَّيْءَ إِذَا أَخْطَأْتَهُ فِي مَكَانِهِ فَلَمْ تَهْتَدِ لَهُ"، أي: لا يخطئ في سعادة الناس وشقاوتهم، ﴿وَلَا يَنْسَى﴾ [طه: 52] ثوابهم وعقابهم. وقيل: لا ينسى ما علم فيذكره الكتاب، ولكن لتعلم الملائكة أن معمول الخلق يوافق معلومه. كذا في المدارك³. قال الزمخشري: عن ابن عباس: لا ينسى أي: لا يترك من كفر به حتى ينتقم منه، ولا يترك من وحده حتى يجازيه. ويجوز أن يكون فرعون قد نازعه في إحاطة الله بكل شيء، فتعنت، وقال: ما تقول في سؤالي القرون وتمادي

¹ النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 368/2.

² الرازي، مفاتيح الغيب، 59/22.

³ النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 368/2.

كفرتهم وتباعداً أطراف عددهم، كيف أحاط بهم وبأجزائهم وجواهرهم؟ فأجاب: بأنَّ كلَّ كائنٍ محيط به علمه، وهو مثبت عنده في كتاب [65/أ] ولا يجوز عليه الخطأ والنسيان، كما يجوز أن عليك أيها العبد الدليل والبشر الضعيف، أي: لا يضل كما تضل أنت، ولا ينسى كما تنسى أنت، يا مُدَّعي الربوبية بالجهل والوقاحة. انتهى¹. قال الإمام فخر الدين: اختلفوا في قوله: ﴿عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ﴾، فإنَّ العلم الذي يكون عند الرب كيف يكون في الكتاب وهو صفته تعالى وصفة الشيء قائمة به؟ ثم إنهم ذكروا فيه وجهين: أحدهما: معناه أنَّه سبحانه أثبت تلك الأحكام في كتاب عنده؛ ليكون ما كتبه فيه يظهر للملائكة فيكون ذلك زيادة لهم في الاستدلال على أنَّه تعالى عالم بجميع المعلومات، منزّه عن السهو والغفلة. ولقائل أن يقول: قوله: "في كتابٍ" يوهم احتياجه تعالى إلى ذلك الكتاب، وكيف يحسن ذكره مع معاند مثل فرعون في وقت الدعوة؟. وثانيهما: معناه أنَّ بقاء تلك المعلومات بحيث لا يزول شيء منها عن علمه في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى².

كُتِبَ الْعُلُومُ

قال القرطبي: هذه الآية ونظائرها تدلُّ على تدوين العلوم وكتبتها لئلا تنسى؛ فإنَّ الحفظ قد تعثره الآفات من الغلط والنسيان، وقد لا يحفظ الإنسان ما يسمع فيقيدده؛ لئلا يذهب عنه. وعن قتادة أنَّه قيل: أنكتب ما نسمع منك؟ قال: وما يمنعك أن تكتب، وقد أخبرك اللطيف الخبير أنَّه يكتب؟! فقال: ﴿عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ [طه: 52]، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لَمَّا قَضَى اللَّهُ الْخُلُقَ كَتَبَ فِي كِتَابٍ عَلَى نَفْسِهِ فَهُوَ

¹ الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 68/3.

² الرازي، مفاتيح الغيب، 60/22.

مَوْضُوعٌ عِنْدَهُ أَنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي»¹. وأسند الخطيب أبو بكر² عن أبي هريرة قال: «كَانَ رَجُلٌ مِّنَ الْأَنْصَارِ يَجْلِسُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [65/ب] يَسْتَمِعُ مِنْهُ الْحَدِيثَ وَيُعْجِبُهُ وَلَا يَحْفَظُهُ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنِّي أَسْمَعُ مِنْكَ الْحَدِيثَ يُعْجِبُنِي وَلَا أَخْفَظُهُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (تكتب الخطبة التي خطب بها في الجمع من الحديث)³، اكْتُبُوا لِأَبِي شَاهٍ⁴ - رَجُلٌ مِّنَ الْيَمَنِ - لَمَّا سَأَلَهُ». أخرجه مسلم⁵. وروى عمرو بن شعيب⁶ عن أبيه⁷ عن

¹ أخرجه مسلم، صحيح مسلم، كتاب التوبة، باب: في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه، 2108/4، حديث رقم: 2751، ورواه البخاري بلفظ: ما خلق الله الخلق كتب في كتابه وهو يكتب على نفسه وهو وضع عنده على العرش إن رحمتي تغلب غضبي. البخاري، صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب: قول الله تعالى: {وَيُحَذِرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ} [آل عمران: 28]، 120/9، حديث رقم: 7404.

² هو أحمد بن علي بن ثابت البغدادي، أبو بكر الخطيب، أحد الحفاظ المؤرخين، كان فصيح اللهجة عارفاً بالأدب، مولعاً بالمطالعة والتأليف، من مصنفاته: تاريخ بغداد، البخلاء، الكفاية في علم الرواية، الفوائد المنتخبة الجامع، لأخلاق الراوي وآداب السامع، وغيرها كثير، توفي في بغداد سنة: 463هـ. ابن خلكان، وفيات الأعيان، 92/1. الزركلي، الأعلام، 172/1.

³ في تفسير القرطبي: فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (اسْتَمِعْ يَمِينِكَ)، وَقَدْ أَمَرَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِكُتُبِ الْخُطْبَةِ الَّتِي خُطِبَ بِهَا فِي الْحَجِّ لِأَبِي شَاهٍ الْقُرْطَبِيِّ، الْجَامِعَ لِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ، 206/11.

⁴ أبو شاه اليماني، ويقال: إنه كلي، ويقال إنه فارسي، وشاه: بالفارسي معناه الملك. ورد ذكره في الصحيحين في حديث أبي هريرة، ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، 4/249. ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، 2/606. ابن حجر العسقلاني، الإصابة، 171/7.

⁵ ورد في صحيح البخاري ومسلم، واللفظ لمسلم: إِنَّ خِزَاعَةَ قَتَلُوا رَجُلًا مِّنْ بَنِي لَيْثٍ عَامَ فَتْحِ مَكَّةَ بِقَتْلِ مَنْهُمْ قَتْلَهُ، فَأَخْبَرَ بِذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكَرَبَ رَاحِلَتَهُ، فَخُطِبَ، فَقَالَ: "إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ حَبَسَ عَنِ مَكَّةَ الْفِيلَ، وَسَلَطَ عَلَيْهَا رَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ، أَلَا وَإِنَّمَا لَمْ تَحِلْ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَنْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ بَعْدِي، أَلَا وَإِنَّمَا أَحَلَّتْ لِي سَاعَةٌ مِّنَ النَّهَارِ، أَلَا وَإِنَّمَا سَاعَتِي هَذِهِ حَرَامٌ، لَا يَخْبِطُ شَوْكُهَا، وَلَا يَعْضُدُ شَجَرُهَا، وَلَا يَلْتَقِطُ سَاقِطَتِهَا إِلَّا مَنْشُدٌ، وَمَنْ قَتَلَ لَهُ قَتِيلٌ فَهُوَ بِخَيْرِ النَّظَرِينَ: إِمَّا أَنْ يَعْطَى - يَعْنِي الدِّيَةَ -، وَإِمَّا أَنْ يَقَادَ - أَهْلُ الْقَتِيلِ -"، قال: فجاء رجل من أهل اليمن يقال له أبو شاه، فقال: اكتب لي يا رسول الله، فقال: «اكتبوا لأبي شاه»، فقال رجل من قريش: إلا الإذخر، فإننا نجعله في بيوتنا وقبورنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إلا الإذخر». أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب العلم، باب: كتابة العلم، 3/125، حديث رقم: 2434. ومسلم، صحيح مسلم، كتاب الحج، باب: باب تحريم مكة وصيدتها وخلاها وشجرها ولقطتها، إلا لمنشد على الدوام، 2/989، حديث رقم: 1355.

⁶ هو عمرو بن شعيب بن محمد السهمي القرشي، من بني عمرو بن العاص: من رجال الحديث. أحد علماء زمانه، روى عن أبيه، وطاوس، وسليمان بن يسار، وسعيد بن المسيب، وجماعة. ووثقه ابن معين، وابن راهويه، كان يسكن مكة وتوفي بالطائف سنة: 118هـ. الذهبي، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، 3/263. الزركلي، الأعلام، 5/79.

⁷ هو شعيب بن محمد بن عبد الله بن عمرو بن العاص الحجازي السهمي، روى عن جده وابن عباس وابن عمر ومعاوية وعبادة بن الصامت وأبيه محمد بن عبد الله، ذكره ابن حبان في الثقات. الذهبي، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، 4/356.

جده¹ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «قَيِّدُوا الْعِلْمَ بِالْكِتَابَةِ»². انتهى كلام القرطبي³. وقال الإمام الحافظ أبو عبد الله محمد بن عثمان المدائني⁴ في كتاب الدواة والقلم، روي عن كعب أنه قال: أول من وضع الكتب آدم عليه السلام قبل موته بثلاثمائة عام، وأنه جعلها في طين، ثم طبخها بالنار، فلمَّا أصابت الأرض الغرق أيام الطوفان، ونضب الماء وكثر الناس، أخذت كل أمة كتابها، فصار إلى إسماعيل الكتاب العربي، وتم توارثته القرون من بعده⁵. وقال آخرون: بل كان أول من كتب بالعبرانية شيث⁶ بن آدم، ثم كتب بعده إدريس⁷ وخلف سبعين كتاباً من كتب الحكمة والنجوم، وكان لوط⁸ يكتب الصحف المنزلة على إبراهيم، وكان يوسف كاتب العزيز صاحب الرؤيا، وقال له: ﴿أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ

¹ هو محمد بن عبد الله بن عمرو بن العاص، أبو شعيب، القرشي، السهمي، روى عن أبيه، خرج له الترمذي والنسائي. المقرئ، تقي الدين، المقفى الكبير، (بيروت: دار الغرب الاسلامي، ط2، 1427هـ)، 55/6. الذهبي، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، 593/3.

² ورد عن عمر وأنس -رضي الله عنهما- موقوفاً. أخرجه الطبراني، المعجم الكبير، صفة أنس بن مالك وهبأته رضي الله عنه، 246/1، حديث رقم: 700. وأبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواسي العبسي، الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، كتاب الأدب، من رخص في كتاب العلم، (الرياض: مكتبة الرشد، ط1، 1409هـ)، 313/4، حديث رقم: 26427. والحاكم، المستدرک على الصحيحين، كتاب العلم، ومنهم يحيى بن أبي المطاع القرشي، 188/1، حديث رقم: 360.

³ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 11/205-206.

⁴ هو أبو عبد الله محمد بن عمر المدائني، وليس كما ذكر المصنف، وكتابه اسمه الفلم والدواة.

⁵ ذكره ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، 4/239.

⁶ هو هبة الله بن آدم، عليهما السلام، بعثه الله عز وجل إلى ولد أبيه، وأنزل عليه تسعة وعشرين صحيفة لتتمة خمسين صحيفة عليه وعلى أبيه آدم، وقيل: خمسين صحيفة، وكان أجمل ولد آدم وأشبههم به، وأحبهم إليه، وهو الذي ولد البشر كلهم، وإليه انتهت أنساب الناس. وهو الذي بنى الكعبة بالطين والحجارة، عاش تسعمائة سنة واثنين وعشرة سنة. الدينوري، ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم، المعارف، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، 1992م)، 20/1. الدوادري، أبو بكر بن عبد الله بن أبيك، كنز الدرر وجامع الغرر، (مصر: عيسى البابي الحلبي، 1414 هـ)، 65/2.

⁷ واسمه خنوخ بن يرد، وقيل: وهو إدريس بن اليارد بن مهلائيل بن قينان بن الطاهر بن هبه، وهو شيث بن آدم، وإنما سمي إدريس لأنه أول من درس الوحي المكتوب. قال علماء السير: نبأ الله تعالى إدريس في حياة آدم، وكان عمر آدم ستمائة واثنان وعشرون سنة. وهو أول نبي خط بالقلم وقطع الثياب وخاطها، ورفع إدريس وهو ابن ثلاثمائة وخمس وستين سنة، وأبوه حي، فعاش أبوه بعد ارتفاعه مائة وخمسة وثلاثين سنة. ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، 1/233. الدوادري، كنز الدرر وجامع الغرر، 2/66.

⁸ هو ابن أخي إبراهيم، عليهما السلام. وقيل: بل ابن أخته. وهو لوط بن هاران، بعثه الله تعالى إلى أهل سدوم. وكان هؤلاء القوم يأتون الذكران، وما سبقهم بها أحد من العالمين. فلمَّا كذبوا لوطاً عليه السلام ولم ينتهوا عما كانوا يعملوا بعث الله عليهم جبريل عليه السلام، فاختلع أرضهم من سبع أرضين، ثم قلبها عليهم فدمرهم جميعاً. الدوادري، كنز الدرر وجامع الغرر، 2/216. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 1/90.

عليه السلام ﴿يوسف: 55﴾، أي: حفيظ بالكتاب، عليم بالحساب، وكان سليمان بن داود عليه السلام كاتب أبيه، وكان آصف بن برخيا¹ كاتب سليمان بن داود، وهو الذي كان عنده علم من الكتاب، وكان ذو القرنين² كاتب بطليموس، وكان هارون ويوشع يكتبان بين يدي موسى الألواح والتوراة، وكان يحيى بن زكريا كاتب عيسى بن مريم، يكتب له الحكمة والإنجيل، وكان علي بن أبي طالب كاتب محمد صلى الله عليه وسلم. وفي رواية أنّ علياً رضي الله عنه كان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم إلى من عاهد [أ/66] أو وعدَّ عهداً وإنَّ صحيفة نجران هو كاتبها ووضعها عنده للنبي صلى الله عليه وسلم، وإنه كان كاتب الفرقان، وقد كتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة من أصحابه المذكورون في السير³. انتهى كلام المدائني⁴. قال القرطبي: وقد ذهب قوم إلى المنع من الكتابة، فروى أبو نضرة⁵ قال: قيل لأبي سعيد: أيكذب حديثكم هذا؟ قال: لم يجعلونه قرآناً، ولكن احفظوا كما حفظنا، ومن كان لا يكتب

¹ هو آصف بن برخيا بن شعيب، كاتب سليمان بن داود، وهو ابن خالة سليمان، كان يعرف اسم الله الأعظم، {أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك} [النمل: 40]. ابن كثير، البداية والنهاية، وكان لا يرد عن أبواب سليمان أي ساعة أراد. 335/2. الطبري، تاريخ الطبري، 497/1. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 180/1.

² تعددت الروايات في اسم ذي القرنين فقال ابن إسحاق: أن ذا القرنين كان رجلاً من أهل مصر. اسمه مرزبان بن مرزبة اليوناني، من ولد يونان بن يافث بن نوح. وقال ابن هشام: واسمه الإسكندر، وهو الذي بنى الإسكندرية فنسبت إليه. وقيل اسمه الصعب بن قرن بن همال. قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: إنه ملك، وليس بنبي. ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، 385/6. ابن هشام، السيرة النبوية، 1/270.

³ منهم رضي الله عنهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، والزبير، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، ومعاوية بن أبي سفيان، ومحمد بن مسلمة، والأرقم بن أبي الأرقم، وأبان بن سعيد بن العاص، وأخوه خالد، وثابت بن قيس، وحنظلة بن الربيع الأسدي الكاتب، وخالد بن الوليد، وعبد الله بن الأرقم، وعبد الله بن زيد بن عبد ربه، والعلاء بن عتبة، والمغيرة بن شعبة، وشريحيل بن حسنة. أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، الفصول في السيرة، فصل كتاب الوحي، (بيروت: مؤسسة علوم القرآن، ط3، 1403هـ)، 255.

⁴ لم أعثر على الكتاب.

⁵ أبو نضرة صاحب أبي سعيد الخدري، وأسمه المنذر بن مالك بن قطة، أحد بني عوف بن الدئل، الإمام المحدث الثقة، قال أحمد بن حنبل: ما علمت إلا خيراً، توفي سنة: 109هـ. ابن حجر، تهذيب التهذيب، 302/10. الذهبي، سير أعلام النبلاء، 529/4.

الشعبي¹، ويونس بن عبيد²، وخالد الحذاء³ - قال خالد: ما كتبت شيئاً قط إلا حديثاً واحداً، فلماً حفظته محوته⁴ - وابن عون⁵، والزهري⁶، وقد كان بعضهم يكتب فإذا حفظ محاه، منهم: محمد بن سيرين⁷، وعاصم بن ضمرة⁸. وقال هشام بن حسان⁹: ما كتبت حديثاً قط إلا حديث الأعماق¹⁰، فلما حفظته محوته¹¹. قال القرطبي: وحديث الأعماق خرج مسلم في آخر الكتاب: لا تقوم الساعة حتى ينزل

¹ هو عامر بن شراحيل الشعبي، من حمير. ولد ونشأ بالكوفة، من كبار التابعين. ثقة عند أهل الحديث. اتصل بعبد الملك بن مروان. فكان ندبه وسميره. توفي سنة: 109 هـ. الذهبي، سير أعلام النبلاء، 171/5. ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، 65/5. الزركلي، الأعلام، 251/3.

² يونس بن عبيد، أبا عبد الله، مولى لعبد القيس، ثقة، كثير الحديث، وقال يونس: «ما كتبت شيئاً قط»، توفي سنة: 139 هـ. أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، البصري، البغدادي المعروف بابن سعد، الطبقات الكبرى، (بيروت: دار صادر، ط1، 1968م)، 260/7. محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله، التاريخ الكبير، (حيدر آباد: دائرة المعارف العثمانية)، 402/8.

³ هو خالد بن مهران الحذاء، وثقه أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، وجماعة، وحديثه في الصحاح. وقال ابن سعد لم يكن خالد بجذاء، ولكن كان يجلس إليهم. وقال فهد بن حبان: إنما كان يقول أحد على هذا النحو فلقب الحذاء قال وكان خالد ثقة مهيباً كثير الحديث، توفي: سنة 141 هـ وقيل: 142 هـ. الذهبي، سير أعلام النبلاء، 319/6. ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، 120/3.

⁴ أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خالد الرامهرمزي، المحدث الفاصل بين الراوي والواعي، مَنْ كان لا يرى أن يكتُب، (دار الذخائر، ط1، 2016م)، 391.

⁵ عبد الله بن عون بن أرتبان المزني، عالم البصرة، كان ثقة كثير الحديث ورعاً، توفي سنة: 151 هـ. الذهبي، سير أعلام النبلاء، 364/6. ابن سعد، الطبقات الكبير، 261/9.

⁶ أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب بن عبد الله بن الحارث بن زهرة الزهري أحد الفقهاء والمحدثين، والأعلام التابعين بالمدينة، مسند العراق، رأى عشرة من الصحابة رضوان الله عليهم، توفي سنة: 124 هـ. ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، 178/4. الذهبي، سير أعلام النبلاء، 392/61.

⁷ أبو بكر الأنصاري، الأنسي، البصري، مولى أنس بن مالك، ثقة، وكان فقيهاً إماماً كثير العلم ورعاً، وكان به صمّم، كان مولى أنس بن مالك، ينسب له كتاب: تعبير الرؤيا، توفي سنة، 110 هـ. ابن سعد، الطبقات الكبير، 192/9. الذهبي، سير أعلام النبلاء، 604/4. الزركلي، الأعلام، 154/6.

⁸ عاصم بن ضمرة السلولي الكوفي، وجرحه ابن حبان، وضعفه الجوزجاني، وتبعه ابن عدي، توفي سنة: 174 هـ. ابن حجر، تهذيب التهذيب، 45/5.

⁹ هشام بن حسان الأزدي، أبو عبد الله، القردوسي: محدث. من أهل البصرة. كان يكتب حديثه، وهو من المكثرين عن الحسن البصري، توفي سنة: 147 هـ. الزركلي، الأعلام، 85/1.

¹⁰ الأعماق ودقيق موضعان بالشام كذا في شرح مسلم. كذا في المخطوط. النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، 21/18، كتاب: الفتن وأشراط الساعة.

¹¹ الرامهرمزي، المحدث الفاصل بين الراوي والواعي، مَنْ كان يكتُب فإذا حَفَظَه محاه، 394.

الروم بالأعماق أو بدابق الحديث. ذكره في الفتن¹. وكان بعضهم يحفظ ثم يكتب ما يحفظ، منهم: الأعمش² وعبد الله بن إدريس³، وهشيم⁴ وغيرهم. وهذا احتياط على الحفظ، والكتب أولى على الجملة، وبه وردت الآي والأحاديث، وهو مروى عن عمر وعلي وجابر وأنس، ومن يليهم من كبار التابعين كالحسن، وعطاء⁵، وطاوس⁶ وعروة بن الزبير⁷، ومن بعدهم من أهل العلم، قال الله تعالى في الألواح ﴿كَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: 145] وقال: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [سورة الأنبياء: 105] وقال: ﴿وَآتَيْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ [الأعراف: 156] الآية، وقال: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ﴾ [القمر: 52]، وقال: ﴿قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ﴾ [طه: 52] إلى غير ذلك [66/ب] من الآي،

¹ أخرجه مسلم عن أبي هريرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: " لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق أو بدابق، فيخرج إليهم جيش من المدينة، من خيار أهل الأرض يومئذ، فإذا تصافوا، قالت الروم: خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا نقاتلهم، فيقول المسلمون: لا، والله لا نخلي بينكم وبين إخواننا، فيقاتلوهم، فينهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبدا، ويقتل ثلثهم، أفضل الشهداء عند الله، ويفتح الثلث، لا يفتنون أبدا فيفتنحون قسطنطينية، بينما هم يقتسمون الغنائم، قد علقوا سيوفهم بالزيتون، إذ صاح فيهم الشيطان: إن المسيح قد خلفكم في أهليكم، فيخرجون، وذلك باطل، فإذا جاءوا الشام خرج، بينما هم يعدون للقتال، يسوون الصفوف، إذ أقيمت الصلاة، فينزل عيسى ابن مريم صلى الله عليه وسلم، فأمهم، فإذا رآه عدو الله، ذاب كما يذوب الملح في الماء، فلو تركه لانداب حتى يهلك، ولكن يقتله الله بيده، فيريهم دمه في حربته. مسلم، صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراف الساعة، باب: في فتح قسطنطينية، وخروج الدجال ونزول عيسى ابن مريم. 2221/4، حديث رقم: 2897.

² سليمان بن مهران الأسدي بالولاء، أبو محمد، الملقب بالأعمش: تابعي، مشهور، كان عالما بالقرآن والحديث والفرائض، كان رأسا في العلم النافع والعمل الصالح، توفي سنة: 148هـ. ابن حجر العسقلاني، تهذيب، 4/ 222. الزركلي، الأعلام، 3/135.

³ عبد الله بن إدريس ابن يزيد بن عبد الرحمن الأودي من مدجج، أبا محمد، وكان ثقة مأمونا، كثير الحديث حجة صاحب سنة وجماعة، قال أبو حاتم: هو حجة، إمام من أئمة المسلمين، توفي سنة: 172هـ. ابن سعد، الطبقات الكبير، 8/511. الذهبي، سير أعلام النبلاء، 7/499.

⁴ هشيم بن بشير بن أبي خازم قاسم بن دينار السلمى، أبو معاوية، الواسطي، نزيل بغداد: مفسر من ثقات المحدثين، ولزمه الإمام ابن حنبل أربع سنين، توفي سنة: 183هـ. ابن سعد، الطبقات الكبير، 7/227. الزركلي، الأعلام، 8/89.

⁵ مرت ترجمته.

⁶ طاووس بن كيسان، من أكابر التابعين، وأخذ عنه الصفوة من التابعين. أصله من الفرس، ومولده ومنشأه في اليمن، توفي يوم التروية، وصلى عليه هشام بن عبد الملك من سنة 106هـ. ابن الجوزي، صفة الصفوة، 1/452. الزركلي، الأعلام، 3/224.

⁷ عروة بن الزبير بن العوام بن خويلد الأسدي، أبو عبد الله المدني، أحد الفقهاء السبعة بالمدينة. كان عالما بالدين، صالحا كريما، لم يدخل في شيء من الفتن. وانتقل إلى البصرة، ثم إلى مصر فتزوج وأقام بها سبع سنين، ثم عاد إلى المدينة، قال عمر بن عبد العزيز: ما أجد أعلم من عروة بن الزبير، وما أعلمه يعلم شيئا أجهله، توفي فيها سنة: 93هـ. الذهبي، سير أعلام النبلاء، 4/425. الزركلي، الأعلام، 4/226.

وأيضاً فإنَّ العلم لا يُضبط إلا بالكتاب، ثم بالمقابلة والمدارسة والتحفيز والمذاكرة والسؤال، والفحص عن الناقلين، والثقة بما نقلوا، وإنما كره الكتاب من كره من الصدر الأول؛ لُقرب العهد وتقارب الإسناد، ولئلا يعتمد الكاتب أو ترغب عن تحفظه والعمل به، فأما الوقت متباعداً، والإسناد غير متقارب، والطرق مختلفة، والنقل متشابهون، وآفة النسيان معترضة، والوهم غير مأمون، فإن تقييد العلم بالكتابة أولى وأشفى، والدليل على وجوبه أقوى، فإن احتج محتج بحديث أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لَا تَكْتُبُوا عَنِّي عَنِ الْقُرْآنِ، مَنْ كَتَبَ عَنِّي عَنِ الْقُرْآنِ فَلَيْمَحُهُ»¹. خرجه مسلم، فالجواب: أن ذلك منسوخ بأمره بالكتابة وإباحتها لأبي شاه وغيره، وأيضاً كان ذلك؛ لئلا يخلط بالقرآن ما ليس منه، وكذا ما خرجه مسلم عن أبي سعيد: وحرصنا أن يأذن لنا النبي صلى الله عليه وسلم في الكتابة فأبى²، إن كان محفوظاً فهو قبل الهجرة، وحين كان لا يؤمن الاشتغال به عن القرآن. قال القرطبي: قال أبو بكر الخطيب ينبغي أن يُكتب الحديث بالسواد، ثم بالخير خاصة دون المداد³؛ لأنَّ السواد أصبغ الألوان، والخبير أبقاها على مر الدهور، وهو آلة ذوي العلم وعُدَّة أهل المعرفة. ذكر عبد الله بن أحمد بن حنبل رحمه الله، قال: رأيت الشافعي وأنا في مجلسه وعلى قميصي خبزاً وأنا أخفيه، فقال لم تخفيه وتستره؟ إنَّ الخبز على الثوب

¹ أخرجه مسلم بلفظ: " لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه، وحدثوا عني، ولا حرج، ومن كذب على -قال همام: أحسبه قال -متعمداً فليتبوأ مقعده من النار". صحيح مسلم، كتاب الزهد والرفاق، باب التثبت في الحديث وحكم كتابة العلم، 4/ 2298، حديث رقم: 3004.

² الرامهرمزي، الخدم الفاصل بين الراوي والواعي، مخالفته لأصول الخطية دون سبب واضح، 58. وأخرج الترمذي بلفظ: «استأذنا النبي صلى الله عليه وسلم في الكتابة، فلم يأذن لنا». سنن الترمذي، أبواب العلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب: ما جاء في كراهية كتابة العلم، 400/4، حديث رقم: 2665، صحيح.

³ المداد: محلول يستخلص من الزعفران، وسمي المداد مداداً سمي المداد مداداً لإمداده الكاتب، وقال أبو بكر الخطيب: ينبغي أن يُكتب الحديث بالسواد لأن السواد أصبغ الألوان، والخبير أبقاها على مر الدهور والأزمان، وهو آلة ذوي العلم، وعدة أهل المعرفة والفهم. ابن منظور، لسان العرب، فصل الميم، 3/ 398. الخطيب البغدادي أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، باب: تدوين الحديث في الكتب، وما يتعلق بذلك من أنواع الأدب، (الرياض: مكتبة المعارف، 1403هـ)، 1/ 249، حديث رقم: 503

من المروءة؛ لأنَّ صورته في الإبصار سواد، وفي البصائر بياض¹ [67/أ] وقال خالد بن يزيد: الحبر في ثوب صاحب الحديث مثل الخلوق² في ثوب العروس³، وأخذ هذا المعنى أبو عبد الله فقال:

مَدَادُ الْمَحَابِرِ طِيبُ الرِّجَالِ وَطِيبُ النِّسَاءِ مِنَ الرَّعْفَرَانِ

فَهَذَا يَلْبِقُ بِأَثَابِ ذَا وَهَذَا يَلْبِقُ بِثُوبِ الْحِصَانِ⁴

وذكر الماوردي⁵: أنَّ عبيد الله بن سليمان فيما حُكي رُوي على بعض ثيابه أثر صفرة، فأخذ من مداد الدواة فطلاه به، ثم قال: المداد بنا أحسن من الزعفران، وأنشد:

إِنَّمَا الرَّعْفَرَانُ عِطْرُ الْعَدَارِي وَمَدَادُ الدُّوِيِّ عِطْرُ الرِّجَالِ

انتهى⁶. قال المدائني: وذوو العلم يؤثرون الكتابة بالحبر لما يرون في ذلك من الأجر. روى أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يُوزَنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَدَادُ الْعُلَمَاءِ وَدَمُ الشُّهَدَاءِ فَيَرْجَحُ مَدَادُ الْعُلَمَاءِ عَلَى دَمِ الشُّهَدَاءِ»⁷. وقال صلى الله عليه وسلم: «مداد ما جرت به أقلام العلماء

¹ الخطيب البغدادي، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، باب: تدوين الحديث في الكتب، وما يتعلق بذلك من أنواع الأدب، 251/1.

² الخلوق: طيب معروف يتخذ من الزعفران وغيره. ابن منظور، لسان العرب، 398/10، فصل الخاء.

³ الخطيب البغدادي، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، باب: تدوين الحديث في الكتب، وما يتعلق بذلك من أنواع الأدب، 251/1..

⁴ من العباس بن الحسن. الخطيب البغدادي، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، باب: تدوين الحديث في الكتب، وما يتعلق بذلك من أنواع الأدب، 251/1.

⁵ أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي، أدب الدنيا والدين، (دار مكتبة الحياة، بدون طبعة)، 65.

⁶ القرطي، الجامع لأحكام القرآن، 206/11 الى 208.

⁷ أخرجه جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، العلل المنتاهية في الأحاديث الواهية، (فيصل آباد، باكستان: إدارة العلوم الأثرية، ط1، 1401هـ)، 72/1، حديث رقم: 98، وذكره علاء الدين علي بن حسام الدين ابن قاضي خان القادري الشاذلي الهندي البرهانفوري ثم المدني فالملكي الشهير بالمتقي الهندي، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، كتاب العلم من قسم الأقوال، الباب الأول: في الترغيب فيه، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط5، 1401هـ)، 173/10، حديث رقم: 28897، موضوع.

أفضل عند الله من دمائه الشهداء»¹. قال الأموي²: إِنَّمَا سُمِّيَ الْحَبْرُ حَبْرًا، لِأَنَّ الْبَلِيغَ إِذَا حَبَّرَ الْفَاطَةَ وَأَتَمَّ بِنَانِهِ أَحْضَرَ لَهُ مِنْ مَعَانِي الْحِكْمِ وَأَنْقَى مِنْ حَبْرَاتِ الْيَمَنِ وَمَقْوَفَاتِ وَشِي صَنْعَاءَ. انتهى كلام المدائني³. ثم عاد إلى تميم الكلام الأول الذي يدل على الوجدانية فقال: "الَّذِي" مجرور صفة لربي، أو خبر مبتدأ محذوف، أو منصوب على المدح. ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ [طه: 53] كوفي، وغيرهم مهادا⁴، وهما لغتان لما يبسط ويفرش. قال الإمام فخر الدين: واعلم أن موسى عليه السلام لما ذكر الدلالة، وهي دلالة عامة تتناول جميع المخلوقات، ذكر [67/ب] بعد ذلك دلائل خاصة، وهي ثلاثة: أولها: الذي جعل لكم الأرض مهادا. والمراد من كون الأرض مهادا؛ أنه تعالى جعلها بحيث يتصرف العباد وغيرهم عليها بالقعود والقيام والنوم، وقد مر ذكرها في سورة البقرة عند قوله ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾. قال الزمخشري: فهي لهم كالمهد، وهو ما يمهد للصبي⁵. وثانيها: قوله: "وَسَلَّكَ" أي جعل. لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا [طه: 53] طرقات. قال الزمخشري: سلك من قوله الله: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ [المدثر: 42]، نسلكه في قلوب المجرمين، أي جعل لكم فيها سبلا ووسطها بين الجبال والأودية والبراري. انتهى⁶. نظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: 19-20] ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: 10]. وثالثها: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [طه: 53] مطراً ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ [طه: 53] بالماء. انتقل فيه من لفظ الغيبة إلى لفظ المتكلم المطاع لما ذكرت من الافتتان، والإيدان بأنه مطاع تنقاد الأشياء المختلفة لأمره، وتدعن الأجناس المتفاوتة

¹ موضوع، علي بن عبد الله بن أحمد، أبو الحسن السموهودي القاهري الشافعي، الغماز على اللماز في الأحاديث المشتهرة، (الرياض، دار اللواء، ط1، 1401هـ)، 226.

² لم أهتمد إلى ترجمته.

³ الخطيب البغدادي، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، 250/1.

⁴ الفارسي، الحجّة للقراء السبعة، 223/5.

⁵ الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 68/3.

⁶ المصدر نفسه.

بمشيئته، لا يمتنع شيء عن إرادته، ومثله قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: الآية 99]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ [طه: 27]، ﴿أَمْنَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ [نمل: 60]، وفيه تخصيص أيضاً بآناً نحن نقدر على مثل هذا، ولا يدخل تحت قدرة أحد¹. قاله الزمخشري². قال الإمام فخر الدين: ظاهر الآية يدل على أنه سبحانه إنما يخرج النبات من الأرض بواسطة إنزال الماء، فيكون للماء فيه أثر، وهذا بتقدير ثبوته لا يقدر في شيء من أصول [68/أ] الإسلام؛ لأنه سبحانه هو الذي أعطاها هذه الخواص والطباع، وقوم من المتكلمين ينكرونه لا تأثير له فيها البتة. انتهى³. قال الإمام فخر الدين: اعلم أنه قوله فأخرجنا، إما يكون من كلام موسى عليه السلام، أو من كلام الله تعالى، والأول باطل؛ لأن قوله بعد ذلك: ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى﴾ [طه: 54] لا يليق بموسى عليه السلام؛ لما أنه لا يقدر على إخراج النبات على اختلاف ألوانها وطبائعها، فليس من موسى إلا صرف المياه إلى سقي الأراضي، ولا يجوز أن يقال كلام الله ابتداء من قوله: فأخرجنا به أزواجاً؛ لأن الفاء متعلق بما قبله، فلا يصح جعل هذا كلام الله تعالى، وجعل ما قبله كلام موسى، فلم يبق إلا أن يقال: إن كلام موسى تم عند قوله: ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: 52]، ثم ابتداء كلام الله تعالى من قوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ [طه: 53] انتهى⁴. وقال في المدارك: وقيل: تم كلام موسى عند قوله: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [طه: 53]، ثم أخبر الله تعالى عن نفسه بقوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ [طه: 53]، وقيل: هذا كلام موسى، أي: فأخرجنا

¹ الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 68/3.

² الرازي، مفاتيح الغيب، 60/22.

³ المصدر نفسه، 61/22.

⁴ المصدر السابق.

نحن بالحرث والغرس. انتهى¹. ﴿أَزْوَاجًا﴾ [طه: 53] أصنافاً ﴿مِنْ نَبَاتٍ﴾ [طه: 53] هو مصدر سمي به النبات فاستوى فيه الواحد والجمع ﴿شَتَّى﴾ [طه: 53] صفة للأزواج، أو للنبات، جمع شتيت، كمريض ومرضى، أي: أنها مختلفة النفع والطعم واللون والرائحة والشكل، بعضها للناس، وبعضها للبهائم. ومن نعمته تعالى أن أرزاقنا تحصل بعمل الأنعام، وقد جعل الله تعالى علفها مما يفضل عن حاجتنا ما لا نقدر على أكله². ﴿كُلُوا﴾ [طه: 54]، أي: قائلين كلوا. ﴿وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾ [طه: 54] وقوله كلوا: حال من الضمير [68/ب] في ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾، والمعنى: أخرجنا أصناف النبات آذنين في الانتفاع بها، مبيحين لكم أن تأكلوا بعضها وتعلفوا بعضها ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ [طه: 54] أي: فيما ذكرت من هذه النعم ﴿لآيَاتٍ﴾ [طه: 54] لعبراً ودلالات ﴿لِأُولِي النُّهَى﴾ [طه: 54] لذوي العقول واحده نُهْيَةٌ وهي العقل؛ لأنَّ العقول تنهى عن المحذور، أو يُنتهى إليها في الأمور.

﴿مِنْهَا﴾ [طه: 55] من الأرض ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾ [طه: 55] اعلم أنه تعالى لما بيّن منافع الأرض والسماء بيّن أنها غير مطلوبة لذاتها، بل هي مطلوبة؛ لكونها وسائل إلى منافع الآخرة، فقال: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ الآية. فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ مع أنه سبحانه خلقنا من نطفة؟ فالجواب: من وجهين: أحدهما: أنه تعالى لما خلق أصلنا وهو آدم عليه السلام من التراب، كما قال: ﴿كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ [آل عمران: 59]؛ لا جرم أطلق ذلك علينا. وثانيهما: أن تولد الإنسان إنما هو من النطفة ودم الطمث، وأنهما يتولدان من الغذاء، والغذاء إمّا حيواني، وإمّا نباتي، والحيوان يُنتهى إلى النباتي، والنبات إنما يحدث من امتزاج الماء والتراب، فصحَّ قوله: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾، وذلك لا ينافي الخلو من

¹ النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 368/2.

² المصدر نفسه، 368/2.

النطفة¹. قال القرطبي: وقيل كل نطفة مخلوقة من التراب، على هذا يدل ظاهر القرآن. وروى أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا وَقَدْ ذُرَّ عَلَيْهِ مِنْ تَرَابِ حُفْرَتِهِ». أخرجه أبو نعيم الحافظ في كتاب ابن سيرين وقال: هذا حديث غريب². وقد مضى هذا المعنى مبيناً في سورة الأنعام³ عن ابن مسعود. وقال عطاء الخراساني⁴: إذا وقعت النطفة في الرحم انطلق الملك الموكَّل بالرحم، فأخذ من تراب المكان [69/أ] الذي يدفن فيه، فيذُرُه على النطفة فيخلق الله النسمة من النطفة ومن التراب، فذلك قوله: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ الآية⁵. وفي حديث البراء عن النبي صلى الله عليه وسلم: «أَنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا خَرَجَتْ رُوحُهُ صَعِدَتْ بِهِ الْمَلَائِكَةُ فَلَا يَمْرُونَ بِهَا عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا مَا هَذِهِ الرُّوحُ الطَّيِّبَةُ فَيَقُولُونَ فُلَانٌ بَنُ فُلَانٍ بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهَا فَيُفْتَحُ فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا حَتَّى يُنْتَهَى بِهَا إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ " اكْتُبُوا لِعَبْدِي كِتَابًا فِي عَلَيِّينَ وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ وَفِيهَا أَعِيدُهُمْ وَمِنْهَا أَخْرَجْتُهُمْ تَارَةً أُخْرَى " فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ»⁶. وذكر الحديث. وقد ذكرناه بكماله في

¹ الرازي، مفاتيح الغيب، 62/22.

² أخرجه أبو نعيم، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، من الطبقة الأولى من التابعين، ابن سيرين ومنهم ذو العقل الرصين...، 280/2. وأخرجه أحمد بن علي بن محمد بن علي بن حجر العسقلاني، الغرائب الملتقطه من مسند الفردوس المسمى «زهر الفردوس»، بقية حرف الميم، فصل ما موصولاً ونافيةً، وغير ذلك، (دبي: جمعية دار البر، ط1، 1439هـ)، 61/6، حديث رقم: 2214، موضوع.

³ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 387/6.

⁴ عطاء بن مسلم بن ميسرة الخراساني، نزيل بيت المقدس: مفسر. كان يغزو، ويكثر من التهجد في الليل. من تصنيفه " التفسير، الناسخ والمنسوخ، توفي سنة: 135هـ. الذهبي، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، 73/3. الزركلي، الأعلام، 235/4.

⁵ أخرجه أبو أحمد بن عدي الجرجاني، الكامل في ضعفاء الرجال، (بيروت: الكتب العلمية، ط1، 1418هـ)، 517/6.

⁶ قال الحاكم: حديث صحيح على شرط الشيخين. الحاكم، المستدرک على الصحيحين، كتاب الإيمان، حديث معمر، 93/1، حديث رقم: 107. ابن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، مسند الكوفيين، حديث البراء بن عازب، 413/30، حديث رقم: 18468. والبيهقي، شعب الإيمان، فصل: مما يحق معرفته، 610/2، حديث رقم: 390، صحيح.

كتاب التذكرة¹. انتهى كلام القرطبي². ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ [طه: 55] إذا متم فدفنتم. ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ﴾ [طه: 55] عند البعث ﴿تَارَةً﴾ [طه: 55] مرة ﴿أُخْرَى﴾ [طه: 55] والمراد بإخراجهم: أن تؤلّف أجزاءهم المتفرقة المختلطة بالتراب كما كانوا أحياء، ويخرجهم إلى المحشر³. ﴿يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ [النمل: 14]. قال الزمخشري: عدّد الله تعالى عليهم ما علّق بالأرض من مرافقهم، حيث جعلها لهم فراشاً ومهاداً يتقلّبون عليها، وسوّى لهم مسالك يترددون فيها كيف شاءوا، وأنبت فيها أصناف النبات التي منها أقواتهم وعلوفات بهائمهم، وهي أصلهم الذي منه تفرّعوا، وأمّمهم التي منها ولدوا، ثم هي كفّاتهم إذا ماتوا، ومن ثم قال صلى الله عليه وسلم: «تَمَسَّحُوا بِالْأَرْضِ فَإِنَّهَا بِكُمْ بَرَّةٌ»⁴، أي: أمّ برة. انتهى⁵. قال السلمي: قيل ليحيى بن معاذ: ما بال الإنسان يحب الدنيا؟ قال: يحق له أن يحبها، منها خلق فهي أمه، وفيها نشأ فهي عيشه، ومنها قُدِّرَ رزقه فهي حياته، وفيها معاده فهي كفّاته، وفيها كَسَبُ الجنة فهي مبدأ سعادته، وهي ممر الصالحين إلى الله تعالى، فكيف لا يحب طريقاً يأخذ بسالكه إلى جوار الله تعالى⁶.

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ﴾ [طه: 56] أي: فرعون ﴿آيَاتِنَا﴾ [طه: 56] أي: المعجزات الدالة على نبوة موسى عليه السلام، وهي تسع [69/ب] آيات: العصى واليد، وقلق البحر، والحجر، والجراد، والقمل،

¹ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، (الرياض: دار المنهاج، ط1، 1425)، 360.

² القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 210/11-211.

³ النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 369/2.

⁴ أخرجه سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني، المعجم الصغير، (بيروت: المكتب الإسلامي، ط1، 1405)، باب: من اسمه حملة، 254/1، حديث رقم: ٤١٦. ابن أبي شيبة، المصنف، ما يجزئ الرجل في تيممه، 149/1، حديث رقم: 1707، صحّحه الألباني.

⁵ الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 69/3.

⁶ السلمي، حقائق التفسير، 446/1.

والضفادع، والدم، ونتقى الجبل، وإنما أضاف الآيات إلى نفسه سبحانه مع أن المظهر لها موسى عليه السلام؛ لأنه أجراها على يده، كما أضاف نفخ الروح إلى نفسه، قال: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ [التحریم: 12]، مع أن النفخ كان من جبريل عليه السلام. فإن قيل: قوله تعالى: ﴿كُلَّهَا﴾ [طه: 56] يفيد العموم، وأنه تعالى ما أراه جميع الآيات، فنقول: لفظ الكل وإن كان للعموم؛ لكن قد يستعمل في الخصوص عند القرينة، كما يقال: دخلت السوق فاشترت كل شيء، أو يقال: إن موسى عليه السلام أراه آياته وعدد آيات غيره من الأنبياء، فكذب فرعون بالكل، أو يقال: تكذيب بعض المعجزات يقتضي تكذيب الكل. قاله الإمام فخر الدين¹.

﴿فَكَذَّبَ﴾ [طه: 56] الآيات ﴿وَأَبَى﴾ [طه: 56] قبول الحق، أي: لم يؤمن، وهذا يدل على أنه كفر عناد؛ لأنه رأى الآيات عياناً لا خبراً، نظيره: ﴿جحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً﴾ [النمل: 14]، ثم إنه يوم حكى شبهة فرعون فقال: ﴿قال﴾ [طه: 57] فرعون ﴿أجئتنا لئخرجنا من أرضنا﴾ [طه: 57] وهي مصر ﴿بسحرك يا موسى﴾ [طه: 57]، فيه دليل على أنه خاف منه خوفاً شديداً، وأن فرائضه كانت تُرعد خوفاً مما جاء به موسى عليه السلام؛ لعلمه وإيقانه أنه على الحق، وأن الحق لو أراد قود الجبال لانقادت له، وأن مثله لا يُخذل، ولا يقل ناصره، وأنه غالبه على ملكه لا محالة. وقوله: ﴿بسحرك﴾ تعلل وتحير، وإلا فكيف يخفى عليه أن ساحراً لا يقدر أن يُخرج ملكاً مثله من أرضه، ويغلبه على ملكه بالسحر؟. قاله الزمخشري². [70/أ].

﴿فلنأتيتك بسحرٍ مثله﴾ [طه: 58] فلنعارضنك بسحر مثل سحرك. لما علم أن السحر يمكن معارضته بخلاف المعجز قال: ﴿فلنأتيتك بسحرٍ مثله﴾. ﴿فاجعل بيننا وبينك موعداً﴾ [طه: 58]

¹ الرازي، مفاتيح الغيب، 63/22.

² الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 70/3.

هو مصدر بمعنى الوعد، ويُقدَّر مضافاً، أي: مكان وَعْدٍ، والضمير في: ﴿لَا تُخْلَفُهُ﴾ [طه: 58] للموعد، قرأ يزيد¹: بالجزم على جواب الأمر²، وغيره بالرفع على الوصف للموعد ﴿لَنْحُنَّ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا﴾ [طه: 58] هو بدل من المكان المحذوف، ويجوز أن لا يُقدَّر مضافاً، ويكون المعنى: "اجعل بيننا وبينك وعداً لا نخلفه"، أي: لا يتخلف عن الحضور فيه، وانتصب "مَكَانًا" بالمصدر، أو بفعل يدل عليه المصدر، ﴿سُوَى﴾ [طه: 58] بالكسر³ حجازي⁴ وأبو عمرو، وعليّ، وغيرهم بالضم⁵، وهو نعت لـ "مَكَانًا"، أي: منصفاً⁶ بيننا وبينك، وهو من الاستواء؛ لأنَّ المسافة من الوسط إلى الطرفين مستوية، تلخيصه: نتواعد مكاناً تستوي مسافته على الفريقين.

﴿قَالَ﴾ [طه: 59] موسى، ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾ [طه: 59] مبتدأ وخبر. قال الإمام فخر الدين: يحتمل أن يكون هذا من قول فرعون، ويحتمل أن يكون من قول موسى. قال القاضي: والأول أصح؛ لأنه المطالب للاجتماع دون موسى. وقيل: الأظهر أنه من كلام موسى عليه السلام لوجوه: منها: أنه جواب لقول فرعون ﴿فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ [طه: 58]. ومنها: أن تعيين يوم الزينة يقتضي اطلاع الكل على ما سيقع، فيعرف أنَّ اليد له لا غيره. ومنها: أن قوله: "مَوْعِدُكُمْ" هو خطاب للجميع،

¹ أبو جعفر يزيد بن القعقاع المخزومي القارئ، أحد القراء "العشرة تابعي"، ويعرف أبو جعفر: بالمدني، كان إمام أهل المدينة في القراءة وكان من المفتين المجتهدين. توفي في المدينة سنة: 132هـ. المزي، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، 201/33. الزركلي، الأعلام، 186/8.

² شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف، شرح طيبة النشر في القراءات، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط2، 1420)، 274.

³ يعني: كسر السين وضمها.

⁴ يقصد به من القراء السبعة ابن كثير المكي، ونافع المدني، ومن القراء العشرة أبو جعفر المدني ومن القراء الأربعة عشر ابن تميم المكي. ويستعمل "حجازي": عند بعض القراء لأبي عمرو البصري ويعقوب الحضرمي البصري، إذا وافقا أهل الحرمين. إبراهيم بن سعيد بن حمد الدوسري، مختصر العبارات لمعجم مصطلحات القراءات، (الرياض: دار الحضارة للنشر، ط1/1429هـ)، 34.

⁵ الفارسي، الحجة للقراء السبعة، 223/5.

⁶ المنصف الموضوع الذي يتنصف فيه المسافة. كذا في المخطوط.

وهذا الخطاب لا يستقيم إلا وأن يكون من موسى إلى فرعون وقومه¹. واختلف في يوم الزينة، فقيل: هو يوم عيد كان لهم يتزينون ويجتمعون فيه، قاله قتادة والسدي وغيرهما². وقال ابن عباس وسعيد بن جبير: كان يوم³ عاشوراء [70/ب]. وقال سعيد⁴ بن المسيب: يوم سُوق⁵ كان عندهم يتزينون فيها، وقال الضحاك: يوم السبت، وقيل: يوم النيروز. ذكره الثعلبي⁶. وقيل: يوم يُكسر فيه الخليج، وذلك أنهم يخرجون فيه يتفرجون ويتنزهون، وعند ذلك يأمن أهل الديار المصرية من قِبَل النيل. كذا في القرطبي⁷. فإن قيل: كيف يستقيم الجواب بالزمان، والسؤال عن المكان؟ قلنا: على التأويل الأول وهو مكان الموعد فإنما استقام الجواب؛ لأن اجتماعهم يوم الزينة يكون في مكانٍ لا محالة، فبذكر الزمان علم المكان، وعلى التأويل الثاني وهو: المراد بالموعد المصدر؛ يكون التقدير "وَعَدُّكُمْ وَعَدُّ يَوْمِ الزَّيْنَةِ"، وإنما واعدتهم ذلك اليوم؛ ليكون علو كلمة الله وظهور دينه وكَبُتْ الكافر وزهوق الباطل على رؤوس الأشهاد، وفي المجمع الغاصِّ لِتَقْوَى رغبة من رَغَبَ في اتباع الحق، ويكلِّ حُدَّ المبطلين وأشياءهم، ويكثرُ الحدِّث بذلك الأمر العَلَمَ في كل بَدْوٍ وحضر، ويشيع في جميع أهل الوَبَرِ والمدر⁸. ﴿وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ﴾ [طه: 59] أي: يجمع، وهو في موضع رفع، أو جرّ عطفاً على يوم، أو الزينة. ﴿ضُحَى﴾ [طه: 59] أي: وقع الضحوة؛ ليكون أبعد عن الريبة وأبين لكشف الحق، ويشيع في جميع أهل الوبر والمدر. عيّن اليوم بقوله يوم الزينة، ثم

¹ الرازي، مفاتيح الغيب، 64/22.

² مقاتل، تفسير مقاتل بن سليمان، 30/3.

³ الإمام الحافظ أحمد بن علي بن المثنى التميمي، مسند أبي يعلى الموصلي، مسند ابن عباس، (القاهرة: دار الحديث، ط1، 1434هـ)، 330/4.

⁴ سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب المخزومي القرشي، أبو محمد: سيد التابعين، وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة. جمع بين الحديث والفقهِ والزهد والورع، وكان أحفظ الناس لأحكام عمر ابن الخطاب وأفضيته، حتى سمي راوية عمر. توفي بالمدينة سنة: 94هـ. المزي، الكمال في أسماء الرجال، 182/5. الزركلي، الأعلام، 102/3.

⁵ الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، 324/18.

⁶ الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، 249/6.

⁷ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 212/11.

⁸ الرازي، مفاتيح الغيب، 64/22.

عَيْنٍ مِنَ الْيَوْمِ وَقَتًا مَعِينًا بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَنْ يُخْشِرَ النَّاسُ ضُحَىٰ﴾¹. قال القرطبي: وخص الضحى؛ لأنه أول النهار، فلو امتد الأمر فيما بينهم كان في النهار متسع. انتهى².

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ﴾ [طه: 60] أدبر [أ/71] عن موسى معرضاً، ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُ﴾ [طه: 60] مكره وسحرته، ودخل تحت قوله: ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُ السَّحْرَةَ﴾، وما يتعلق بالسحر من الآلات وغيرها. قال ابن عباس: كانوا اثنين وسبعين ساحراً، مع كل ساحر منهم حبالٌ وعصي³. وقيل: كانوا أربعمئة⁴. وقيل: كانوا اثني عشر ألفاً⁵. وقال ابن المنكدر: كانوا ثمانين ألفاً⁶. وقيل: كانوا مجتمعين على رئيس يقال له: شمعون. وقيل: كان اسمه يوحنا، معه اثنا عشر نقيباً، مع كل نقيب عشرون عريفاً، مع كل عريف ألف ساحر. وقيل: كانوا ثلاثمئة ألف ساحر من الفيوم، وثلاثمئة ألف ساحر من الصعيد، وثلاثمئة ألف ساحر من الريف، فصاروا تسع مائة ألف، وكان رئيسهم أعمى⁷. ﴿ثُمَّ أَنَّى﴾ [طه: 60] للموعد، ثم ضربت لفرعون قبةً، فجلس فيها ينظر إليهم، وكان طول القبة سبعين ذراعاً. ثم إنَّه تعالى بيّن أنّ موسى عليه السلام قدّم قبل كل شيء الوعيد والتحذير مما قالوه وأقدموا عليه، فقال: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ﴾ [طه: 61] أي للسحرة ﴿وَيَلْكُمُ﴾ [طه: 61] دعاء عليهم بالويل وهو بمعنى المصدر. قال الزجاج: هو منصوب بمعنى ألزمهم الله ويلاً، إن افتروا على الله كذباً، ويجوز على النداء، كقوله: ﴿يَا وَيْلَتَىٰ أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾ [هود: 72] ﴿يَا وَبَلْنَا مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرْفِدِنَا﴾ [يس: 2]. ﴿لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [طه: 61] لا

¹ النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 2/ 371-372.

² القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 11/ 214.

³ من قول مقاتل. الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، 6/ 254.

⁴ الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، 7/ 646.

⁵ المصدر نفسه، 10/ 355.

⁶ الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، 12/ 466.

⁷ وهذه الأقوال من الإسرائيليات، لا يصح منها شيء.

تدعوا آياته ومعجزاته سحراً، ﴿فَيْسُحِرْكُم﴾ [طه: 61] كوفي¹ غير أبي بكر²، يُهلككم، وغيرهم: بفتح الياء والحاء، والسَّحْت والإِسْحَات بمعنى: الإعدام، وانتصب على جواب النهي³. قال الزمخشري⁴: والسحت لغة أهل الحجاز، والإسحات لغة أهل نجد، وبني تميم. ﴿بِعَذَابٍ﴾ [طه: 61] عظيم. ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى﴾ [طه: 61] من كذَّب على الله. كأنه تعالى قال: من افترى على الله كذباً حصل له أمران: [71/ب] أحدهما: العقاب الشديد في الآخرة. وثانيهما: الخيبة والحُرمان عن المقصود. ثم بين تعالى أنه لما قال موسى ذلك أعرضوا عن قوله، فقال: ﴿فَتَنَازَعُوا﴾ [طه: 62] اختلفوا أي: السحرة، فقال بعضهم: هو ساحر مثلنا، وقال بعضهم: ليس هذا بكلام السحرة، وهو قوله: ﴿لَا تفتروا على الله كذباً﴾ الآية. ﴿أَمْرُهُمْ بَيْنَهُمْ وَآسْرُوا النَّجْوَى﴾ [طه: 62] تشاوروا في السر، وقالوا: إن كان ساحراً فسنغلبه، وإن كان من السماء فله أمرٌ -والنجوى يكون مصدرًا واسماً⁵- ثم لَفَقُوا هذا الكلام، يعني: ﴿قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسَاحِرَانِ﴾ [طه: 62] يعني: موسى وهارون. قرأ أبو عمرو: "إِنَّ هَذَيْنِ لَسَاحِرَانِ"⁶.

¹ الحسين بن أحمد بن خالويه، أبو عبد الله، الحجة في القراءات السبع، (بيروت: دار الشروق، ط4، 1401هـ)، 242. أبو عمرو الداني، جامع البيان في القراءات السبع، 3/1356.

² شعبة بن عياش بن سالم الأزدي الكوفي الخياط، أبو بكر: من مشاهير القراء. كان عالماً فقيهاً في الدين. روى عن عاصم وعرض عليه القرآن ثلاث مرات، توفي بالكوفة سنة: 193هـ. أبو أحمد الحاكم الكبير، محمد بن محمد بن أحمد بن إسحاق النيسابوري الكرابيسي، الكنى والأسماء، (القاهرة، دار الفاروق للطباعة والنشر، ط1، 1436)، 364/1. الزركلي، الأعلام، 3/165.

³ النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 2/370.

⁴ الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 3/72.

⁵ النجوى: اسمٌ من التناجي، ومعنى إسرارها مع أنها لا تكون إلا سرًّا: أهم بالغوا في إخفائها، أو أسروا نفس التناجي، بحيث لم يشعُر أحدٌ بأهم متناجون. أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، 6/54.

⁶ البغدادي، السبعة في القراءات، 419.

وهو ظاهر¹، ولكنه مخالف لخط مصحف الإمام، وابن كثير²، وحفص³، والخليل⁴، وهو أعرف بالنحو واللغة⁵.

﴿إِنَّ هَذَا لَسَّحْرٌ﴾ [طه: 63]، بتخفيف إن، مثل قولك: "إن زيداً لمنطلق"، واللام هي

الفارقة بين "إن" النافية والمخففة من الثقيلة. وقيل: هي بمعنى "ما"، واللام بمعنى "إلا" أي: ما هذان إلا ساحران، دليله: قراءة أبي: "إن ذان إلا ساحران"، وقرأ الباقون: إن هذان لساحران. قيل: هي لغة بلحارث بن كعب⁶ وخنعم⁷ ومراد⁸ وكنانة⁹، والتثنية في لغتهم بالألف أبداً، فلم يقبلوها ياء في الجر والنصب، كعصا وسعدى، قال: إِنَّ أَبَاهَا وَأَبَا أَبَاهَا قَدْ بَلَغَا فِي الْمَجْدِ غَايَتَهَا

¹ ومعنى ظاهر: تشديد ان ونصب هذين بعد: "إن".

² عبد الله بن كثير بن عمرو بن عبد الله بن زاذان بن فيروزان بن هرمز، كان من التابعين، مقرئ مكة، وأحد الثرء السبعة، فارسي الأصل، كان فصيحاً مفوهماً، واعظاً، كبير الشأن، ثقة، له أحاديث صالحة، مات سنة: 120هـ. الذهبي، سير أعلام النبلاء، 318/5. الذهبي، تذهيب تذهيب الكمال في أسماء الرجال، 261/5.

³ حفص بن سليمان الأسدي، حفص بن أبي داود أبو عمر الأسدي مولا هم الكوفي الغاضري صاحب القراءة، وابن امرأة عاصم، ويقال له: حفص، مات سنة: 180هـ. المزني، تذهيب الكمال في أسماء الرجال، 10/7. الصفدي، الوافي بالوفيات، 62/13.

⁴ الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الأزدي الفراهيدي البصري، صاحب العربية والعروض أحد الأعلام، مات سنة: 170هـ، وقيل: 175هـ. الصفدي، الوافي بالوفيات، 240/13. الذهبي، سير أعلام النبلاء، 429/7.

⁵ النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 371/2.

⁶ بني الحارث بن كعب: ويقال لهم أيضا «بني الديان» أو «بالحارث»: بطن من مدجج، سكنوا في منطقة نجران. عمر بن رضا كحالة، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، 231/1.

⁷ خنعم هي: قبيلة من بني قحطان، كانت منازلهم بجبال السراة جنوب الحجاز، وبه بيت يعظمونه يسمى كعبة اليمانية فيها صنم يسمى الخلصة. أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، (بيروت: عالم الكتب، ط3، 1403هـ)، 489/2.

⁸ هي قبيلة عريية عظيمة من مضر، أبوهم كنانة بن حزيمة، وهو الجد الرابع عشر لسيدنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، كانت ديارهم بجهات مكة، وتنقسم إلى عدة بطون منها: قريش، عبد مناة بن كنانة، بنو مالك ابن كنانة. الفارابي، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، 2189/6.

⁹ ينسب إلى أبي التجم: الفضل بن قدامة العجلي، الشاهد فيه "أبها" الثالثة لأنها مجرورة حيث جاءت بالألف في حالة النصب ولم تقلب ياء. بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى العيني، المقاصد النحوية في شرح شواهد شروح الألفية المشهور بـ «شرح الشواهد الكبرى»، (القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط1، 1431هـ)، 190/1.

وقال الزجاج: "إنَّ" بمعنى: "نعم"، قال الشاعر¹: وَيُقْلَنُ شَيْبٌ قَدِ عَلَكَ
وقد كَبُرَتْ فَقُلْتُ إِنَّهُ²

أي: نعم. والهاء: للوقف، وهذان: مبتدأ، وساحران: خبر مبتدأ محذوف، أي: هما ساحران. واللام داخلية على المبتدأ المحذوف، تقديره: "هذان [أ/72] لهما ساحران"، فيكون دخولها في موضعها الموضوع لها، وهو: الابتداء، وقد تدخل اللام في الخبر كما تدخل في المبتدأ، قال³:

خَالِي لِأَنْتَ وَمَنْ جَرِيْرٌ خَالُهُ يَنْلِ الْعَلَاءَ وَيُكْرِمُ الْأَحْوَالَ

وقال الشاعر⁴: أُمُّ الْخَلَيْسِ لَعَجُوزٌ شَهْرَبَةٌ تَرْضَى مِنَ اللَّحْمِ بِعَظْمِ الرَّقَبَةِ

قال الزجاج: وعرضته على المبرد فرضيه. وقد زيّفه أبو عليّ. كذا في المدارك⁵. وفي الكواشي: زعموا أنّ قراءة أبي عمرو "إنَّ هَذَيْنِ لَسَاِحِرَانِ" مخالفةً لخطّ المصحف، وزعم بعضهم إنّما حملهُ على ذلك؛ خشية اللحن، وهذا طعن في عدالة أبي عمرو وعلمه؛ لأنّه هو الذي قرأها؛ لأنّ هذا يُشعر أنه قرأها من تلقاء نفسه، لم يأخذها متواترة عن النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه غير عالم بتعليل ﴿إِنَّ هَذَيْنِ لَسَاِحِرَانِ﴾ بالرفع وتشديد "إنَّ"، وكيف يجوز اعتقاد مثل هذا بمن شهِد له بالعدالة والبراعة في علم العربية؟! حتى زعموا أنّه قال: إني لأستحي من الله أن أقرأ إنَّ هذان يعنون بالرفع وتشديد إنَّ. وكيف يجوز أن يعتقد أحد من المسلمين أنّه يستحي من قراءة ما صحَّ وتواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم؟! مع أنّ أبا عمرو وغيره من

¹ أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي، نسب معد واليمن الكبير، (القاهرة: مكتبة النهضة العربية، ط1/1408هـ)، 273/1.

² من قول: بان قيس الرقيات، والشاهد: إنّه: إنه: بمعنى نَعَمْ. أبو محمد مكي بن أبي طالب حموش بن محمد بن مختار القيسي القيرواني ثم الأندلسي القرطبي المالكي، الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه، (الشارقة: جامعة الشارقة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، ط1، 1429هـ)، 4659/7.

³ ابن خالويه، الحجة في القراءات السبع، 243.

⁴ نسبه الصاغاني في العباب إلى عنتر بن عروش، وأم الخليس: الأتان. الخلس: كساء رقيق يوضع تحت بردة الدابة. شهيرة: عجز كبيرة. يعيش بن علي بن يعيش ابن أبي السرايا محمد بن علي، أبو البقاء، موفق الدين الأسدي الموصلّي، المعروف بابن يعيش وبابن الصانع، شرح المفصل للزمخشري، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1422هـ)، 358/2. الفارابي، الصحاح تاج اللغة وصرح العربية، 159/1.

⁵ النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 371/2-372.

الأئمة، كانوا ينشدون ويُسمعون الأشعار المنحولة والعربية، ولا يؤخذ ذلك عليهم. انتهى كلام الكواشي¹.
قال القرطبي: وقد خطأ هذه القراءة قومٌ، يعني: "إنّ هذان لساحران"، حتى قال أبو عمرو: إني لأستحيي
من الله أن أقرأ "إنّ هذان". وروى عروة عن عائشة² أنّها سألت عن قوله تعالى: ﴿لَكِنَّ الرّٰسِخُوْنَ﴾
[النساء: 162]، ثم قال: ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾ [النساء: 162]، وفي المائدة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا
وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ﴾ [البقرة: 62]، و﴿إِنَّ هَذَانِ لَسَّحِرُونَ﴾، فقالت: يا ابن أخي هذا خطأ من
الكاتب³. وقال عثمان بن عفان⁴ رضي الله عنه: في القرآن لحن وستقيمه العرب بألسنتهم⁵ [72/ب].
وقال أبان بن عفان⁶: قرأت هذه الآية على أبي عثمان بن عفان فقال: هو لحن وخطأ، فقال له قائل ألا

¹ الكواشي، أبي العباس أحمد بن يوسف بن الحسين، التلخيص في تفسير القرآن العظيم، (بيروت: دار ابن حزم، ط1، 1440هـ)، 3/180.

² هي أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق عبد الله بن عثمان بن أبي قُحافة التيمي، كانت فقيهة عالمة فصيحة فاضلة، كثيرة الحديث عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم-، عارفة بأيام العرب وأشعارها، روى عنها جماعة كثيرة من الصحابة والتابعين، توفيت المدينة سنة: 57هـ، وقيل: 58هـ. ابن الأثير، جامع الأصول في أحاديث الرسول، 12/97.

³ إن هذه الرواية باطلة، وعلى فرض صحتها فهي رواية أحاد لا يعارض بها قطعي الثبوت والمتواتر. أبو شُهبة، المدخل لدراسة القرآن الكريم، 373، موضوع.

⁴ عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية، من قريش: أمير المؤمنين، ذو النورين، ثالث الخلفاء الراشدين، وأحد العشرة المبشرين. من كبار الرجال الذين اعترف بهم الإسلام في عهد ظهوره، جهز نصف جيش العسرة بماله، روى عن النبي صلى الله عليه وسلم 146 حديثاً، لقّب بذي النورين لأنه تزوج بنتي النبي صلى الله عليه وسلم رقية ثم أم كلثوم، قتل وهو يقرأ القرآن سنة: 35هـ. ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، 3/1037. الزركلي، الأعلام، 4/210.

⁵ أخرجه أبو بكر بن أبي داود، عبد الله بن سليمان بن الأشعث الأزدي، المصاحف، (القاهرة: الفاروق الحديثة، ط1، 1423هـ)، 122. جمال الدين الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، 1/497. وذكره القرطبي بصيغة التمريض، موضوع.

⁶ أبان بن عثمان بن عفان الأموي القرشي: أول من كتب في السيرة النبوية، شارك في وقعة الجمل مع عائشة، ولي إمارة المدينة سنة: 76 إلى 83، وكان من رواة الحديث الثقات، ومن فقهاء المدينة. توفي في المدينة سنة: 105هـ. الزركلي، الأعلام، 1/27.

تغيّره؟ فقال: دعوه فإنه لا يحرم حلالاً ولا يحل حراماً¹. انتهى كلام القرطبي². قال النسفي: إنّه سبحانه لما ذكر ما أسرّوه من النجوى حكى عنهم ما يدل على التنفير عن موسى ومباعدة دينه، فأحدهما: قولهم "هذان ساحران": فهذا طعنٌ منهم في معجزات موسى، ومبالغة في التنفير عنه؛ لأنّ كلّ طبع سليم ينفر عن السحر، ويكره رؤية الساحر، ومن حيث إنّ الإنسان يعلم أنّ السحر لا بقاء له، فإذا اعتقدوا فيه بالسحر قالوا: كيف نتبعه وأنه لا بقاء له ولا لدينه ومذهبه؟ والمفارقة عن المولد والمنشأ شديدة على القلوب؟ وهذا هو الذي حكاه الله تعالى عن فرعون في قوله: ﴿أَجْتَنَّا لِنُخْرِجَنَّا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكُ يُمُوسَى﴾ [طه: 57]، فكأنّ السحرة تلقفوا هذه الشبهة عن فرعون، ثم أعادوها. انتهى³. ﴿يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكَ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾ [طه: 63] مصر ﴿بِسِحْرِهِمَا﴾ [طه: 63]. وثانيهما: قوله: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمْ﴾ [طه: 63] بدينكم وشريعتكم. ﴿الْمُثَلَّى﴾ [طه: 63] الفضلى: تأنيث الأمثل وهو الأفضل، سمّوا مذهبهم الطريقة المثلى والسنة الفضلى، وكلّ حزب بما لديهم فرحون، غرضهما إفساد دينكم الذي أنتم عليه، كما قال فرعون: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: 26]. وقيل: أرادوا أهل طريقتهم المثلى، وهم بنو إسرائيل؛ لقول موسى: ﴿فَأَرْسَلْ مَعَنَا بَنِي

¹ ذهب عامة الصحابة والعلماء من بعدهم إلى أنه لفظ صحيح ليس فيه من خطأ لا من كاتب ولا غيره، وأجيب عما روي عن عثمان بن عفان وعن عائشة وأبان بن عثمان بأن هذا بعيد جداً؛ لأن من جمع القرآن هم أهل اللغة والفصاحة، فكيف يتكون في كتاب الله لنا يصلحه غيرهم فلا ينبغي أن ينسب هذا إليهم. قال ابن الأنباري: ما روي عن عثمان لا يصلح لأنه غير متصل ومحال أن يؤخر عثمان شيئاً فاسداً ليصلحه غيره؟ ولأن القرآن منقول بالتواتر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكيف يمكن ثبوت اللحن فيه؟ قال الزمخشري في الكشاف ولا يلتفت إلى ما زعموا من وقوع لحن في خط المصحف. علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيعي أبو الحسن، المعروف بالخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1415هـ)، 447/1. الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 590/1.

² القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 11/ 216.

³ الرازي، مفاتيح الغيب، 70/22-71.

إِسْرَائِيلَ. وقيل: الطريقة اسمٌ لوجوه الناس وأشرفهم الذين هم قدوة لغيرهم، يقال: همُّ طريقه قومهم، ويقال للواحد أيضاً: هو طريقه قومه. كذا في الكشاف¹.

﴿فَأَجْمَعُوا﴾ [طه: 64] أي: أحكموا، أي: اجعلوه مجمعاً عليه، يعني: لا تختلفوا. "فأجمعوا":

أبو عمرو²، يعضده: ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُ﴾ [طه: 60] [أ/73]. ﴿كَيْدُكُمْ﴾ [طه: 64] هو يكاد به ﴿تُمْ

أَنْتُوا صَفًّا﴾ [طه: 64] مصطفيين، حال، أمروا بأن يأتوا صفًّا؛ لأنه أهيبُّ في صدور الرائيين، وروي أنهم

كانوا سبعين ألفاً مع كل واحد منهم جبل وعصى، وقد أقبلوا إقبالة واحدة³. ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ

اسْتَعْلَى﴾ [طه: 64] وقد فاز من غلب، وهذا اعتراض. ﴿قَالُوا﴾ [طه: 65] أي: السحرة ﴿يَا مُوسَى

إِنَّمَا أَنْ تُلْقِيَ﴾ [طه: 65] عصاك من يدك أولاً ﴿وَأَمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ [طه: 65] ما معنا،

وموضع "أن" مع ما بعده فيهما: نصبٌ بفعل مضمر، معناه: اختر أحد الأمرين، أو رفعٌ بأنه: خير مبتدأ

محذوف، معناه: الأمر إلقاءك أو إلقاءنا، وهذا التخيير منهم استعمالُ أدب حسن معه، وتواضعٌ له،

وخفض جناح، وتنبيةٌ على إعطائهم النصفَةَ من أنفسهم، وكأنَّ الله تعالى ألهمهم ذلك، وقد وصل إليهم

بركته، وكان ذلك سبب إيمانهم، وعلم سبحانه موسى اختيار إلقاءهم أولاً، حتى ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾ [طه:

66] أنتم أولاً، مع ما فيه من مقابلة أدب بأدب، حتى يُبرزوا ما معهم من مكاييد السحر، ويستنفذوا

أقصى طوقهم ومجهودهم، فإذا فعلوا أظهر الله سلطانه، وقذف بالحق على الباطل فدمغه، وسلط المعجزة

على السحر فسحقته، وكانت آية نيرة للناظرين، وعبرة بيّنة للمعتبرين. كذا في الكشاف⁴. قال النسفي:

فإن قلت: كيف يجوز أن يقول موسى: ﴿بَلْ أَلْقُوا﴾ فيأمرهم بما هو سحر وكفر؛ لأنهم قصدوا بذلك

¹ الرخشي، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 72/ 3.

² البغدادي، السبعة في القراءات، 419.

³ قاله: القاسم بن سلام، كذا لدى الرازي، مفاتيح الغيب، 73/22.

⁴ الرخشي، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 73/3.

تكذيب موسى فكان كفوفاً؟ والجواب: من وجوه: أحدها: لا نسلم أن نفس الإلقاء كفرٌ ومعصية؛ لأنه إذا ألقوا، وكان غرضهم أن يظهر الفرق بين ذلك الإلقاء وبين معجزة موسى عليه السلام كان ذلك [73/ب] الإلقاء إيماناً. وثانيها: ذلك الأمر كان مشروطاً، والتقدير: ألقوا ما أنتم ملقون إن كنتم ملقون، كما في قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: 22]، أي: إن كنتم قادرين. وثالثها: أنه لما تعيّن ذلك طريقاً إلى كشف الشبهة صار ذلك جائزاً، وهذا كالحقّ إذا علم أنّ في قلب واحد شبهة، وأنه لو لم يطالبه بذكرها وتقريرها بأقصى ما يقدر عليه لبقيت تلك الشبهة وخرج بسببها عن الدين، فإنّ للمحق أن يطالبه بتقريرها على أقصى الوجوه، وغرضه من ذلك أن يجيب عنها، وهذا جائز من غير شك. ورابعها: أنّ ذلك لا يكون أمراً، بل يكون معناه: إن أردتم فعله فلا مانع عنه حساً؛ لكي ينكشف الحق. وخامسها: أنّ موسى عليه السلام لا شك أنه كان كارهاً لذلك، ولا شك أنه نهاهم عن ذلك بقوله: ﴿وَيَلْكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَيَّ اللَّهُ كَذِبًا فَيُسْجِتْكُمْ بِعَذَابٍ﴾ [طه: 61]، وإذا كان كذلك استحال أن يكون ذلك أمراً لهم بذلك. فإن قلت: لم قدمهم بالإلقاء على نفسه، مع أن تقديم استماع الشبهة على استماع الحجة غير جائز؟ والجواب: أنه عليه السلام كان قد أظهر المعجزة مرةً واحدةً، وما كان به حاجةً إلى إظهارها مرةً أخرى، فقال عليه السلام: لو أتى بدأت بإظهار المعجزة لكنك كالتسبب في إقدامهم على إظهار السحر وقصد إبطال المعجزة، وذلك غير جائز، لكنني أفوض الأمر إليهم، حتى أنهم باختيارهم يظهرون ذلك السحر، ثم أظهر المعجزة التي تبطل السحر، فيكون على هذا التقدير سبباً لإزالة الشبهة. انتهى كلام النسفي¹.

¹ الرازي، مفاتيح الغيب، 72/22.

﴿فَإِذَا جِبَاهُهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ﴾ [طه: 66] أي: فألقوا فإذا جباههم [74/أ] وعصيتهم، يقال في "إذا"

هذه: إذا المفاجأة، والتحقيق فيها أنها: إذا الكائنة بمعنى الوقت الطالبة ناصباً لها، وجملة تضاف إليها حُصَّت في بعض المواضع؛ بأن يكون ناصبها فعلاً مخصوصاً، وهو فعل المفاجأة، والجملة ابتدائية لا غير، فتقدير قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جِبَاهُهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ﴾، ففاجأ موسى وقت تخيل سعي عصيتهم وجباههم، وهذا تمثيل، والمعنى على مفاجأته جباههم وعصيتهم مخيلةً إليه السعي. كذا في الكشاف¹.

﴿يُخَيَّلُ﴾ [طه: 66] وبالناء ابن ذكوان² ﴿إِلَيْهِ﴾ [طه: 66] إلى موسى ﴿مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُا

تَسْعَى﴾ [طه: 66] أي: تمشي، محل "أن" رفع بدل اشتغال من الضمير في يخيل، كقولك: "أعجبني زيد كرمه"³. قال الإمام فخر الدين: المراد أنهم بلغوا في سحرهم المبلغ الذي صار يخيل إلى موسى أنها تسعى، كسعي ما يكون حياً قادراً من الحيات، لا أنها كانت حية في الحقيقة. وروى عن وهب: أنهم سحروا عين موسى عليه السلام⁴ حتى تخيل ذلك، مستدلاً بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ [الأعراف: 116]، وبقوله: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُا تَسْعَى﴾ [طه: 66]. ومنهم قال: هذا غير جائز؛ لأن ذلك الوقت وقت إظهار المعجزة وإزالة الشبهة، فلو صار بحيث لا يميز الموجود عن المخيل الفاسد، لم يتمكن من إظهار المعجز، وحينئذ لا يحصل المقصود، فإذا المراد: أنه شاهد سبباً لولا علمه بأنه لا حقيقة لذلك الشيء؛ لظنَّ فيها أنها تسعى. انتهى⁵. يروى: أنهم لطحوها بالزئبق، فلما ضربت عليها

¹ الرخشي، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 73/3.

² عبد الله بن أحمد بن بشير بن ذكوان القرشي الفهري، أبو عمرو: من كبار القراء، لم يكن في عصره أقرأ منه. توفي في دمشق عام: 242 هـ. العسقلاني، تهذيب التهذيب، 140/5. الزركلي، الأعلام، 65/4.

³ الرخشي، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 73/3.

⁴ الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، 109/16.

⁵ بتصرف. الرازي، مفاتيح الغيب، 73/22.

الشمس اضطربت واهتزت فخيّلت ذلك¹. وقال الكلبي: خُيِّلَ إلى موسى أنّ الأرضَ حياثٌ، وأنّها تسعى على بطنها². قال الإمام فخر الدين: قال [74/ب] ابن عباس رضي الله عنهما: ألقوا حبالهم وعصيهم ميلاً من ذلك الجانب، وميلاً من هذا الجانب، فحينئذ خيّل إلى موسى عليه السلام أنّ الأرض كلها حياثٌ، وأنّها تسعى. وكما قيل له: وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا، فألقى موسى عصاه فإذا هي أعظم من حياتهم، ثم ازدادت عظماً حتى ملأت الوادي، ثم صعدت حتى علقت ذنبها بطرف القبة، ثم هبطت فأكلت كلّ ما عملوا، والناس ينظرون إليها لا يحسبون إلا أنّه سحر، ثم أقبلت نحو فرعون لتبتلعه، فصاح بموسى عليه السلام فأخذها، فإذا هي عصيٌ كما كانت، ونظرت السحرة فعرفوا أنّه ليس بسحر، قالوا: أين حبالنا وعصينا، ولو كان سحراً لبقيت، فخرّوا سجداً، وقالوا: آمنا برب هارون وموسى. انتهى³.

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ [طه: 67] أضمر موسى في نفسه خوفاً ظناً منه أنّها تقصده، وكان ذلك لطبع الجيلة البشرية، وأنّه لا يكاد يمكن الخلو من مثله. وقيل: خاف أن يُخالج الناس شكٌ فلا يتبعون⁴. قال القرطبي: قال بعض أهل الحقائق⁵: إنّما كان السبب في خوفه، أنّ موسى عليه السلام لما التقى بالسحرة، وقال لهم: ﴿وَيَلِكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ﴾ [طه: 61] التفت، فإذا جبريل عليه السلام عن يمينه، فقال له يا موسى: تَرَفَّقْ بأولياء الله، فقال موسى: يا جبريل هؤلاء السحرة جاؤوا بسحر عظيم، لبيطلوا المعجزة وينصروا دين فرعون، ويردّوا دين الله، تقول ترفّق بأولياء الله؟ فقال جبريل: هم من الساعة إلى صلاة العصر عندك، وبعد صلاة العصر في الجنة، فلمّا قال

¹ الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 73/3.

² القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 11/222.

³ الرازي، مفاتيح الغيب، 72/22-73.

⁴ الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 74/3.

⁵ لم يسند القرطبي هذا الكلام، ويحتمل أن يكون من أخبار بني إسرائيل، والله أعلم بالصواب.

له ذلك أوجس في نفس موسى خيفة، وخطر بباله: أن ما يُدريني ما علم الله [75/أ] فيّ، فلعلّي أكون الآن في حالة، وعلم الله في خلافها كما كان هؤلاء، فلمّا علم الله ما في قلبه، أوحى إليه لا تخف إنك أنت الأعلى. انتهى¹. قال السلمي: سئل ابن عطاء عن قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ [طه: 67] ما كان هذه الخيفة؟ والله تعالى يقول: ﴿لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا﴾ قال: خاف على قومه أن يفوتهم حظهم من الله تعالى، وما خاف على نفسه. انتهى². قال الإمام فخر الدين: فإن قلت: لا مزيد في إزالة الخوف على ما فعله الله تعالى في حق موسى عليه السلام، فإنّه كَلَّمَهُ أولاً، وعرض عليه المعجزات الباهرة كالعصا واليد، ثم إنّه قال صبرها كما كانت، ثم إنّه أعطاه الاقتراحات الثمانية، ثم قال له بعد ذلك كَلَّهُ ﴿إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: 46]، فمع هذه المقدمات الكثيرة كيف وقع الخوف في قلبه؟ والجواب عنه من وجوه: أحدها: أنّ الخوف إنما كان لما طبع عليه الآدمي من ضعف القلب، وإن كان قد علم موسى عليه السلام أنهم لا يصلون إليه، وأنّه تعالى ناصرُهُ، هذا قول الحسن. وثانيها: أنّه خاف أن يدخل على الناس شبهة فيما يروم، فيظنوا أنهم قد ساووا موسى عليه السلام، ويشتبه ذلك عليهم، وهذا التأويل يتأكد بقوله تعالى: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ [طه: 68] هذا قول مقاتل³. وثالثها: أنّه خاف حيث بدؤوا وتأخّر إلقاءه أن يتفرق بعض القوم قبل مشاهدة ما يليق به، فيدوموا على الاعتقاد الباطل. ورابعها: لعلّه عليه السلام كان مأموراً بأن لا يفعل شيئاً إلا بالوحي، فلمّا تأخّر نزول الوحي عليه في ذلك الوقت خاف أن لا ينزل عليه الوحي في ذلك الجمع، فيبقي في الخجالة. وخامسها: لعلّه عليه السلام خاف من أنّه لو أبطل سحر أولئك الحاضرين، فلعلّ فرعون قد أعدّ أقواماً آخرين فيأتيه بهم، فيحتاج مرة أخرى إلى إبطال سحرهم [75/ب]، وعلى هذا مرة بعد مرة، وحينئذ لا يتم ولا يحصل

¹ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 11/ 222-223.

² السلمي، حقائق التفسير، 1/446.

³ مقاتل، تفسير مقاتل بن سليمان، 1/310.

المقصود. ثم إنه تعالى أزال ذلك الخوف بالإجمال أولاً، وبالتفصيل ثانياً، أما الإجمال: فقوله تعالى: ﴿فُلْنَا لَا تَخَفُ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ [طه: 68] الغالب القاهر. فيه أنواع من المبالغة: أحدها: ذكر كلمة التوكيد، وهي: "إن". وثانيها: تكرير الضمير. وثالثها: لام التعريف. ورابعها: لفظ العلو وهو الغلبة الظاهرة¹. قال السلمي: قال ابن عطاء: لا تخف فإنك بمراى منّا ومسمع ونحن معك في جميع أحوالك، فإنك القائم بالمسبب، وهم المعتمدون على الأسباب². وأما التفصيل: فقوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفُ﴾ [طه: 69] بسكون اللام والفاء وتخفيف القاف حفصاً، "تَلْقَفُ": ابن ذكوان، الباقون³: "تَلْقَفُ"، أي: تأخذه فيها ابتلاعاً بسرعة، ﴿مَا صَنَعُوا﴾ [طه: 69] زوروا وافتعلوا، أي: اطرح عصاك تبتلع عصيتهم وحبالهم، فإن قلت: لم لم يقل وألق عصاك؟ الجواب: جاز أن يكون تصغيراً لها، أي: لا تبال بكثرة حبالهم وعصيتهم، وألق العويد الفرد الصغير الجرم الذي في يمينك، فإنه بقدره الله يتلقفها على وخذته وكترتها، وصغرته وعظمتها، وجاز أن يكون تعظيماً لها، أي: لا تحتفل بهذه الأجرام الكبيرة الكثيرة، فإن في يمينك شيئاً أعظم منها كلها، وهذه على كثرتها أقل شيء وأندرته عندها، فألقه يتلقفها بإذن الله وبمحقتها، وفي التلقف دلالة على أن جميع ما ألقوه تلقفته، وذلك لا يكون إلا مع عظم جسدها وشدة قوتها. وقد حكي عن السحرة أنهم عند التلف اتفقوا على أن ما جاء به موسى عليه السلام ليس من مقدور البشر من وجوه: [1/76] أحدها: ظهور حركات العصا على وجه لا يكون مثله في الحيل. وثانيها: زيادة عظمه على وجه لا يتم بالحيلة. وثالثها: ظهور الأعضاء عليه من العين والفم والمنخرين على وجه لا يتم ذلك

¹ الرازي، مفاتيح الغيب، 73/22-74.

² السلمي، حقائق التفسير، 446/1.

³ الفارسي، الحجة للقراء السبعة، 235/5.

بالحيلة. ورابعها: تَلْفُفُ جميع ما ألقوه على كثرته، ولا يتم ذلك بالحيلة. وخامسها: عَوْدُهُ عصاً خشبَةً صغيرة كما كانت، وشيء من ذلك لا يتم بالحيلة. قاله الإمام فخر الدين¹.

﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٌ﴾ [طه: 69] "سِحْرٌ"²: كوفي غير عاصم³ بمعنى: ذي سحر، أو ذَوِي

سِحْرٌ، أو هم لتوغلهم في سحرهم كأهم السحر بعينه، "وكيدٌ": بالرفع على القراءتين، و"ما": موصولة أو مصدرية. بيّن تعالى أنّ ما صنعوه كيدٌ سحر، والمعنى: أنّ الذي معك يا موسى معجزةٌ إلهيةٌ، والذي معهم تمويهٌ باطلٌ، أو بُيِّنَ الكيدُ؛ لأنّه يكون سحراً وغير سحر، كما يُبيّن المائة بدرهم، ونحو: علم فقه، وعلم نحو. فإن قلت: لم يُحدّ ساحرٌ ولم يُجمع؟ الجواب: لأنّ القصد في هذا الكلام إلى معنى الجنسية لا إلى معنى العدد، فلو جمع لُحَيْلٌ أنّ المقصود هو العدد، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ﴾ [طه: 69] أي هذا الجنس ﴿حَيْثُ أَتَى﴾ [طه: 69] أينما كان. فإن قلت: لم تُكّر الساحر أولاً وعُرّف ثانياً؟ فالجواب: إنّما تُكّر من أجل تنكير المضاف، لا من أجل تنكيه في نفسه، كقول العجاج: في سَعِي دُنْيَا طال ما قد مُدَّت⁴. المراد: تنكير السعي؛ لأنّه مضاف إلى الدنيا. وفي حديث عمر رضي الله عنه: لا في أمر دنيا ولا في أمر آخرة⁵، المراد: تنكير الأمر كأنه قيل إنّما صنعوا كيدٌ سحريٌّ، وفي سعي دنياي، وأمر

¹ الرازي، مفاتيح الغيب، 74/22.

² البغدادي، السبعة في القراءات، 421.

³ أبو بكر عاصم بن أبي النجود بهدلة مولى بني جذيمة بن مالك بن نصر ابن فعين بن أسد، أحد القراء السبعة، أخذ القراءة عن أبي عبد الرحمن السلمي وزر بن حبيش، وتوفي بالكوفة سنة: 127هـ. ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، 9/3. الذهبي، سير أعلام النبلاء، 259/5.

⁴ وصدرة: يوم ترى النفوسُ مما أعدت، والمعنى: إن النفوس سترى حصيلة أمورها التي أخذت أبعادها ومداهها في هذه الدنيا المديدة. رواية عبد الملك بن قريظ الأصمعي، ديوان العجاج، (بيروت: دار الشروق العربي، من دون طبعة، 1416هـ)، 410.

⁵ لم أجد الحديث إلا من قول عبد الله ابن مسعود: "إني لأمقت الرجل أراه فارغاً لا في أمر دنيا ولا في أمر آخرة". قال أبو حيان في تفسيره: "وأما قول عمر فيحتمل أن يكون من تحريف الرواة". وقال الزيلعي: غريب. أبو حيان، البحر المحيط في التفسير، 357/7. المتقي الهندي علاء الدين علي بن حسام الدين ابن قاضي خان القادري الشاذلي الهندي البرهانفوري، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، فصل في الترهيبات، (دمشق: مؤسسة الرسالة، ط5، 1401هـ)، 251/16، حديث رقم: 44333، الزيلعي، تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزمخشري، 236/4، حديث رقم: 1507.

دنيوي وأخروي. كذا في الكشاف¹. وقال الإمام فخر الدين: الجواب عنه كأنه قال: [76/ب] هذا الذي أتوا به قسم واحد من أقسام السحر، وجميع أقسام السحر لا فائدة فيه، ولا شك أن الكلام على هذا الوجه أبلغ. فإن قلت: قوله تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [طه: 69] يدل على أن الساحر لا يحصل له مقصود بالسحر خيراً كان أو شراً؛ وذلك يقتضي نفي السحر بالكلية. الجواب: الكلام في السحر وحقيقته قد تقدم في سورة البقرة، فلا وجه للإعادة. ﴿فَأَلْقَى السَّحْرَ سُجْدًا﴾ [طه: 70] شكر الله تعالى على الهداية. لما ألقى ما في يمينه وصار حية تلقف ما صنعوا، وظهر الأمر، خرّوا عند ذلك سجداً؛ وذلك لأنهم كانوا في الطبقة العليا من علم السحر، فلما رأوا ما فعل موسى عليه السلام خارجاً عن صناعتهم عرفوا أنه ليس من السحر البتة، فاستدلوا بتغير أحوال الأجسام على الصانع القادر القاهر، وبظهورها على يد موسى عليه السلام على كونه رسولاً صادقاً من عند الله سبحانه، فلا جرم تابوا وأتوا بما هو النهاية في الخضوع وهو السجود. أما قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَى السَّحْرَ سُجْدًا﴾ فليس المراد أنهم أجبروا على السجود، وإلا لما حمدوا على التأويل، بل ما قال الأخصر: وهو أنهم من سرعة ما سجدوا كأنهم ألقوا. قال في الكشاف²: سبحان الله! ما أعجب أمرهم قد ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود، ثم ألقوا رؤوسهم بعد ساعة للشكر والسجود، فما أعظم الفرق بين الإلقاءين. وروي أنهم لم يرفعوا رؤوسهم حتى رأوا الجنة والنار، ورأوا ثواب أهلها³. وعن عكرمة: لما خرّوا سجداً أراهم الله تعالى في سجودهم منازلهم التي يصيرون إليها في الجنة. انتهى⁴.

¹ الرخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 75/3.

² الرخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 75/3.

³ أخرجه الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، 30/13.

⁴ الرازي، مفاتيح الغيب، 75/22.

﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ [طه: 70] قال القرطبي: لما رأوا من عظيم الأمر وخرق العادة في العصي فإنها ابتلعت جميع ما احتالوا به من الحبال والعصي، وكانت جمل ثلثمائة بعير، ثم عادت [77/أ] عصي لا يعلم أحد أين ذهبت الحبال والعصي إلا الله عز وجل، وقد مضى في سورة الأعراف هذا المعنى¹، وأمر العصا مستوفى ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾. انتهى². قال في المدارك: وإنما قُدّم هارون هنا وأُخّر في الشعراء؛ محافظةً للفاصلة؛ ولأنّ الواو لا توجب ترتيباً. انتهى³. وقال البرهان النسفي: وفي قولهم ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ فائدتان: الأولى: هي أنّ فرعون ادّعى الربوبية في قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾، فلو أنهم قالوا آمناً برب العالمين، لكان فرعون يقول: إنهم آمنوا بي لا بغيري، فليدفع هذه التهمة قالوا: ﴿بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾، وقال: إنما قُدّم ذكر هارون؛ لأنّ فرعون كان يدّعي ربوبية موسى، بناء على أنّه ربّاه في قوله: ﴿أَلَمْ نُزَيِّكْ فِينَا وَلِيداً﴾ [الشعراء: 18]. الثانية: هي أنهم لما شاهدوا أنّ الله تعالى خصّهما بتلك المعجزات العظيمة والدرجات الشريفة، لا جرم قالوا: ﴿بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾، ثم إنّ فرعون لما شاهد منهم السجود والإقرار، خاف أن يصير ذلك سبباً لاقتداء سائر الناس بهم في الإيمان بالله ورسوله، ففي الحال ألقى شبهة أخرى في البين، وهي قوله: ﴿قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ﴾ [طه: 71] بغير مد حفص⁴، وبهمزة ممدودة بصريّ وشامي وحجازيّ، وبهمزتين غيرهم، ﴿لَهُ قَبْلَ أَنْ آدَنَ لَكُمْ﴾ أي لموسى، يقال: آمن له وآمن به⁵. قال الزمخشري: واللام مع الإيمان في كتاب لغير الله تعالى كقوله: يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين، وهذا تويخ منه لهم ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [طه: 77].

¹ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 259/7.

² القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 224/ 11.

³ النسفي، مدارك التنزيل وحفائق التأويل، 2/ 374.

⁴ البغدادي، السبعة في القراءات، 290.

⁵ النسفي، مدارك التنزيل وحفائق التأويل، 2/ 374.

[71] أي: لعظيمكم، يُريد أنه أسحروهم وأعلاهم درجةً في صناعتهم، أو لكبيركم أي: لمعلمكم، من قول أهل مكة للمعلم أمرني كبيرني وقال لي كبيرني كذا، يريدون معلمهم وأستاذهم في القرآن وفي كل شيء. كذا في الكشف¹. قال القرطبي: إنَّه لكبيركم، أي: رئيسكم [77/ب] في التعليم، وإنما علمكم؛ لأنَّه أحذقُّ به منكم، وإنما أراد فرعون بقوله هذا؛ ليشبَّه على الناس، حتى لا يتبعوهم فيؤمنوا كمايؤمنهم، وإلا فقد علم فرعون أنهم لم يتعلموا من موسى، بل قد علِّموا السحر قبل قدوم موسى وولادته. انتهى². ثم بعد إيراد الشبهة اشتغل بالتهديد تنفيراً لهم عن الإيمان، وتنفيراً لغيرهم عن الاقتداء بهم في ذلك، فقال: ﴿فَلَا قُطِعَنَّ أَيَدِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾ [طه: 71]، القطع من خلاف: أن تقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى؛ لأنَّ كل واحد من العضوين يُخالف الآخر، بأنَّ هذا يدٌ وذلك رجلٌ، وهذا يمينٌ وذلك شمالٌ، و"من" لا ابتداءً الغاية؛ لأنَّ القطع مُبتدئٌ وناشئٌ من مخالفة العضو العضو، لا من وفاقه إياه، ومحلَّ الجار والمجرور النصب على الحال، أي: لأقطعنها مختلفات؛ لأنَّها إذا خالف بعضها بعضاً فقد اتصفت بالاختلاف. كذا في الكشف³. والجمهور: على أنه قطعهم وصلبهم حتى ماتوا رحمهم الله. قال ابن عباس رضي الله عنهما: كانوا في أول النهار كفاراً سحرةً وفي آخره شهداء بررة⁴، وقيل: إن فرعون لم يقدر على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ [القصص: 35]. كذا في تفسير

¹ الربخشري، الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، 76/3.

² القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 224/11.

³ الربخشري، الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، 76/3.

⁴ أبو جعفر الطبري محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري، (بيروت: دار التراث، ط2، 1387هـ)، 1، 250.

القرطبي¹. قال النسفي: ليس في القرآن أن فرعون فعل بأولئك القوم المؤمنين ما أوعدهم به ولكن ثبت ذلك في الأخبار².

﴿وَلَا صَلِّبَنَّكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: 71] يقال في المشهور: إن "في" بمعنى "على". وقال

الزمخشري: شبه تمكُّن المصلوب في الجذع بتمكن الشيء المظروف في الظرف؛ فلذا قال في جذوع النخل.

انتهى³، وخصَّ النخل؛ لطول جذوعها. ﴿وَلَتَعْلَمَنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا﴾ [طه: 71] قال في المدارك: أي

أنا على إيمانكم بموسى أو رب موسى على ترك الإيمان به. وقيل: يريد بقوله أيُّنا نفسه لعنه الله [78/أ]

وموسى عليه السلام بدليل قوله آمنتم له، واللام مع الإيمان في كتاب الله لغير الله كقوله: يؤمن بالله ويؤمن

للمؤمنين، انتهى⁴. قال الزمخشري: وفيه نفاحةٌ باقتداره وقهره، وما ألفه وضري به من تعذيب الناس بأنواع

العذاب، وتوضيح لموسى عليه السلام، واستضعاف له من الهزء به؛ لأنَّ موسى عليه السلام لم يكن قط

من التعذيب في شيء، انتهى⁵. قال البرهان النسفي: فإن قلت: إن فرعون مع قرب عهده بمشاهدة

انقلاب العصا حيةً بتلك العظمة التي شرحتموها، وذكرتم أنها قصدت ابتلاع قصر فرعون، وآل الأمر إلى

أن استغاث بموسى، واستغاثته من شر ذلك اللحين⁶، فمع قرب عهده بذلك وعجزه عن دفعه، كيف

يُعقل أن يهدد السحرة، ويبالغ في وعيدهم إلى ذلك الحد، ويستهزئ بموسى في قوله: ﴿أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا

وَأَبْقَى﴾؟ قلنا: لا يجوز أن يقال: أنه لم يخف بل كان في أشد الخوف، إلا أنه كان يظهر تلك الجلادة

والوقاحة تمشيةً لناموسه، وترويحاً لأمره، ومن استقرأ أحوال العالم علم أن العاجز قد يفعل أمثال هذه

¹ لم أجده في تفسير القرطبي.

² الرازي، مفاتيح الغيب، 80/22.

³ الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 76/3.

⁴ النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 374/2.

⁵ الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 76/3.

⁶ لدى الرازي: الثعبان. الرازي، مفاتيح الغيب، 77/22.

الأشياء، ومما يدلُّ على صحة ذلك، أنَّ كلَّ عاقلٍ يعلمُ بالضرورة أنَّ عذابَ الله أشدُّ من عذابِ البشر، ثم إنَّه أنكر ذلك، وأيضاً: فقد كان عالماً بكذبه في قوله: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [طه: 71]؛ لأنَّه علم أنَّ موسى عليه السلام ما خاطبهم البتَّة وما لقيهم، وكان يعرف من سحرته أنَّ أستاذ كلِّ واحد من هو، وكيف حصَّل ذلك، انتهى¹. ﴿وَأَبْقَى﴾ [طه: 72] وأدوم ﴿قَالُوا﴾ [طه: 72] يعني السحرة ﴿لَنْ نُؤْتِرَكَ﴾ [طه: 72] لن نختارك ﴿عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ [طه: 72] القاطعة الدالة على صدق موسى². إنَّه تعالى لما ذكر [78/ب] تهديد فرعون لأولئك المؤمنين، ذكر جوابهم عن ذلك بما يدل على اليقين التام والنصرة الكاملة لهم في أمر الدين، فقالوا: ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ [طه: 72]، وذلك يدلُّ على أنَّ فرعون طلب منهم الرجوع عن الإيمان، وإلا فعل بهم ما أوعدهم، فقالوا: "لَنْ نُؤْتِرَكَ" جواباً لما قاله، وبَيَّنوا العلة، وهي: إنَّ الذي جاءهم بيناتٌ وأدلةٌ، والذي يذكره فرعون محض الدنيا، ومنافع الدنيا ومضارها لا تُعارضُ بمنافع الآخرة ومضارها³. قال القرطبي: ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾، قال ابن عباس: يريد من اليقين والعلم. وقال عكرمة وغيره: لما سجدوا أراهم الله في سجدتهم منازلهم في الجنة؛ فلماذا قالوا: لن نُؤْتِرَكَ. وكانت امرأة فرعون تسأل من غلب، فقيل لها: غلب موسى وهارون، فقالت: آمنت برب موسى وهارون، فأرسل إليها فرعون، فقال: انظروا أعظم صخرة، فإن مرَّت على قولهم فألقوها عليها، فلمَّا أتوها رفعت بصرها إلى السماء فأبصرت منزلها في الجنة، فمضت على قولها، فانتزعت روحها، وألقيت الصخرة على جسدها وليس فيها روح. وقيل: قال مقدَّم السحرة لمن يثق به لما رأى، انظر إلى هذه الحية هل تجوفت فتكون جنيًّا، أو لم تتجوف فهي من صنعة الصانع الذي لا يعزبُ عنه مصنوعٌ، فقال: ما تجوفت، فقال: آمنت

¹ الرازي، مفاتيح الغيب، 77/22.

² النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 374/2.

³ الرازي، مفاتيح الغيب، 77/22.

برب موسى وهارون، انتهى كلام القرطبي¹. ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ [طه: 72] عطفٌ على ما جاءنا، أي: لن نختارك على الذي جاءنا، ولا على الذي خلقنا. وقيل: هو قسم وجوابها "لن نؤثرك" مُقدِّمٌ على القسم. ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ [طه: 72] فاصنع ما أنت صانع من القَطْعِ والصلْبِ، قال: [79/أ] وعليهما مسرودتان قضاهما²، أي: صنعهما أو احكم ما أنت حاكم أي: من القطع والصلب ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [طه: 72] أي: في هذه الحياة، فانتصب على الظرف، أي: إنما تحكم فينا مدّة حياتنا ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا﴾ [طه: 73] صدقنا بالله وحده لا شريك له وما جاء به موسى ﴿لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ﴾ [طه: 73] "ما" موصولة منصوبة بالعطف على خطايانا ﴿مِنَ السِّحْرِ﴾ [طه: 73] حال من "ما"³. رُوي أنّ السحرة -يعني رؤوسهم - كانوا اثنين وسبعين، اثنان من القبط، والباقي من بني إسرائيل، وكان فرعون أكرههم على تعلم السحر⁴. وروي: أنهم قالوا لفرعون: أرنا موسى نائماً ففعل، فوجدوه تحرّسه عصاه، فقالوا ما هذا بسحر، الساحر إذا نام بطل سحره، فكروهوا معارضته خوف الفضيحة، أو كروهوا معارضته خوفاً من الله تعالى، فأكرههم فرعون على الإتيان بالسحر⁵.

﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ﴾ [طه: 73] ثواباً لمن أطاعه ﴿وَأَبْقَى﴾ [طه: 73] عقاباً لمن عصاه. وهو ردُّ لقول فرعون، ﴿وَلَتَعْلَمَنَّ أَنِنَّا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى﴾ [طه: 71]. قال في المدارك: انظر كيف نفعهم علمهم بالسحر، وضّرّ فرعونَ جهلهُ به، فكيف بعلم الشرع⁶، ثم ختم هذا الكلام بشرح أحوال المجرمين وأحوال

¹ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 225/11.

² من قول أبو ذؤيب: وعليهما مسرودتان قضاهما ... داود أو صنع السوايغ تُبَع. مسرودتان: درعان مخروستان أو منسوجتان، من السرد، وهو الخرز؛ وقيل: النسج. وقضاها: أي أحكمهما. الشعراء الهذليون، ديوان الهذليين، (القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، من دون ذكر طبعة، 19/1، 1385هـ).

³ الرّمحشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 77/3.

⁴ من قول مقاتل. البغوي، معالم التنزيل في تفسير القرآن، 219/2.

⁵ النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 375/2.

⁶ المصدر نفسه،

المؤمنين في عَرَصَةِ الْقِيَامَةِ، فقال في الجرمين: ﴿إِنَّهُ﴾ [طه: 74] هو ضمير الشأن ﴿مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا﴾ [طه: 74] أي: كافرًا. قال القرطبي: قيل: إنه من قول السحرة لما آمنوا. وقيل: هو ابتداء كلام من الله عز وجل. انتهى¹. ﴿فَإِنَّ لَهُ﴾ [طه: 74] للمجرم ﴿جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ [طه: 74] فيستريح بالموت ﴿وَلَا يَحْيَى﴾ [طه: 74] حياة ينتفع بها، قال الشاعر²:

ألا من لنفسٍ لا تموت فينقضي شقاها ولا تحي حياة لها طعم

[79/ب]. قال القرطبي: وقيل نفس الكافر معلّقة في حنجرتة، كما أخبر الله تعالى عنه فلا يموت بفراقها، ولا يحيى باستقرارها³. ثم ذكر حال المؤمن فقال: ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا﴾ [طه: 75] مات على إيمانه ﴿قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ﴾ [طه: 75] بعد الإيمان ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾ [طه: 75] جمع العليا⁴. قال النسفي: واعلم أنّ قوله: قد عمل الصالحات يقتضي أن يكون آتيا بجميع الطاعات. وذلك بالاتفاق غير معتبر ولا ممكن، فينبغي أن يحمل ذلك على أداء الواجبات، ثم ذكر أن من أتى بالإيمان والأعمال الصالحة كانت له الدرجات العلى، ثم فسرها فقال: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ [طه: 76] بدل من الدرجات⁵. ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [طه: 76] من الخمر والعسل واللبن والماء ﴿خَالِدِينَ﴾ [طه: 76] دائمين ﴿فِيهَا﴾ [طه: 76] قال صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ أَهْلَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى لَيَرَاهُمْ مَنْ تَحْتَهُمْ كَمَا تَرَوْنَ

¹ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 11/226.

² والمعنى: لا ينتفع بحياته ولا يستريح بموته.

³ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 11/226.

⁴ النسفي، مدارك التنزيل وحفائق التأويل، 2/375.

⁵ الرازي، مفاتيح الغيب، 22/76.

الْكُؤُكْبِ الطَّالِعِ فِي السَّمَاءِ، وَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعَمَرَ مِنْهُمْ وَأَنْعَمًا»¹. ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾ [طه: 76]

تظهر من الشرك بقول لا إله إلا الله. قال القرطبي: ومن قال هذا من قول السحرة فقال: لعل السحرة

سمعوه من موسى، أو من بني إسرائيل إذ كان منهم في مصر أقوام مؤمنون، وكان فيهم أيضاً المؤمن من آل

فرعون. قال القرطبي: ويحتمل أن يكون ذلك إلهاماً من الله أنطقهم بذلك لما آمنوا. انتهى². قال في

المدارك: قيل هذه الآيات الثلاث، يعني من قوله ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا﴾ [طه: 74] إلى قوله:

﴿تَزَكَّى﴾ [طه: 76] حكاية قول السحرة. وقيل: خيرٌ من الله تعالى لا على وجه الحكاية وهو أظهر³.

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ [طه: 77] نزلت هذه الآية بعد سنين من إيمان السحرة،

وهو يدل على أن موسى عليه السلام في تلك الحالة كثر مستجيبوه، فأراد الله تعالى تمييزهم من طبقة

فرعون [80/أ] فأوحى إليه أن يسري بهم ليلاً، فالسرى سير الليل، والإسراء مثله. لما أراد الله تعالى إهلاك

فرعون وقومه أمر موسى أن يخرج بهم من مصر ليلاً، ويأخذ بهم طريق البحر⁴. قال النسفي: فإن قلت:

ما الحكمة في أن يسير بهم ليلاً، فنقول فيه وجوه:

أحدها: أن يكون اجتماعهم لا بمشهد من العدو فلا يمنعهم عن استكمال مرادهم في ذلك، ثانيها:

ليكون أقرب إلى أن لا يطلبه فرعون ويتبعه، وثالثها: ليكون إذا تقارب العسكر أن لا يرى عسكر موسى

عسكر فرعون فلا يهابونهم⁵.

¹ أخرجه أحمد، مسند الإمام أحمد بن حنبل، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، 302 / 17، حديث رقم: 11206. وأخرجه الترمذي، سنن الترمذي، أبواب المناقب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب: مناقب أبي بكر الصديق رضي الله عنه، 39/6، حديث رقم: 3658، حسن.

² القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 11 / 227.

³ النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 2 / 376.

⁴ الرازي، مفاتيح الغيب، 80/22.

⁵ المصدر نفسه.

﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ﴾ [طه: 77] أي: اجعل لهم من قولهم ضرب له في ماله سهماً، والبحر: هو بحر القلزم، أو بحر النيل. روي أنّ موسى قال عند ذلك: يا من كان قبل كل شيء، والمكون لكل شيء، والكائن بعد كل شيء، فلمّا ضرب موسى البحر بعصاه انفلق منه اثنتي عشرة طريقاً، وبَيَّن الطرق الماء قائماً كالجبال¹. وفي سورة الشعراء: ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطُّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: 63] فأخذ كل سببط طريقاً، وأوحى الله إلى أطواد الماء أن تشبكي فصارت شبكات يرى بعضهم بعضاً، ويسمع بعضهم كلام بعض، وكان هذا من أعظم المعجزات، فلما أقبل فرعون لعنه الله ورأى الطرق في البحر والماء قائماً أوهمهم أن البحر فعل هذا لهيبته؛ فدخل هو وأصحابه فانطبق البحر عليهم. كذا في القرطبي².

﴿يَيْسًا﴾ [طه: 77] أي: يابساً ليس فيه ماء ولا طين، وذلك أنّ الله تعالى أيبس لهم الطريق في البحر، وييساً: مصدر وُصِفَ به، يقال: ييسَ ييساً وييساً، ونحوهما العُدْمُ والعَدَمُ ﴿لَا تَخَافُ﴾ [طه: 77] حال من الضمير في: "فاضرب لهم طريقاً"، أي: غير خائف. "لا تخف" حمزة³ على الجواب، ﴿دَرَكًا﴾ [طه: 77] هو اسم من الإدراك، أي: لا يُدركك فرعون وجنوده ولا يلحقونك، ﴿وَلَا تَخْشَى﴾ [طه: 77] الغرق، وعلى قراءة⁴ حمزة [80/ب] ولا تخشى استئنافاً، أي: وأنت لا تخشى، أو يكون الألف للإطلاق كما في قوله: ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾ [الأحزاب: 10] ﴿فَأَصْلُونَا السَّبِيلًا﴾ [الأحزاب: 67] قال النسفي: إنّه تعالى بيّن أن جميع أسباب الأمن كان حاصلها في ذلك الطريق:

أحدها: أنّه كان يابساً، المراد أنّه ما كان فيه وُحْلٌ ولا بِلَّةٌ فضالاً عن الماء. وثانيها: قوله: ﴿لَا تَخَفُ دَرَكًا﴾، أي: لا تخاف أن يدركك فرعون، فيبي سأل حول بينك وبينه. وثالثها: قوله ولا تخشى أي الغرق.

¹ أخرجه ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 144/6.

² القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 229/11.

³ البغدادي، السبعة في القراءات، 421.

⁴ الفارسي، الحجة للقراء السبعة، (239/5).

انتهى¹. قال القرطبي: قال ابن جريج: قال أصحاب موسى له هذا فرعون أدركنا، وهذا البحر قد غشيننا، فأنزل الله تعالى: ﴿لَا تَخَافُ دَرْكًا وَلَا تَخْشَى﴾ [طه: 77] أي: لا تخاف دركاً من فرعون، ولا تخشى من البحر. انتهى².

﴿فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ﴾ [طه: 78] حال، أي: خرج خلفهم ومعه جنوده، ﴿فَعَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ﴾ [طه: 78] أصابهم من البحر، ﴿مَا عَشِيَهُمْ﴾ [طه: 78] من باب الاختصار، وهو من جوامع الكلم التي تستقل مع قلتها بالمعاني الكثيرة، أي: غشبهم ما لا يعلم كُنْهَهُ إلا الله عز وجل³.

﴿وَأَصَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ﴾ [طه: 79] عن سبيل الرشاد ﴿وَمَا هَدَى﴾ [طه: 79] وما أرشدهم إلى الحق والسداد⁴. قال الزمخشري: وهذا تمكُّمٌ به في قوله: ﴿وَمَا أَهْدَيْكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: 29]⁵. وقال البرهان النسفي: ولندكر القصة وما فيها من المباحث، قال ابن عباس: لما أمر الله تعالى موسى أن يقطع بقومه البحر؛ استعار بنو إسرائيل من قوم فرعون الخليّ والدوابّ لعيدٍ يخرجون إليه، فخرج بهم ليلاً وهم ستمائة ألف وثمانون ألفاً ونيّف، وليس فيهم ابن ستّين ولا عشرين سنة، وقد كان يوسف عليه السلام قد عهد إليهم عند موته [أ/81] أن يخرجوا بعظامه معهم من مصر، فلم يخرجوا بها، فتحيّر القوم حتى دلّتهم عجوز على موضع العظم فأخذوه، وقال موسى للعجوز: احتكمي، فقالت: أكون معك في الجنة، ثم خرج فرعون في طلب موسى، وعلى مقدمته ألف وخمسة مائة ألف سوى الجنّين والقلب، فلمّا انتهى موسى إلى البحر، قال موسى للبحر انفرق، فأبى، فأوحى الله إليه أن اضرب بعصاك

¹ الرازي، مفاتيح الغيب، 80/22.

² القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 228/11. أخرجه الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، 344/18.

³ النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 376/2.

⁴ المصدر نفسه، 372/2.

⁵ الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 78/3.

البحر فانفلق، فقال لهم موسى: ادخلوا فيها، فقالوا كيف وهي رطبة؟ فدعي ربه فهبت عليه ريح الصبأ، فجفت، فقالوا: نخاف من بعضنا، فجعل بينهم كوى، حتى يرى بعضهم بعضاً، ثم دخلوا حتى جازوا البحر، وأقبل فرعون إلى تلك الطرق، فقال قومه له: إن موسى قد سحر البحر فصار كما ترى، وكان على فرس حصان، فأقبل جبريل عليه السلام على فرس أنثى في ثلاثة وثلاثين من الملائكة، فسار جبريل عليه السلام بين يدي فرعون، وأبصر الحصان الفرس فأفحم بفرعون على أثرها، وصاحت الملائكة في الناس، الحقوا الملك حتى إذا دخل آخرهم، وكاد أولهم أن يخرج انطبق البحر عليهم، فغرقوا، فسمع بنو إسرائيل خفقة البحر عليهم، فقالوا: ما هذا يا موسى، فقال: أغرق الله فرعون وقومه، فرجعوا للنظر إليهم، وقالوا: يا موسى ادع الله أن يخرجهم إلينا حتى ننظر إليهم، فدعي فلفظهم الساحل إلى البحر، فأصابوا من سلاحهم¹. قال في زهرة الرياض: إخواني تجنبوا الدنيا فإنها غدارة مكارة، ألا ترى أن فرعون لعنه الله كان في أول حاله فقيراً مسلماً يبيع البطيخ، حتى آل أمره إلى أخذ الخراج من الأموات، وادعى الربوبية أربع مائة سنة، وقتل اثنين وثلاثين ألف صبي في أرض مصر، وجاء إبليس لعنه الله يوماً وهو في الحمام فقال: يا فرعون كل شيء قلت لك، فمتى قلت لك ادعي الربوبية، فضربه فرعون أربعين سوطاً، وكان لفرعون أربع عجائب، كانت لحيته خضراً ثمانية أشبار، وقامته سبعة أشبار، ولحيته أطول منه بشبر، وعمره أربع مائة سنة، وكانت له فرس إذا صعد الجبل قصرت يداه وطالت رجلاه، وإذا انحدرت على ضده، وكان يجري النيل بأمره كما قال: ﴿وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾ [الزخرف: 51]، ولأجل هذه الأربعة ادعى الربوبية، وما هلك إلا بشؤم الدنيا، والحرص عليها، انتهى². ثم في القصة أبحاث: الأول: روي أن موسى عليه السلام لما ضرب بعصاه البحر حصل اثنا عشر طريقاً يابساً مهيناً سلوكة، وبقي الماء قائماً بين

¹ الرازي، مفاتيح الغيب، 81/22.

² سليمان بن داود، زهرة الرياض، اللوحة 194/أ-ب.

الطريق، والطريق كالطود العظيم، وهو الجبل، فأخذ كل سبط من بني إسرائيل في طريق من هذه الطرق [81/ب]. ومنهم من قال: بل حصل طريق واحد، ويدلُّ على القول الأول قوله تعالى: ﴿كَالطُّودِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: 63]؛ لأنَّ الماء لا يكون كالطود إلا وأن يكون قائماً بين الطريقين، والقول الثاني ظاهر، وهو الأقرب في قوله تعالى: ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ﴾ [طه: 77]. الثاني: روي أنَّ بني إسرائيل بعد أن أظهر الله لهم الطريق تعتُّوا وقالوا: نريد أن يرى بعضاً بعضاً، وهذا كالبعيد؛ لأنَّ القوم لما أبصروا محييء فرعون صاروا في نهاية الخوف، والخائف إذا وجدَ طريق الفرار والخلاص كيف يتفرغ للتعتُّ؟. الثالث: أنَّ فرعون كان عاقلاً، بل كان في نهاية الدهاء، فكيف اختار إلقاء نفسه في التهلكة؟ فإنَّه كان يعلم من نفسه أنَّ انقلاب البحر ليس بأمره، فعند هذا ذكروا وجهين: أحدهما: أنَّ جبريل كان على الرمكة فتبعه فرعون، وهذا بعيد؛ لأنَّه يبعد أن يكون خوض الملك في أمثال هذه المواضع مقدماً على خوض جميع العسكر، بل الأقرب ما قيل أنَّه أمرَ مقدمة عسكره بالدخول، فدخلوا وما غرقوا، فغلب على ظنه السَّلامة، فلمَّا دخل الكل أغرقهم الله سبحانه. الرابع: أنَّ الذي نُقل عن جبريل عليه السلام أنَّه كان يدُسه في الماء والطين خوفاً من أن يؤمن، فبعيدٌ؛ لأنَّ المنع من الإيمان لا يليق بالملائكة والأنبياء. الخامس: أنَّ الذي روي من أنَّ موسى كلم البحر، فقال له: انفرق لي لأعبرَ عليك، فقال البحر: لا، فإنه بمُرِّ عليّ رجلاً عاصٍ فهو غير ممتنع عند أهل السنة، وعند المعتزلة ذلك على لسان الحال لا على لسان المقال، انتهى كلام البرهان النسفي¹. ثم ذكر منته على بني إسرائيل بعدما أنجاهم من البحر، وأهلك فرعون وقومه بقوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [طه: 80] أي: أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي، وقلنا يا بني إسرائيل: ﴿قَدْ أَجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ﴾ أي: فرعون، ﴿وَوَاعَدْنَاكُمْ﴾ بإيتاء الكتاب ﴿جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ [82/أ]، وذلك أنَّ الله تعالى وعد موسى أن يأتي هذا المكان، ويختار سبعين رجلاً يحضرون معه لنزول التوراة، وإنما

¹ الرازي، مفاتيح الغيب، 81/22-82.

نسبت إليهم المواعدة؛ لأنها كانت لنبيهم ونقبائهم، وإليهم رجعت منافعتها التي قام بها شرعهم ودينهم¹. قال النسفي: لما جاوز موسى بني إسرائيل البحر قالوا له: أليس وعدتنا أن تأتينا من ربنا بكتاب فيه الفرائض والأحكام؟ قال: بلى، ثم تعجل موسى إلى ربه ليأتيهم بالكتاب، ووعدهم أن يأتيهم إلى أربعين ليلة، وإنما قال ﴿وَوَاعَدْنَاكُمْ﴾ لأنه إنما وعد موسى أن يؤتیه التوراة لأجلهم، وقال مقاتل: إنما قال ووعدناكم؛ لأن الخطاب له وللسبعين المختارة. قال النسفي في بيان المقصود من الآية: إنه تعالى لما أنعم على موسى عليه السلام بأنواع النعم، ذكرهم تلك النعم، ولا شك أن إزالة المضرة يجب أن يكون مقدماً على إيصال تلك المنفعة، ولا شك أن إيصال المنفعة الدينية أعظم في كونه نعمةً من إيصال المنفعة الدنيوية؛ فهذا بدأ الله تعالى بقوله: ﴿أَجْبِنَاكُمْ مِّنْ عَدُوِّكُمْ﴾ [طه: 80] ثم تى بذكر المنفعة الدينية، وهي قوله: ﴿وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ [طه: 80]، فإن ذلك الوقت وقت إنزال الكتاب، ثم تى بذكر المنفعة الدنيوية، وهي قوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾ [طه: 80]، ثم زجرهم عن العصيان بقوله: ﴿وَلَا تَطَعُوا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ [طه: 81]، ثم بين أن من عصى ثم تاب كان مقبولاً عند الله بقوله: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ انتهى². "والأيمن" نصب؛ لأنه صفة جانب، وقرئ بالجر على الجوار³. قال القرطبي: وليس للجبل يمين ولا شمال، فإذا قيل عن يمين الجبل؛ فمعناه أخذ عن يمينك من الجبل، وكأن الجبل على يمين موسى إذا أتاه⁴. وقال النسفي: قال المفسرون: ليس للجبل يمين ولا يسار [82/ب]، بل المراد أن طور سيناء عن يمين من انطلق من مصر إلى الشام، ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾ [طه: 80] في التيه، وقلنا لكم: ﴿كُلُوا﴾ [طه: 81] ليس من إيجاب، بل أمر بإباحة كقوله:

¹ النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 376/2.

² الرازي، مفاتيح الغيب، 81/22-82.

³ الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 79/3. قال أبو حيان: "وهذا من الشذوذ والقلة بحيث ينبغي ألا تخرج القراءة عليه".

أبو حيان، البحر المحيط في التفسير، 364/7.

⁴ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 230/11.

﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ [المائدة: 2] قاله النسفي¹. ﴿مِنْ طَيِّبَاتٍ﴾ [طه: 81] حلالات ﴿مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [طه: 81] المن: هو الترنجبين، كان ينزل عليهم مثل الثلج من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس لكل إنسان صاعاً، والسلوى: كان يبعث الله عليهم الريح الجنوب فيحشر السلوى، وهي: السَّمَانِي، فيذبح الرجل منه ما يكفيه²، وقد تقدم الكلام عليه في البقرة، وذلك أن أعطاهم المن والسلوى في التيه أربعين سنة، إذا كان عند انفجار الصبح، يرسل الله الطير على رؤوس أشجارهم، وكانت تصيح بلذيد صياحها، فإذا كان عند طلوع الشمس تحيء ريح فتذهب بريشها، يشبه السَّمَان، يضرب إلى الحمرة، ويقال: كان إذا ولد لهم ولد، يولد معه ثيابه بطول الصبي، لا يتدنس، ولا يُحْرَق، ولا تطول أشعارهم ولا أظفارهم، وظلل عليهم الغمام الأبيض كالنور، وشعاعاً لهم بالليل، وكان أحدهم يأخذ الطير المهزول، فيرسله ويطير ويسمن ويسقط بين يديه مشوياً سميناً بقدرة الله تعالى، وأعطاهم الله هذه النعمة في الدنيا الفانية، وأعطى أمة محمد بدل المن الأيمان، وهو خير من المن، وبدل السلوى الإسلام، وهو النعيم الباقي، وأعطى النبي أنواع الطعام الحسن، وأعطى لهذه الأمة الاسم الحسن، ففي كل موضع: بأئها الذين آمنوا، وفي التوراة: بأئها المساكين، فما ينفعهم المن والسلوى، والاسم اسم المساكين، وما يضر بالأمة المحمدية البلوى، والاسم اسم الأحباء، فذلك قوله: ﴿هُوَ سَمُّكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ [الحج: 78]، قال الله تعالى: ﴿ادْكُرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ وللمحمدية: ﴿فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: 152]، شغل قوم موسى بالنعمة، والمحمدية بالمنعم، فمن وجد المنعم فإنه يجد النعمة، وليس كل من يجد النعمة يجد المنعم. كذا في زهرة الرياض³. أنجيتكم ووعدتكم ورزقتكم، كوفي غير عاصم⁴ ﴿وَلَا تَطْفُوا فِيهِ﴾ [طه: 81] ولا تتعدوا

¹ الرازي، مفاتيح الغيب، 83/22.

² النسفي، مدارك التنزيل وحفائق التأويل، 91/1.

³ سليمان بن داود، زهرة الرياض، اللوحة 38/أ.

⁴ محمد بن أحمد بن الأزهرى الهروي، أبو منصور، معاني القراءات للأزهري، (المملكة العربية السعودية: مركز البحوث في كلية الآداب - جامعة الملك سعود، ط1، 1412هـ)، 156/2.

حدود الله فيه، بأن يكفروا النعم، يشغلهم اللهو والتنعم عن القيام بشكرها، وينفقوها في المعاصي، وأن يزوّوا حقوق الفقراء فيها، وأن يُسرفوا في إنفاقها، وييطروا فيها، ويأشروا فيها ويتكبروا، أو معنى ولا تطغوا أي: لا يظلم بعضكم بعضاً فيه فيأخذه من صاحبه ﴿فَيَحِلُّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ [طه: 81] عقوبتي ﴿وَمَنْ يَحِلُّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾ [طه: 81] هلك، أو سقط سقوطاً لا نهوض بعده، وأصله أن يسقط من جبل فيهلك، وتحقيقه سقط من شرف الإيمان إلى حُفَر النيران. قال القرطبي: فقد هوى أي: صار إلى الهاوية، وهي قعر النار، من "هوى يهوى هويًا"، أي: سقط من علو إلى سفلى. ذكر ابن المبارك بسنده عن شُفِيِّ الْأَصْبَحِيِّ¹ قال: إِنَّ فِي جَهَنَّمَ جَبَلًا يُدْعَى صَعُودًا، يطلع فيه الكافر أربعين خريفًا قبل أن يرقاه، قال الله تعالى: ﴿سَأَرْهُقُهُ صَعُودًا﴾ [المدثر: 17]، وإن في جهنم [83/أ] قصرًا يقال له هوى، يُرمى الكافر من أعلاه فيهوى به أربعين خريفًا قبل أن يبلغ أصله، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَحِلُّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾ [طه: 81] وذكر الحديث²، انتهى³. قرأ علي⁴: فَيَحِلُّ وَيَحُلُّ⁵، والباقون بكسرهما، فالمكسور في معنى الوجوب من: حل الدين يحل أداؤه، والمضموم في معنى النزول. كذا في المدارك⁶.

﴿وَإِنِّي لَعَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ﴾ [طه: 82] عن الشرك، ﴿وَأَمِنَ﴾ [طه: 82] وحَدَّ اللهُ تعالى وصدَّقَه فيما أنزل، ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [طه: 82] أدَّى الفرائض، ﴿ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: 82] ثم استقام وثبت على

¹ هو شفي بن مانع الأصبحي المصري روى عن عبد الله بن عمرو وعنه أبو قبيل ويزيد بن عمرو وربيعة بن سيف، مات في خلافة هشام، سنة: 105هـ. ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل، 289/4. الذهبي، تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال، 293/4.

² عبد الله بن المبارك المروزي الزهد والرفائق لابن المبارك، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط2، 2004م)، 504. ابن أبي الدنيا، أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف، صفة النار، جبال النار وأوديتها، (بيروت: دار ابن حزم، ط1، 1417هـ)، 40/1، حديث رقم: 37.

³ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 231/11.

⁴ علي الكسائي.

⁵ الأزهرى، معاني القراءات، 156/2.

⁶ النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 377/2.

الهدى المذكور، وهو: التوبة والإيمان والعمل الصالح، ونحوه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ [فصلت: 30]¹. وقال الكواشي: وقيل: ثم اهتدى إلى محبة أهل البيت بشرط محبة جميع الصحابة. انتهى². قال الزمخشري: وكلمة التراخي دلّت على تباين المنزلتين، دلالتها على تباين الوقتين في: جاءني زيد ثم عمرو، أعني: أنّ منزلة الاستقامة مُباينة لمنزلة الخير نفسه؛ لأنّها أعلى وأفضل، انتهى³. قال في زهرة الرياض: يقال إنّ الله تعالى جعل تحت كل اسم من أسمائه لطفاً وكرماً للمؤمن، سماه ضعيفاً ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً﴾ [النساء: 28]، وسمى نفسه قوياً ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً﴾ [الأحزاب: 25]، وعلى القوي أن ينصر الضعيف، وسماه عجولاً ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: 37]، وسمى نفسه حليماً، وعلى الحليم أن يجاوز عن العجول، وسماه جهولاً ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ [الأحزاب: 72]، وسمى نفسه غفوراً رحيماً، وعلى الرحيم أن يقبل عُذر الجاهل، وسماه فقيراً، وسمى نفسه غنياً ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ [المدثر: 17] وعلى الغني أن يواسي الفقير، وسماه ظلوماً، وسمى نفسه كريماً ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: 6]، وقال موسى: يارب أترزق فرعون [83/ب] وهو يدّعي الربوبية، قال الله: يا موسى إن كان فرعون ترك العبودية، فأنا لا أترك الربوبية، فيه إشارة كأنه قال: عبدي من عادتك وصدفتك المعصية، ومن صفتي الرحمة، وصدفتك مجازية وصدفتي حقيقة، فأنت لا تترك صدفتك المجازية، وأنا أولى أن لا أترك صدفتي الحقيقة⁴. ولما هبط آدم إلى الأرض بكى، وقال: إلهي لم تهيتني عن الشجرة، وجعلت سريري تحتها، قال الله: يا آدم ما لم أكتب الرحمة بجنب المعصية، لم أضع السرير تحت الشجرة، قال: يا رب لم لم تغفر لي في الجنة، قال الله: لو غفرت لك في الجنة لم يظهر كرمي بغفران ذنب

¹ الكواشي، التلخيص في تفسير القرآن العظيم، 186/3.

² النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 377/2.

³ الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 80/3.

⁴ سليمان بن داود، زهرة الرياض، اللوحة، 160/ب.

رجل واحد، بل أردت أن تخرج إلى الدنيا، وتأتيني بألوف من العصاة من ذريتك، حتى أغفر لهم ليتبين كرمي وجودي، انتهى¹. وقال في موضع آخر في زهرة الرياض: علق الله مغفرته بأربعة أشياء في آية واحدة: أحدها: التوبة. والثاني: الإيمان. والثالث: العمل الصالح. والرابع: الاستقامة في قوله: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: 82]. وكذلك علق رحمته بأربعة أشياء: وهي التقوى، وإيتاء الزكاة، والإيمان، واتباع محمد صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الاعراف: 156] ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ [الاعراف: 157] الآية، انتهى². وقال في زهرة الرياض في موضع آخر: قوله تعالى: ﴿نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الحجر: 49]، معناه: خبر يا محمد إني أنا الغفور المتجاوز لمن تاب، ومعنى الآية: إني أنا الغفور في الدنيا، وأنا الرحيم في العقبى [84/أ]، وأنا الغفور وقت المحاسبة، كأن الله تعالى يقول: عبدي لك أسماء مشتقة من اسمي: ظالمٌ وظلومٌ وظلامٌ، إن كنت ظالماً، فأنا غافر الذنب، وقابل التوب، وإن كنت ظلوماً، فأنا غفور ﴿نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، وإن كنت ظلاماً فأنا غفار ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [طه: 82] انتهى³. وقال الإمام فخر الدين: إنَّه تعالى وصف نفسه بكونه غافراً وغفوراً وغفّاراً في القرآن، والأنبياء كلهم طلبوا المغفرة، أمّا آدم فقوله: ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا﴾ [الاعراف: 23]، وأمّا نوح فقوله: ﴿وَالَا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود: 47]، وأمّا إبراهيم فقوله: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: 82]، وأمّا يوسف فقوله: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [يوسف: 92]،

¹ المصدر نفسه، اللوحة، 1/161.

² المصدر السابق، اللوحة 190/أ.

³ سليمان بن داود، زهرة الرياض، اللوحة 170/أ.

وأما موسى فقوله: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾ [الاعراف: 151]، وأما داود ﴿فَاسْتَغْفِرْ رَبَّهُ وَحَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابٌ﴾ [ص: 24]، وأما سليمان فقوله: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ [ص: 35]، وأما عيسى فقوله: ﴿تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: 118]، وأما محمد صلى الله عليه وسلم فقوله: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِدَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: 19]، وأما الأمة فقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا﴾ [الحشر: 10]. انتهى¹.

﴿وَمَا أَعْجَلَكَ﴾ [طه: 83] أي شيء عَجَلَ بك ﴿عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى﴾ [طه: 83]، أي: عن السبعين الذين اختارهم، وذلك أنه مضى معهم إلى الطور على الموعد المضروب، ثم تقدمهم شوقاً إلى كلام ربه، وأمرهم أن يتبعوه، فقال الله عز وجل: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ﴾ أي شيء أوجب عُجَلتك، استفهام انكار، و"ما": مبتدأ، و"أعجلك": الخبر².

﴿قَالَ هُمْ أَوْلَاءِ عَلَى أَثْرِي﴾ [طه: 84] أي: هم خلفي يلحقون بي ليس بيني [84/ب] وبينهم إلا مسافة يسيرة، ثم ذكر موجب العجلة فقال: ﴿وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ﴾ [طه: 84]، أي: إلى الموعد الذي وعدت ﴿لَتَرْضَى﴾ [طه: 84] لتزداد عني رضى، وهذا دليل على جواز الاجتهاد، وهو على الله محال، والجواب: إنه إنكار في صيغة الاستفهام، ولا امتناع فيه، فإن قلت: إن موسى عليه السلام إما أن يكون ممنوعاً عن ذلك التقدم أو لا يكون، فإن كان ممنوعاً كان ذلك التقدم معصية فيلزم وقوع المعصية من الأنبياء، وإن لم يكن ممنوعاً كان ذلك الإنكار غير جائز من الله سبحانه، والجواب: لعله عليه السلام

¹ الرازي، مفاتيح الغيب، 84/22.

² النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 377/2.

ما وجد نصاً في ذلك إلا أنه تقدم باجتهاده فأخطأ في ذلك الاجتهاد، فإن قلت: قوله: وعجلت والعجلة مذمومة، والجواب: إنها ممدوحة في الدين، قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران: 133]، فإن قلت: قوله لترضى يدل على أنه إنما فعل ذلك ليحصل رضى الله تعالى، وذلك باطل من وجهين: أحدهما: أنه يلزم تجدد صفة لله تعالى. وثانيهما: أنه تعالى قبل حصول ذلك الرضى وجب أنه ما كان راضياً من موسى؛ لأنَّ تحصيل الحاصل محال. والجواب: المراد تحصيل دوام الرضا كما في قوله: ﴿ثُمَّ أَهْتَدَىٰ﴾، المراد: دوام الاهتداء، فإن قلت: قوله: وعجلت إليك يدل على أنه ذهب إلى الميعاد قبل الوقت الذي عينه الله تعالى له، وإلا لم يكن ذلك تعجباً، ثم ظن أن مخالفة أمر الله سبباً لتحصيل رضاه، وذلك لا يليق بموسى عليه السلام. والجواب: قد مرَّ أنَّ ذلك كان بالاجتهاد. فإن قلت: قوله "﴿إِلَيْكَ﴾ يقتضي كونه تعالى في الجهة؛ لأنَّ "إلى" لانتهاء الغاية [85/أ]، الجواب: "إلى": المراد إلى مكان وعذك. فإن قلت: قوله ما أعجلك سؤال عن سبب العجلة، فكان جوابه اللائق به أن يقال: المبالغة في طلب رضاك، والشوق إلى كلامك، فأما قوله: ﴿هُمُ أَوْلَاءُ عَلِيٍّ أَثْرِي﴾ فغير منطبق عليه، والجواب: من وجهين: أحدهما: أن قوله: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ﴾ تضمن شيئين: الأول: السؤال عن نفس العجلة، والثاني: السؤال عن سبب التقدم؛ فكان أهمُّ الأمرين عند موسى عليه السلام. الجواب عن هذا الثاني: فقال لم يوجد مني إلا تقدم يسير لا يحتفل به في العادة، وليس بيني وبين قومي إلا تقدم يسير، ثم عقبه بجواب السؤال عن العجلة، فقال: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه: 84]. الثاني: أنه عليه السلام من هيبة عتاب الله تعالى ذهل عن الجواب المنطبق المرتب على حدود الكلام. واعلم أنَّ قوله تعالى: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ﴾ يدلُّ على أنه تعالى أمره بحضور الميقات مع قوم مخصوصين، ثم اختلفوا في المراد بالقوم، فقال قوم: هم النقباء السبعون، اختارهم الله تعالى ليخرجوا معه إلى الطور، فتقدمهم موسى شوقاً إلى الله تعالى. ومنهم من قال: القوم جملة بني إسرائيل، وهم الذين خلَّفهم مع هارون، فأمره أن يقيم فيهم خليفة إلى أن

يرجع هو مع السبعين، فقال: ﴿هُمُ أَوْلَاءُ عَلِيٍّ أَثْرِي﴾، يعني: بالقرب مني ينتظروني. انتهى¹. قال القرطبي: قيل لما وفد موسى عليه السلام إلى طور سيناء بالوعد اشتاق إلى ربه وطال عليه المسافة من شدة شوقه إلى الله تعالى، فضاق به الأمر حتى شق قميصه، ثم لم يصبر حتى خلفهم ومضى وحده، فلما وقف في مقامه، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يُمُوسَى﴾ [طه: 83]، فبقي صلى الله عليه وسلم متحيراً عن الجواب لهذه الكلمة لما استقبله من صدق الشوق، فأعرض عن الجواب [85/ب]، وكفى عنه بقوله: ﴿هُمُ أَوْلَاءُ عَلِيٍّ أَثْرِي﴾، وإنما سأله عن السبب الذي أعجله بقوله "ما" فأخبر عن مجيئهم بالإثر، ثم قال: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ [طه: 84] فكفى عن ذكر الشوق وصرفه إلى ابتغاء الرضى، عن قتادة في قوله: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ قال: شوقاً، وكانت عائشة رضي الله عنها إذا أوت إلى فراشها تقول: هاتوا المجيد فتؤتى بالمصحف، فتأخذه في صدرها وتنام معه، تتسلى بذلك². وكان عليه السلام إذا أمطرت السماء خلع ثيابه، وتجرد حتى يصيبه المطر، ويقول: إنَّه حديث عهد بربه³، فهذا من الرسول صلى الله عليه وسلم ومن بعده من قبيل الشوق؛ ولذلك قال تبارك اسمه فيما يُروى عنه: طال شوق الأبرار إلى لقائي وأنا إلى لقاءهم أشوق. انتهى كلام القرطبي⁴.

﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ﴾ [طه: 85] ألقيناهم في فتنة، ﴿مَنْ بَعْدِكَ﴾ [طه: 85] من بعد خروجك من بينهم، وأراد بالقوم المفتونين الذين خلفهم مع هارون على ساحل البحر، وكانوا ستمائة ألف افتتنوا بالعجل، ما نجي من عبادة العجل منهم إلا اثنا عشر ألفاً، فإن قلت: في القصة أنهم أقاموا بعد مفارقتة عشرين ليلة وحسبها أربعين مع أيامها، وقالوا: قد أكملنا العدة، ثم كان أمر

¹ الرازي، مفاتيح الغيب، 86-85/22، بتصرف.

² لم أجده.

³ مسلم، صحيح مسلم، كتاب صلاة الاستسقاء، باب الدعاء في الاستسقاء، 615/2، حديث رقم: 898.

⁴ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 233-232/11.

العجل بعد ذلك، فكيف التوفيق بين هذا وبين قوله لموسى عند مَقْدَمِهِ ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ﴾ [طه: 85]؟ قلت: قد أخبر الله تعالى عن الفتنة المترتبة بلفظ الموجودة الكائنة على عادته، أو افترض السامري غيبته، فعزم على إضلالهم غَبَّ انطلاقه، وأخذ في تدبير ذلك فكان بَدْءُ الفتنة موجوداً¹. ﴿وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ [طه: 85] بدعائه إياهم إلى عبادة العجل وإجابتهم له. قال ابن عباس: كان السامري من قوم يعبدون البقر، فوقع بأرض مصر، فدخل في دين بني إسرائيل من قبيلة [86/أ] تعرف بالسامرة وهم معروفون بالشام². وفي الكشاف: هو منسوب إلى قبيلة من بني إسرائيل يقال لها السامرة، وقيل: السامرة قوم من اليهود يخالفونهم في بعض دينهم، وقيل: كان من أهل باجرنا موضع بالعراق. وقيل: كان عِلْجاً من كِرمان فاتخذ عِجلاً، واسمه موسى بن ظفر، وكان منافقاً قد أظهر الإسلام، انتهى³. أنشد الزمخشري لنفسه في موسيّن بمكة حرسها الله:

سُئِلْتُ عَنْ مُوسَى وَمُوسَى مَا الْحَبْرُ فُئِلْتُ: شَيْحَانِ كَقِسْمِي الْقَدْرُ

وَالْفَرْقُ بَيْنَ مُوسِيَيْنِ قَدْ ظَهَرَ مُوسَى بِنِ عِمْرَانَ وَمُوسَى بِنِ ظَفَرٍ⁴.

﴿فَرَجَعَ مُوسَى﴾ [طه: 86] من مناجاة ربه ﴿إِلَى قَوْمِهِ غَضَبَانَ أَسْفًا﴾ [طه: 86] شديد

الغضب، أو حزيناً، رجع موسى إلى قومه بعدما استوفى الأربعين ذا القعدة وعشر ذي الحجة، ثم إنَّه تعالى حكى أنَّ موسى عاتبهم بعد رجوعه إليهم بقوله: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا﴾ [طه: 86] وعدهم الله تعالى أن يعطيهم التوراة التي فيها هدى ونور، ولا وعداً أحسن من ذلك وأجمل، وكانت

¹ الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 81/3.

² القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 233-232/11.

³ الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 81/3.

⁴ الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، جار الله، ربيع الأبرار ونصوص الأخيار، (بيروت: مؤسسة الأعلمي، ط1، 1412هـ)، 233/4.

التوراة ألف سورة، كلِّ سورة ألف آية، يحمل أسفارها سبعون جملاً، كذا في الكشاف¹. قال القرطبي: ﴿وَعَدَا حَسَنًا﴾ [طه: 86]، وعدهم عز وجل الجنة إذا أقاموا على الطاعة، ووعدهم أنه يُسمعهم كلامه في التوراة على لسان موسى؛ ليعملوا بما فيها فيستحقوا ثواب عملهم. وقيل: وعدهم النصر والظفر. وقيل: وعداً حسناً هو قوله: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [طه: 82] الآية ﴿أَفْطَالَ عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ﴾ العهد الزمان، أي: مدة مفارقتي إياكم، يقال طال عهدي بك، أي: طال زماني بسبب مفارقتك [86/ب]، ﴿أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [طه: 86] أي: أردتم أن تفعلوا فعلاً يجب عليكم الغضب من ربكم، ﴿فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾ [طه: 86] وعدوه أن يقيموا على أمره، وما تركهم عليه من الإيمان، فأخلفوا موعده باتخاذ العجل. ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلَكِنَا﴾ [طه: 87] بفتح الميم مدني وعاصم، وبضمها حمزة وعلي، وبكسرهما غيرهم²، أي: ما أخلفنا موعدك بأن ملكنا أمرنا، أي: لو ملكنا أمرنا وحلينا ورأينا لما أخلفناه، ولكن غلبنا من جهة السامري وكيده. قال القرطبي: قيل: قوله عامٌّ يراد به الخاص، أي: قال الذين ثبتوا على طاعة الله تعالى إلى أن يرجع إليهم من الطور، وكانوا اثني عشر ألفاً، وكان جميع بني إسرائيل ستمائة ألف³. قال الإمام فخر الدين: فإن قيل: كيف يُعقل رجوع قريب من ستمائة ألف إنسان من العقلاء المكلفين عن الدين الحق دفعةً واحدةً إلى عبادة العجل التي عُرف فسادها بالضرورة، ثم إنَّ الجميع لما فارقوا الدين وأظهروا الكفر كيف يُعقل رجوعهم دفعةً واحدةً عن ذلك الدين بسبب رجوع موسى عليه السلام وحده إليهم؟ قلنا: هذا غير ممتنع في حق البُله من الناس. انتهى⁴ ﴿وَلَكِنَّا حُمِلْنَا﴾ [طه: 87] بالضم والتشديد⁵ حجازي وشامي وحفص أي: حُمِلْنَا غيرنا، وبفتح

¹ الرخمشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 82/3.

² البغدادي، السبعة في القراءات، 422.

³ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 234/11.

⁴ الرازي، مفاتيح الغيب، 89/22.

⁵ البغدادي، السبعة في القراءات، 423. الفارسي، الحجة للقراء السبعة، 245/5.

الحاء والميم غيرهم أي: حَمَلْنَا غيرهم، ﴿أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ﴾ [طه: 87] أثقالاً من حُلِيِّ الْقِبْطِ التي استعزناها منهم، أو أراد بالأوزار أنها آثام وتبعات؛ لأنهم كانوا معهم في حكم المستأمنين في دار الحرب، وليس للمستأمن أن يأخذ مال الحربي، على أن الغنائم لم تكن تحل حينئذ¹. قال الكواشي: أوزاراً أي: حُلِيًّا من زينة القوم -قوم فرعون- كانوا استعاروها منهم لعلَّ [87/أ] عُرس فبقيت عندهم، وقيل: قذف البحر حُلِيَّ آل فرعون فأخذها بنو إسرائيل فبقيت غنيمة عندهم، وكانت الغنيمة لا تحل لهم، فحفروا حفرة ليتروها فيها إلى عود موسى، وقيل: أوقدوا في الحفيرة ناراً، فأحرقوها، فجاءت في حُفْرَةِ النَّارِ قَالَبٌ عَجَلٍ فانصاغت عَجَلًا مُجَوَّفًا، فخار بدخول الريح في مجاري منه أَشْبَاهُ الْعُرُوقِ. وقيل: نفخ فيه تراب موضع قوائم فرس جبريل عليه السلام يوم الغرق، وهو فرس حَيَاةٍ، فَحَيِّيَ فَخَارَ وَمَالَ طَبَاعِهِمْ إِلَى الذَّهَبِ فَعَبَدُوهُ². ﴿فَقَدَّفْنَاهَا﴾ [طه: 87] في نار السامري التي أوقدها في الحفرة وأمرنا أن نطرح فيها الحلي³. قال القرطبي: قال قتادة: إنَّ السامري قال لهم حين استبطن القوم: موسى إنما احتبس عليكم من أجل ما عندكم من الحلي فجمعوه ودفعوه إلى السامري، فرمى به النار وصاغ لهم منه عَجَلًا، ثم ألقى عليه قبضة من أثر فرس الرسول وهو جبريل عليه السلام، وقال معمر: الفرس الذي كان عليه جبريل هو الحياة، فلما ألقى القبضة عليه صار عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خَوَارٌ، والخوار: صوت البقر. وقال ابن عباس: لما انْسَكَبَتِ الحلي في النار جاء السامري وقال لهارون: يا نبي الله ألقى ما في يدي وهو يظن أنه كبعض ما جاء به غيره من الحلي، فقذف التراب فيه وقال: كن عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خَوَارٌ، فكان كما قال للبلاء والفتنة، فخار خورَةً واحدةً لم يُسْمَعِ مثلها⁴. وقيل: خواره وصوته كان بالريح؛ لأنَّه كان عَمِلَ فِيهِ خُرُوقًا فَإِذَا دَخَلَتِ الرِّيحُ فِي

¹ الرمحشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 82/3.

² الكواشي، التلخيص في تفسير القرآن العظيم، 188/3.

³ النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 379/2.

⁴ أخرجه الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، 64/2.

جوفه خار ولم يكن فيه حياة، وهذا قول مجاهد¹، وعلى القول الأول: كان عجلًا من لحم [87/ب] ودم، وهو قول الحسن وقتادة² والسدي. وروي حماد³ عن سماك⁴ عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مرَّ هارون بالسامري وهو يصنع العجل فقال: ما هذا؟ فقال: ينفع ويضر، فقال: اللهم أعطه ما سألك على ما في نفسه، فقال: اللهم إني أسألك أن يخور فكان إذا خار سجد، فكان الخوار من أجل دعوة هارون⁵، قال ابن عباس: خار كما يخور الحَيُّ من العجول، وروي أنَّ موسى عليه السلام قال: يا رب هذا السامري أخرج لهم عجلًا جسدًا له خوار من حليهم، فمن جعل الجسد والخوار؟ قال الله تعالى: أنا. قال موسى عليه السلام: وعزتك وجلالك وارتفاعك وعلوك وسلطانك ما أضلَّهم غيرك، قال: صدقت يا حكيم الحكماء⁶، وقد تقدم هذا في سورة الأعراف⁷. انتهى كلام القرطبي⁸.

﴿فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ [طه: 87] ما معه من الحلي في النار، أو ما معه من التراب الذي أخذه من أثر حافر فرس جبريل عليه السلام⁹. قال الزمخشري: أراهم أنه يُلقى حلياً في يده مثل ما ألقوا، وإنما ألقى التربة التي أخذها من موطن حيزوم فرس جبريل، أوحى إليه وليُّ الشيطان أنها إذا خالطت موثاً صار حيواناً، فأخرج لهم السامري من الحفرة عجلًا، خلقه الله تعالى من الحلي التي سبكتها النار يخور كما

¹ مجاهد، تفسير مجاهد، 465.

² قتادة، تفسير قتادة، 38/3.

³ هو أبو سلمة حماد بن سلمة بن دينار الربيعي، مولى ربيعة بن مالك، ويقال مولى تميم، من أعلام البصريين وأئمتهم، كثير الحديث، واسع الرواية، مشهور بالسنة والعبادة توفي سنة: 167هـ. ابن الأثير، جامع الأصول في أحاديث الرسول، 318/12.

⁴ هو أبو المغيرة، يَمَّاك بن حَزْب بن أوس بن خالد بن نزار بن معاوية بن حارثة بن ربيعة بن عامر بن دُهَل بن ثعلبة الدُهَلِي البكري الكوفي، تابعي مشهور، قال: أدركتُ ثمانين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، ذهب بصره، ثم شفي وعاد إليه، توفي سنة: 123هـ. ابن الأثير، جامع الأصول في أحاديث الرسول، 477/12. الزركلي، الأعلام، 138/3.

⁵ أخرجه الحاكم، المستدرک على الصحيحين، كتاب التفسير، تفسير سورة الأعراف، 351/2، صحيح على شرط مسلم.

⁶ لم أقف عنده، ولعل هذه من الروايات الإسرائيلية التي رويت في هذا الباب.

⁷ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 284/7.

⁸ المصدر نفسه، 235/11.

⁹ النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 379/2.

تخور العجاجيل¹. قال الإمام فخر الدين: اختلفوا في ذلك الجسد الذي له خوار هل كان حياً أم لا؟ فقيل: لا؛ لأنه لا يجوز إظهار خارق العادة على يد الضال بل السامري صوّر صورة على شكل العجل، وجعل فيها منافذ ومجاري بحيث تدخل فيها الرياح، ويخرج صوت يشبه صوت العجل. وقيل: صار حياً وخار كما يخور العجل؛ بدليل قوله تعالى ﴿فَقَبَضْتُ [88/أ] قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ [طه: 96]، ولو لم يصير حياً لما بقي لهذا الكلام فائدة؛ لأنه تعالى سماه عجلاً، والعجل هو الحيوان، فيجب أن يكون حياً².

﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ﴾ [طه: 88] السامري من الحفرة ﴿عَجَلًا﴾ [طه: 88] خلقه الله تعالى من الحلبي التي سبكتها النار ابتلاءً، ﴿جَسَدًا﴾ [طه: 88] مجسداً ﴿لَهُ خُورًا﴾ [طه: 88] صوت، فكان يخور كما تخور العجاجيل³. قال الزمخشري: فإن قلت: كيف أثرت تلك التربة في إحياء الموت؟ قلت: أما يصح أن يؤثر الله سبحانه رُوح القدس بهذه الكرامة الخاصة، كما أمره بغيرها من الكرامات، وهي: أن يباشر فرسه بحافره تربة، إذا لاقته تلك التربة جماداً أحياءه الله إن شاء عند مباشرته حيواناً، ألا ترى كيف أنشأ المسيح من غير أبٍ عند نفخه في الدرع. فإن قلت: فلم خلق الله تعالى العجل من الحلبي حتى صار فتنة لبني إسرائيل وضلالاً؟ قلت: ليس بأول محنةٍ محنَ الله بها عباده ل ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ [ابراهيم: 27] ومن عَجِب من خلق العجل، فليكن من خلق إبليس أعجب. انتهى كلامه⁴. ﴿فَقَالُوا﴾ [طه: 88] أي: السامري وأتباعه ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى﴾ [طه: 88] فأجاب عامتهم إلا اثني عشر ألفاً⁵. قال الإمام فخر الدين: في هذا

¹ الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 82/3.

² الرازي، مفاتيح الغيب، 89/22.

³ النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 379/2.

⁴ الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 82/3-83.

⁵ النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 379/2.

إشكال، وهو أنّ القوم إن كانوا في الجهالة بحيث اعتقدوا أن ذلك العجل المعمول في تلك الساعة هو الإله الخالق، فهم مجانين وليسوا بمكلفين، وإن لم يعتقدوا ذلك فكيف قالوا هذا إلهكم وإله موسى؟ والجواب: لعلمهم كانوا من الحلولية¹، فجوّزوا حلول الإله أو حلول صفة من صفاته في ذلك الجسم، وإن كان ذلك أيضاً في غاية البعد؛ لأنّ ظهور الخوار لا يناسب [88/ب] الإلهية² ﴿فَنَسِيَ﴾ [طه: 88] موسى ربه وذهب يطلبه عند الطور، أو هو ابتداء كلام من الله تعالى، أي: نسي السامري ربه وترك ما كان عليه من الإيمان الظاهر، أو نسي السامري الاستدلال على أن العجل لا يكون إلهاً، وأن الإله لا يحلّ في شيء، ولا يحلّ فيه شيء، بدليل قوله: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ﴾ [طه: 89]، أي: أنه لا يرجع فإنّ مخففة من الثقيلة ﴿إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ [طه: 89] أي يجيبهم ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [طه: 89] أي: هو عاجز عن الخطاب، والضرّ والنفع، فكيف يتخذونه إلهاً؟ والإله الذي يعبد موسى عليه السلام يضر و ينفع ويثيب وتعطي و يمنع. وقيل: إنّه ما خار إلا مرة واحدة. كذا في المدارك³. ونظير هذا قول إبراهيم عليه السلام: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ [مریم: 42]. قال الإمام فخر الدين: وهذه الآية تدل على وجوب النظر في معرفة الله تعالى، وقال في آية أخرى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: 148]، وهو قريب في المعنى من قوله تعالى في ذم عبدة الأصنام: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُمْ أَزْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: 195]، وليس المقصود من هذا أنّ العجل لو كان يكلمهم لكان إلهاً؛ لأنّ حصول الشرط وهو الكلام، لا يقتضي حصول المشروط، قال بعض اليهود لعلي رضي الله عنه: ما دفتتم

¹ وهم فرق ظهرت في دولة الإسلام، لإفساد التوحيد على المسلمين، منهم غلاة الروافض الذين ادعوا حلول الإله في الأئمة، والمقتبية بما وراء النهر والرزامية والبركوكية والحلمانية والحلاجية والغدافة، طاهر بن محمد الأسفراييني، أبو المظفر، التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق المالكين، (لبنان، عالم الكتب، ط1، 1403هـ)، 130.

² الرازي، مفاتيح الغيب، 90/22.

³ المصدر السابق، 378/2-379.

نبيكم حتى اختلفتم، فقال: ما اختلفنا فيه، وأنتم ما جفت أقدامكم عن ماء البحر حتى قلت لنبىكم اجعل لنا إلهاً كما لهم آله¹. انتهى كلامه².

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ﴾ [طه: 90] لمن عبدوا العجل ﴿هَارُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ [طه: 90] من قبل رجوع موسى إليهم ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ﴾ [طه: 9] ابتليتكم بالعجل فلا تعبدوه ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ﴾ [طه: 90] لا العجل ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ [طه: 90] كونوا على ديني الذي هو الحق ﴿وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ [طه: 90] في ترك عبادة العجل³. قال الإمام فخر الدين: اعلم أنّ هارون [أ/89] عليه السلام، إنما قال ذلك شفقة منه على نفسه وعلى الخلق، أمّا شفقتة على نفسه؛ فلأنّه كان مأموراً من عند الله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان مأموراً من عند أخيه موسى عليه السلام بقوله: ﴿أَخْلَفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: 142]، ولو لم يشغل بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كان مخالفاً لأمر الله تعالى ولأمر موسى، وذلك لا يجوز. أوحى الله سبحانه إلى يوشع بن نون: إني مُهْلِكٌ مِنْ قَوْمِكَ أَرْبَعِينَ أَلْفًا مِنْ خِيَارِهِمْ، وَسِتِّينَ أَلْفًا مِنْ شِرَارِهِمْ، قَالَ: يَا رَبِّ، هَؤُلَاءِ الْأَشْرَارُ، فَمَا بَالُ الْأَخْيَارِ؟ قَالَ: إِنَّهُمْ لَمْ يَعْضُبُوا، وَكَانُوا يُؤَاكِلُونَهُمْ وَيُشَارِبُونَهُمْ⁴، وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « مَنْ أَصْبَحَ وَهَمُّهُ عَيْزُ اللَّهِ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ، وَمَنْ أَصْبَحَ لَا يَهْتَمُّ لِلْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ »⁵، وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ (وَتَعَاطُفِهِمْ) مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى (مِنْهُ)⁶ »

¹ أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، فضائل الصحابة، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1، 1403هـ، 725/2)، حديث رقم: 1245.

² الرازي، مفاتيح الغيب، 90/22.

³ الرازي، مفاتيح الغيب، 90/22.

⁴ ابن أبي الدنيا، العقوبات، 27، برقم: 13. البيهقي، شعب الإيمان، فصل ومن هذا الباب مجابهة الظلمة، 53/7، برقم: 9428.

⁵ أخرجه الأصفهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، من الطبقة الأولى من التابعين، فرقد السبخي ومنهم المعرض عن الفاني الوبي. 48/3. والبيهقي، شعب الإيمان، باب: الزهد وقصر الأمل، 155/13، حديث رقم: 10102، ضعيف.

⁶ (وتعاطفهم - منه) مثبتتان في تفسير الرازي.

عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَى»¹، وأما على الخلق فلأن الإنسان يجب أن يكون رقيق القلب مشفقاً على أبناء جنسه، وأيُّ شفقة أعظم من أن ترى جمعاً يتهافنون على النار فتمنعهم منها، وعن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى اطْلُبُوا الْفَضْلَ (عِنْدَ الرَّحْمَاءِ مِنْ عِبَادِي تَعِيْشُوا فِي أَكْنَافِهِمْ (فَإِنِّي جَعَلْتُ فِيهِمْ رَحْمَتِي) ² وَلَا تَطْلُبُوهَا فِي الْفَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ فَإِنَّ فِيهِمْ عَظِي»³. إذا ثبت (ذلك⁴فاعلم) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والشفقة على الخلق واجب، فإنَّ هارون عليه السلام رأى الخلق متهافنين على النار، فلم يبال بكثرتهم، ولا بقوتهم بل صرَّ بالحق، وقال: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ﴾ الآية، واعلم أنَّ هارون عليه السلام سلك في هذه الموعظة الوجه الأحسن؛ لأنَّه زجرهم عن الباطل أولاً بقوله: ﴿إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ﴾ ثم دعاهم إلى معرفة الله تعالى، ثانياً بقوله: [89/ب] ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ﴾، ثم دعاهم ثالثاً إلى معرفة النبوة بقوله: ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾، ثم دعاهم إلى الشرائع رابعاً بقوله: ﴿وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾، وهذا هو الترتيب الجيد؛ لأنَّه لا بدَّ قبل الإقدام على الشيء من إمطة الأذى عن الطريق، وهو إزالة الشبهات، ثم معرفة الله تعالى، فإنها هي الأصل، ثم النبوة، ثم الشريعة. وإنما قال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ﴾؛ لأنَّه ينبههم على أنهم متى تابوا قَبِلَ اللهُ تَوْبَتَهُمْ بِرَحْمَتِهِ، ومن رحمته أن خلَّصهم من آفات فرعون، ثم إنهم لجهلهم قابلوا هذا الترتيب الحسن في الاستدلال بالتقليد والجحود، كما قال تعال: ﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ﴾ [طه: 91]، لن نزال مقيمين على العجل وعبادته ﴿حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ [طه: 91] فننظر هل يعده كما عبدناه وهل يصدق السامري أم لا؟! فتوهما أنَّ موسى يعبد

¹ مسلم، صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب: تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، 4/1999، حديث رقم: 2586، باب: تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم.

² مثبتة من تفسير الرازي.

³ أخرجه أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر بن علي بن حكيم المصري، مسند الشهاب، استغنوا عن الناس ولو بشوص سواك، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط2، 1407هـ)، 406/1، حديث رقم: 700، ضعيف.

⁴ مثبتة من تفسير الرازي.

العجل، فاعتزلهم هارون في اثني عشر ألفاً الذين لم يعبدوا العجل، فلما رجع موسى وسمع الصياح والجلبة¹، وكانوا يرقصون حول العجل؛ قال للسبعين الذين معه: هذا صوت الفتنة، فلما رأى هارون أخذ شعر رأسه يمينه وحيته بشماله غضباً كما قال تعالى² ﴿قَالَ يَهُرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾ [طه: 92] بعبادة العجل ﴿أَلَا تَتَّبِعَنِ﴾ [طه: 93] بالياء في الوصل والوقف مكى³، وافقه أبو عمرو ونافع في الوصل، وغيرهم بلا ياء، أي ما دعاك إلى أن لا تتبعني لوجود التعلق بين الصارف عن فعل الشيء وبين الداعي إلى تركه. وقيل: "لا" مزيدة، والمعني: أي شيء منعك أن تتبعني حين لم يقبلوا قولك وتلحق بي وتخبرني، أو ما منعك أن تتبعني في الغضب لله، وهلا قاتلت من كفر بمن آمن، ومالك لم تباشر الأمر كما كنت أباشره أنا لو كنت شاهداً ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ [طه: 93] الذي أمرتك به من القيام [90/أ] بمصالحهم⁴، وهو قول موسى لأخيه هارون ﴿أَخْلَفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: 142] فلما أقام معهم، ولم يبالغ في منعهم والانكار عليهم، نسبه إلى عصيانه ومخالفة أمره⁵. قال القرطبي: وسئل الإمام أبو بكر الطرطوشي⁶ رحمه الله: ما يقول سيدنا الفقيه في مذهب الصوفية أنه يجتمع جماعة من الرجال فيكثروا من ذكر الله تعالى وذكر محمد صلى الله عليه وسلم، ثم إنهم يوقعون بالقضيب على شيء من الأديم ويقوم بعضهم يرقص ويتواجد حتى يقع مغشياً عليه ويحضرون شيئاً يأكلونه، هل الحضور معهم جائز أم لا، وهذا القول يذكرونه:

¹ هي اختلاط الصوت. ابن منظور، لسان العرب، مادة: جلب.

² القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 237/11.

³ مكى: يقصد به من القراء السبعة ابن كثير المكى. الدوسري، مختصر العبارات لمعجم مصطلحات القراءات، 122.

⁴ النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 380/2.

⁵ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 237/11.

⁶ محمد بن الوليد بن محمد بن خلف القرشي الفهري الأندلسي، أبو بكر الطرطوشي المالكي، معروف بالعبادة والفضل نزل بالإسكندرية، توفي بالإسكندرية سنة: ٥٢٠هـ. محمد بن عبد الغني بن أبي بكر بن شجاع، أبو بكر، معين الدين، ابن نقطة الحنبلي البغدادي، التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1409هـ)، 117.

يَا شَيْخُ كَفَّ عَنِ الذُّنُوبِ قَبْلَ التَّفَرُّقِ وَالرَّزْلِ

وَأَعْمَلْ لِنَفْسِكَ صَالِحاً مَا دَامَ يَنْفَعُكَ الْعَمَلُ

أَمَّا الشَّبَابُ فَقَدْ مَضَى وَمَشِيبُ رَأْسِكَ قَدْ نَزَلَ

وفي مثل هذا وجوه، ما الجواب يرحمك الله؟ فأجاب: مذهب الصوفية بطلالة وجهالة وضلالة، وما الإسلام إلا كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وأما الرقص والتواجد¹ فأول من أحدثه أصحاب السامري لها اتخذ لهم العجل جسداً له حوار²، وأما القضيب فأول من اتخذ الزنادقة؛ ليشغلوا به المسلمين عن كتاب الله تعالى، وإنما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أصحابه كأنما على رؤوسهم الطير من الوقار³، فينبغي للسلطان ونوابه أن يمنعهم من الحضور في المساجد وغيرها، ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضر معهم ولا يعينهم على باطلهم، هذا هو مذهب مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهم من المسلمين⁴، والله الموفق. انتهى كلام القرطبي⁵. ثم أخذ موسى شعر رأس هارون

¹ يختلف الصوفية في بيان معناه، فمنهم من يراه مستعصياً على التعريف، وكأنه من باب الوجدانيات القلبية التي يصعب تصورها وتصويرها، ومنهم من عرفه بأنه "ما صادف القلب من فرع أو غم أو رؤية معنى من أحوال الآخرة"، أو هو: لب يتأجج من شهود عارض القلق"، أو: كما يصادف القلب ويرد عليه، بلا تكلف وتصنع.

² والحوار: صوت الثور، وما اشدت من صوت البقرة والعجل، تقول: خازَ بَحْوَرٌ حَوْرًا وحواراً. الفراهيدي، العين، 303/3.

³ أخرجه أحمد، مسند الإمام أحمد بن حنبل، مسند الكوفيين، حديث أسامة بن شريك، 394/30، حديث رقم: 18453. وأخرجه أبو داود، سنن أبي داود، كتاب الطب، باب: في الرجل يتداوى، 175/1، حديث رقم: 3855، صحيح.

⁴ أحمد بن محمد بن إسماعيل الطحاوي الحنفي، حاشية الطحاوي على مراقي الفلاح شرح نور الإيضاح، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1418هـ)، 319. شمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي، معني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1415هـ)، 348/6. أبو بكر بن محمد بن عبد المؤمن بن حريز بن معلى الحسيني الحصري، تقي الدين الشافعي، كفاية الأختار في حل غاية الإختصار، (دمشق: دار الخير، ط1/1994م)، 191. أبو الفضل القاضي عياض بن موسى اليحصبي، ترتيب المدارك وتقريب المسالك، (المغرب، مطبعة فضالة، ط1، 1970م)، 54/2. أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد البغدادي الفاسي المالكي الشهير بابن الحاج، المدخل، (بيروت: دار التراث، بدون طبعة وتاريخ)، 97/3. موفق الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي الجماعلي دمشقي الصالح الحنبلي، المغني، (الرياض: دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1417هـ)، 159/14.

⁵ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 237/11-238.

بيمينه وحيته بشماله غضباً وإنكاراً عليه؛ لأنَّ الغيرة لله ملكته [90/ب]. قال الزمخشري: كان موسى صلوات الله عليه رجلاً حديداً مجبولاً على الحدة والخشونة والتصلب في كل شيء، شديد الغضب لله ولدينه، فلم يتمالك حين رأى قومه يعبدون عجلاً من دون الله، من بعد ما رأوا من الآيات العظام، أنَّ ألقى ألواح التوراة لما غلب ذهنه من الدهشة العظيمة غضباً لله، واستنكافاً وحمية، وعنف بأخيه وخليفته على قومه، فأقبل عليه إقبال العدو المكاشف، قابضاً على شعر رأسه، وكان أفرع¹، وعلى شعر وجهه يجزه إليه، انتهى².

﴿قَالَ يَبْنَؤُمْ﴾ [طه: 94] وبخفض الميم شامي وكوفي غير حفص³، وكان أخاه لأبيه وأمه عند الجمهور⁴، ولكنه ذكر الأمر استعطافاً وترقيقاً⁵ ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ [طه: 94] قال القرطبي: أي لا تفعل هذا بي يتوهما أنه منك استخفاف أو عقوبة. قيل: إنَّ موسى عليه السلام لم يفعل هذا استخفافاً ولا عقوبة، بل كما يأخذ الإنسان بلحية نفسه. انتهى⁶. قال الإمام فخر الدين: واعلم أنه ليس في القرآن من يدل على أنه أخذ بلحيته ورأسه، فإنَّ النهي عن الشيء، لا يدل على كون المنهي فاعلاً للمنهي عنه، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطْعِ الْكُفْرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب: 48] ومن الناس من يقول أنه أخذ ذؤابته بيمينه وحيته بيساره، انتهى⁷. ثم ذكر هارون عُذره فقال: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ﴾ [طه: 94] إذا قاتلت بعضهم ببعض ﴿فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [طه: 94] أو خفت أن تقول إن فارقتهم

¹ أفرع: تام الشعر. الفارابي، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، 1258/3.

² الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 84/3.

³ البغدادي، السبعة في القراءات، 423. أبو عمرو الداني، جامع البيان في القراءات السبع، 1362/3.

⁴ قاله ابن عباس والكلبي. الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، 58/6. ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، 157/2.

⁵ النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 380/2.

⁶ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 238/11-239.

⁷ الرازي، مفاتيح الغيب، 94/22.

واتبعتك ولحق بي فريقٌ وتبع السامري فريق: فرقت بين بني إسرائيل ﴿وَمَ تَرْقُبُ﴾ [طه: 94] تحفظ ﴿قَوْلِي﴾ [طه: 94] واخلفني في قومي وأصلح. وفي قول هارون دليل على جواز الاجتهاد¹. واعلم أنَّ موسى عليه السلام [91/أ] لما فرع من مخاطبة هارون عليه السلام، وعرف عذره في التأخر، تركه وأقبل على السامري، ولا يبعد أن يكون حاضراً مع هارون ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ﴾ [طه: 95] ما أمرك الذي تخاطبُ عليه. وقيل: ما أمرك وشأنك، وما الذي حملك على ما صنعت. قال القرطبي: قال قتادة: كان السامري عظيماً في بني إسرائيل من قبيلة يقال لها سامرة، ولكنَّ عدوَّ الله نافقٌ بعد ما قطع البحر مع موسى، فلمَّا مرت بنو إسرائيل بالعمالقة²، وهم يعكفون على أصنام لهم، قالوا يا موسى: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إلهًا كَمَا لَهُمْ ءِلهَةٌ﴾ [الأعراف: 138] فاغتمها السامري، وعلم أنهم يميلون إلى عبادة العجل، فقال السامري مجيباً لموسى كما حكى الله عنه: ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾³ [طه: 96] وبالتاء حمزة وعلي⁴، قال الزجاج: بَصُرَ عَلِمَ، وأبْصَرَ نَظَرَ أي: علمت ما لم يعلمه بنو إسرائيل، قال موسى: وما ذاك؟ قال: رأيت جبريل على فرس الحياة فألقي في نفسي أن أقبضَ من أثر فرسه، فما ألقىته على شيء إلا صار له روحٌ ولحمٌ ودمٌ⁵ ﴿فَقَبِضْتُ قَبْضَةً﴾ [طه: 96] القبضة: المرة من القبض، وإطلاقها على المقبوض من تسمية المفعول بالمصدر، كضرب الأمير، وقرئ: فقبضتُ⁶ قبضةً، فالضادُ الأخذ بجميع الكف، والصاد بأطراف الأصابع، ونحوهما الحَضْمُ، والقَضْمُ الخاء بجميع الفم، والقاف بمقدمه. كذا في الكشاف⁷. ﴿مِنْ

¹ النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 380/2.

² العمالقة: هم الجبابرة الذين كانوا بالشَّام من بقايا قوم عاد، وهو جمع مفردة عملاق أو عمليق. ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، 301/3.

³ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 239/11.

⁴ البغدادي، السبعة في القراءات، 424. الفارسي، الحجة للقراء السبعة، 43/7.

⁵ النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 381/2.

⁶ وهي عن الحسن، وفتادة وبرواية أبي عوانة. يوسف بن علي بن جبارة بن محمد بن عقيل بن سواده أبو القاسم الهذلي البشكري المغربي، الكامل في القراءات والأربعين الزائدة عليها، (الشارقة: مؤسسة سما للتوزيع والنشر، ط1، 1428هـ)، 599.

⁷ الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 3، 84.

أثر الرسول ﴿ [طه: 96] أي: من أثر فرس الرسول، وقرئ بها¹ ﴿فَنَبِّدْهَا﴾ [طه: 96] فطرحتها في جوف العجل². قال الزمخشري: فإن قلت: لم سَمَّاهُ الرسول دون جبريل وروح القدس؟ قلت: حين حلَّ ميعاد الذهاب إلى الطور، أرسل الله تعالى إلى موسى جبريل، وجبريل ركب حيزوم فرس الحياة ليذهب به، فأبصره السامري، فقال [91/ب]: إِنَّ لهذا لشأناً، فقبض القبضة من تربة موطنه، فلمَّا سأله موسى عن قصته، قال: قبضت من أثر فرس المرسل إليك يوم حلول الميعاد، ولعلَّه لم يعرف أنه جبريل³. انتهى كلامه⁴. وقال الإمام فخر الدين: اختلفوا متى رأى السامري جبريل؟ فقال الأكثرون: إنما رآه يوم فلق البحر، وعن علي رضي الله عنه: أنَّ جبريل لما نزل ليذهب بموسى إلى الطور أبصره السامري من بين الناس⁵. واختلفوا أنَّ السامري كيف اُختصَّ برؤية جبريل عليه السلام، ومعرفته بين الناس؟ وقال ابن عباس في رواية الكلبي: إنما عرفه؛ لأنَّه رباه في صغره، وحفظه من القتل حين أمر فرعون بذبح أولاد بني إسرائيل، فكانت المرأة تلد وتطرح ولدها، فتأخذ الملائكة الولد فيربونه إلى أن يتعرع ويخالط الناس، فكانت أم السامري جعلته في غار حين وضعته، خوفاً من فرعون أن يقتله، فكان السامري ممن أخذه جبريل، فجعل كفَّ السامري في فم السامري، وارتضع منه العسل واللبن، فلم يزل يختلف إليه حتى عرفه من حينئذ، فلما رآه عرفه. قال أبو مسلم الأصبهاني⁶: ليس في القرآن تصريحٌ بهذا الذي ذكره المفسرون⁷، وهنا وجه آخر: وهو أن يكون المراد بالرسول موسى، وبأثره سنَّته ورسمه الذي أمر به، والتقدير: أنَّ موسى عليه السلام لما

¹ وهي من قراءة ابن مسعود رضي الله عنه. الماوردي، تفسير الماوردي = النكت والعيون، 120/1.

² النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 381/2.

³ وهو قول علي رضي الله عنه. أبو حيان، البحر المحيط في التفسير، 376/7.

⁴ الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 84/3.

⁵ أخرجه ابن كثير في تفسيره، تفسير القرآن العظيم، 313/5.

⁶ هو محمد بن علي بن مهر بزد، أبو مسلم الأصبهاني الأديب، المفسر، النحوي له تفسير كبير، من كبار المعتزلة، توفي سنة: 459هـ.

الذهبي: ميزان الاعتدال في نقد الرجال، 655/3.

⁷ وكل هذا ليس عليه أثارة من علم ولا يدل عليه التنزيل الكريم. محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي، محاسن

التأويل، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1418هـ)، 144/7.

أقبل على السامري باللوم على الأمر الذي دعاه إلى إضلال القوم في باب العجل، فقال: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾، أي: عرفت أن الذي أنتم عليه ليس بحق فقد كنت قبضت قبضةً من أثرك أيها الرسول، أي: شيئاً من سنتك ودينك فقدفته، أي: طرحته؛ فعند ذلك [92/أ] أعلمه موسى بما له من العذاب في الدنيا والآخرة، ولا يُستتاب في أن ما ذكره أبو مسلم فهو أقرب؛ لأنه لا بد من التعسف في بيان أن السامري كيف اختص من بين جميع الناس برؤية جبريل ومعرفته؟ ثم كيف عرف أن التراب حافر فرس جبريل؟ وهذا الأثر يفيد الحياة، والذي ذكره من أن جبريل رباه بعيد أيضاً؛ لأن السامري إن عرف أنه جبريل حال كمال عقله، عرف قطعاً أن موسى نبي صادق؛ فكيف يحاول الإضلال؟ وإن كان ما عرفه فأني ينفعه كون جبريل عليه السلام مُريباً له حال الطفولية في حصول تلك المعرفة؟ وأيضاً لو جاز اطلاع بعض الكفرة على تراب هذا شأنه، لكان لقائل أن يقول: فلعل موسى عليه السلام اطلع على شيء آخر يشبه ذلك، فلأجله أتى بالمعجزات، انتهى كلام فخر الدين¹. قال القرطبي: ويقال إن السامري سمع كلام موسى عليه السلام حيث عمل تمثالين من شمع: أحدهما: ثور، والآخر: فرس، فألقاهما في النيل طلب قبر يوسف، وكان في تابوت من حجر في النيل، فأتى به الثور على قرنه، فتكلم السامري بذلك الكلام الذي سمعه من موسى، وألقى القبض في جوف العجل. انتهى².

﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ﴾ [طه: 96] زَيَّنَتْ، ﴿لِي نَفْسِي﴾ [طه: 96] أَنْ أَفْعَلَهُ، ففعلته اتباعاً

لهوأي. وهذا اعتراف منه بالخطأ واعتذار منه³. ثم إن موسى عليه السلام لما سمع من السامري جوابه، بيّن حاله في الدنيا وفي الآخرة، وبيّن حال إلهه ما حاله في الدنيا، أما شرح حاله في الدنيا فقوله⁴: ﴿قَالَ﴾

¹ الرازي، مفاتيح الغيب، 95/22-96.

² القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 11/240.

³ النسفي، مدارك التنزيل وحفائق التأويل، 381/2.

⁴ الرازي، مفاتيح الغيب، 96/22.

[طه: 97] له موسى ﴿فَاذْهَبْ﴾ [طه: 97] من بيننا طريداً ﴿فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ﴾ [طه: 97] ما عشت ﴿أَنْ تَقُولَ﴾ [طه: 97] لمن أراد مخالطتك جاهلاً بحالك ﴿لَا مَسَاسَ﴾ [طه: 97] لا يمسي أحد ولا أمسه¹. قال الزمخشري: عُوقب السامري في الدنيا بعقوبة لا شيء أطمئ منها وأوحش، وذلك أنه منع من مخالطة الناس منعاً كلياً، وحُرِّم عليهم ملاقاته ومكالمته ومبايعته ومواجهته، وكلُّ ما يُعاش [92/ب] به الناس بعضهم بعضاً، وإذا اتفق أن يماسَّ أحداً رجلاً أو امرأة حُمَّ الماسُّ والممسوس، فتحامى الناس وتحاموه، وكان يصيح لا مساس، وعاد في الناس أوحش من القاتل اللاجئ إلى الحرم، ومن الوحشيِّ النافر في البرية، ويقال: إنَّ قومه باقٍ فيهم ذلك - أي النفور وترك المساس - إلى اليوم². قال القرطبي: يقال بقاياهم إلى اليوم يقولون لا مساس، وإنَّ مسَّ واحد من غيرهم أحداً منهم حُمَّ كلاهما في الوقت. ويقال: ابتلي السامري بالوسواس، وأصل الوسواس من ذلك الوقت. ويقال: إنَّ موسى همَّ بقتل السامري، فقال الله تعالى له: لا تقتله فإنَّه سخيٌّ. ويقال: إنَّ السامري لما قال له موسى: ﴿فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ [طه: 97] خاف فهرب، فجعل يهيم في البرية مع السباع والوحش، لا يكاد أحدٌ من الناس يمسه حتى صار كالقائل لا مساس؛ لبُعده عن الناس، وبعد الناس عنه. قال القرطبي: وهذه الآية أصل في نفي أهل البدع والمعاصي وهجرانهم، وأن لا يخالطوا، وقد فعل النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بكعب بن مالك والثلاثة الذين خُلِّفوا³، ومن التجأ إلى الحرم وعليه دم لا يقتل عند بعض الناس⁴، ولكن لا يُبايع ولا يعامل ولا يُشارى، ويُرهق إلى الخروج، ومن هذا القبيل التغريب في حد الزنا. انتهى كلام القرطبي⁵. قال الإمام فخر الدين: قال مقاتل: إنَّ موسى عليه السلام أخرجه من

¹ النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 381/2.

² الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 85/3.

³ الحديث بطوله لدى مسلم، صحيح مسلم، كتاب التوبة، باب: حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، 105/8، حديث رقم: 2769.

⁴ الكيا الهراسي، أحكام القرآن، 18/1.

⁵ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 241/11.

محلة بني إسرائيل، وقال له: اخرج أنت وأهلك، فخرج طريداً فريداً إلى البواري¹. قال أبو مسلم²: يجوز في
 جملة ما أريد من قول: لا مساس أمر التناسل، فيكون من بُعد الله تعالى إياه انقطاع نسله، فلا يكون له
 ولد يؤنسه، فيخلية الله تعالى من زينة الدنيا، وأما شرح حاله في الآخرة فهو قوله تعالى [93/أ]: ﴿وَإِنَّ
 لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ﴾ [طه: 97] لن يخلفك الله موعدة الذي وعدك على الشرك والفساد في الأرض
 يُعْجِزُكَ لَكَ فِي الْآخِرَةِ بَعْدَ مَا عَاقَبَكَ بِذَلِكَ فِي الدُّنْيَا، فَأَنْتَ مِمَّنْ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ، ذَلِكَ هُوَ الْخَسِرَانِ
 الْمَبِينِ. لن تُخْلَفَهُ³ مكّي وأبو عمرو، وهذا من أخلقت الموعد إذا وجدته خُلْفًا، وأما شرح حال إلهه، فهو
 قوله تعالى: ﴿وَإِنظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ﴾ [طه: 97] وأصله: ظَلَلْتَ فَحَذَفَ اللَّامَ الْأُولَى
 تَخْفِيفًا، ﴿عَاكِفًا﴾ [طه: 97] مقيمًا ﴿لنُحْرِقَنَّهُ﴾ [طه: 97] بالنار ﴿ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ﴾ [طه: 97] لنذريته
 ﴿فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ [طه: 97] فحرقه وذراه في البحر فشرب بعضهم من مائه حُبًّا له، فظهرت على
 شفاههم صُفرة الذهب⁴. قال الزمخشري: وهذه عقوبةٌ ثالثة، وهي إبطال ما أفتن به وفتن وإهدار سعيه،
 وهُدْمُ مَكْرِهِ ﴿وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمُكْرِبِينَ﴾ [آل عمران: 54] انتهى⁵. قال الكواشي: روي
 أنه ذبح فسال منه دم، وقال السدي: أخذ موسى العجل فذبحه ثم حرقه ثم برد عظامه بالمبرد، ثم ذراه في
 البحر. وعن مجاهد: لم يكن له روح وإنما كانت الريح تجري في جوفه. انتهى⁶. وقال القرطبي: قال ابن
 مسعود: اللحم والدم إذا أحرقا صارا رماداً فيمكن تذريته في اليم، فأما الذهب فلا يصير رماداً. وقيل:

¹ مقاتل، تفسير مقاتل، 106/1.

² وهو قول ضعيف جداً. محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني، فتح القدير، (بيروت: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، ط1414/1هـ)، 453/3.

³ البغدادي، السبعة في القراءات، 424.

⁴ الرازي، مفاتيح الغيب، 96/22.

⁵ الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 85-86/3.

⁶ الكواشي، التلخيص في تفسير القرآن العظيم، 191/3.

عرّف موسى ما صيّر به الذهب رماداً، وكان ذلك من آياته. انتهى¹. واعلم أنّ موسى عليه السلام لما فرغ من إبطال ما ذهب إليه السامري عاد إلى بيان الدين الحق، فقال: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ﴾ [طه: 98] أي المستحق للعبادة والتعظيم ﴿اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: 97] تمييزاً، أي: وسع علمه كل شيء. وقيل: يعلم من يعبده ومن لا يعبد، ومحل الكاف من ﴿كَذَلِكَ﴾ [طه: 99] نصب، أي: مثل ما اقتصدنا عليك قصة موسى وفرعون ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ [طه: 99] من أخبار الأمم الماضية، تكثريراً لبيناتك، وزيادةً في معجزاتك ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ﴾ [طه: 99] أعطيناك ﴿مِنْ لَدُنَّا﴾ [طه: 99] من عندنا ﴿ذِكْرًا﴾ [طه: 99] قرآناً فهو ذكر [93/ب] عظيم، وقرآن كريم، فيه النجاة لمن أقبل عليه، وهو مشتمل على الأقاويص والأخبار، الحقيقة بالتفكر والاعتبار². قال الإمام فخر الدين: وسمى القرآن ذكراً كما قال، وهذا ذكر مبارك وعليه وجوه: منها: إنّه كتاب فيه ذكر ما يحتاج الناس إليه في أمور دينهم، ومنها: أنهم يذكرون آلاء الله ونعماءه، وفيه التذكير والموعظة. ومنها: فيه الذكر والشرف كما قال: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: 44]. واعلم أنّه تعالى سمى جميع كتبه ذكراً فقال: ﴿فَسأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ [النحل: 43]. انتهى³.

﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ [طه: 100] عن هذا الذكر، وهو القرآن ولم يؤمن به ﴿فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾ عقوبة ثقيلة، سماها وزراً، تشبيهاً في ثقلها على المعاقب، وصعوبة احتمالها بالحمل الثقيل الذي ينقض ظهرهن ويُلقي عليه جُره⁴، أو لأنّها جزء الوزر وهو الإثم، ﴿خَالِدِينَ﴾ [طه: 101] حال من الضمير في يحمل، وإنما جمع على المعنى ووُجِدَ في "فإنّه" حملاً على لفظ "مَنْ" ﴿فِيهِ﴾ في الوزر، أي: في

¹ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 11/ 242-243.

² النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 2/ 382.

³ الرازي، مفاتيح الغيب، 22/ 97.

⁴ البهر: تتابع النفس. كذا في المخطوط.

جزاء الوزر وهو العذاب، ﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾ ساء في حكم بئس، وفيه ضمير مُبهم يفسره "حِمْلًا"، وهو تمييز، واللام في لهم للبيان، كما في ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: 23]، والمخصوص بالذم محذوف؛ لدلالة الوزر السابق عليه¹.

﴿يَوْمَ يُنْفَخُ﴾ [طه: 102] بدل من يوم القيامة، نَنفَخُ² بالنون أبو عمرو ﴿فِي الصُّورِ﴾ القرن، أو هو جمع صورة، أي: ينفخ الأرواح فيها، دليله قراءة قتادة في الصُّور بفتح الواو جمع صورة³. قال الإمام فخر الدين: فالله تعالى يُعَرِّفُ الناس أمور الآخرة بأمثال ما شوهدها في الدنيا، ومن عادة الناس النفخ في البوق عند الأسفار وفي العساكر، والمراد من هذا النفخ هو النفخة الثانية في الصور لأنه أتبعه بقوله ونحشر المجرمين، فهو نظير قوله: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ [94/أ] ﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ [النبأ: 18]⁴.

﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: 102] حال من المشركين، والزرُق خلاف الكُحل، والعرب تتشاءم بزرقه العيون وتدمه، أي: يُشَوِّه خلقهم بزرقه عيونهم وسواد وجوههم⁵. قال الزمخشري: والزرقة أبغض شيء من ألوان العيون إلى العرب؛ لأنَّ الروم أعداؤهم وهم زرق العيون؛ ولذلك قالوا في صفة العدو: أسود الكبد⁶ أصهب السبال⁷ أزرق العين. وقيل زرقاً أي: عمياً؛ لأنَّ حدقة من يذهب نور

¹ النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 382/2.

² البغدادي، السبعة في القراءات، 424.

³ النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 382/2.

⁴ الرازي، مفاتيح الغيب، 98/22.

⁵ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 11/244.

⁶ عدو أسود الكبد، أي: قد احترق جوفه من الشر. ابن السكيت، أبو يوسف يعقوب بن إسحاق، كتاب الألفاظ (أقدم معجم في المعاني)، (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، ط1، 1998م)، 60.

⁷ (أصهب السبَال)، النهاية: الصهبة مختصة بالشعر وهي حمرة يعلوها سواد. الطيبي، حاشية الطيبي على الكشاف، 10/242.

بصره تراق¹. وقال الأزهري²: زُرْقًا أي: عطاشاً قد ازرقَّت عيوتهم من شدة العطش، قال الزجاج: لأنَّ سواد العيون يتغير، ويزرق من العطش³. قال سعيد بن جبير: قيل لابن عباس في قوله: ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾، وقال في موضع آخر: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمياً وَكُمًا وَصُمًا﴾ [الإسراء: 97] فقال: إنَّ ليوم القيامة حالات: فحالة يكونون فيها زُرْقًا، وحالة عُمياً⁴.

﴿يَتَخَفَتُونَ﴾ [طه: 103] يتساورون ﴿بَيْنَهُمْ﴾ [طه: 103] أي: يقول بعضهم لبعض سرًّا؛ ل هول ذلك اليوم ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ﴾ [طه: 103] ما لبثتم في الدنيا ﴿إِلَّا عَشْرًا﴾ [طه: 103] أي: عشر ليال، يستقصرون مدة لبثهم في القبور، أو في الدنيا⁵، أو بين النفختين وهو مقدار أربعين سنة⁶، كما يعانين من الشدائد التي تذكرهم أيام النعمة والسرور، فيتأسفون عليها، ويصِفُونَهَا بِالْقِصْرِ؛ لأنَّ أيام السرور قصارٌ، أو لأنها ذهبت عنهم، والذاهب وإن طال مدته قصُرت بالانتهاء، ومنه توقيع عبد الله بن المعتز⁷ تحت أطلال الله بقاءك كفى بالانتهاء قِصْرًا، أو لاستطالتهم الآخرة؛ لأنها أبدٌ سرمدٌ يُسْتَقْصَرُ إليها عمر الدنيا ويتفائل لبث أهلها فيها بالقياس إلى لبثهم في الآخرة، وقد رجَّح الله تعالى قول من يكون أشدَّ تقالًا منهم⁸ بقوله: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [طه: 104] يتشاورون بينهم ﴿إِذْ يَقُولُ امْثُلْهُمْ﴾ [طه: 104] [94/ب] ﴿طَرِيقَةً﴾ أوفاهم عقلاً، أعد لهم قولاً ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ قَصَرَ ذلك في أعينهم في جنب ما

¹ الرخشي، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 3/ 87.

² هو محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي أبو منصور، إمام في اللغة والأدب، ونسبته إلى جده الأزهر. له: تهذيب اللغة، وغريب الألفاظ، وتفسير القرآن، وغيرها. توفي بخراسان سنة: 370 هـ. الزركلي، الأعلام، 6/ 202.

³ الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، 3/ 376.

⁴ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 11/ 242-243.

⁵ النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 2/ 383.

⁶ البغوي، معالم التنزيل، 5/ 294.

⁷ هو عبد الله بن محمد المعتز بالله بن المتوكل ابن المعتصم ابن الرشيد العباسي، شاعر مبدع، خليفة يوم وليلة. من مؤلفاته: الزهر والرياح، البديع، الآداب، وغيرها، توفي سنة: 296 هـ. الزركلي، الأعلام، 4/ 118.

⁸ النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 2/ 383.

استقبلهم من أهوال يوم القيامة. وقيل: نَسُوا مقدار لبثهم لشدة ما دهمهم¹، وهو نظير قوله تعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ [المؤمنون: 112] ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِينَ﴾ [المؤمنون: 113] قال الزمخشري: وقيل المراد لبثهم في القبور، ويعضده قوله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ [الروم: 55] انتهى². قال القرطبي: وقيل: أراد ما بين النفخين، وهو أربعون سنة، يُرفع العذاب في تلك المدة عن الكفار في قول ابن عباس، فيستقصرون تلك المدة. انتهى³.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ﴾ [طه: 105] سألو النبي صلى الله عليه وسلم⁴: «ما يصنع بالجبال يوم القيامة؟» وكان سؤالهم على سبيل الاستهزاء، وقيل: لم يُسأل عنها وتقديره: إن سألك ﴿فَقُلْ﴾ [طه: 105] ولذا قرن بالفاء، بخلاف سائر السؤالات مثل قوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى﴾ [البقرة: 222] ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ﴾ [البقرة: 220] ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: 219]، ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ [الأعراف: 187] ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: 85] [﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: 83] لأنها سؤالات تقدمت فوزد جوابها، ولم يكن فيها معنى الشرط فلم يذكر الفاء. ذكر تعالى لأحوال يوم القيامة وأهوالها صفات: الصفة الأولى قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ [طه: 105] يجعلها كالرمل،

¹ البغوي، معالم التنزيل، 294/5.

² الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 87/3-88.

³ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 245/11.

⁴ قال الضحاك: نزلت في مشركي مكة. الرازي، مفاتيح الغيب، 100/22.

ثم يرسل الرياح فَيُفْرِقُهَا كما يُدْرِي الطعام، وقال الخليل: ينفسها أي: يقلعها¹. وقال ابن الأعرابي وغيره: يقلعها قلعاً من أصولها، ثم يصيرها رملاً يسيل سيلاً، ثم تصير هباء كالصوف المنفوش يطيرها الريح هكذا وهكذا² ﴿فَيَذُرُهَا﴾ [طه: 106] أي: فيذر مقارّها ومراكزها، أو يجعل الضمير للأرض للعلم بها، كقوله: ﴿مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [فاطر: 45] ﴿قَاعاً صَفْصَفاً﴾ [طه: 106] مستوية ملساء لا نبات فيها ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجاً﴾ [طه: 107] [95/1] انخفاضاً ﴿وَلَا أَمْتاً﴾ [طه: 107] ارتفاعاً، قال في المدارك: والعوج بالكسر، وإن كان في المعاني، كما أن المفتوح في الأعيان، والأرض عينٌ ولكن لما استوت الأرض استواء لا يمكن أن يوجد فيها اعوجاج بوجهٍ ما، وإن دَقَّتِ الحيلةُ ولَطُفَّتِ جَرَتْ مجرى المعاني. انتهى³. وقال الزمخشري: فإن قلت: قد فرقوا بين العوج والعوج فقالوا: العوج بالكسر في المعاني، والعوج بالفتح في الأعيان، والأرضُ عين فكيف صح فيها الكسر؟ قلت: اختيار هذا اللفظ له موقعٌ حسنٌ بديعٌ في وصف الأرض بالاستواء والملاسة ونفي الاعوجاج عنها، وذلك إنك لو عمدت إلى قطعة أرض فسوّيتها وبالغت في التسوية على عينك وعيون البُصراء، واتَّفقتُم على أن لم يبق فيها اعوجاج قط، ثم استطلعت رأي المهندس فيها وأمرته أن يعرض استواءها على المقاييس الهندسية، لعثر فيها على عوج في غير موضع لا يُدرِك ذلك بحاسة البصر ولكن بالقياس الهندسي، فنفى الله ذلك العوج الذي دقّ ولطّف عن الإدراك، اللهم إلا بالقياس الذي يعرفه صاحب التقدير والهندسة، وذلك الاعوجاج لما لم يدرك إلا بالقياس دون الإحساس لحقّ بالمعاني فقليل فيه عِوَجٌ بالكسر. انتهى⁴. قال القرطبي: وهذه الآية تدخل في باب الرُّقى، تُرْقَى بها النَّالِيلُ تطلع في الجسد، وخاصّة في اليد، تأخذُ ثلاثةَ أَعْوَادٍ من تَبَنِ الشَّعِيرِ، يكون

¹ النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 383/2.

² القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 245/11.

³ النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 383/2.

⁴ الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 88/ 3.

في طرف كلِّ عُودٍ عُقْدَةٌ، تُمَرُّ كُلُّ عُقْدَةٍ عَلَى الثَّالِيلِ وَتَقْرَأُ الْآيَةَ مَرَّةً، ثُمَّ تَعْفُفُ الْأَعْوَادُ فِي مَكَانٍ نَدِيٍّ يَعْفَنُ وَتَعْفَنُ الثَّالِيلُ فَلَا يَبْقَى لَهَا أَثَرٌ، جَرَّبْتُ ذَلِكَ فِي نَفْسِي وَفِي غَيْرِي فَوَجَدْتُهُ نَافِعًا بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى [95/ب].

قال الإمام فخر الدين: وهذه الآية يعني قوله: ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ يدلُّ على أنَّ الأرض ذلك اليوم تكون كُرَّةً حَقِيقَةً؛ لِأَنَّ الْمُضَلَّعَ لَا بَدَّ وَأَنْ يَتَّصِلَ بَعْضُ سَطُوحِهَا بِالْبَعْضِ لَا عَلَى الْاسْتِقَامَةِ، انْتَهَى².

قال: ويحصل من هذه الصفات الأربع، أنَّ الأرض تكون ذلك اليوم مستويةً ملساءً خاليةً من الارتفاع والانخفاض، انْتَهَى³. الصفة الثانية ليوم القيامة: قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ [طه: 108] أضاف اليوم إلى وقت نسف الجبال، أي: يوم إذ نُسِفَتْ، وجاز أن يكون بدلاً بعد بدلٍ من يوم القيامة ﴿يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ﴾ [طه: 108] إلى المحشر، أي: صوت الداعي، وهو إسرئيل حين يضع الصور على فيه ينادي قائماً على صخرة بيت المقدس أيتها العظام البالية، والجلود المتمزقة، واللحوم المتفرقة، هُلِّمِّي إلى عَرْضِ الرَّحْمَنِ، فَيُقْبَلُونَ مِنْ كُلِّ أَوْبٍ⁴ إِلَى صَوْتِهِ لَا يَعْدِلُونَ عَنْهُ، نظيره: ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [ق: 41] الآية⁵. قال الإمام فخر الدين: وفي الداعي قولان: أحدهما: إن ذلك (الدعاء)⁶ هو النفخ في الصور. وثانيهما: إنَّه مَلَكٌ قائم على صخرة بيت المقدس ينادي ويقول: أيتها العظام النخرة، والأوصال المتفرقة، واللحوم المتمزقة، قومي إلى ربك للحساب والجزاء، ويقال: إنَّ إسرئيل عليه السلام يضع قدمه على الصخرة. فإن قيل: هذا الدعاء يكون قبل الإحياء أو بعده؟ قلنا: إن كان المقصود بالدعاء الإعلام وجب أن يكون ذلك بعد الحياة، وإن لم يكن المقصود إعلامهم بل غير ذلك، مثل أن يكون لطفاً

¹ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 11/ 246.

² الرازي، مفاتيح الغيب، 22/ 101.

³ المصدر نفسه، 22/ 101.

⁴ الأوب الناحية. كذا في المخطوط.

⁵ النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 2/ 384.

⁶ في تفسير الرازي: الداعي.

للملائكة ومصالحةً لهم فذلك جائز قبل الإحياء ﴿لَا عِوَجَ لَهُ﴾ [طه: 108] لا يعوجُّ له مدعوٌ بل يستوون إليه من غير انحراف يميناً ولا شمالاً، متَّبِعِينَ لَصَوْتِهِ، الصفة الثالثة: [96/أ] قوله: ﴿وَحَشَعْتِ﴾ [طه: 108] وسكنت وذلت ﴿الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾ [طه: 108] أي: أصحاب الأصوات من شدة الفزع وخفتت هيبة وإجلالاً، فكل لسان ساكت هناك للهيبة، قال¹:

لما أتى خبر الزبير تواضعت سور المدينة والجبال الخشع

﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: 108] صوتاً خفياً كتحرريك الشفافة من غير نُطْقٍ، ومنه الحروف المهموسة وهي عشرة أحرف. وقيل: هو من همس الإبل وهو: صوت أخفائها إذا مشت، أي: لا تسمع إلا خفق الأقدام ونقلها إلى المحشر. قال أبو مسلم: وقد عَلِمَ الإنس والجن أن لا مالك لهم سواه فلا يُسمع لهم صوتٌ يزيدُ على الهمس، وهو أخفى الصوت ويكاد يكون كلاماً لا يُفهم بتحرريك الشفتين لضعفه، وحُقِّقَ لمن كان الله يحاسبه أن يخشع طرقه، ويضعف صوته، ويختلط قوله، ويطول غمه. انتهى².

الصفة الرابعة: قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ [طه: 109] محلّ "من" رفع على البدل من الشفاعة بتقدير حذف المضاف، أي: لا تنفع إلا شفاعة من أذن له الرحمن أي: أذن للشّافع في الشفاعة ﴿وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ [طه: 109] أي: رضي قوله لأجله بأن يكون المشفوع المشفّع له مسلماً، أو نصبٌ على أنه مفعول تنفع، فالآية تدل على أن المشفوع فيه لا بد وأن يكون مرضياً، كذا في المدارك³. قال الإمام فخر الدين: واعلم أن هذه الآية تدل على الشفاعة في حق الفسّاق؛ وذلك لأنّ قوله: ﴿وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ يكفي في صدقه أن يكون الله تعالى قد ارتضى قولاً واحداً من أقواله، والفساق

¹ والبيت من قول جرير. ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب، (القاهرة: دار المعارف، ط3)، 913/2.

² الرازي، مفاتيح الغيب، 101/22.

³ النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 384/2.

قد ارتضى له قولاً واحداً وهو شهادة أن لا إله إلا الله، الصفة الخامسة: قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ [طه: 110] أي الذين يتبعون الداعي. ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [طه: 110] أي يعلم [96/ب] ما تقدمهم من الأحوال وما يستقبلونه. قال الكلبي: ما بين أيديهم من أمر الآخرة، وما خلفهم من أمر الدنيا. وقال مجاهد: ما بين أيديهم من أمر الدنيا والأعمال، وما خلفهم من أمر الآخرة والثواب والعقاب. وقال الضحاك: يعلم ما مضى وما بقي ومتى تكون القيامة¹. ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: 110] قال الزمخشري: لا يحيطون بمعلوماته علماً². وفي المدارك: أي: لا يحيطون به أي: بما أحاط به علم الله، فرجع الضمير إلى ما، أو يرجع الضمير إلى الله تعالى، أي: لا يحيطون بالله علماً؛ لأنه تعالى ليس بمُحَاط. الصفة السادسة: قوله: ﴿وَعَنْتِ﴾ [طه: 111] أي: خضعت وذلت، ومنه قيل للأسير عانٍ، ﴿الْوُجُوهُ﴾ [طه: 111] أي: أصحاب الوجوه³، كقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ [الغاشية: 27]، وإنما خصَّ الوجوه بالذكر؛ لأنَّ الخشوع بها يتبين وفيها يظهر⁴. قال الزمخشري: المراد بالوجوه وجوه العصاة، وأنهم إذا عاينوا يوم القيامة الخيبة والشقاوة وسوء الحساب صارت وجوههم عانية، أي: ذليلة خاشعة مثل وجوه العناة، وهم الأسارى، ونحو قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّتَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الملك: 27] ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بِأَسْرَةٍ﴾ [القيامة: 24]⁵. ﴿لِّلْحَيِّ﴾ [طه: 111] الذي لا يموت، وكل حياة يتعقبها الموت فهي كأن لم تكن، ﴿الْقِيُومِ﴾ [طه: 111] الدائم القائم على كل نفس بما كسبت، أو القائم بتدبير الخلق⁶. روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: « اَطْلُبُوا اسْمَ اللَّهِ الْأَعْظَمُ

¹ الرازي، مفاتيح الغيب، 102/22.

² الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 88/3. الرازي، مفاتيح الغيب، 102/22.

³ النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 385-384/2.

⁴ الرازي، مفاتيح الغيب، 102/22.

⁵ الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 89/3.

⁶ النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 385/2.

مِنْ هَذِهِ السُّورِ الثَّلَاثِ: الْبَقْرَةِ، وَآلِ عِمْرَانَ، وَطِهَ»¹. قال الراوي: وهو أبو أمامة الباهلي² فوجدنا
المشترك بين هذه السور قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: 255]³. ﴿وَقَدْ
خَابَ﴾ [طه: 111] يعس من رحمة الله تعالى ﴿مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه: 111] من حمل إلى موقف
القيامة شريكاً؛ لأنَّ الظلم وضع الشيء في غير [97/أ] موضعه، ولا ظلم أشد من جعل المخلوق شريك من
خَلَقَهُ⁴. واعلم أنَّه تعالى لما شرح أحوال يوم القيامة ختم الكلام فيها بشرح أحوال المؤمنين، فقال: ﴿وَمَنْ
يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ [طه: 112] الطاعات ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [طه: 112] مصدِّق بما جاء به محمد
صلى الله عليه وسلم، وفيه دليل على أنَّه يستحق اسم الإيمان بدون الأعمال الصالحة، وأنَّ الإيمان شرط
قبولها، وهو كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ﴾ [طه: 75]⁵ ﴿فَلَا يَخَافُ﴾ [طه:
112] أي: فهو لا يخاف، "فلا يخف": على النهي⁶ مكي ﴿ظُلْمًا﴾ [طه: 112] أن يُزاد في سيئاته
﴿وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: 112] ولا يُنقص من حسناته، وأصل الهضم: النقص والكسر⁷. قال الزمخشري:
الهضم: أن يكسر من حق أخيه فلا يوقيه له، كصفة المطففين الذين إذا اكتالوا يستوفون ويسترجحون،
وإذا كالوهم أو وزنوهم يُخسرون⁸، وهو كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ [الجن:
13].

¹ الحديث من رواية أبي أمامة الباهلي بلفظ: «إن اسم الله الأعظم في ثلاث سور من القرآن، في سورة البقرة، وآل عمران، وطه». الحاكم،
المستدرک علی الصحیحین، 684/1، حدیث رقم: 1961. البيهقي، متون الحديث، 59/1، حدیث رقم: 27.

² هو الصحابي صدي بن عجلان بن وهب، آخر من توفي من الصحابة بالشام، غلبت عليه كنيته، كان يسكن حمص توفي سنة: 81هـ.
ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، 736/2.

³ الرازي، مفاتيح الغيب، 102/22.

⁴ النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 385/2.

⁵ الرازي، مفاتيح الغيب، 103/22.

⁶ البغدادي، السبعة في القراءات، 424.

⁷ النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 385/2.

⁸ الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 89/3.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ [طه: 113] عطف على كذلك نقص، أي: ومثل ذلك الإنزال ﴿أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [طه: 113] بلسان العرب¹. وصف القرآن بأمرين: أحدهما: كونه عربياً لِتَفْهَمُهُ العرب، فَيَقْفُوا على إعجازه وخروجه عن جنس كلام البشر. وثانيهما: ﴿وَصَرَّفْنَا﴾² [طه: 113] كَرَرْنَا ﴿فِيهِ مِنْ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [طه: 113] يجتنبون الشِّرك ﴿أَوْ يُحَدِّثُ هُمْ﴾ [طه: 113] الوعيد أو القرآن ﴿ذِكْرًا﴾ [طه: 113] أي: عِظَةً، أو شرفاً بإيمانهم به. وقيل: "أو" بمعنى الواو، ثمَّ إِنَّهُ سبحانه لما عَظَّمَ أمرَ القرآن أَرَدَفَهُ بأنَّ عَظَّمَ نَفْسَهُ، فقال: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ﴾ [طه: 114] ارتفع عن فنون الظنون، وأوهام الأفهام، وتنزه عن مضاهاة الأنام، ومشابهة الأجسام ﴿الْمَلِكُ﴾ [طه: 114] الذي احتاج إليه الملوك. ﴿الْحَقُّ﴾ [طه: 114] المحقق في الألوهية³. قال الإمام فخر الدين: وإنما وصفه بالحق؛ لأنَّ مُلْكَهُ [97/ب] لا يزول ولا يتغير ولا يكون من قبل الغير ولا غيره أولى به⁴.

﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ﴾ [طه: 114] أي بقراءة القرآن، لما ذكر القرآن وإنزاله قال على سبيل الاستطراد: وإذا لَقِنْتَ جبريل ما يوحى إليك من القرآن فتأَنَّ عليك ريثما يُسْمِعُكَ وَيُفْهِمُكَ، ثم أقبل عليه بالتحفظ بعد ذلك، ولا تكن قراءتك مساوقةً لقراءته، ونحوه قوله تعالى: ﴿لَا تُحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ [القيامة: 16]، ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يُفْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ [طه: 114] من قَبْلِ أَنْ يَفْرُغَ جبريل من الإبلاغ. وقيل: معناه لا تبليغ ما كان منه مجملاً حتى يأتيك البيان⁵. قال القرطبي: قال ابن عباس: كان صلى الله عليه وسلم يبادر جبريل فيقرأ قبل أن يفرغ جبريل من الوحي حرصاً على الحفظ وشفقةً على

¹ النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 385/2.

² الرازي، مفاتيح الغيب، 103/22.

³ النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 385/2.

⁴ الرازي، مفاتيح الغيب، 104/22.

⁵ الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 90/3.

القرآن مخافة النسيان؛ فنهاه الله عن ذلك وأنزل: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ﴾، وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: لا تتله قبل أن تتبينه. وقيل: ولا تعجل أي: ولا تسأل إنزاله قبل أن يقضى إليك، أي: يأتيك وحيه. وقيل: المعنى لا تلقه إلى الناس قبل أن يأتيك بيان تأويله. وقال الحسن: نزلت في رجل عظيم لطم وجه امرأته فجاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم تطلب القصاص، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم لها القصاص، فنزل: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ [النساء: 34]¹. ولهذا قال: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: 114] أي: فهماً؛ لأنه صلى الله عليه وسلم حكم بالقصاص وأبى الله ذلك. انتهى كلام القرطبي². قال الإمام فخر الدين: وهذا القول بعيد، والاعتماد على الأول، قال: وقال الضحاك في سبب نزولها: أن أهل مكة وأسقف نجران قالوا: يا محمد أخبرنا عن كذا وكذا، وقد ضربنا لك أجلاً ثلاثة أيام، فأبطأ الوحي وفشّت المقالة أن اليهود قد غلبوا محمداً، فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ﴾ [طه: 114]، أي: بنزوله من قبل [98/أ] أن يقضى إليك وحيه من اللوح المحفوظ إلى إسرافيل، ومنه إلى جبريل، ومنه إليك³، ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: 114] بالقرآن ومعانيه. قال الزمخشري: وقوله: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: 114] متضمن للتواضع لله والشكر له عندما عُلِمَ من ترتيب التعلم، أي: علمتني يا رب لطيفة في باب التعلم، وأدباً جميلاً لم يكن عندي فزديني علماً إلى علم، فإن لك في كل شيء حكمةً وعلماً. وقيل: ما أمر الله تعالى رسوله بطلب الزيادة في شيء إلا في العلم. انتهى كلام الزمخشري⁴.

¹ ابن أبي شيبعة، المصنف، القصاص بين الرجال والنساء، 172/15، حديث رقم: 29292، مرسل.

² القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 250/11.

³ الرازي، مفاتيح الغيب، 104/22.

⁴ الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 90/3.

قال الكواشي: وفي قوله: ﴿زِدْنِي عِلْمًا﴾ إشارة إلى أن الإحاطة بجميع العلوم ممتنعة لغير الله تعالى، انتهى¹.

﴿وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ﴾ [طه: 115] اعلم أن هذا هو المرة الخامسة من قصة آدم عليه السلام في القرآن، أولها في البقرة، ثم في الأعراف، ثم في الحجر، ثم في الكهف، ثم في هذه السورة. قال الإمام فخر الدين: وأما تعلّق هذه الآية بما قبلها ففيه وجوه: أحدها: أنه تعالى لما قال ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ [طه: 99] عظم أمر القرآن وبالغ في ذكر هذه القصة إنجازاً للوعد في قوله ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾. وثانيها: لما قال ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحَدِّثُ هُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: 113] أردفه بقصة آدم عليه السلام، كأنه قال: إن طاعة بني آدم للشيطان أمر قديم، فإننا عهدنا إلى آدم من قبل، أي: من قبل هؤلاء الذين صرّفنا لهم الوعيد، وبالغنا في تنبيهه حيث قلنا: إنّه عدو لك ولزوجك. وثالثها: لما قال لمحمد: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾، ذكر بعده قصة آدم عليه السلام، فإنه بعدما عهد الله إليه وبالغ في التحذير عن العدو نسي؛ فدل ذلك على ضعف قوة البشر عن الحفظ فيحتاج حينئذ إلى الاستعانة بالله تعالى ليوفقه [98/ب] لِتَحْصُلِ ذَلِكَ وَيَجِبَ عَنِ السَّهْوِ وَالنَّسْيَانِ. ورابعها: أن محمداً صلى الله عليه وسلم لما قيل له: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ [طه: 114] دلّ على أنه كان في الجِدِّ والمبالغة في أمر الدِّين، بحيث زاد على قدر الواجب، فلما وصفه بالإفراط؛ وصف آدم بالتفريط في ذلك، فإنّه تساهل في ذلك حتى نسي، فوصف الأول بالتفريط والآخر بالإفراط؛ ليعلم أنّ البشر لا ينفك عن نوع زَلّة. انتهى². قوله: ﴿وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ﴾ [طه: 115] أي: وصينا إليه أن لا يأكل من الشجرة. يقال في أوامر الملوك ووصاياهم: تقدّم

¹ الكواشي، التلخيص في تفسير القرآن العظيم، 195/3.

² الرازي، مفاتيح الغيب، 105/22.

المليء إلى فلان وأوعز إليه، وعزم عليه، وعهد إليه، فعطفت قصة آدم على ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ﴾ [طه: 113]، والمعنى: وأقسم قسماً لقد أمرنا أباهم آدم، ووصيناه أن لا يقرب الشجرة، وتوعدناه بالدخول في جملة الظالمين إن قربها، وذلك من قبل وجودهم، ومن قبل أن نتوعدهم، فخالف إلى ما نُهي عنه وتوعد في ارتكابه كما أنه يخالفون، ولم يلتفت إلى الوعيد كما لا يلتفتون، كأنه يقول: إنَّ أساس أمر بني آدم على ذلك وعرقهم راسخٌ فيه¹ ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ [طه: 115] أي: من قبل وجودهم فخالف إلى ما نُهي عنه كما أنهم يخالفون ﴿فَنَسِيَ﴾ [طه: 115] العهد أي: النهي، والأنبياء عليهم السلام يؤاخذون بالنسيان الذي لو تكلفون لحفظوه. كذا في المدارك². قال القرطبي: وآدم عليه السلام في ذلك الوقت مأخوذاً بالنسيان، وإن كان النسيان عنا اليوم مرفوعاً، قال: أو يكون ونسي معناه ترك، ونسيان الذهول لا يمكن هنا؛ لأنه لا يتعلق به عتاب. انتهى³. ﴿وَمَجَدَّ لَهُ عِزْمًا﴾ [طه: 115] قصداً إلى الخلاف لأمره، أو لم يكن آدم من أولي العزم، والوجود بمعنى العلم، ومفعولاه له عزمًا، أو بمعنى نقيض العدم، أي: وعدمنا [99/أ] له عزمًا، وله متعلق بنجد⁴. قال الزمخشري: والعزم التصميم والمضي على ترك الأكل، وأن يتصلب في ذلك تصلباً يورث الشيطان من التسويل له. انتهى⁵. قال الإمام فخر الدين: في النسيان قولان: أحدهما: المراد منه نقيض الذكر، وإنما عُوتب آدم على ترك التحفظ والمبالغة في الضبط حتى تولد منه النسيان، وكان الحسن رحمه الله يقول: والله ما عصى قط إلا بنسيان. وثانيهما: أن المراد من النسيان الترك وأنه ترك ما عُهد ما عهد إليه من الاحتراز عن الشجرة وأكل ثمرتها، وقُرئ "فَنَسِيَ"⁶ أي: نساه

¹ الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 90/3.

² النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 386/2.

³ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 251/11.

⁴ النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 386/2.

⁵ الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 91/3.

⁶ وهي من قراءة قرأ معاذ القارئ، وعاصم الجحدري، وابن السميع: «فَنَسِيَ» برفع النون وتشديد السين، وهي من الشواذ. ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، 179/3.

الشيطان، وعلى هذا التقدير: يحتمل أن يقال: أقدم على أكل الشجرة من غير تأويل، وأن يقال: أقدم عليه مع التأويل. انتهى كلام فخر الدين¹. وقال في المدارك في سورة الأحقاف: أولوا العزم من الرسل هم المذكورون في الأحزاب: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمَنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: 7] ويونس ليس منهم لقوله: ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ [القلم: 48]، وكذا آدم عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ انتهى². وقال القرطبي: قال قوم: آدم لم يكن من أولي العزم من الرسل؛ لأنَّ الله تعالى قال: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ وقال معظم المفسرين: كلُّ الرسل أولو العزم³، وفي الخبر: ما نبى إلا وقد أخطأ أو همَّ بخطيئة ما خلا يحيى بن زكريا⁴، فلو خرج آدم بسبب خطيئته من أولي العزم لخرج جميع الأنبياء سوى يحيى، وقد قال أبو أمامة: لو أنَّ أحلام بني آدم جُمِعَت منذ خلق الله الخلق إلى يوم القيامة ووضعت في كفة ميزان، ووضع حلم آدم في كفة أخرى لرجحهم⁵، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ انتهى كلام القرطبي⁶. وقال السلمي في الحقائق: عهدنا إلى آدم أن لا يطالع معي سواي فنسيَّ عهدي وطالع الجنان، ولم نجد له أي: لم نطالع بسره، ولكن طالع بعينه فنأدى عليه وعصى آدم ربه. وقال جعفر: عهدنا إلى آدم أن لا ينسانا في حال فنسينا وانشغل بالجنة فابتلي بارتكاب

¹ الرازي، مفاتيح الغيب، 106/22.

² النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 319/2.

³ وهو قول ابن عباس وابن زيد. أبو جعفر الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، تفسير الطبري = جامع البيان عن تأويل آي القرآن، (دمشق: دار هجر للطباعة، ط1، 1422هـ)، 177/21. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 220/16.

⁴ وجدته عن ابن عباس، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، قال: "مَا أَحَدٌ مِنْ وَلَدِ آدَمَ إِلَّا قَدْ أَخْطَأَ، أَوْ هَمَّ، بِخَطِيئَةٍ لَيْسَ يَحْتَجِي بُرُؤُ زَكَرِيَّا، وَمَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُؤُسُ بْنُ مَتَّى". أبو يعلى، مسند أبي يعلى الموصلي، مسند ابن عباس، 256/4. حديث رقم: 2544. ضعيف.

⁵ سعيد بن منصور، سنن سعيد بن منصور، (الرياض: دار الألوكة للنشر، ط1، 1433هـ)، 275/6. ضعيف.

⁶ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 252/11.

النهي، وذلك أنه ألهاه النعيم عن المنعم، فوقع من النعمة في البليّة، فأخرج من النعيم والجنة؛ ليعلم أنّ النعيم هو مجاورة المنعم، لا الإلتدأ بالأكّل والشرب. انتهى¹.

﴿وَإِذْ﴾ [طه: 116] منصوب بمضمّر أي: اذكره [99/ب] وقت ما جرى على آدم من معاداة إبليس ووسوسته وتزيينه له الأكل من الشجرة، وطاعته له بعد ما تقدمت معه النصيحة والموعظة البليغة والتحذير من كيده، حتى يتبين لك أنّه لم يكن من أولى العزم والثبات. كذا في الكشاف². ﴿قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [طه: 116] قال في المدارك: قيل هو السجود اللغوي الذي هو الخضوع والتذلل. وقيل: كان آدم كالقِبَلَة لضرب تعظيم له فيه، انتهى³. قال الشيخ أبو منصور الماتريدي: إنّه كان سجود تحية بمنزلة السلام منهم عليه، وتحية الأمم الماضية كان بالسجود كالسلام والمصافحة لنا اليوم⁴، وعن قتادة قال: كانت الطاعة لله تعالى والسجدة لآدم أكرمه الله بسجدة الملائكة⁵؛ وهذا لأنّ السجود له طرفان: طرف التحية وطرف العبادة، فالتحية كانت لآدم، والعبادة كانت لله تعالى، كصلاة الجنّاة لها طرفان: طرف العبادة وطرف الدعاء والشفاعة للميت. وقيل: قوله ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [طه: 116] معناه: اسجدوا لله لأجل آدم شكراً لما خلق خلقاً جديداً. واختلفوا في موضع السجود قال بعضهم: سجدوا له في الأرض بدليل قوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: 39]، وحرف الفاء للوصل والتعقيب، فهذا يقتضي السجود بعد نفخ الروح فيه. وقال بعضهم: كان سجودهم له في السماء. وقيل⁶: أول من سجد لآدم إسرافيل. ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ [طه: 116]

¹ السلمي، حقائق التفسير، 449/1-45.

² الرخشي، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 91/3.

³ النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 386/2.

⁴ الماتريدي، تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)، 423/1.

⁵ المصدر نفسه، 423/1.

⁶ نجم الدين عمر بن محمد بن أحمد النسفي الحنفي، التيسير في التفسير، (إسطنبول: دار اللباب، ط1، 1440هـ)، 88/2.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: إِنَّ إبليس كان ملكاً من جنس المستثنى منهم. وقال الحسن: الملائكة لباب الخليفة من الأرواح لا يتناسلون، وإبليس من نار السموم، وإنما صحَّ استثناءه منهم؛ لأنه كان يصحبهم ويعبد الله معهم¹. قال الزمخشري: [100/أ] فإن قلت: كيف صحَّ استثناءه وهو أجنبي عن الملائكة؟ قلت: حُمل على التغليب في إطلاق اسم الملائكة عليهم وعليه فأخرج الاستثناء على ذلك كقولهم خرجوا إلا فلانة لامرأة بين الرجال. انتهى². ﴿أَبَى﴾ [طه: 116] جملة مستأنفة كأنه جواب لمن قال: لمِّ لم يسجد؟، والوجه: أن لا يقدر له مفعول وهو السجود المدلول عليه بقوله: "فسجدوا"، وأن يكون معناه أظهر الآباء والتوقف.

﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ [طه: 117] حين لم يسجد لك ولم ير فضلك³.

قال الإمام فخر الدين: فإن قلت: ما سبب تلك العداوة؟ فالجواب عنه من وجوه: أحدها: أن إبليس كان حسوداً فلما رأى آثار نعم الله تعالى في حق آدم حسده فصار عدواً له. وثانيها: أن آدم كان شاباً عالماً لقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: 31] وإبليس كان شيخاً جاهلاً، والجاهلون لأهل العلم أعداء. وثالثها: أن إبليس مخلوق من النار وآدم مخلوق من الماء والتراب وبين أصليهما عداوة، فبقيت تلك العداوة ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ﴾ [طه: 117] فلا يكون سبباً لإخراجكما ﴿فَتَشَقَّى﴾ [طه: 117] فإن قلت: لم أسند فعل الشقاء إلى آدم وحده بعد اشتراكهما في الخروج؟ الجواب: من وجهين: أحدهما: أن شقاء المرأة في ضمن شقاء الرجل لما أن الرجل قيم أهله وأميرهم. وثانيهما: أريد بالشقاء التعب في طلب القوت وذلك على الرجل دون المرأة⁴. وقال في المدارك: إنما لم يقل فتشقىا اكتفاء لرؤوس

¹ النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 386/2.

² الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 91/3.

³ النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 386/2.

⁴ الرازي، مفاتيح الغيب، 106/22.

الآي¹. قال القرطبي: الإخراج واقع عليهما والشقاوة على آدم وحده، وهو شقاوة البدن، ألا ترى أنه عقبه بقوله: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾ [طه: 118] أي: في الجنة ﴿وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ﴾ [100/ب] ﴿فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾ فأعلمه أن له في الجنة هذا كله، الكسوة والطعام والشراب والمسكن، وأنتك إن ضيقت الوصية وأطعت العدو أخرجتما من الجنة، وشقيت وتعبت تعباً ونصباً، أي: جعت وعريت وظمئت وأصابتك الشمس؛ لأنك تردُّ إلى الأرض إذا خرجت من الجنة، وإنما خصه بذكر الشقاء ولم يقل فتشقيان؛ لعلمنا أن نفقة الزوجة على الزوج، فمن يومئذ جرت نفقة النساء على الأزواج، فلمَّا كانت نفقة حواء على آدم، كذلك نفقة بنتها على بني آدم بحق الزوجية، وأعلمنا في هذه الآية أن النفقة التي تجب للمرأة على زوجها هذه الأربعة: الطعام والشراب والكسوة والمسكن، فإذا أعطها حقها من هذه الأربعة، فقد برئت ذمته من نفقتها، فإن تفضّل بعد ذلك فهو مأجور، فأما هذه الأربعة فلا بدّ منها؛ لأنّ بها وقاية المهجة. وقال الحسن: فتشقى شقاء الدنيا لا ترى ابن آدم إلا ناصباً. وقال الفراء: الشقاء هو أن يأكل من كدّ يديه. وقال سعيد بن جبيرة: أُهبطَ إلى آدم ثورٌ أحمر، فكان يحرث عليه ويمسح العرق عن جبينه، فهو شقاؤه الذي قال الله تعالى². وقيل: لما أُهبط من الجنة كان من أول شقائه أنّ جبريل عليه السلام أنزلَ عليه حَبَاتٍ من شعير الجنة، فقال: يا آدم ازرع هذا، فحرث وزرع ثم حصد ثم داس، ثم نقي، ثم طحن، ثم عجن، ثم خبز، ثم جلس ليأكل بعد التعب، فتدحرج رغيقة من يده حتى صار أسفل الجبل، وجرى وراءه آدم حتى تعب، وقد عرق جبينه، قال: يا آدم فكذلك رزقك بالشقاء والتعب، ورزق ولدك من بعدك في الدنيا. انتهى كلام القرطبي³. قال في زهرة الرياض: روي أنّ جبريل حمل

¹ النسفي، مدارك التنزيل وحفائق التأويل، 386/2.

² أخرجه الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، 553/6. وأبو نعيم، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، سعيد بن جبيرة، 282/4، ضعيف.

³ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 253/11.

إلى آدم عليه السلام ثلاث حبات من الجنة، وزن الحبة ما بين ألف إلى ثمان مائة درهم، وقال: يا آدم لك حبتان وحواء حبة، فمن ذلك يكون الميراث للذكر مثل حظ الأنثيين¹.

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا﴾ [طه: 118] في الجنة ﴿وَلَا تُعْرَى﴾ [طه: 118] عن الملابس؛ لأنَّه معدة أبداً فيها، ﴿وَأَنَّكَ﴾ [طه: 119] [101/أ] بالكسر² نافع وأبو بكر عطفاً على أَنَّ الأولى، وغيرها بالفتح عطفاً على أَنَّ لا تجوع، ومحلّه: نصبٌ بأنَّ. فإن قلت: "إِنَّ" لا تدخل على "أَنَّ" فلا يقال: إِنَّ أَنَّ زيداً منطلق، والواو نائبةٌ عن أَنَّ وقائمة مقامها فلم أدخلت عليها؛ فالجواب: يجوز ذلك للفصل، كما تقول: إِنَّ في علمي أنك جالسٌ. ﴿لَا تَطْمَأُ فِيهَا﴾ [طه: 119] لا تعطش لوجود الأشربة فيها، ﴿وَلَا تَصْحَى﴾ [طه: 119] لا يصيبك حرُّ الشمس، إذ ليس فيها شمس، فأهلها في ظل ممدود كما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس³. قال أبو⁴ العالية: نهار الجنة هكذا، وأشار إلى ساعة المصلين صلاة الفجر⁵. قال الزمخشري: الشبع والرّي والكسوة والكنُّ: هي الأقطاب التي يدور عليها كفافُ الإنسان، فذكره استجماعاً له في الجنة، وأنه مكفّي لا يحتاج إلى كفاية كافٍ، ولا إلى كسب كاسبٍ، كما يحتاج إلى ذلك أهل الدنيا، وذكرها بلفظ النفي لنقائضها التي هي: الجوع والعري والظمأ والضخو؛ ليطرُق سمعه بأسامي أصناف الشقاوة التي حدّره منها، حتى يتحامي السبب الموقّع فيها كراهة لها. انتهى⁶.

¹ سليمان بن داوود، زهرة الرياض، اللوحة 46/ب.

² البغدادي، السبعة في القراءات، 424.

³ النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 387/2.

⁴ أبو العالية رفيع بن مهران الرياحي البصري، المقرئ، الحافظ، المفسر، أحد الأعلام، من كبار التابعين، أدرك الجاهلية وأسلم بعد وفاة النبي - صلى الله عليه وسلم - بسنتين، توفي سنة: 93هـ. الذهبي، سير أعلام النبلاء، 207/4. عادل نويهض، معجم المفسرين، 191/1.

⁵ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 254/11.

⁶ الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 92/3.

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾ [طه: 120] أي: ألقى إليه الوسوسة كأسرَّ إليه¹. قال الزمخشري: فإن قلت: كيف عُذِّي "وسوس" تارةً باللام في قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ وأخرى بإلى؟ قلت: وسوسة الشيطان: كقولته الثكلي، ووَعَوَعَة الذئب، ووَقُوقَة الدجاجة في أنها حكايات للأصوات، وحكمها حكم صَوْتِ وأَجْرَسِ، ومنه: وسوس المرسم، وهو موسوسٌ والفتح لحنٌ، فإذا قلت وسوس له فمعناه لأجله [101/ب]، ومعنى وسوس إليه: ألقى إليه الوسوسة، كقوله: حدّث إليه وأسرَّ إليه، ﴿قَالَ﴾ [طه: 120] الشيطان ﴿يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾ [طه: 120] أضاف الشجرة إلى الخلد وهو الخلود؛ لأنَّ من أكل منها خلد بزعمه فلا يموت، كما قيل لحيزوم فرس جبريل: فرس الحياة؛ لأنَّ من باشر أثره حيي ﴿وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾ [طه: 120] لا يفنى، وهو دليلٌ على قراءة الحسين بن علي وابن عباس رضي الله عنهم، ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ بالكسر². قال الإمام فخر الدين: إنَّه تعالى بيّن أنَّه عظم آدم عليه السلام بأن جعله مسجود الملائكة، وبيّن أنَّه عرّفه شدة عداوة إبليس له ولزوجته، وإنه لعداوته يدعو إلى المعصية التي إذا وقع فيها زالت تلك النعم بأسرها، ثم إنَّه مع جميع ذلك اتفق منه ومن حواء من الإقدام على الزلّة ما اتفق. وهذه الواقعة عجيبة لما أنَّه تعالى رغبه في دوام الراحة وانتظام المعيشة بقوله: ﴿فَلَا يُخْرِجُكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ﴾ [طه: 117] الآية، ورغبه إبليس أيضاً في دوام الراحة بقوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾ وفي انتظام المعيشة بقوله: ﴿وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾ فكان الشيء الذي رغب الله آدم فيه هو الذي رغبه إبليس فيه، إلا أنَّ الله وقّف ذلك على الاحتراس عن تلك الشجرة، وإبليس وقفه على الإقدام عليها. ثم إنَّ آدم عليه السلام مع كمال عقله وعلمه بأنَّه تعالى مولاه وناصره ومرتبّه، وعلمه بأنَّ إبليس عدوه، حيث امتنع عن السجود له، وعرض نفسه للجنة بسبب عداوته، كيف قبل في هذه

¹ النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 387/2.

² الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 3/ 92-93.

الواقعة الواحدة؟ والمقصود الواحد قول إبليس مع علمه بكمال عداوته له، وأعرض عن قول الله سبحانه [102/أ] مع علمه بأنه ناصره ومربيه، ومن تأمل في هذا الباب طال تعجبه وعرف آخر الأمر أن هذه القصة كالتنبيه على أنه لا دافع لقضاء الله ولا مانع منه، ثم قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ ثم بين تلك الوسوسة بالتطبيع في أمرين: أحدهما: قوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾ أضاف الشجرة إلى الخلد وهو الخلود؛ لأن من أكل منها صار مخلداً بزعمه. وثانيهما: قوله: ﴿وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾ [طه: 120] أي: من أكل من هذه الشجرة دام ملكه. انتهى¹. واختلفوا في الشجرة، قيل: هي السنبله، قال بعضهم: كيف لا يعصى الإنسان وقوته من شجرة العصيان. وقيل: هو الكرم، ولهذا صار فتنه لأولاد آدم. وقيل: شجرة التين، ولهذا أقسم الله به، وقد تقدم في سورة البقرة²، ﴿فَأَكَلَا﴾ [طه: 121] أي آدم وحواء، بادرت حواء إلى أكل الشجرة ثم ناولت آدم حتى أكلها. وكان سعيد بن المسيب يحلف بالله ما أكل آدم من الشجرة وهو يعقل، ولكن حواء سقته الخمر فأدنته إليها فأكل³. وقال إبراهيم بن أدهم: أورثتنا تلك الأكلة حزناً طويلاً⁴. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن آدم لما أكل من الشجرة قال الله عز وجل: يا آدم ما حملك على ما صنعت، قال يا رب زينتني لي حواء، قال: فإني أعقبتها أن لا تحمل إلا كرهاً ولا تضع إلا كرهاً، ودميتُها في الشهر مرتين فرئت حواء عند ذلك فقيل عليك الرنة وعلى بناتك⁵ ﴿مِنْهَا فَبَدَأَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾ [طه: 121] عوراهما. قال السلمي في الحقائق: ﴿فَبَدَأَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا

¹ الرازي، مفاتيح الغيب، 107/22-108.

² القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 1/305.

³ أخرجه الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، 1/655، وأحمد بن محمد بن أحمد المظفر ابن المختار، أبو العباس بدر الدين الرازي الحنفي، مباحث التنفس لابن المظفر، (المملكة العربية السعودية: كنوز إشيبيليا، ط1، 1430هـ)، 88، قال ابن المظفر: "خمر الجنة لا يُسكر، ولو كان كذلك لما كان معاتباً ملوماً على أكل الشجرة"، سنده ضعيف جداً.

⁴ أخرجه الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، 1/183.

⁵ أخرجه البيهقي، شعب الإيمان، الفصل الثالث في طلب المطعم والملبس، 520/7، حديث رقم: 5407. وأبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحددي، النيسابوري، الشافعي، الوسيط في تفسير القرآن المجيد، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1415هـ)، 123/1، موقوف.

﴿، أي بدت لهما ولم تبد لغيرهما؛ لئلا يعلم الأغيار من مكافأة الجناية ما علماه، ولو بدت للأغيار لقال: بدت منهما، انتهى¹. ﴿وَوَطِّفَا﴾ طفق يفعل كذا مثل: جعل يفعل، وهو ككاد في وقوع الخبر فعلاً مضارعاً، إلا أنه للشروع في الأمر، وكاد للدنو منه ﴿يُخَصِّفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [طه: 121] أي: يلزقان الورق بسوءاتهما للتستر، وهو ورق التين². وقيل: كان³. [102/ب] وقال الليث بن سعد⁴: وإنما صحت الحجة في هذه القصة لآدم على موسى عليهما السلام من أجل أن الله عز وجل قد غفر لآدم خطيئته وتاب عليه، فلم يكن لموسى أن يعيِّره بخطيئة قد غفرها الله له، ولذلك قال آدم: أنت موسى الذي آتاك الله التوراة، وفيها كل شيء، فوجدت فيها أن الله قدّر عليّ المعصية، وقدّر عليّ التوبة منها، وأسقط بذلك اللوم عني، أفتلومني أنت والله لا يلومني⁵. وبمثل هذا احتج ابن عمر رضي الله عنهما على الذي قال له: إنَّ عثمان فرّ يوم أحد، فقال ابن عمر: ما على عثمان ذنب؛ لأنَّ الله تعالى قد عفا عنه بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [آل عمران: 152]. وقد قيل: أنَّ آدم عليه السلام أبٌ، وليس من بر الابن أن يعير الأب مما يُعير به غيره، فإنَّ الله تعالى قال في الأبوين الكافرين ﴿وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: 15]، ولهذا إنَّ إبراهيم عليه السلام لما قال له أبوه وهو كافر: ﴿لَئِن لَّمْ تَنْتَه لَأَرْجُمَنَّكَ وَأَهْرَجْنَا مَلِيًّا * قَالَ سَلِّمْ عَلَيَّ﴾ [مريم: 46-47]، فكيف بأب هو نبي قد اجتباه ربه وتاب عليه وهده. قال القرطبي: وأما من عمِل الخطايا ولم تأت المغفرة فإنَّ العلماء مجمعون على أنَّه لا يجوز له الاحتجاج بمثل حجة آدم فيقول: تلومني على أن قتلت أو زويت أو سرقت، وقد قدّر الله ذلك عليّ،

¹ وهو قول الحصري. السلمي، حقائق التفسير، 452/1.

² النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 387/2.

³ لوحة كاملة غير موجودة في الملف وهي تفسير وعصى آدم ربه فغوى.

⁴ الليث بن سعد أبو الحارث، مولى لقيس، ثقة، كثير الحديث، وكان قد استقل بالفتوى في زمانه بمصر، توفي سنة: 165هـ. ابن سعد، الطبقات الكبرى، 517/7.

⁵ البزار، مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار، مسند أبي حمزة أنس بن مالك، 362/15، حديث رقم: 8944.

والأمة مجمعة على جواز حمد المحسن على إحسانه، ولوم المسيء على إساءته وتعدد ذنوبه عليه. قال القرطبي: وقوله غوى أي: فسد عليه عيشه، حكاه النقاش واختاره القشيري¹. قال القرطبي: وسمعت شيخنا الأستاذ المقرئ أبا جعفر القرطبي يقول: فغوى ففسد عيشته بنزوله إلى الدنيا، والغى: الفساد، وهو تأويل حسن، وهو أول من تأويل من يقول أن فغوى، معناه: ضلّ [104/أ] من الغي الذي هو ضد المرشد. وقيل: معنى قوله فغوى أي: جهل أن تلك الشجرة هي التي تُهي عنها، والغى: الجهل. وعن بعضهم: فغوى: فبشّم من كثرة الأكل. قال الزمخشري: وهذا وإن صحَّ على لغة من يقبلُ الياء المكسور ما قبلها ألفاً، فيقول: في "فني وبقي" فنا وبقا، وهم بنو طيء تفسيراً خبيثاً². قال القشيري: قال قوم: يقال عصى آدم وغوى، ولا يقال له: عاص ولا غاؤ، كما أن من خاط مرة يقال له: خاط، ولا يقال له: خياط ما لم تتكرر منه الخياطة. وقيل: يجوز للسيد أن يطلق في عبده عند معصيته ما لا يجوز لغيره أن يطلقه، وهذا تكلف، وما أضيف من هذا إلى الأنبياء فإنه يكون صغائر، أو ترك الأولى، أو قبل النبوة، وهذا حسن، قال الإمام أبو بكر بن فورك³: كان هذا من آدم قبل النبوة، ودليل ذلك قوله: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَعَلَّمَهُ الْقُرْآنَ﴾، فذكر أن الإجتباء والهداية كانا بعد العصيان، وإذا كان هذا قبل النبوة فجائز عليها الذنوب وجهاً واحداً؛ لأنَّ قبل النبوة لا شرع علينا في تصديقهم، فإذا بعثهم الله إلى خلقه، وكانوا مأمونين في الأبداء معصومين لم يضر ما قد سلف منهم من الذنوب وهذا نفيس. انتهى كلام القرطبي⁴.

¹ لم أجده لدى القشيري.

² الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 94/3.

³ محمد بن الحسن بن فورك الأنصاري الأصبهاني، أبو بكر: واعظ عالم بالأصول والكلام، من فقهاء الشافعية. بلغت تصانيفه في أصول الدين وأصول الفقه ومعاني القرآن قريبا من المئة، توفي سنة: 406 هـ. الزركلي، الأعلام، 83/6.

⁴ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 257-256/11.

وقال السلمي في الحقائق: قال بعضهم: عصى آدم فعوقب أولاده بثلاث: ما ولدوا يموت، وما بينوا يهدم، وما يصلوا يقطع¹.

﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ﴾ [طه: 122] قرّبه إليه واصطفاه، وقرئ به ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [طه: 122] قبل توبته ﴿وَهَدَى﴾ [طه: 122] وهداه إلى الاعتذار والاستغفار. وفي كتاب اللطائف لابن رجب: لما أُهبط آدم من الجنة بكى على تلك المعاهد فيما يروى ثلثمائة عام، وحُقِّ له ذلك، كان في دارٍ لا يجوع فيها ولا يعرى، ولا يظمأ فيها ولا يضحى، فلمَّا نزل إلى الأرض أصابه ذلك كلّهُ، فكان إذا رأى جبريل عليه السلام يتذكر برؤيته تلك المعاهد، فيشتد بكاءه حتى بكى جبريل معه لبكائه، ويقول: ما هذا البكاء يا آدم فيقول: وكيف لا أبكي وقد أُخرجت من تلك النعمة إلى دار البؤس. وقال به بعض ولده: لقد آذيت أهل الأرض ببكائك، فقال: إنما أبكي على أصوات الملائكة حول العرش. وفي رواية: إنما أبكي على جوار ربي في دارٍ تربتها طيبة، أسمع فيها أصوات الملائكة. وفي رواية: قال: أبكي على دار لو رأيتها لزهقت نفسك شوقاً إليها. وروى أنه قال لولده: كُنَّا نسلًا من نسل السماء، خلقنا كخلقهم وغداؤنا كغذاؤهم، فسبانا عدونا إبليس، فليس لنا فرحة ولا راحة إلا الهَمَّ والعناء، حتى نُردَّ إلى الدار التي أخرجنا منها: فحَيَّ على جنات عدن فإنها منازل الأولى وفيها المحتَّم

ولكننا سيئ العدو فهل ترى نعود إلى أوطاننا ونسليم انتهى². روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لو جمع بكاء أهل الدنيا إلى بكاء داود عليه السلام كان بكاءه أكثر، ولو جمع كل ذلك إلى بكاء نوح لكان بكاءه أكثر، ولو جمع كل ذلك إلى بكاء آدم صلوات الله عليه على خطيئته كان

¹ السلمي، حقائق التفسير، 452/1.

² زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السلمي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي، لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف، (بيروت: دار ابن حزم للطباعة والنشر، ط1، 1424هـ)، 56.

بكأوه أكثر»¹. قال وهب [104/ب]: لما أكثر بكأوه أي: آدم أمره الله عز وجل أن يقول: لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، عملت سوءاً، وظلمت نفسي، فاغفر لي إنك خير الغافرين، فقالها آدم، ثم قال: قل لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، عملت سوءاً، وظلمت نفسي فارحمي، إنك أنت أرحم الراحمين، ثم قال: قل لا إله إلا أنت عملت سوءاً، وظلمت نفسي فتب عليّ، إنك أنت التواب الرحيم، قال ابن عباس هذه الكلمات التي تلقاها آدم من ربه². قال في زهرة الرياض في بكاء الأنبياء عليهم السلام: وأنّ شعيباً عليه السلام بكى من الشوق إلى ربه ثلاثمائة سنة حتى عمي، فردّ الله إليه بصره بعد ما بكى مائة سنة، كذلك ثلاث مرات، ثم إنّ الله يوم أوحى إليه "إن أردت الجنة فلك ذلك، وإن خفت النار فلاأمان لك، وإن أردت الحور فلك"، فقال: لا يا جبريل، ولكن أبكي شوقاً إلى الله تعالى، قال الله تعالى: قل له يا جبريل فابك حتى تلقاني لا حيلة لك في هذا سوى لقائي، فوعزني وجلالي بهذه المحبة التي أحببتني لأخدمنك نبياً من الأنبياء وصفيّاً من الأصفياء عشر سنين، فقيّض الله له نبيّه وكليمه موسى عليه السلام، حتى رعى غنم شعيب عشر سنين كرامة له من الله لمحبهته لله، وآدم عليه السلام بكى على الجنة مائتي عام، والجنة باقية، ولذلك لم يذهب بصره. وروي³ أنّ آدم عليه السلام بكى على ساحل البحر، فزعموا أنّ صدفةً كانت ترتفع فوق الماء، فإذا قطر من دموع آدم في الصدفة انغمس، فيقال: إنّ الدر من دموع آدم عليه السلام، وكان يجلس ويبكي ويضع يده على وجهه وعينيه وينادي، ويبكي حتى رحمته [105/أ] الملائكة فينزلون من السماء ويجلسون حوله ويكون معه، ولم يرفع آدم رأسه إلى السماء حياءً من الله تعالى، وكلما قطر من دموعه على الأرض قطرةً نبت منها نباتٌ يصلح لمرض في دواء، مثل الزنجبيل والقرنفل والدارصين وما أشبه ذلك. وأما بكاء يعقوب عليه السلام فبكى على يوسف أربعين سنة وهو

¹ لم أجده.

² الرازي، مفاتيح الغيب، 109/22.

³ هذه الرواية من الإسرائيليات التي لا أصل لها.

شيخ فان؛ ولذلك ذهب بصره، فلمّا حبس يوسف بنيامين أخاه بالسرقة، كتب يعقوب إلى يوسف وهو لا يعلم أنّه يوسف، بسم الله الرحمن الرحيم من يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم إلى عزيز مصر، سلامٌ عليك فياني أحمد الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد: فإنّ أهل بيت مؤلّع بنا أسباب البلايا، كان جدي إبراهيم ألقى في النار في طاعة ربه، فجعلها الله برداً وسلاماً، وأمر الله جدي أن يذبح أبي ففداه الله، وكان لي ابنٌ من أحب الناس إليّ فقدته، فأذهب حزني عليه نور بصري، وكان له أخٌ من أمّه كنت إذا ذكرته ضممتُهُ إلى صدري، فأذهب عني بعض وجددي، وهو المحبوس عندك في السرقة، وإني لم أسرق ولم ألد سارقاً، قال: فلما قرأ يوسف عليه السلام الكتاب بكى وصاح، وقال: اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً. انتهى. قال في زهرة الرياض: آدم عليه السلام علم أسماء المخلوقين فوجد به الرّياسة وسجد الملائكة، وسليمان علم منطق الطير والفهم فوجد المملكة وتسخير الريح، والهدهد علم الماء فوجد النجاة من الذبح ورئاسة الطيور وتاجاً على رأسه، ويوسف علم الرؤيا فوجد النجاة من السجن والنبوة أيضاً، كأنّ الله تعالى يقول: يا مؤمن [105/ب] أنت علمت التوحيد، فأيّ عجب أن تجد الجنة والرؤية أيضاً، كان لآدم علمُ الأسماء فصار هو رفيقاً، ولك علم أسماء إله السماء، أفلا تصير رفيقاً. وهنا إشارة: آدم عليه السلام أخرج مع نفسه من الجنة أربعة أشياء: عصى من آس، وورقاً من التين، والبكاء، والخاتم، فوضع العصى في يد موسى فوجد بها النبوة، والورق في الظبي فنال بها المسك، والخاتم عند سليمان فنال بها الملك، والبكاء للعاصي أفلا ينال به الرحمة¹. قال في زهرة الرياض: يقال كتب قيصر إلى ابن عباس رضي الله عنهما فقال: هل يجمل من المضيف أن يخرج ضيفه من داره يعني آدم وحواء؟! فكتب إليه ابن عباس لم يخرجهما، ولكن قال لهما: ضعا اللباس واخرجا لقضاء الحاجة حيث أكلتما من الحنطة، كالضيف يذهب إلى المستراح ويدع ثيابه ثم يرجع إلى المائدة، ألا ترى أنّه قال له: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ

¹ سليمان بن داود، زهرة الرياض، اللوحة 46/أ.

عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿﴾ أَنْ أَوْقَعَهُ إِبْلِيسُ فِي اسْمِينَ: عَاصٍ وَغَاوٍ، فَإِنَّ اللَّهَ أَوْقَعَهُ فِي ثَلَاثِ أَسْمَاءٍ حَسَانٍ؛ فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَمَّ اجْتِبَاءَ رَبُّهُ﴾ الآية، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا﴾ [آل عمران: 33] الآية، وقوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30] الآية، وما دام في الجنة كان ضيفاً فلما هبط صار خليفة، كما قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ . انتهى¹. قوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [طه: 122] اكتفى بذكر توبة آدم وقد تيب على حواء أيضاً؛ لأنَّ حواء كانت تبعاً لآدم، وقد طوى ذكر النساء في أكثر القرآن والسنة كذلك، ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [طه: 123] يعني آدم وحواء ﴿بَعْضُكُمْ﴾ [طه: 123] يا ذرية آدم ﴿لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [طه: 123] بالتحاسد في الدنيا والاختلاف في الدين، وكان الذين هبطوا خمسة [106/أ]: آدم وحواء وإبليس والحیة والطاووس، ويروى أن آدم خرج من الهند إلى مكة أربع مائة مرة، من ذلك أربعون حجة، والباقي عمرة، ولم يصل إلى حواء إلا بعد مائتي سنة، فهبط آدم بسرنديب من أرض الهند على جبل يقال له نُود، وحواء بجدة، وإبليس بالأبلة، والحیة بأصبهان، وكان صلى الله عليه وسلم يأمر بقتل الحيات، وقال: «مَنْ تَرَكَهُنَّ حَشِيَّةً تَأْرِهِنَّ فَلَيْسَ مِنَّا»²، وقال: «مَا سَأَلَمْنَاهُنَّ مُنْذُ حَارَتْنَاهُنَّ»³. قال الزاهدي في تفسيره: يروى أنَّ خطاب الهبوط في قوله: قلنا اهبطوا منها جميعاً للخمسة، قوله: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ يعني طبعياً واختيارياً، أي هذه العداوة نوعان: ديني وطبعي، فمع إبليس ديني، ومع الحية طبعي، فلا ترتفع العداوة مع إبليس ما دام الدين باقياً، ولا ترتفع مع الحية ما دام الطبع باقياً. انتهى⁴. قال الإمام فخر الدين: فإن قلت: قوله: "اهبطا": إما أن يكون خطاباً مع شخصين أو أكثر، فإن كان مع شخصين فكيف قال بعده: ﴿فَأَمَّا يَا تَيْنَكُم مِّنِّي هُدَى﴾ [طه: 123] المصنوع نفسه، اللوحة 46/ب.

¹ البزار، مسند البزار المشهور باسم البحر الزخار، من حديث عثمان بن أبي العاص، 313/6، حديث رقم: 2325.

² أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، مسند عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، 477/3. حديث رقم: 2036.

³ لم أعثر على الكتاب.

[123] وهو خطاب الجمع؟ وإن مع أكثر فكيف قال: "اهبطا" وهو خطاب الاثنين؟ فالجواب من وجهين: أحدهما: قال أبو مسلم: الخطاب لآدم عليه السلام ومعه ذريته، ولإبليس ومعه ذريته، فمن حيث أنهما جنسان صحَّ قوله تعالى اهبطا، ومن حيث إنَّ كلَّ واحد منهما من هذين الجنسَيْنِ يشتمل على الكثرة، صحَّ قوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾. وثانيهما: قال صاحب الكشاف: لما كان آدم وحواء عليهما السلام أصلَي البشر، والسببين الذين منهما نشؤوا وتفرَّعوا جُعِلَا كأنهما البَشَرُ في أنفسهما، فحوطبا مخاطبتهم، فقيل: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ﴾ على لفظ الجماعة. انتهى¹.

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ [طه: 123] كتاب وشريعة [106/ب] ﴿فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ﴾ [طه: 123] أي: ودام عليه حتى مات ﴿فَلَا يَضِلُّ﴾ في الدنيا ﴿وَلَا يَشْقَى﴾ في العقي². قال ابن عباس: ضمن الله لمن اتبع القرآن أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة، ثم تلى قوله: ﴿فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾³. والمعنى أنَّ الشقاء في الآخرة هو عقابٌ من ضلَّ في الدنيا عن طريق الدين، فمن اتبع كتاب الله، وامتلأ بأوامره، وانتهى عن نواهيه نجى من الضلال ومن عقابه⁴.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾ [طه: 124] عن القرآن ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ [طه: 124] ضيقاً، وهو مصدر يستوي في الوصف به المذكر والمؤنث. عن ابن جبير⁵: نسلبُه القناعة حتى لا يشبع⁶. قال الزمخشري: فمع الدين التسليم والقناعة، والتوكل على الله تعالى وعلى قسمته، فصاحبه ينفق ما رزقه

¹ الرازي، مفاتيح الغيب، 110/22.

² النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 388/2.

³ ابن أبي شيبة، الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، كتاب الزهد، كلام ابن عباس رضي الله عنه، 136/7. حديث رقم: 34781.

⁴ الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 95/3.

⁵ سعيد بن جبير الأسدي، بالولاء، الكوفي: تابعي، كان أعلمهم على الإطلاق، وهو حبشي الأصل، وكان ابن عباس، إذا أتاه أهل الكوفة يستفتونه، قال: أتسألونني وفيكم ابن أم دهاء؟ يعني سعيدا. قال الإمام أحمد بن حنبل: قتل الحجاج سعيدا وما على وجه الأرض أحد إلا وهو مفتقر إلى علمه، قتل سنة: 95هـ. الزركلي، الأعلام، 93/3.

⁶ النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 388/2.

بِسْمَاحٍ وَسَهْوَةٍ فَيَعِيشُ عَيْشاً رَافِعاً، كما قال عز وجل: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: 97]،
 والمعرض عن الدين مستولٍ عليه الحرصُ الذي لا يزال يطمح به إلى الازدياد من الدنيا، مسلطٌ عليه الشح
 الذي يقبض يده عن الإنفاق، فعيشه ضنك وحاله مظلمة، كما قال بعض الصوفية: لا يُعرض أحد عن
 ذكر ربه إلا أظلم عليه وقته، وتشوَّش عليه رزقه، ومن الكفرة من ضرب الله عليه الذلة والمسكنة لكفره،
 قال الله تعالى: ﴿وَضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الدِّلَّةَ وَالمَسْكَنَةَ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ
 بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: 112]، وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنَ رَّبِّهِمْ
 لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة: 66]، وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا
 لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ [الأعراف: 96]، وقال: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ
 غَفَّاراً يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً﴾ [نوح: 10]، وقال: [107/أ] ﴿وَأَنْ لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ
 لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً غَدَقاً﴾ [الجن: 16]. وعن الحسن: المعيشة الضنك: هو الضريع والزقوم في النار. وعن
 أبي سعيد الخدري: هو عذاب القبر¹. قال أبو هريرة: يُضَيِّقُ على الكافر قبره حتى تختلف فيه أضلاعه،
 وهو المعيشة الضنك². قال القرطبي: وهذا القول هو الصحيح³. قال الإمام فخر الدين: الضنك: إمَّا أن
 يكون في الدنيا، أو في القبر، أو في الآخرة، أو في الدين، أو في الكل، أما الأول: فقد قال به جمعٌ من
 المفسرين⁴، وذلك؛ لأنَّ المسلم لتوكله على الله يعيش في الدنيا عيشاً طيباً، كما قال: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً
 طَيِّبَةً﴾ [النحل: 97]، والكافر يكون حريصاً على الدنيا فعيشه ضنك وحاله مظلمة. وأما الثاني: وهو

¹ الرمحشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 95/3.

² أخرجه الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، 398/18. وأبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خالد بن عبيد الله العتكي
 المعروف بالبخاري، مسند البخاري المنشور باسم البحر الزخار، مسند أبي حمزة أنس بن مالك، 238/16، حديث رقم: 6179.

³ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 11/259.

⁴ المعيشة الضنك في الدنيا، وهي: الكسب الحرام، أو أن صاحبها ينفق من ماله على تكذيب منه بالخلف من الله، فتشتد لذلك عليه
 معيشته وتضيق. الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، 392/18. الومحشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 96/3. أبو
 حيان، البحر المحيط في التفسير، 394/7.

عذاب القبر¹، وهو قول عبد الله بن مسعود وأبي سعيد الخدري وعبد الله بن عباس، ورفع أبو هريرة إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه عذاب القبر، قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهُ لِيَسْلُطَ عَلَيْهِ فِي قَبْرِهِ تِسْعَةَ وَتِسْعُونَ تَبِينًا»². قال ابن عباس: نزلت الآية في الأسود بن عبد الأسد المخزومي³. وأما الثالث: وهو الضيق في الآخرة، فإنَّ طعامهم فيها الضريع والزقوم، وشراهم الحميم والغسلين، وهذا قول الحسن وقتادة والكلبي⁴. وأما الرابع: وهو الضيق في أحوال الدين. فقال ابن عباس: المعيشة الضنك هي أن يضيق عليه أبواب الخير فلا يهتدي لشيء منها⁵. وأما الخامس: وهو أن يكون في الكل أو في الأكثر. يروى عن علي رضي الله عنه أنه قال: عقوبة المعصية ثلاثة: ضيق المعيشة، والتعب في اللذة، وأن لا يتوصل إلى قوته إلا بمعصية⁶، انتهى كلام فخر الدين⁷.

﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ عن الحجة⁸، وعن ابن عباس: أعمى البصر⁹، وهو كتوبه: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيًَّا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: 97]، وهذا هو الوجه. كذا في المدارك¹⁰. قال القرطبي: قيل: أعمى في حالٍ وبصيراً في حالٍ، وقد تقدم في آخر سبحان. وقيل: أعمى

¹ وهو الذي رجحه الطبري في تفسيرة، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، 392/18.

² أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي البستي، التقاسيم والأنواع - صحيح ابن حبان، (بيروت: دار ابن حزم، ط1، 1433هـ)، 159/6. أبو يعلى، مسند أبي يعلى، شهر بن حوشب، عن أبي هريرة، 521/11، حديث رقم: 6644، إسناده حسن.

³ مقاتل، تفسير مقاتل بن سليمان، 44/3.

⁴ الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، 392/18-393. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 284/5.

⁵ ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، 181/3.

⁶ أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني، اللباب في علوم الكتاب، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1419هـ)، 415/13.

⁷ الرازي، مفاتيح الغيب، 111/22.

⁸ أخرجه الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، 395/18-

⁹ أخرجه الطبري، المصدر نفسه.

¹⁰ النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 388/2.

عن جهات الخير لا يهتدي لشيء منها. انتهى¹. قال الكواشي: وقيل: إنه يحشر من قبره بصيراً، فإذا سيق إلى الموقف يكون أعمى. انتهى².

﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ [طه: 125] في الدنيا. قال القرطبي: بأي ذنب عاقبتني بالعمى وقد كنت بصيراً، أي: في الدنيا، وكأنه يظن أن لا ذنب له³. ﴿قَالَ كَذَلِكَ﴾ [طه: 126] أي: مثل ذلك فعلت أنت، ثم فسّر فقال: ﴿أَتُنَكِّ آيَاتِنَا فَنُنَسِّئُهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى﴾ [طه: 125] أي: أتتك آياتنا واضحة فلم تنظر إليها بعين المعبر وتركتها وعميت عنها، فكذلك اليوم نتركك على عماك ولا نزيل غطاءه عن عينيك، ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ [طه: 127] لما توعد المعرض عن ذكره بعقوبتين: المعيشة الضنك في الدنيا، وحشره أعمى في الآخرة، ختم آيات الوعيد بقوله: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ كأنه قال: وللحشر على العمى الذي لا يزول أبداً أشد من ضيق العيش المنقضي. اعلم أنه تعالى لما بين حال من أعرض عن ذكره يوم القيامة أتبعه بحال المكلف في الدنيا من تكذيب الرسل، فقال: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ [طه: 128] أي: الله، بدليل قراءة زيد عن يعقوب بالنون، ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ﴾ [طه: 128] حال من الضمير المجرور في لهم ﴿فِي مَسَاكِينِهِمْ﴾ [طه: 128] يريد أن قريشاً يمشون في مساكن عاد وثمود وقوم لوط، ويعاينون آثار هلاكهم ﴿فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّأُولِي النَّهْيِ﴾ [طه: 128] لذوي العقول إذا تفكروا أن استتصالحهم لكفرهم فلا يفعلون مثل ما فعلوا، ثم بين الوجه الذي لأجله لم ينزل العذاب على من كفر بمحمد صلى الله عليه وسلم في الدنيا، فقال: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ

¹ وقد رجح هذا القول الطبري في تفسيره جامع البيان عن تأويل آي القرآن، 392/18. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 259/11.

² الكواشي، التلخيص في تفسير القرآن العظيم، 198/3.

³ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 259/11.

مِنْ رَبِّكَ ﴿ طه: 129] أي: الحكم بتأخير [108/أ] العذاب عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم ﴿لَكَانَ لِرَامَا﴾ [طه: 129] لازماً، أي لكان العذاب لازماً لهم، فاللزام: مصدر لازم فوصف به، ﴿وَأَجَلَ مُسَمَّى﴾ [طه: 129] القيامة، وهو معطوف على كلمة، والمعنى: ولولا حكم سبق بتأخير العذاب عنهم وأجل مسمى - وهو القيامة - لكان العذاب لازماً لهم في الدنيا كما لزم القرون الماضية الكافرة¹. قال الإمام فخر الدين: ولا شبهة في أن الكلمة إخبار الله ملائكته وكتبه في اللوح المحفوظ، أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم وإن كذبوا فسيؤخرون، ولا يفعل بهم ما فعل بغيرهم من الاستتصال، واختلفوا فيما لأجله أحر العذاب عنهم، فقال بعضهم: لأنه علم أن منهم من يؤمن². وقال آخرون: علم أن في نسلهم من يؤمن ولو أنزل بهم العذاب لعتمهم الهلاك. وقال آخرون: المصلحة فيه خفية لا يعلمها إلا هو. انتهى³. ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ [طه: 130] فيك، أمره تعالى بالصبر على أقوالهم، إنه ساحر، إنه كاهن، إنه كذاب إلى غير ذلك، والمعنى: لا تحتفل بهم فإن لعذابهم وقتاً مضروباً لا يتقدم ولا يتأخر. ثم قيل: هذا منسوخ بآية القتال. وقيل: ليس منسوخاً إذ لم يستأصل الكفار بعذابه بالقتال بل بقي المعظم منهم⁴.

﴿وَسَبِّحْ﴾ [طه: 130] وصل ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [طه: 130] في موضع الحال، أي: وأنت حامدٌ لربك على أن وفقك للتسييح وأعانك عليه، ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ [طه: 130] يعني صلاة الفجر ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: 130] يعني: الظهر والعصر؛ لأنهما واقعتان في النصف الأخير من النهار بين

¹ النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 389/2.

² التعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، 79/11.

³ الرازي، مفاتيح الغيب، 112/22.

⁴ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 260/11.

زوال الشمس وغروبها¹ ﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ [طه: 130]، أي: وتعمد آناء الليل، أي: ساعاته، وأطراف النهار، مختصاً لها بصلواتك [108/ب] وذلك أن أفضل الذكر ما كان بالليل؛ لاجتماع القلب وهدوء الرجل والخلو بالرب، وقال الله عز وجل: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ [المزمل: 6] ؛ ولأنَّ الليل وقت السكون والراحة، فإذا صُرف إلى العبادة كانت على النفس أشدَّ وأشقَّ، وللبدن أتعب وأنصب، فكانت أدخل في معنى التكليف، وأفضل عند الله عز وجل، وقد تناول التسبيح في آناء الليل صلاة العتمة، وفي أطراف النهار صلاة المغرب، وصلاة الفجر على التكرار إرادة الاختصاص، كما اختصت في قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ [البقرة: 238] عند بعض المفسرين، فإن قلت: ما وجه قوله: ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ [طه: 130] على الجمع، وإنما هما طرفان كما قال: ﴿أقم الصلاة طرفي النهار﴾ [هود: 114]؟ قلت: الوجه أمن الإلباس، وفي التثنية زيادة بيان، ونظير مجيء الأمرين -أي التثنية والجمع- في الآيتين مجيئهما في قوله: ظهرهما مثل ظهور الثُرسين²، كذا في الكشاف³. وقوله: ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ عطف على "قبل"، قال الكواشي: تلخيص معنى الآية: صلِّ الصلوات الخمس في أوقاتها، ويجوز أن يراد حقيقة التسبيح أي: سبِّحه في جميع الأوقات. انتهى⁴. ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ لعل للمخاطب، أي: اذكر الله في هذه الأوقات، رجاء أن تنال عند الله ما به ترضى نفسك ويُسِّرُ قلبك، وتَرْضَى⁵ عليّ وأبو بكر أي: يرضيك ربك⁶.

¹ النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 389/2.

² صدر البيت: ومهمهين قذفين مرتين، وهو لخطام الجاشعي، والشاهد: فجاء بالتثنية والجمع في بيت واحد. الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، 173/2. عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر، الملقب بسبيويه، الكتاب، (القاهرة: مكتبة الخانجي، 3، 1408هـ)، 48/2.

³ الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 97/3.

⁴ الكواشي، التلخيص في تفسير القرآن العظيم، 200/3.

⁵ البغدادي، السبعة في القراءات، 425.

⁶ النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 390/2.

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ [طه: 131] أي: نظر عينيك، ومدّ النظر: تطويله، وأن لا يكاد يرده استحساناً للمنظور إليه وإعجاباً به، وتمنياً أن يكون له، كما فعل نظارة قارون حين قالوا: ﴿يَلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قُورُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القصص: 79] [109/أ] حتى واجههم أولوا العلم والإيمان ب ﴿وَيُلَكُم مِّنْ ثَوَابِ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنِ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [القصص: 80]، وفيه دليل: على أنّ النظر غير الممدود معفو عنه، وذلك مثل نَظَرَ من بADE الشيء بالنظر ثم غَضَّ الطرف، ولما كان النظر إلى الزخارف كالمركز في الطباع، وأنّ من أبصر منها شيئاً أحب أن يمدّ إليه نظره، ويملاً منه عينيه قيل: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ [طه: 131]، أي: لا تفعل ما أنت معتاد له وضاربه، ولقد شدّد العلماء من أهل التقوى في وجوب غض البصر عن أبنية الظلمة وعُدَدِ الفَسَقَةِ في اللباس والمراكب وغير ذلك؛ لأنهم إنما اتخذوا هذه الأشياء لعيون النظارة، فالنّاظر إليها محصّل لغرضهم، وكالمُعْرِ لهم على اتخاذها. كذا في الكشف¹. ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ [طه: 131] أصنافاً من الكفرة. قال الزمخشري: يجوز أن ينتصب حالاً من هاء الضمير، والفعل واقع على منهم، كأنه قال: إلى الذي متعنا به وهو أصناف، بعضهم وناساً منهم ﴿زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [طه: 131] زينتها وبهجتها. قال الزمخشري: فإن قلت: علام انتصب زهرة؟ قلت: على أحد أربعة أوجه: على الذم: وهو النصب على الاختصاص. وعلى تضمين متّعنا معنى أعطينا وخولنا، وكونه مفعولاً ثانياً له، وعلى إبداله من محلّ الجار والمجرور، وعلى إبداله من أزواجاً على تقدير ذوى زهرة ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: 131] لنبلوهم حتى يستوجبوا العذاب لوجود الكفران منهم، أو لِنَعْدِبْنَهُمْ فِي الْآخِرَةِ بِسَبَبِهِ². قال القرطبي: قال بعض الناس سبب هذه الآية ما رواه أبو رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم [109/ب] قال: «نَزَلَ ضَيْفٌ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَرْسَلَنِي عَلَيْهِ

¹ الزمخشري، الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، 97/3-98.

² المصدر السابق.

السَّلَامُ إِلَى رَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ، وَقَالَ قُلْ لَهُ يَقُولُ لَكَ مُحَمَّدٌ: نَزَلَ بِنَا ضَيْفٌ وَمَلَمْ يُلْفَ عِنْدَنَا بَعْضُ الَّذِي يُصْلِحُهُ، فَبِعْنِي كَذَا وَكَذَا مِنَ الدَّقِيقِ، أَوْ أَسْلَفَنِي إِلَى هِلَالٍ رَجَبٍ فَقَالَ: لَا، إِلَّا بِرَهْنٍ: قَالَ: فَرَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ: " وَاللَّهِ إِنِّي لَأَمِينٌ فِي السَّمَاءِ أَمِينٌ فِي الْأَرْضِ وَلَوْ أَسْلَفَنِي أَوْ بَاعَنِي لَأَدَّيْتُ إِلَيْهِ أَذْهَبَ بِدِرْعِي إِلَيْهِ " وَنَزَلَتْ الْآيَةُ تَعْزِيَةً لَهُ عَنِ الدُّنْيَا «¹، واعترض ابن عطية² على هذا وقال: هذا لا يكون سبباً لنزول الآية؛ لأنَّ السورة مكية والقصة المذكورة مدنية في آخر عُمر النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنه مات ودرعه مرهونة عند يهودي بهذه القصة التي ذكرت، وإنما الظاهر أنَّ الآية متناسقة مع ما قبلها وذلك أنَّ الله تعالى وبجهم على ترك الاعتبار بالأمم السالفة، ثم توعدهم بالعذاب المؤجل، ثمَّ أمر نبيه بالاحتقار لشأنهم والصبر على أقوالهم، والإعراض عن أموالهم وما في أيديهم من الدنيا، إذ ذاك مُنصرف عنهم صائر إلى آخرين. قال القرطبي: وكذلك ما روي عنه صلى الله عليه وسلم أنه مرَّ بإبل بني المصطلق وقد عَبَسَتْ بأبوالها³ من السَّمْنِ، فتنقَّع بثوبه، ثم مضى لقوله عز وجل: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ﴾ [طه: 131] الآية⁴ انتهى⁵. قال الكواشي: عن أبي بن كعب من لم يتعز بعز الله تعالى تقطعت نفسه حسرات، ومن يتبع نفسه ما في أيدي الناس بطل حزنه، ومن ظن أنَّ نعمة الله في مطعمه ومشربه وملبسه فقد قل عمله وحضر عذابه. انتهى⁶، ثم سَلَّى رسول الله صلى الله

¹ أخرجه الطبراني، المعجم الكبير، يزيد بن عبد الله بن قسيط عن أبي رافع، 331/1، حديث رقم: 989، وأخرجه الرُّوياني أبو بكر محمد بن هارون، مسند الروياني، حديث أبي رافع رضي الله عنه، (القاهرة: مؤسسة قرطبة، ط1، 1416هـ)، 472/1، حديث رقم: 715، والبخاري، مسند البخاري، المنثور باسم البحر الزخار ما أسند أبو رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه السلام، 315/9، حديث رقم: 3863، ضعيف.

² ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 70/4.

³ عَبَسَتْ فِي أَبْوَالِهَا: هُوَ أَنْ تَجْفَأُ أَبْوَالَهَا وَأَبْعَارَهَا عَلَىٰ أَفْخَاذِهَا وَذَلِكَ إِذَا كَانَ مِنَ الشَّحْمِ. أَبُو عُبَيْدٍ الْقَاسِمُ بْنُ سَلَامٍ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْهَرَوِيُّ الْبَغْدَادِيُّ، غَرِيبُ الْحَدِيثِ، (حيدر آباد: مطبعة دائرة المعارف العثمانية، ط1، 1384هـ)، 9/3.

⁴ أخرجه أبو عُبَيْدٍ الْقَاسِمُ بْنُ سَلَامٍ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْهَرَوِيُّ الْبَغْدَادِيُّ، فَصَائِلُ الْقُرْآنِ لِلْقَاسِمِ بْنِ سَلَامٍ، كِتَابُ فَضْلِ الْقُرْآنِ وَمَعَالِمِهِ وَأَدْبِهِ، بَابُ: حَامِلُ الْقُرْآنِ وَمَا يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَأْخُذَ بِهِ مِنْ أَدَبِ الْقُرْآنِ، (بيروت: دار ابن كثير، ط1، 1415هـ)، 115، ضعيف جداً.

⁵ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 11، 262-263.

⁶ الكواشي، التلخيص في تفسير القرآن العظيم، 201/3.

عليه وسلم فقال: ﴿وَرَزَقُ رَبِّكَ﴾ [طه: 131] ثوابه وهو الجنة، أو الحلال الكافي. قال الزمخشري: ورزق ربك هو ما ادخر له من ثواب الآخرة الذي هو خيرٌ منه في نفسه وأدوم، أو ما رزقه من نعمة الإسلام والنبوة، أو لأنَّ أموالهم الغالب عليها العَصَبُ والسَّرِقَةُ والحِرْمَةُ [أ/110] من بعض الوجوه والحلال خير وأبقى؛ لأنَّ الله لا ينسب لنفسه إلا ما حلَّ وطاب دون ما حرم وخبث¹، ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: 131] مما رزقوا ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ﴾ [طه: 132] أمتك، أو أهل بيتك بِالصَّلَاةِ، ﴿وَاصْطَبِرْ﴾ [طه: 132] أنت، أي: داوم² ﴿عَالِيهَا﴾ [طه: 132] قال القرطبي: وهذا الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، ويدخل في عمومه جميع أئمة وأهل بيته خصوصاً، وكان صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآية يذهب كل صباح إلى بيت فاطمة وعلي رضي الله عنهما، فيقول: الصلاة³، ويروى أنَّ عروة بن الزبير رضي الله عنه كان إذا رأى شيئاً من أخبار السلاطين وأحوالهم يادر إلى منزله فدخله، وهو يقرأ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ الآية إلى قوله: ﴿وَأَبْقَى﴾ [طه: 131] ثم ينادي الصلاة الصلاة يرحمك الله ويصلي⁴، وكان عمر بن الخطاب يوقظ أهله لصلاة الليل ويصلي هو ويتمثل بالآية⁵. انتهى⁶.

¹ الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 98/3.

² النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 391/2.

³ أخرجه الترمذي، سنن الترمذي، أبواب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب: ومن سورة الأحزاب، 352/5، حديث رقم: 3206. أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، مسند المكتبرين من الصحابة، مسند أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه، 434/21، حديث رقم: 14040. الحاكم، المستدرک علی الصحیحین، كتاب معرفة الصحابة رضي الله عنهم، ذكر مناقب فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، 3/ 172، حديث رقم: 4748، ضعيف.

⁴ أخرجه الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، 405/18.

⁵ أخرجه مالك بن أنس بلفظ: أن عمر بن الخطاب كان يصلي من الليل ما شاء الله. حتى إذا كان من آخر الليل، أيقظ أهله للصلاة. يقول لهم: الصلاة، الصلاة. ثم يتلو هذه الآية: {وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للمتقوى} [طه 20]:

[132]، الموطأ، كتاب السنن، ما جاء في صلاة الليل، 162/12، حديث رقم: 389، صحيح.

⁶ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 262/ 11.

﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا﴾ [طه: 132] أي: لا نسألك أن ترزق نفسك ولا أهلك ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ [طه: 132] وإياهم. قال الزمخشري: ﴿وَأَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ﴾ [طه: 132] أي: أقبل أنت مع أهلك على عبادة الله والصلاة، واستعينوا بها على خصاصتكم، ولا تحتم بأمر الرزق والمعيشة، فإن رزقك مكفي من عندنا، ونحن رازقوك، ولا نسألك أن ترزق نفسك ولا أهلك، ففرغ بالك لأمر الآخرة، وفي معناه قول الناس: من كان في عمل الله كان الله في عمله. وعن بكر بن عبد الله المزني¹ كان إذا أصاب أهله خصاصة قال: قوموا فصلوا، وهذا أمر الله أمر الله رسوله، ثم يتلو هذه الآية. وعن مالك بن دينار مثله². وفي بعض المسانيد: كان صلى الله عليه وسلم إذا أصاب أهله ضرر أمرهم بالصلاة وتلى هذه الآية³. [110/ب] وقد قال الله عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾ [الذاريات: 56 إلى 58]. قال الإمام فخر الدين: اعلم أنه ليس في الآية رخصة في ترك الكسب؛ لأنه تعالى قال في وصف المتقين: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [النور: 37] ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه: 132] أي: وحسن العاقبة لأهل التقوى بحذف المضامين ﴿وَقَالُوا﴾ [طه: 133]، أي: الكافرون ﴿لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ [طه: 132] هلا يأتينا محمد بآية من ربه تدل على صحة نبوته، اقترحوا على عاداتهم في التعنت آية على النبوة. قال الإمام فخر الدين: أوهوا بهذا الكلام أنه تعالى يكلفهم الإيمان من غير آية، وقالوا في موضع آخر: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ

¹ بكر ابن عبد الله المزني أبو عبد الله البصري ثقة ثبت جليل من الثالثة مات سنة: 106هـ. ابن حجر، تقريب التهذيب، 127.

² الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، 267/6.

³ أخرجه الطبراني بلفظ: كان النبي صلى الله عليه وسلم «إذا نزل بأهله الضيق أمرهم بالصلاة، ثم قرأ: {وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها} [طه: 132]، المعجم الأوسط، باب: الألف، من اسمه أحمد، 272/1، حديث رقم: 886. والبيهقي، شعب الإيمان، باب: الصلاة، تحسين الصلاة والإكثار منها، 515/4، حديث رقم: 2911، ضعيف.

كَمَا أَرْسَلَ الْأَوَّلُونَ ﴿ [الأنبياء: 5]، فأجاب الله سبحانه عنه بقوله: ﴿أَوْلَمَ تَأْتِهِمْ﴾ [طه: 132] مدني
وبصري¹ وحفص، والباقون أولم يأتمم بالياء لأنَّ البينة في معنى البرهان².

﴿بَيْنَهُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ [طه: 132] الكتب المتقدمة. يعني: أنهم اقترحوا على عادتهم
في التعنت آية على النبوة، ف قيل لهم: أولم تأتكم آية هي أمُّ الآيات، وأعظمها في باب الإعجاز، يعني:
القرآن من قبل أن القرآن برهان ما في سائر الكتب المنزلة، ودليل صحته؛ لأنَّه معجز وتلك ليست
بمعجزات³، فهي مفتقرة إلى شهادته على صحة ما فيها، ثم إنَّه تعالى بيَّن أنه أراح لهم كلَّ عذر وعلَّة في
التكليف، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ﴾ [طه: 134] من قبل الرسول، أو قبل القرآن
﴿لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا﴾ [طه: 134] هلا ﴿أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ [طه: 134]⁴، والمراد كان لهم أن يقولوا
ذلك فيكون عذراً لهم، فأما الآن فقد أرسلناك وبيَّنا على لسانك لهم ما عليهم وما لهم فلا حجة لهم البتَّة،
بل الحجة عليهم⁵، ﴿فَنَتَّبِعْ﴾ [طه: 134] بالنصب؛ لأنَّه جواب الاستفهام، ﴿ءَأَبُتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ
نَنْزِلَ﴾ [طه: 134] بنزول العذاب، ﴿وَنُحْزِي﴾ [طه: 134] [أ/111] في العقبى⁶.

حديث في من كان في الفترة

روى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الهالك في الفترة والمعتوه
والمولود قال: يَقُولُ الْهَالِكُ فِي الْفِتْرَةِ لَمْ يَأْتِنِي كِتَابٌ وَلَا رَسُولٌ - ثُمَّ تَلَا - ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ

¹ البغدادي، السبعة في القراءات، 425.

² الرازي، مفاتيح الغيب، 116/22.

³ مسألة: القرآن معجز وسائر كتب الله ليست معجزة. كذا في المخطوط.

⁴ النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 391/2.

⁵ الرازي، مفاتيح الغيب، 116/22.

⁶ النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 392/2.

قَبْلَهُ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا ﴿ طه: 134 ﴾ وَيَقُولُ الْمَعْتُوهُ رَبِّ لِمَ تَجْعَلْ لِي عَقْلًا أَعْقِلُ بِهِ خَيْرًا وَلَا شَرًّا وَيَقُولُ الْمَوْلُودُ رَبِّ لِمَ أُدْرِكُ الْعَمَلَ فَتَرْفَعَهُمْ نَارًا فَيَقُولُ لَهُمْ رُدُّوهَا وَادْخُلُوهَا- قَالَ- فَيَرُدُّهَا أَوْ يَدْخُلُهَا مَنْ كَانَ فِي عِلْمِ اللَّهِ سَعِيدًا لَوْ أُدْرِكُ الْعَمَلَ وَيُمْسِكُ عَنْهَا مَنْ كَانَ فِي عِلْمِ اللَّهِ شَقِيًّا لَوْ أُدْرِكُ الْعَمَلَ، فيقول الله تبارك وتعالى: إياك عَصَيْتُمْ فَكَيْفَ رُسُلِي لَوْ أَتَيْتُمْ¹. ذكره القرطبي².

قال أهل السنة: الآية تدلُّ على أنَّ الوجوب لا يتحقق إلا بالشرع، إذ لو تحقق قبل الشرع لكان العقاب حاصلًا قبل مجيء الشرع، وهو يخالف الآية، ثم إنَّه تعالى ختم السورة بطرف من الوعيد³، فقال: ﴿قُلْ﴾ [طه: 135] له يا محمد ﴿كُلُّ﴾ [طه: 135] كل واحد منا ومنكم ﴿مُتَرَبِّصٌ﴾ [طه: 135] منتظر للعاقبة ولما يؤول إليه أمرنا وأمركم ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ [طه: 135] أنتم ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ [طه: 135] إذا جاءت القيامة ﴿مَنْ أَصْحَابُ﴾ [طه: 135] مبتدأ وخبر، ومحلهما نصبٌ ﴿الصِّرَاطِ السَّوِيِّ﴾ [طه: 135] المستقيم ﴿وَمَنْ اهْتَدَى﴾ [طه: 135] إلى النعيم المقيم وهذا على سبيل الوعيد والزجر⁴. قال الإمام فخر الدين: قل كل متربص أي: منتظر، وهذا الانتظار يحتمل أن يكون قبل الموت، و أن كل واحد من الخصمين ينتظر موت صاحبه، ويحتمل أن يكون بعد الموت، وهو ظهور أمر الثواب والعقاب، فإنه يتميز في الآخرة أمر المحق من المبطل بما يظهر على المحق من أنواع كرامة الله سبحانه، وعلى المبطل من

¹ أخرجه ابن الجعد البغدادي علي بن عبيد الجوهري، مسند ابن الجعد، فضيل بن مرزوق الرؤاسي الأغر، (بيروت: مؤسسة نادر، ط1، 1410هـ)، 300/1، حديث رقم: 2038. ونور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي، كشف الأستار عن زوائد البزار، باب: فيمن لم يبلغه الدعوة وغير ذلك، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1، 1399 هـ)، 34/3، حديث رقم: 2176. أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، أبو الزناد عبد الله بن ذكوان، (المغرب، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1387هـ)، 127/18، ضعيف.

² القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 265/11.

³ الرازي، مفاتيح الغيب، 117/22.

⁴ النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 392/2.

أنواع [111/ب] إهانتته¹، قال النبي صلى الله عليه وسلم: « مَنْ قَرَأَ سُورَةَ طه، أُعْطِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَوَابَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ »². رواه ابن مردويه في تفسيره من حديث أبي بن كعب، وحاله معروف، وقال صلى الله عليه وسلم: « لَا يَفْرَأُ أَهْلَ الْجَنَّةِ مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا طه وَيس » رواه الثعلبي من حديث الحسن مرسلاً³. والله أعلم⁴.

الفصل الرابع: مصادر ابن الضياء ومنهجه في (تفسير القرآن العظيم في سورة طه)

المبحث الأول: مصادر المؤلف في تفسيره

يعود أهمية كل مؤلف علمي إلى تنوع مصادر، وأهميتها، وإنَّ تفسير ابن الضياء كثرت فيه المصادر المتنوعة، بشكل مباشر أو غير مباشر، وفي هذا الفصل يبحث في هذه المصادر.

المطلب الأول: مصادر المؤلف في تفسيره

إنَّ المصادر التي يعتمد عليها المفسر تعدُّ الأساس الذي يقوم عليها تفسيره، وهي الأصول التي يظهر من خلالها منهج المفسر الخاص به، لذا كان من الواجب أن نبحت عن مصادر ابن الضياء لإلقاء الضوء عليها، وللتعرف على مدى اعتماده وتأثره بها. ويمكن القول أنَّ ابن الضياء قد جمع مادته العلمية في تفسيره من عشرة تفاسير، بعضها كان مصدرًا أساسياً لمادته العلمية، وبعضها الآخر كان اعتماده عليها أقلَّ من غيرها، وإنَّ هذه المصادر هي:

¹ الرازي، مفاتيح الغيب، 117/22.

² الزيلعي، تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزمخشري، 356/2. زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي المناوي، الفتح السماوي بتخريج أحاديث القاضي البيضاوي، (الرياض: دار العاصمة، ط1، 1409هـ)، 825/2، موضوع.

³ أخرجه الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، 6/235. والبغدادي، فضائل القرآن للقاسم بن سلام، كتاب فضل القرآن ومعالجه وأدبه، باب: فضائل سورة هود وبني إسرائيل والكهف ومرم وطمه، (بيروت: دار ابن كثير، ط1، 1415هـ)، 247، ضعيف جداً.

⁴ الرازي، مفاتيح الغيب، 117/22.

تفسير القرطبي، والرازي، والكشاف، والنسفي، والكواشي، والسلمي، والبغوي، والبرهان النسفي،
والكرماني.

ثم إنَّ تفسير القرطبي، والرازي، والكشاف، والنسفي، والسلمي، والتحرير والتجوير، والبغوي، كانت هي
المصادر الأساسية لدى ابن الضياء التي استقى منها مادته العلمية، وأمَّا تفسير الكواشي والبرهان النسفي،
لم يكثر النقل منها، وبالنسبة لتفسير الكرماني، فقد كان أخذه منها قليلاً جداً.
أولاً: مصادره من التفاسير بالمأثور.

لم يلق تفسير ابن الضياء بكتب التفسير بالمأثور وافر الحظ، فهو لم يعتمد على التفاسير بالمأثور
كمصادر أساسية أو مباشرة، وإنما كانت مصادر غير مباشرة، بمعنى أنه أخذ مادته العلمية من تفاسير
حوت على مصادر بالتفسير بالمأثور، لكنَّ هذا لا يعني أنَّ تفسير ابن الضياء لا يوجد فيه تفسيراً بالمأثور،
بل كان مليئاً به، فنجده قد فسَّر القرآن بالقرآن، وفسَّر القرآن بالسنة، وفسَّر القرآن بأقوال الصحابة
والتابعين، وسنعرض الأمثلة على ذلك في مطالب خاصة بها، في غير هذا الموضع من البحث.

ثانياً: مصادره من التفاسير بالرأي

ورد في تفسير ابن الضياء الكثير من المصادر في التفسير بالرأي، سواء التي نقل منها مادته العلمية بشكل
مباشر، أو غير مباشر، وفي هذا المطلب يتعرض الباحث لهذه المصادر.

ثالثاً: مصادره الأخرى

استقى ابن الضياء تفسيره من كتب غير كتب التفسير، وهو ما يزيد التفسير أهمية ومكانة، وذلك: لأنَّ أيَّ كتاب تنوعت مصادره، وكثرت مراجعه، يدلُّ على علم المؤلف وجدِّيته في وضع كتاب فيه من الفوائد الجمَّة الكثيرة، ومن هذه المصادر:

1. في علوم القرآن

أ. أسئلة القرآن للبايزي، بحسب العنوان هو من قسم علوم القرآن، إنَّ هذا الكتاب لم أجده، رغم البحث الطويل، وقد نقل منه ابن الضياء في موضع واحد.

2. في السير والمغازي

أ. كتاب السير والمغازي، "سيرة ابن إسحاق"، لمحمد بن إسحاق بن يسار المطليبي بالولاء، المدني.
ب. الروض الأنف في شرح سيرة ابن هشام، لأبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي.

3. في البلدان والرحلات

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، لشهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي العدوي العمري.

4. في الآداب

أ. حياة الحيوان الكبرى، لأبي البقاء، كمال الدين الشافعي محمد بن موسى بن عيسى بن علي الدميري.

ب. الدواة والقلم، لأبي عبد الله محمد بن عثمان المدائني. لم أجده، ووجدت أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي، في كتابه "صبح الأعشى في صناعة الإنشاء"، نقل عنه العديد من المسائل.

5. في العقيدة

شرح العمدة في عقيدة أهل السنة والجماعة المسمى الاعتماد في الاعتقاد، لأبي البركات

حافظ الدين عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي.

6. في الوعظ والإرشاد

أ. زهرة الرياض، لسليمان بن داوود، وهو مخطوط.

ب. كتاب قطب الأنهي: لم أجده مطلقاً ولم أهدى إلى مؤلفه.

رابعاً: مصادره المباشرة وغير المباشرة

إن ابن الضياء استقى مادته العلمية من طريقتين:

1. مصادر مباشرة

وهي تلك المصادر الذي أخذ منها مادته العلمية من غير واسطة، وإن هذه المصادر هي:

أ. تفسير القرطبي، المسمى "الجامع لأحكام القرآن". للإمام: أبو عبد الله، محمد بن أحمد

الأنصاري القرطبي.

ب. تفسير الرازي، المسمى "مفاتيح الغيب" للإمام: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين

التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي.

ت. تفسير الزمخشري، المسمى "الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل"، لأبي القاسم محمود بن

عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله.

ث. تفسير النسفي المسمى "مدارك التنزيل وحقائق التأويل"، لأبي البركات عبد الله بن أحمد بن

محمود حافظ الدين النسفي.

ج. تفسير السلمى، المسمّى "حقائق التفسير"، لأبي عبد الرحمن محمد بن الحسين بن موسى الأزدي السلمى.

ح. تفسير البغوي، المسمّى "معالم التنزيل في تفسير القرآن"، لمحبي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي.

خ. تفسير ابن النقيب، المسمّى "التحرير والتحبير، لأقوال أئمة التفسير، في معاني كلام السميع البصير"، للعلامة: جمال الدين، أبي عبد الله: محمد بن سليمان، المعروف: بابن النقيب المقدسي، الحنفي.

د. تفسير الكواشي، المسمّى "التلخيص في تفسير القرآن العظيم" لأحمد بن يوسف الكواشي.

ذ. تفسير البرهان النسفي، المسمّى "كشف الحقائق وشرح الدقائق في التفسير"، لأبي الفضائل محمد بن محمد بن محمد المعروف بالبرهان النسفي.

ر. تفسير الكرمانى، المسمّى "غرائب التفسير وعجائب التأويل"، لأبي القاسم محمود بن حمزة بن نصر الكرمانى.

ز. أسئلة القرآن للبارزي. لم أجده.

س. كتاب السير والمغازي، "سيرة ابن إسحاق"، لمحمد بن إسحاق بن يسار المطليبي بالولاء، المدني.

ش. الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، لأبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي.

ص. مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، لشهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي العدوي العمري.

ض. حياة الحيوان الكبرى، لأبي البقاء، كمال الدين الشافعي محمد بن موسى بن عيسى بن علي الدميري.

ط. لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف، لزين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي.

ظ. الدواة والقلم، لأبي عبد الله محمد بن عثمان المدائني.

ع. شرح العمدة في عقيدة أهل السنة والجماعة المسمى "الاعتماد في الاعتقاد"، لأبي البركات حافظ الدين عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي.

غ. زهرة الرياض، لسليمان بن داوود، وهو مخطوط.

ف. كتاب قطب الأنهى: لم أجده مطلقاً ولم أهدى إلى مؤلفه.

2. مصادر غير مباشرة

هي المصادر التي نقل عنها المصدر الذي نقل منه ابن الضياء، فهو لم يأخذ المعلومة منها مباشرة، بل بواسطة مصدر آخر، وإن من هذه المصادر:

أ. في التفسير:

- تفسير ابن فورك، لمحمد بن الحسن بن فورك الأنصاري الأصبهاني، وقد وجدت ما طبع

منه: من أول سورة المؤمنون - آخر سورة السجدة.

- تفسير الغزنوي المسمى: "عين المعاني في تفسير الكتاب العزيز والسبع المثاني"، لم أجده مطبوعاً.

- جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ل محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري.

- الكشف والبيان عن تفسير القرآن: لأبي إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي.

- تفسير الماوردي = النكت والعيون، لأبي الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي.

- تفسير النقاش: المسمى "شفاء الصدور"، لأبي بكر، محمد بن الحسين بن زياد الموصللي، المعروف بالنقاش.

- تفسير التستري، التستري، أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن ربيع.

- معاني القرآن وإعرابه: لإبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج.

- الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون

علومه، أبو محمد مكي بن أبي طالب حمّوش بن محمد بن مختار القيسي القيرواني ثم

الأندلسي القرطبي المالكي.

ب. في السنن.

- الدارقطني، أبو الحسن علي بن عمر، سنن الدارقطني.

- أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بجرام بن عبد الصمد الدارمي، مسند

الدارمي المعروف بـ "سنن الدارمي".

- أبو داود، سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي
السجستاني، سنن أبي داود.

- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي، الجامع المسند الصحيح المختصر من
أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري.

- النسائي أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، المجتبى من السنن = السنن
الصغرى.

- أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، الجامع الصحيح: المسمى "صحيح
مسلم".

- الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سؤرة بن موسى بن الضحاك، سنن الترمذي.
- أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي المعروف بالبخاري،
مسند البخاري.

ت. في السيرة النبوية وقصص الأنبياء
- أبو الفضل القاضي عياض بن موسى اليحصبي، الشفا بتعريف حقوق المصطفى.

- أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق، عرائس المجالس.

ث. في الفقه

استمد ابن الضياء المسائل الفقهية التي وردت في تفسيره من تفسير القرطبي، والإمام القرطبي
استمد مادته العلمية من كتب المذهب المالكي، كونه مالكي المذهب، وعليه فإن من الكتب الفقهية الغير
مباشرة في كتابنا هذا كالاتي:

- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد في حديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، لأبي عمر بن عبد البر النمري القرطبي.

- الاستذكار، لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي.

خامساً: في اللغة والنحو

- الكتاب، لعمر بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر، الملقب سيبويه.

وقد أخذ منه بشكل مباشر الزمخشري في الكشاف، والقرطبي في تفسيره، وغيرها، وعنهم أخذ

ابن الضياء ما نقلوه عن سيبويه.

- المقتضب، لمحمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الأزدي، أبو العباس، المعروف بالمبرد. وقد

أخذ منه الإمام القرطبي الكثير من مسائله في اللغة.

سادساً: في القراءات

- جامع البيان في القراءات السبع، لعثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر أبو عمرو الداني.

- المختصب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، لأبي الفتح عثمان بن جني.

خلاصة المبحث: هذه هي أهم المصادر التي استمدّ ابن الضياء منها مادته العلمية بشكل مباشر، حيث

كان يرجع إليها وينقل منها النصوص مباشرة. وكذلك الأقوال من كتب التفسير التي كان لها حظاً طيباً،

والتي وجدت في تفسيره بشكل غير مباشر، وذلك بنقل تلك الأقوال من كتب التفسير التي أخذت منها.

المبحث الثاني: منهج ابن الضياء في تفسيره

إنَّ لكل مفسِّر منهج خاص به يتفرد به عن غيره من المفسرين، وقد يشارك غيره في المنهج الذي ارتضاه لنفسه، لذلك كان لا بدَّ من النظر في تفسير ابن الضياء لاستخراج منهجه في تفسير القرآن العظيم. وقبل الخوض في منهجيته لا بدَّ من تعريف المنهج.

تعريف المنهج لغة: الطَّريق الواضح، مأخوذ من نهج ينهج نهجاً، ومنه قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ المائدة: 48، أي سبيلاً وسنة.

اصطلاحاً: هو الطَّريق المؤدِّي إلى التعرّف على الحقيقة في العلوم بواسطة طائفة من القواعد، التي تهيمن على سبر العقل، وتحدّد عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة¹.

المطلب الأول: تفسير القرآن بالقرآن (عند ابن الضياء)

يعدُّ القرآن الكريم المصدر الأول لتفسير آيات الذكر الحكيم، فإنَّه ما أجمل في موضع يرد مفصلاً في موضع آخر، وما جاء مبهماً في آية تراه مبيناً في آية أخرى، وقد اعتمد ابن الضياء في تفسيره على القرآن كمصدر رئيسي.

أولاً: الأمثلة على تفسير القرآن بالقرآن من تفسير ابن الضياء

1. قال ابن الضياء في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ [طه: 25]. اعلم أنه يجيء والمراد

منه القلب، قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الزمر: 22].

¹ سعيد أحمد بن صغير أحمد هندي، أثر الاستشراق على المنهج العقدي الإسلامي بالهند (١٨٥٠ م - ١٩٥٠ م) دراسة نقدية، (المدينة المنورة: أطروحة دكتوراة، جامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية، 1423هـ)، 23/1.

2. قال ابن الضياء في قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْتًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: 44]. فإن

قلت: كيف كان ذلك الكلام اللين؟ قيل: القول اللين نحو قوله تعالى: ﴿هَلْ لَكَ إِلَىٰ أَنْ تَزَكَّىٰ

وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾ [النازعات: 18-19]، لأن ظاهره الاستفهام والمشورة، وعرض ما

فيه الفوز العظيم.

3. قال ابن الضياء في قوله تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمُوتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ

الْبَحْرِ، وَإِنَّ طَرْفِي النَّوْنَ رَأْسَهُ وَذَنْبَهُ يَلْتَقِيَانِ تَحْتَ الْعَرْشِ، وَالْبَحْرُ عَلَىٰ صَخْرَةٍ خَضِرَاءَ خَضِرَةَ

السَّمَاءِ مِنْهَا، وَهِيَ الَّتِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ فِيهَا: ﴿فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ

يَأْتِي بِهَا اللَّهُ﴾ [لقمان: 16]، والصخرة على قرن، والثور على الثرى ولا يعلم ما تحت الثرى إلا

الله تعالى.

خلاصة المبحث: قد اعتمد ابن الضياء في تفسيره على القرآن كمصدر رئيسي، فيشرح الآية بآية أخرى،

ويبين مبهم الآية بآية ثانية.

المطلب الثاني: تفسير القرآن بالحديث النبوي (عند ابن الضياء)

كان المفسرون من السلف الصالح يلجؤون في تفسيرهم للقرآن الكريم إلى السنة النبوية، إذا لم

يهتدوا إلى تفسير القرآن بالقرآن، فهي الشارحة والموضحة والمبينة له، فق ورد في السنن عن رسول الله

صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أَلَا إِنِّي أُوتِيْتُ الْكِتَابَ، وَمِثْلُهُ مَعَهُ أَلَا يُوشِكُ رَجُلٌ شَبَعَانُ عَلَىٰ أَرِيكَتِهِ

يَقُولُ عَلَيْكُمْ هَذَا الْقُرْآنِ فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلَالٍ فَأَحِلُّوهُ، وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ، أَلَا لَا يَحِلُّ

لَكُمْ لَحْمَ الْحِمَارِ الْأَهْلِيِّ، وَلَا كُلُّ ذِي نَابٍ مِنَ السَّبْعِ، وَلَا لُقْطَةٌ مُعَاهِدٍ، إِلَّا أَنْ يَسْتَعْنِيَ عَنْهَا صَاحِبُهَا،
وَمَنْ نَزَلَ بِقَوْمٍ فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَقْرُوهُ فَإِنْ لَمْ يَقْرُوهُ فَلَهُ أَنْ يُعَقِبَهُمْ بِمِثْلِ قِرَاءَةٍ¹.

وقد اعتمد ابن الضياء في تفسيره على السنة النبوية في تفسير آيات الذكر الحكيم، وكان يذكر
مصدره من كتب السنن أحياناً، وأحياناً أخرى يذكر الحديث من غير ذكر لمصدره مع ذكر راويه، وأحياناً
أخرى يذكر الحديث من غير ذكر للمصدر أو الراوي، ومن الأمثلة على ذلك:

1. يذكر مصدره من كتب السنن، ثم يعقبه فيقول: رواه فلان، وذلك في قوله:

أ. في كتاب النسائي عن القاسم بن محمد سمعت عمر يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
«مَنْ وَليَ مِنْكُمْ عَمَلًا فَأَرَادَ اللهُ بِهِ خَيْرًا جَعَلَ لَهُ وَزِيرًا صَالِحًا، [49/أ] إِنْ نَسِيَ ذِكْرَهُ، وَإِنْ ذَكَرَ
أَعَانَهُ». ومن هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم: «مَا بَعَثَ اللهُ مِنْ نَبِيٍّ، وَلَا اسْتَخْلَفَ مِنْ
خَلِيفَةٍ، إِلَّا كَانَتْ لَهُ بَطَانَتَانِ: بَطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَحْضُرُهُ عَلَيْهِ، وَبَطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالشَّرِّ وَتَحْضُرُهُ
عَلَيْهِ، فَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَ اللهُ تَعَالَى». رواه البخاري رحمه الله.

ب. وفي صحيح مسلم عن سعيد بن زيد قال: «قُلْتُ لِأَنْسِ بْنِ مَالِكٍ: أَكَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي فِي النَّعْلَيْنِ؟ قَالَ: نَعَمْ». ورواه النسائي أيضاً.

ت. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لَمَّا قَضَى اللهُ الخَلْقَ
كَتَبَ فِي كِتَابٍ عَلَى نَفْسِهِ فَهُوَ مَوْضُوعٌ عِنْدَهُ أَنْ رَحِمْتِي تَغْلِبُ غَضَبِي» وأسند الخطيب أبو
بكر عن أبي هريرة قال: «كَانَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ يَجْلِسُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
[65/ب] يَسْتَمِعُ مِنْهُ الحَدِيثَ وَيُعْجِبُهُ وَلَا يَحْفَظُهُ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ

¹ أخرجه أبو داود، سنن أبي داود، كتاب السنّة، باب: لزوم السنة، 200/4، حديث رقم: 4604، صحيح.

وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنِّي أَسْمَعُ مِنْكَ الْحَدِيثَ يُعْجِبُنِي وَلَا أَحْفَظُهُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (تكتب الخطبة التي خطب بها في الجمع من الحديث)، اكْتُبُوا لِأَبِي شَاهٍ -رَجُلٌ مِنْ الْيَمَنِ- لَمَّا سَأَلَهُ». أخرجہ مسلم.

2. يذكر الحديث من غير ذكر لمصدره مع ذكر راويه، وذلك كالاتي:

ما رواه أبو رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم [109/ب] قال: «نَزَلَ ضَيْفٌ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَرْسَلَنِي عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى رَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ، وَقَالَ قُلْ لَهُ يَقُولُ لَكَ مُحَمَّدٌ: نَزَلَ بِنَا ضَيْفٌ وَمَ يُلْفَ عِنْدَنَا بَعْضُ الَّذِي يُضْلِحُهُ، فِعْنِي كَذَا وَكَذَا مِنَ الدَّقِيقِ، أَوْ أَسْلَفْنِي إِلَى هَلَالٍ رَجَبٍ فَقَالَ: لَا، إِلَّا بِرَهْنٍ: قَالَ: فَرَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ: " وَاللَّهِ إِنِّي لَأَمِينٌ فِي السَّمَاءِ أَمِينٌ فِي الْأَرْضِ وَلَوْ أَسْلَفْنِي أَوْ بَاعَنِي لَأَدَّيْتُ إِلَيْهِ أَذْهَبَ بِدِرْعِي إِلَيْهِ " وَنَزَلَتِ الْآيَةُ تَعْرِيفَةً لَهُ عَنِ الدُّنْيَا».

3. يذكر الحديث من غير ذكر لمصدره أو من أخرجه، وذلك كالاتي:

أ. قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمْؤَسَى﴾ [طه: 11]. قال سعيد بن جبیر: هي النار بعينها، وهي إحدى حجب الله تعالى، يدل عليه ما روي عن أبي موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «حِجَابُهُ النَّارُ لَوْ كَشَفَهَا لَأَحْرَقَتْ سُبْحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ حَلْقِهِ».

ب. قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ [طه: 25]. سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شرح الصدر، فقال: نور يُقَدَفُ فِي الْقَلْبِ، قيل: وما أمارته؟ قال: التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل النزول.

4. يذكر الحديث مع مصدره وروايه، مبيّناً حكم الحديث، ومثاله: قال القرطبي: وقيل كل نطفة

مخلوقة من التراب، على هذا يدل ظاهر القرآن، وروى أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول

الله صلى الله عليه وسلم: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا وَقَدْ دُرَّ عَلَيْهِ مِنْ تُرَابٍ حُمْرَتِهِ». أخرجه أبو نعيم

الحافظ في كتاب ابن سيرين وقال: هذا حديث غريب.

خلاصة المبحث: اعتمد ابن الضياء في تفسيره على السنة النبوية، وكان يذكر مصدره من كتب

السنن أحياناً، وأحياناً أخرى يذكر الحديث من غير ذكر لمصدره مع ذكر روايه، وأحياناً أخرى يذكر

الحديث من غير ذكر للمصدر أو الراوي.

المطلب الثالث: تفسير القرآن بأقوال الصحابة والتابعين (عند ابن الضياء)

إنَّ أعلم الناس بالقرآن الكريم بعد النبي صلى الله عليه وسلم هم الصحابة رضوان الله عليهم، فإنهم من

شاهدوا التنزيل، وعاصروا أحواله، وهم من سمع منه صلى الله عليه وسلم الوحي المنزل عليه، وهم أهل اللغة

والفصاحة، ثمَّ كان أعلم الناس بالتفسير بعد الصحابة هم التابعون، فمنهم أخذوا علمهم، وبهم اقتدوا،

وهم أفضل القرون بعد قرن الصحابة.

أولاً: أمثلة لتفسير القرآن بقول الصحابي (عند ابن الضياء).

وقد اعتمد ابن الضياء في تفسيره على أقوال الصحابة، فيأتي بأقوالهم والآثار التي وردت عنهم،

مفسراً بها للآيات، ومن الأمثلة على ذلك:

1. قوله تعالى: ﴿طه﴾ [طه: 1]. قال ابن عباس: معناه يا رجل.

2. قوله تعالى: ﴿أَنْ أَقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَأَقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوِّي وَعَدُوُّ

لَهُ وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةٌ مِّمِّي وَتُصْنَعُ عَلَيَّ عَيْبِي﴾ [طه: 39]. قال ابن عباس: يريد أن ذلك بعيني

حيث جعلت في التابوت، وحيث ألقى التابوت في البحر وحيث التقطتك جوارى امرأة فرعون،

فأرادوا أن يفتحوا التابوت لينظروا ما فيه فقالت واحدة منهن: لا تفتحنه حتى تأتين به سيديتكم،

فهو أحظى لكُنَّ عندها، وأجدر بالألا تتهمكُنَّ أنكن وجدتن فيه شيئاً فأخذتموه لأنفسكم،

وكانت امرأة فرعون لا تشرب من الماء إلا ما استقته أولئك الجوارى فذهبوا بالتابوت إليها مغلقاً

فلما فتحته رأته فيه صيباً لم ير مثله قط، وألقى عليها محبته فأخذته فدخلت به على فرعون،

فقالت له: قرّة عين لي ولك، فقال لها فرعون: أما لك فنعم، وأما لي فلا، وبلغنا أن النبي صلى

الله عليه وسلم قال: «لو أن فرعون قال: نعم، هو قرّة عين لي ولك لآمن وصدق فقالت: هبة

لي، ولا تقتله، فوهبه لها».

3. قوله تعالى: ﴿وَفَتْنَاكَ فُتُونًا﴾ [طه: 40]. قال ابن عباس: ﴿وَفَتْنَاكَ﴾ أي: اخترناك بأشياء

قبل الرسالة، أولها حملته أمه في السنة التي كان فرعون يذبح فيها الأطفال ثم إلقاءه في اليم، ثم

منعه من الرضاع إلا من ثدي أمه، ثم جرّه بلحية فرعون، ثم تناوله الجمرة بدل الدرة فدرأ ذلك

عنه قتل فرعون، ثم قتله القبطي وخروجه خائفاً يترقب، ثم رعاية الغنم ليتدرب بها على رعاية

الخلق، فيقال: إنّه ندّد له من الغنم جدّي فأتبعه أكثر النهار فأتعبه ثم أخذه فقبّله وضّمّه إلى

صدره وقال له: أتعبتني وأتعبت نفسك، ولم يغضب عليه.

ثانياً: أمثلة لتفسير القرآن بقول التابعي (عند ابن الضياء).

1. قوله تعالى: ﴿كَيْ نَسْبِحَكَ كَثِيرًا﴾ [طه: 33]. قال جعفر: قيل لموسى عليه السلام:

استكثرت تسيبحك وتكبيرك ونسيت بدايات فضلنا عليك في اليم، وردك إلى أمك وتربيتك في حجر عدوك، وأكثر من هذا كله خطابنا معك وكلامنا إياك، وأكثر منه إخبارنا باصطناعنا لك.

2. ﴿ثُمَّ جِئْتَنَا عَلَىٰ قَدَرٍ يَأْمُرُ بِالسَّعْيِ﴾ [طه: 40]. على قدر: أي: موعده مُقَدَّرٌ في علمي أنك تجيء

وأستنبئك فيه، وكان مجيئه على رأس أربعين سنة، قال [56/أ] ابن عباس وقتادة وعبد الرحمن بن كيسان: يريد موافقاً للنبوة والرسالة لأن الأنبياء لا يبعثون إلا أبناء أربعين سنة، المعنى: جئت في الوقت الذي أردنا إرسالك فيه.

خلاصة المبحث: اعتمد ابن الضياء في تفسيره على أقوال الصحابة والتابعين، فبأقوالهم

والآثار التي وردت عنهم، مفسراً بما للآيات، وقد كان يستشهد بها كثيراً في تفسيره.

المطلب الرابع: موقفه من التفسير الإشاري

لا يقصد بالتفسير الإشاري إحالة طواهر النصوص عن ظاهرها، بل ظاهر الآية مفهوم من الآية وما دلت عليه في عرف اللسان، ويضاف إلى ذلك: أفهام باطنة لمن فتح الله قلبه، مستدلين بحديث: «أُنزِلَ الْقُرْآنُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ لِكُلِّ آيَةٍ مِنْهَا ظَهْرٌ وَبَطْنٌ»¹. فهم يقررون الظواهر على ظواهرها مراداً بها موضوعاتها ويفهمون عن الله ما ألهمهم.

¹ أخرجه البزار، مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار، مسند عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، 441/5، رقم الحديث: 2081. أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي البستي، المسند الصحيح على التقاسيم والأنواع من غير وجود قطع في سندها ولا ثبوت جرح في ناقلها، النوع السابع والعشرون، ذكر العلة التي من أجلها قال النبي صلى الله عليه وسلم: "وما جهلتم منه، فردوه إلى عالمه"، (بيروت: دار ابن حزم، ط1، 1433هـ)، 120/2، رقم الحديث: 1028. ضعيف.

قال الزركشي: "كلام الصوفية في تفسير القرآن قيل إنه ليس بتفسير وإنما هو معان ومواجيد يجدونها عند التلاوة كقول بعضهم في قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار} إن المراد النفس يريدون أن علة الأمر بقتال من يلينا هي القرب وأقرب شيء إلى الإنسان نفسه"¹.

أولاً: تعريف التفسير الإشاري لغة واصطلاحاً

1. التفسير الإشاري لغة: الإشارة هي صفة للتفسير، من الإشارة وهي الإيماء²

2. التفسير الإشاري اصطلاحاً: هو تأويل القرآن بغير ظاهره لإشارة خفية تظهر لأرباب

السلوك والتصوف ويمكن الجمع بينها وبين الظاهر والمراد أيضاً³.

ثانياً: موقفه من التفسير الإشاري

ورد في تفسير الضياء العديد من تفاسير الصوفية، التي نقل منها أقولاً متعددة، كتفسير التستري، وحقائق التفسير للسلمي. وكان ابن الضياء يقبل تفاسير الصوفية في كثير من الأحيان، فوجد في تفسيره العديد من أقوال الصوفية، مستشهداً بهم، وبأقوالهم. ومن هذه النصوص:

1. وقال محمد بن عيسى الهاشمي: أي: طوى عن سرِّ محمد الأكوآن كلها، وهدى إلى الاشتغال

بمكوثها.

2. قال الجنيد في قوله: ﴿عَصَايَ أَتَوَكَّأَ عَلَيْهَا﴾ فقال له: ألق كلما يعتمد عليه قلبك أو تسكن إليه

نفسك فإن الكل محل العلل، وإن كل ما تسكن إليه سَتَهْرَبُ منه عن قليل ألا تراه.

¹ الزركشي، البرهان في علوم القرآن، 170/2. الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، 78/2.

² ابن منظور، لسان العرب، 190/1.

³ الذهبي، التفسير والمفسرون، 261/2. الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، 78/2.

3. ومن الأدلة التي تبين قبوله لهذه التفاسير أيضاً: قال الجنيد في قوله: ﴿وَمَا تَلَكَ يَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾

فقال: انفرد الحق بعلم الغيوب، فللخلق من الأشياء ظواهرها وله الحقائق منها، وكان عند موسى

أنها عصى فقط، فذكر كلما يَعْرِف من علمها، فأراه الله فيها من العلم ما انفرد به وجعلها حية،

والحكمة فيه أنه لو لم ير ما فيها من الآيات لرآه في وقت الانقلاب، فأراه ذلك لئلا يفرغ ولا

يَجْزَع.

4. وقال سهل: أظهر الله عليه ميراث عمله، فأورثه محبة في قلوب عباده¹. وقال بعضهم: ألقيتُ

عليك محبة مني عُثِّجُ بعينيك لا يراك أحدٌ إلا رَقَّ لك، ومال إليك؟

5. في قوله تعالى: ﴿أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ قال ابن عطاء: الإشارة إلى فرعون وهو المبعوث في

الحقيقة إلى السحرة، فإن الله لا يرسل أنبياءه إلى أعدائه، ولم يكن لأعدائه عنده من الخطر ما

يُرْسَل إليهم أنبياءه، ولكن يبعث الأنبياء ليُخْرِج أوليائه المؤمنين من بين أعدائه الكفرة.

والذي يظهر أنَّ ابن الضياء كان ينقل عن الصوفية أقوالهم إذا لم تخالف الشرع.

خلاصة المبحث: كان ابن الضياء ينقل أقوال الصوفية من تفاسيرهم، كتفسير التستري، وحقائق

التفسير للسلمي، وكان ابن الضياء يقبل تفاسير الصوفية إذا لم تخالف الشرع.

1 التستري، أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن رفيع، تفسير التستري، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1423 هـ)،

المطلب الخامس: منهجه في ذكر الإسرائيليات.

تضمّنت بعض المصادر التفسير، روايات تتعلق بتاريخ الأنبياء، والأمم الغابرة، وبعض الاعتقادات الدينيّة التي لا تمسّ الإسلام بصلة. ومصدر دخول أغلب هذه الروايات إلى الإسلام هو علماء أهل الكتاب لا سيّما اليهود منهم. وهذه المرويّات هي التي يُطلق عليها في الاصطلاح (الإسرائيليات).

أولاً: تعريف المنهج والإسرائيليات لغة واصطلاحاً

تعريف الإسرائيليات

لغةً: من الفعل سَرَلَ، ومنه، إسرائيل وإسرائيلين، والإسرائيليات جمع إسرائيلية نسبة إسرائيل، وهو

يعقوب النبي، وإليه ينسب اليهود، فيقال: بنو إسرائيل¹.

اصطلاحاً²: لم يرد تعريفاً للإسرائيليات عن المتقدمين، وإنما تحدث عنه العلماء المحدثين

والمعاصرين، وتباينت الآراء حول تعريفه، وبيان معناه، فمنهم من عرّفه:

أ. هي تلك الروايات التي وردت عن بني إسرائيل خاصة. فهو بذلك يخص الروايات التي فيها

الصبغة اليهودية، أو الطابع اليهودي فقط.

ب. هي تلك الروايات والأخبار اليهودية والنصرانية التي دخلت في المحتوى الإسلامي.

¹ ابن منظور، لسان العرب، فصل القاف، 235/1. الثعالبي، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، (بيروت: إحياء التراث العربي، ط1، 1418هـ)، 110/1.

² رمزي نعاغة، الإسرائيليات وأثرها في كتب التفسير، (دمشق: دار القلم، ط1، 1390هـ)، 73. محمد بن محمد أبو شهبه، الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، (القاهرة: مكتبة السنة، ط4، 1408هـ)، 12.

والذي يميل إليه الباحث: هي كل ما كان دخلياً على التفسير من المصادر الإسلامية، ولم يكن منها، لأنه يوجد أكاذيب وتحريف وقصص مدسوسة أغلبها منقولة عن بني إسرائيل، وبعضها لم ينقل عنهم، وإنما دُسَّ من غيرهم، وأطلقت كلمة إسرائيليات على كل دخيل لأن غالب الدخيل هو من بني إسرائيل.

ثانياً: منهج ابن الضياء في ذكر الإسرائيلييات

لم يخل تفسير ابن الضياء من الإسرائيلييات، بل حوى الكثير منها، فقد كان ينقل النصوص من مصادرها من غير تعقيب أو تعليق، وعند نقله لها يوردها بعدد من الطرق:

1. يذكر الخبر ويصرِّح أنه من الإسرائيلييات من غير أن يتعقبه، فيقول: "وفي الإسرائيلييات: أن موسى عليه السلام قام على باب فرعون سنة لا يجد رسولاً يبلغ كلامه حتى خرج فجرى له ما قصَّ الله علينا من ذلك، وكان تسليية لمن جاء بعده من المؤمنين في سيرتهم مع الظالمين، وربك أعلم بالمهتدين".

2. يذكر الخبر مبيناً أنه لم يصرِّح منه شيء، ثم يسرد الخبر، وذلك في قوله: "وروى عن كعب الأحبار قال: إنَّ إبليس تغلغل إلى الحوت الذي على ظهره الأرضون كلها، ووصل إلى قلبه فقال: هل ترى ما على ظهرك الدنيا بما فيها من الأجر والشجر والدواب والناس والجبال لو ألقيتهم عن ظهرك كلهم، فإن فيهم قوماً تفعل كذا، فبعث الله دابة فدخلت في منخره حتى دخلت دماغه فعجَّ إلى الله منها فخرجت¹، قال: وكان كعب [8/أ] يقول: والذي نفسي بيده إنَّه لينظر إليها

¹ ابن أبي الدنيا، العقوبات، 207، برقم: 324. أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، (بيروت: دار الكتب العلمية ط ١٤٠٩هـ)، 8/6.

بين يديه وتنظر إليه إن همَّ بشيء من ذلك عادت حيث كانت¹. وقال صاحب التحرير: وإنما

ذكرت هذه الأقوال لثلاثا يعتقد صحتها ويعول عليها".

3. يذكر الخبر بصيغة تضعيف، كيقال وروي، وذلك في قوله: "ويقال: إن السامري سمع كلام

موسى عليه السلام حيث عمل تمثالين من شمع: أحدهما: ثورٌ والآخر فرسٌ فألقاهما في النيل

طلب قبر يوسف، وكان في تابوت من حجر في النيل، فأتى به الثور على قرنه، فتكلم السامري

بذلك الكلام الذي سمعه من موسى، وألقى القبضه في جوف العجل".

ومن الغرابة بمكان، أنَّ ابن الضياء-وهو العالم الفقيه والمفسر- كان ينقل الأخبار، ويذكرها في تفسيره،

فقد كان يمرُّ عليها دون أن يتعقبها، أو يذكر لحالها، وليته فعل وكشف ما فيها من خرافات أو فساد، أو

ليته صان كتابه عنها ولم يذكرها في تفسيره.

خلاصة المبحث: حوى تفسير ابن الضياء على العديد من الإسرائيليات، فقد كان ينقل النصوص من

مصادرها من غير تعقيب أو تعليق، وكان يذكرها: باسمها الصريح أحيانا، أو يذكر الخبر مبيناً أنه لم يصحَّ

منه شيء، أو يذكره بصيغة تضعيف.

المطلب السادس: منهجه في عرض القراءات

أنزل الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، بواسطة أمين

الوحي جبريل عليه السلام، وتكفل الله تعالى بحفظه فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ

لَحْفَظُونَ﴾ [الحجر: 9]. ومن وسائل حفظ القرآن الكريم تصديقا للآية الكريمة، العناية التامة والاهتمام

الكبير من قبل العلماء بعلم القراءات، ومعرفة المتواتر والشاذ منها، وتدوين ذلك وتسطيره في كتب عظيمة

¹ أبو نعيم، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، 8/6.

الفائدة في هذا الباب، لعلماء كان جُلُّهم خدمةً كتاب الله تعالى¹. وقبل الدخول في التعريفات لا بدَّ من ذكر المصطلحات التي وردت للقراء، في تفسير ابن الضياء.

1. مدني: نافع براوييه قالون وورش.
2. مكّي: ابن كثير براوييه البزي وقنبل.
3. بصري: أبو عمرو براوييه الدوري والسوسي.
4. شامي: ابن عامر براوييه هشام وذكوان.
5. كوفي: عاصم براوييه شعبة وحفص، وحمزة براوييه خلف وخلاد، والكسائي براوييه

أبي الحارث وحفص الدوري.

أولاً: تعريف القراءات لغة واصطلاحاً

1. القراءات لغة: جمع قراءة، وهي مصدر سماعي ل(قرأ)، يقال: قرأ فلان، يقرأ قراءة².
 2. القراءات اصطلاحاً: عرّف ابن الجزري علم القراءات فقال: "هو علم يعني بكيفية أداء كلمات القرآن الكريم واختلافها معزّواً إلى ناقله"³.
- وعرّف الزركشي القراءات، فقال: "هي اختلاف ألفاظ الوحي المذكور في كتابة الحروف أو كفيّاتها من تخفيف وتثقيل وغيرها"⁴.

¹ الزركشي، البرهان في علوم القرآن، 339/1.

² ابن منظور، لسان العرب، فصل العين، 128/1. الفيروزآبادي، القاموس المحيط، باب الدال، فصل العين، 300.

³ محمد بن محمد بن محمد بن الجزري، منجد المقرئين ومرشد الطالبين، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1420هـ)، 9.

⁴ الزركشي، البرهان في علوم القرآن، 318/1.

ثانياً: منهجه في عرض القراءات في سورة طه

يعرض ابن الضياء القراءات بعدة طرق: فأحياناً يذكر اسم القارئ، وأحياناً يكتفي بذكر البلد

التي ينتسب إليها القارئ، وأحياناً يترك القراءة من غير ذكر شيء مما ذكر، ويستخدم لفظ "قارئ".

1. التصريح باسم القارئ في القراءات، ومثاله قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسَاحِرَانِ﴾ [طه: 62]

يعني موسى وهارون. قال ابن الضياء: "قرأ أبو عمرو: إن هذين لساحران، وهو ظاهر، ولكنه

مخالف لخط مصحف الإمام. وابن كثير وحفص والخليل - وهو أعرف بالنحو واللغة -: إن هذان

لساحران بتخفيف إن، مثل قولك: إن زيداً لمنطلق، واللام هي الفارقة بين "إن" النافية والمخففة

من الثقيلة".

2. التصريح بذكر البلد التي ينتسب إليها القارئ، ولا يذكر اسمه، وهو الغالب في تفسيره، وفي

مواضع أخرى يقول: غيرهم، ومنه:

أ. قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نَأْتِهِمْ﴾ [طه: 132] مدني وبصري وحفص. والباقون "أولم يأتهم" بالياء لأنَّ

البيئنة في معنى البرهان.

ب. قوله تعالى: ﴿طُوى﴾ [طه: 12] حيث كان منونٌ شامي وكوفي؛ لأنَّه اسم علم للوادي، وهو

بدل، وغيرهم بغير تنوين بتأويل البقعة، وقرأ أبو زيد بكسر الطاء بلا تنوين.

ت. قوله تعالى: ﴿قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ﴾ [طه: 71] بغير مد حفص، وبهمزة ممدودة بصريٌّ وشامي

وحجازيٌّ، وبهمزتين غيرهم.

ث. يترك القراءة من غير ذكر شيء مما ذكر، ويستخدم لفظ "قارئ"، ومثاله:

- قوله تعالى: ﴿فَقَبِضَتْ قَبْضَةً﴾ [طه: 96] القبضة: المرة من القبض، وإطلاقها على المقبوض من تسمية المفعول بالمصدر كضرب الأمير، وقرئ: فقبضت قبضةً، فالضاد الأخذ بجميع الكف، والصاد بأطراف الأصابع، ونحوهما الحَضْمُ، والقَضْمُ الخاء بجميع الفم، والقاف بمقدمه.

- ﴿مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ [طه: 96] أي: من أثر فرس الرسول، وقرئ بها. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسِيَ وَلمَّ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: 115] وقرئ: فنسى أي نساها الشيطان.

وأما بالنسبة للقراءة الشاذة: فنلاحظ أنَّ ابن الضياء يذكر القراءة الشاذة بطريقتين:

- يذكرها دون الإشارة إليها أو التصريح بشذوذها، وقد يأتي بها لفائدة، كالاستدلال على المعنى، ومثاله فيقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: 102].

يقول ابن الضياء: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ﴾ [طه: 102] بدل من يوم القيامة. ننفخ بالنون أبو عمرو ﴿في الصُّورِ الْقَرْنَ، أو هو جمع صورةٍ أي: ينفخ الأرواح فيها. دليله قراءة قتادة في الصُّور بفتح الواو جمع صورةٍ.

- يعبر ابن الضياء في بعض الأحيان عن القراءة الشاذة بصيغة المبني للمجهول (قرئ)، وهي في قوله تعالى: ﴿يُنَبِّئُ إِسْرَائِيلَ فَدَأْبُنِيكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوى﴾ [طه: 80]. قال ابن الضياء: والأيمن نصب؛ لأنه صفة جانب، وقرئ بالجر على الجوار.

ثم نجد ابن الضياء يستخدم للاحتجاج للقراءات العديد من أنواع العلل، كالأستشهاد بالشعر، والتوجيه بلغات العرب، ويعتمد للترجيح، على القواعد والأقيسة العربية، وأذكر مثلاً لما ذكرت في قوله تعالى:

﴿قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسَاحِرَانِ﴾ [طه: 62] يعني موسى وهارون. قرأ أبو عمرو: إن هذين لساحران، وهو ظاهر، ولكنه مخالف لخط مصحف الإمام، وابن كثير وحفص والخليل وهو أعرف بالنحو واللغة: إن هذان لساحران بتخفيف إن مثل قولك إن زيداً لمنطلق، واللام هي الفارقة بين "إن" النافية والمخففة من الثقيلة، وقيل: هي بمعنى "ما"، واللام بمعنى "إلا" أي: ما هذان إلا ساحران، دليله قراءة أبي: إن ذان إلا ساحران، وقرأ الباقر: إن هذان لساحران. قيل: هي لغة بلحارث بن كعب وخنعم ومراد وكنانة، والثنية في لغتهم بالألف أبداً فلم يقبلوها ياء في الجر والنصب كعصا وسعدى، قال:

إِنَّ أَبَاهَا وَأَبَا أَبَاهَا قَدْ بَلَغَا فِي الْمَجْدِ غَايَتَهَا

فنجده قد استشهد بالشعر العربي للاحتجاج للقراءة، وتعرض للهجات العربية في توجيه القراءة عند قوله: هي لغة بلحارث بن كعب وخنعم ومراد وكنانة، ورجح قراءة الجمهور معتمداً في ذلك على القواعد العربية، وأنها قراءة الخليل، وهو العالم بالنحو والعربية.

خلاصة المبحث: يصرح ابن الضياء باسم القارئ، وأحياناً أخرى يذكر البلد التي ينتسب إليها القارئ، وأحياناً يترك القراءة مجهولة النسب ((قري))، وأما بالنسبة للقراءة الشاذة: يذكرها دون الإشارة إليها أو التصريح بشذوذها، وقد يأتي بها لفائدة، كالأستدلال على المعنى، ونجده يستخدم العديد من أنواع العلل، للاحتجاج للقراءات.

المطلب السابع: منهجه في تقرير مسائل العقيدة والرد على الفرق

إنَّ المتأمل في القرآن الكريم والباحث فيه عن أسراره وفوائده، يدرك مدى العناية والاهتمام الرباني بقضايا العقيدة، فهو يوجه إلى العقيدة السليمة، ويسوق الأدلة والبراهين العقلية والكونية وغيرها، ويقدم الحجة على المعارضين والمخالفين والملحدّين، وقد اعتنى المفسرين بهذا الجاني، واهتمُّوا به اهتماماً بالغاً، لنصرة الدّين، والردِّ على أهل الزيغ والضلال الفاسدين.

أولاً: تعريف مسائل العقيدة لغة واصطلاحاً

1. المسائل لغة: جمع مسألة، وهي مصدر: سَأَلَ يَسْأَلُ سُؤْلاً وَمَسْأَلَةً¹.

- اصطلاحاً: وهي المطالب التي برهن عليها في العلم إن كانت كسبية ويكون الغرض من ذلك العلم معرفتها².

2. العقيدة لغة: مأخوذة من العقد والرّبط والشّدّ بقوة، والعقد: نقيض الحُل، عقده أعقده عقداً وعقّده فانعقد وتعقّد، قال في المصباح المنير: واعتقدت كذا عقدت عليه القلب والضمير حتى قيل العقيدة ما يدين الإنسان به³.

- اصطلاحاً: هو العلم الذي يبحث فيما يجب على الإنسان أن يعتقد، ويؤمن به، ويقدم عليه البرهان الصحيح الذي يفيد اليقين⁴.

ثانياً: منهجه في تقرير مسائل العقيدة والرد على الفرق

¹ الفارابي، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، 5/ 1723.

² القاضي عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد نكري، دستور العلماء = جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1421هـ)، 3/ 181.

³ ابن منظور، لسان العرب، فصل القاف، 3/ 296. الفيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، عقد، 2/ 421.

⁴ مصطفى الخن، مبادئ العقيدة الإسلامية، (دمشق، جامعة دمشق، ط9، 1416هـ)، 17.

فيما يظهر من تفسير ابن الضياء، أن مذهبه هو مذهب أهل السنة والجماعة، فقد تعرض ابن الضياء في تفسيره إلى بعض القضايا العقدية، في العديد من المواضع، وقد كان يورد رأي أهل السنة والجماعة وغيرهم، من خلال الآيات التي تتصل بالعقيدة، ثم يؤيد مذهبهم بالبرهان والدليل، في بعض الأحيان كان يورد الأقوال لأهل السنة والجماعة ولغيرهم، من غير تفصيل أو تعقب، وفي بعض الأحيان كان يذكر قول أهل السنة والجماعة فحسب، وقد يعرض أحياناً مذهب الماتوريدية، ويذكر أقوال بعض الفرق الضالّة، أمثال المشبهة والكرامية، ويأتي بالدليل مناصراً، وقد يذكر مذهب السلف والخلف وبعض الفرق الضالّة، ثم يوجه المسألة، ومن الأمثلة على ذلك:

1. يأتي برأي أهل السنة والجماعة وغيرهم، ثم يؤيد مذهبهم بالبرهان والدليل:

في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَأَخْلَعُ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه: 12]. قال الأشعري: إنّه تعالى أسمع الكلام القديم الذي ليس بحرف ولا صوت، وأمّا المعتزلة فإنهم أنكروا وجود ذلك الكلام، وقالوا: إنّه تعالى خلق ذلك النداء في جسم من الأجسام كالشجرة أو غيرها، وأمّا أهل السنة من أهل ما وراء النهر فقد أثبتوا الكلام القديم إلا أنهم زعموا أن الذي سمعه موسى صوت خلقه الله تعالى في الشجرة، واحتجوا بالآية: على أن المسموع هو الصوت المُحدَث، قالوا: إن الله تعالى ربّ النداء على أنه أتى النار، والمرتبُّ على المحدث محدث، فالنداء محدث. واختلفوا في أنّ موسى عليه السلام كيف عرف أن المنادي هو الله تعالى فقال أهل السنة: يجوز أن يخلق الله له علماً ضرورياً بذلك، ويجوز أن يعرفه بالمعجزة. فهنا يعرض الأقوال، ثم يذكر دليل أهل سنّة ما وراء النهر، ويذكر دليلهم، ويفصّل أقوالهم، وخلافهم الفرعي في المسألة.

2. كان يورد الأقوال لأهل السنة والجماعة ولغيرهم، من غير تفصيل أو تعقب، وهذا ظاهر في

تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنَ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه: 79]. يقول ابن الضياء: "الخامس:

إن الذي روي من أن موسى كلم البحر فقال له: انفرق لي لأعبر عليك، فقال البحر: لا، فإنه

يمرّ عليّ رجلٌ عاصٍ فهو غير ممتنع عند أهل السنة، وعند المعتزلة ذلك على لسان الحال لا على

لسان المقال".

فنجده هنا يسرد قول أهل السنّة، وقول المعتزلة، من غير أن يشرح أو يتعقب، أو يأتي بالدليل.

3. كان يذكر قول أهل السنة والجماعة فحسب، يقول ابن الضياء: "في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا

أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ﴾ يدلُّ على فساد التأخر، لأنّه لو صحَّ لما بقي لفاء التعقيب فائدة،

والقاضي نفى هذا الاعتراض على مذهبه في أنّ الإرهاص غير جائز عند أهل السنة، وأمّا فاء

التعقيب فالتخلل بين الحجيء والنداء بالزمان القليل لا يقدح: فهنا يورد قولهم فحسب، ولم يذكر

غيرهم من الفرق".

والسبب في ذلك أن ابن الضياء كان ناقلاً لهذه المسائل من كتب التفسير، وكان نقله لهذه الأقوال من

تفسير البرهان النسفي، ومفاتيح الغيب للرازي، فإنه لم يظهر فيها مكانته العلمية، فقد كان دوره فيها نقل

لهذه الأقوال فقط.

4. كان يعرض أحياناً مذهب الماتوريديّة، ويذكر أقوال بعض الفرق الضالّة، أمثال المشبهة والكرامية،

ويأتي بالدليل مناصراً، ففي تفسير قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه: 5] قال:

"إنّهُ تعالى ليس بمتمكن في مكان، وعند المشبهة والكرامية، متمكن على العرش، دليلنا: أنّ

التعري عن المكان ثابت في الأزل لعدم قدم المكان فلو تمكن بعد خلق المكان لتغير ولحدث فيه

مماسة، والتغير وقبول الحوادث من أمارات الحدث، وذا مستحيل على القديم، وأمّا قوله تعالى:

﴿عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: 5] فالنص محتمل إذا الاستواء [6/أ] يذكر للتمام كما قال تعالى:

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى﴾ [القصص: 14] أي: تم، والاستواء كما يقال: استوى الملك على

البلد أي: استولى، والاستقرار كما قال تعالى: ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ [هود: 44] أي:

استقرت، ويقال: استوى على ظهر دابته أي: استقر، فلا يكون حجة مع الاحتمال؛ لأنّ

المحتمل لا يكون حجة في المظنونات فكيف يكون حجة في الاعتقادات، مع أنّ الترجيح

للاستيلاء لأنّه تعالى تمدّح به، والاستواء للمدح فيما بينا يفهم منه الاستيلاء كقول الشاعر في

بشر بن مروان: قد استوى بشرٌ على العراق ... من غير سيفٍ ودمٍ مُهراقٍ "

فهنا نقل قول: الإمام النسفي من كتابه الاعتقاد حرفياً، من غير تصرف أو تعقب، ولما ذكر في المسألة

الدليل، فالمقصود فيها دليل الماتوريدية.

5. يذكر مذهب السلف والخلف وبعض الفرق الضالة، ثمّ يوجه المسألة، ففي تفسير قوله تعالى:

﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: 5]. قال: "وقد تمسكت الجسمة بظواهر النصوص

والأخبار، ومذهب السلف أن نصدقها ونفوض تأويلها إلى الله تعالى مع التنويه عن التشبيه،

والخلف أن نؤولها بما يليق به تعالى ولا نقطع بأنه مراد الله تعالى، والأول أسلم، والثاني أحكم."

خلاصة المبحث: تعرض ابن الضياء في تفسيره إلى بعض القضايا العقديّة، في العديد من المواضع، وقد

كان يورد رأي أهل السنة والجماعة وغيرهم، من خلال الآيات التي تتصل بالعقيدة، مع البرهان والدليل،

وكان يذكر الأقوال لأهل السنة والجماعة ولغيرهم، من غير تفصيل أو تعقب.

المطلب الثامن: منهجه في المسائل الفقهية

أنزل الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم، وجعله تبياناً لكلِّ شيء، ففيه الحلال والحرام، والمعاملات، والعبادات، وغيرها، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: 89]، بياناً لكلِّ ما بالناس إليه الحاجة من معرفة الحلال والحرام والثواب والعقاب¹. لذلك لا بدَّ من بيان لمنهجية ابن الضياء في الأحكام الفقهية في تفسيره.

أولاً: تعريف الفقه لغة واصطلاحاً

الفقه لغةً: الفقه بالكسر العلم بالشيء والفهم، يقال: فلان يفقه الخير والشر، ويفقه كلام فلان، أي: يفهمه ويعلمه².

الفقه اصطلاحاً: فهو العلم بالأحكام الشرعية العملية المستنبطة من أدلتها التفصيلية³.

ثانياً: منهجه في المسائل الفقهية

اعتمد ابن الضياء في تفسيره على المذاهب الأربعة في ذكر الأحكام الفقهية، فنجده ينقل أقوال الأئمة الأربعة في ذكر المسألة، دون بيان وجه الاستدلال في تفسيره، ومن دون ترجيح بينها، أو تعصب لأحد الأقوال، أضف إلى ذلك أنه نقل بعض المسائل بحرفيها من دون تعقب لها، مثال ذلك:

¹ الطبري، تفسير الطبري، 17/ 278

² مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، القاموس المحيط، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، ط8، 1426هـ)، فصل الفاء، 1250.

³ أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابي الحنفي بدر الدين العيني، منحة السلوك في شرح تحفة الملوك، (قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط1، 1428هـ)، 30.

"وروي عن جبير بن مطعم أنه قال: وَضَعُ الرجل نعليه بين قدميه بدعة، قال القرطبي: فَإِنْ تحقق فيهما نجاسة مجمع على تنجسها كالدم والعدرة من بول بني آدم لم يُطهرها إلا الماء عند مالك والشافعي وأكثر العلماء، وإن كانت النجاسة مختلفاً فيها، كبول الدواب وأروائها الرطبة، فهل يطهرها المسح بالتراب من النعل والخف أم لا؟ قولان عندنا، وقال أبو حنيفة رحمه الله: يزيله الحك والفرك، والرطب لا يزيله إلا الغسل، ما عدا البول فلا يجزئ فيه عنده إلا الغسل، وقال الشافعي: لا يطهر شيء من ذلك كله إلا بالماء. فنجد في هذه المسألة أنه نقلها من تفسير القرطبي، وإذا رجعنا إلى قوله: (قولان عندنا)، لا يقصد فيها بمذهبه الحنفي، بل هي عبارة القرطبي، والمقصود فيها مذهب المالكية". وعندما نراه أنه لا يتوسع في المسألة، فلعله يريد من ذلك لمن يأتي بعده، ويريد التوسع فيها، أن يرجع إلى كتب الفقه التي تختص في هذه المسائل، فتكون مبسطة فيها بشكل أوسع.

خلاصة المبحث: نقل ابن الضياء أقوال الأئمة الأربعة في المسألة، دون بيان وجه الاستدلال في تفسيره، ومن دون ترجيح بينها، ومن غير تعصب لمذهب ما، وكان قد نقل مسائله الفقهية من مصادره من غير تصرف.

المطلب التاسع: عنايته في المسائل اللغوية

إنَّ القرآن الكريم كلام الله المنزل على نبيه محمد، أنزله سبحانه كتاباً معجزاً خالداً، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد. اختار الله تعالى خاتم النبيين عربياً، وكان كتابه بلسان قومه، فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: 4]. وبين الله تعالى بأن هذا القرآن عربياً، فقال: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: 113]. ولما كان الأمر كذلك، فإنه لا يمكن العدول عن اللغة العربية إلى غيرها من اللغات،

إذا أريد تفسير كلام الله الذي نزل بها؛ لأن معرفة معاني ألفاظه لا تؤخذ إلا من اللغة العربية، قال ابن فارس: "إن العلم بلغة العرب واجب على كل متعلق من العلم بالقرآن والسنة والفتيا بسبب، حتى لا غناء بأحد منهم عنه، وذلك أن القرآن نازل بلغة العرب، ورسول الله صلى الله عليه وسلم عربي، فمن أراد معرفة ما في كتاب الله جل وعز، وما في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم من كل كلمة غريبة أو نظم عجيب، لم يجد من العلم باللغة بدا"¹.

وقد شدد السلف الصالح على من تجرأ وتصدى لتفسير كتاب الله تعالى، دون علمه باللغة العربية وعلومها، فقال مجاهد رحمه الله: لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالماً بلغات العرب²، وقال مالك بن أنس: لا أوتى برجل يفسر كتاب الله غير عالم بلغة العرب، إلا جعلته نكالا³. ومن ضروب اللغة أشعار العرب، فهي خير ما يستعان بها في تفسير الغريب، ولها أهمية جلية في تفسير القرآن الكريم، وبيان معانيه، فهي ديوان العرب، وفيها الحكم والأمثال السائرة، قال ابن عباس رضي الله عنه: إذا خفي عليكم شيء من القرآن فابتغوه في الشعر فإنه ديوان العرب⁴. وورد عن سيدنا عمر رضي الله عنه أنه قال: أيها الناس! تمسكوا بديوان شعركم في جاهليتكم، فإن فيه تفسير كتابكم⁵.

وكان ابن الضياء رحمه الله قد اعتنى بهذا الجانب اعتناءً كبيراً، فجاء تفسيره شاملاً للمعاني اللغوية في أغلب الآيات، واشتقاقاتها وأصولها، وبيان الوجوه الإعرابية فيها، وأمّا الشعر في تفسيره، فقد كان يستشهد

¹ أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، **الصاحبي**، (القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، بدون رقم وتاريخ طبعة)، 50.

² الزركشي، **البرهان في علوم القرآن**، 292/1.

³ المصدر نفسه.

⁴ الحاكم، **المستدرک علی الصحیحین**، كتاب التفسير، تفسير سورة ن والقلم، 542/2، حديث رقم: 3845.

⁵ أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي، **الموافقات**، (القاهرة: دار ابن عفان، ط1، 1417هـ)، 140/2.

بالأشعار عند ذكر الآيات من تفسير لكلمة، أو بيان لمعنى، أو توجيه لقراءة، أو بيان لأصل كلمة، فكان عمله في تفسيره من خلال هذه النواحي كالاتي:

أولاً: العناية ببيان مفردات ألفاظ القرآن: لقد اعتنى ابن الضياء في بيان معان ألفاظ القرآن الكريم، وكلماته التي تحتاج إلى بيان، وكان هذا العمل منه ضمن خطوات، وهي كالاتي:

1. توضيح معنى الكلمة في المعنى اللغوي:

أ. "قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا﴾ [طه: 10] أقيموا في مكانكم، ولم يقل: أقيموا؛ لأن الإقامة تقتضي المبيت، والمكث يطع على القليل والكثير". فهنا ابن الضياء يوضح معنى المكث بالتفريق بين المكث والإقامة.

ب. "قوله تعالى: ﴿قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [طه: 116] قيل: هو السجود اللغوي الذي هو الخضوع والتذلل. وقيل: كان آدم كالقَبْلَةِ لضرب تعظيم له فيه". وهنا يبيِّن معنى السجود بأنه ليس المقصود فيه سجود عبادة، بل سجود الخضوع والتذلل، أو كالسلام والمصافحة، من خلال المعنى اللغوي التي ترد في معنى السجود.

2. بيان معنى الكلمة في اللغة، وأصلها، واشتقاقها: "قال تعالى: ﴿سَنُعِيدُهَا﴾ [طه: 21] سنردُّها ﴿سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ [طه: 21] تأنيث الأول، والسيرة الحالة التي يكون عليها الإنسان غريزية كانت أو مكتسبة، وهي في الأصل فِعْلَةٌ من السَّيْرِ كَالرَّكْبَةِ من الركوب، ثم استعملت بمعنى الحالة والطريقة، وانتصبت على الظرف أي: سنعيدها في طريقها الأولى، أي: في حال ما كانت عصاً، والمعنى: نردُّها عصاً كما كانت".

3. بيان معنى الكلمة في اللغة، وأصلها، وينص على القبيلة التي هي من لغتها، مثاله:

أ. ﴿أَنْ أَقْدِفِيهِ﴾ [طه: 38] أَلْقِيهِ ﴿فِي التَّابُوتِ﴾ [طه: 38] وَأَنْ: مفسِّرة لأن الوحي بمعنى

القول، والتابوت صندوق من خشب يُتَّخَذُ لِلْمَيْتِ، وهو بلغة قريش تابوت، وبلغة غيرهم تابوه.

ب. ﴿لَا تَقْرُؤُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [طه: 61] لَا تَدْعُوا آيَاتِهِ وَمَعْجَزَاتِهِ سِحْرًا ﴿فَيَسْحَتَكُمْ﴾ [طه:

61] كوفي غير أبي بكر يُهْلِكُكُمْ، وغيرهم بفتح الياء والحاء. والسَّحَتْ والإسْحَات بمعنى

الإعدام، وانتصب على جواب النهي. قال الزمخشري: والسحت لغة أهل الحجاز، والإسحات

لغة أهل نجد، وبني تميم.

ثانياً: بيان معنى الكلمات التي وردت في الآيات، والوجوه الإعرابية فيها، ومثاله:

1. قوله تعالى: ﴿تَنْزِيلًا﴾ [طه: 4] بدل من تذكرة إذا جعل حالاً لا إذا كان مفعولاً له، لأنَّ

الشيء لا يُعْلَلُ بنفسه، ويجوز أن ينتصب بِنُزْلِ مضمراً، وأن يُنْصَبَ على المدح، وأن يُنْصَبَ

بيخشي مفعولاً به، أي: أنزله الله تذكرة لمن يخشى تنزيل الله، وهو معنى حسنٌ وإعرابٌ بينٌ ﴿مَنْ

خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى﴾ [طه: 4] من يتعلق بـ (تَنْزِيلًا) صلة له".

2. ﴿إِذْ رَأَى نَارًا﴾ [طه: 10] يجوز أن ينتصب (إذ) ظرفاً لـ (حديث) لأنه حَدَّثَ أو بمضمراً أي:

حين رأى ناراً كان كيت وكيت، أو مفعولاً لـ (أذكر).

ثالثاً: وأمّا منهجه في الشعر فإنّه:

1. يذكر معنى اللفظة في اللغة مع الاستشهاد بالشعر:

ومن ذلك تفسيره لقوله تعالى: ﴿طه﴾ [طه: 1]. "معنى طه: يا رجل، وقال عكرمة: هو بالسريانية كذلك، وحكى الطبري أنه بالنبطية يا رجل، قال: إِنَّ السَّفَاهَةَ طه مِنْ شَمَائِلِكُمْ ... لَا قَدَسَ اللَّهُ أَرْوَاحَ الْمَلَاعِينِ. أي: يا رجل، وفي رواية: لَا بَارَكَ اللَّهُ فِي الْقَوْمِ الْمَلَاعِينِ.

2. يذكر معنى اللفظة في اللغة مع الاستشهاد بالشعر وينص على القبيلة أو الأمة التي هي من لغتها:

"قوله تعالى: ﴿طه﴾ [طه: 1]. والصحيح أنّ هذه الكلمة عربية بلغة عك وعكل، ومعناها: يا رجل، قال الكلبي: لو قلت في عك لرجل: يا رجل لم يجب حتى تقول طه، قال شاعرهم: دَعَوْتُ بِطه فِي الْقِتَالِ فَلَمْ يُجِبْ ... فَخَفْتُ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ مَوَائِلًا، وَيُرَوَى: مُزَايِلًا".

3. يؤيد ما أتى به من فوائد لأمر من خلال قصّة، ويستشهد له بالشعر.

ومن فوائد العصا التنبية على الانتقال من هذه الدار، كما قيل لبعض الزهاد: ما لك تمشي على عصاً، ولست بكبير ولا مريض؟ قال: إني أعلم أني مسافر وأنها دار بلغة، وإن العصا من آلة السفر فأخذه بعض

الشعراء فقال: حَمَلْتُ الْعَصَا لَا الضَّعْفُ أَوْجَبَ حَمَلَهَا عَلَيَّ وَلَا أَيُّ تَحْنِيْتُ مِنْ كِبَرِ

ولكنني أَلَزَمْتُ نَفْسِي حَمَلَهَا لِأَعْلَمَهَا أَيُّ مَقِيمٍ عَلَى السَّفَرِ

4. يذكر في تفسير توجيهاً للقراءات، ويستشهد لذلك بالشعر وينص على القبيلة التي هي من

لغتها: "قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ﴾ [طه: 62]. وقرأ الباقون: إِنَّ هَذَا لَسَاحِرَانِ.

قيل: هي لغة بلحارث بن كعب وخنعم ومراد وكنانة، والتثنية في لغتهم بالألف أبداً فلم يقلبوها

ياء في الجر والنصب كعصا وسعدى. قال: إِنَّ أَبَاهَا وَأَبَا أَبَاهَا قَدْ بَلَعَا فِي الْمَجْدِ غَايَتَهَا"

وإن استعراض منهج ابن الضياء من حيث اللغة وضرب الأمثلة لها كثيرة، ولكن عسى فيما ذكر كفاية،
وإنما القصد ضرب الأمثلة لا الحصر والشمول.

خلاصة المبحث: لقد اعتنى ابن الضياء في بيان معان ألفاظ القرآن الكريم، وكلماته التي تحتاج إلى بيان،
واعتمد في ذلك على المعنى اللغوي، وأصلها واشتقاقها، ولغات القبائل، وبَيَّن الوجوه الإعرابية في الآيات،
وكان يستشهد في الشعر فيبين فيه معنى لفظة أو مستشهداً به للفوائد التي كانت في الآية، أو لتوجيه
القراءات.

المطلب العاشر: عنايته في المسائل البلاغية

أولى العلماء رعاية واهتماماً كبيرين لكتاب الله تعالى وبلاغته، فهو المعجزة الخالدة، التي لا قبل
لأحد أن يأتي بمثلها، وقد أبرز ابن الضياء في تفسيره العديد من الأساليب البلاغية، والنكات البيانية، التي
تظهر إعجاز القرآن وجمال أسلوبه.

أولاً: تعريف البلاغة لغة واصطلاحاً

1. البلاغة لغة: بلغ الشيء يبلغ بلوغاً وبلاغاً: وصل وانتهى، وأبلغه هو إبلاغاً وبلغه تبليغاً،

وتبلغ بالشيء: وصل إلى مراده¹.

البلاغة اصطلاحاً: «هي مطابقة الكلام الفصيح لمقتضى الحال، فلا بدّ فيها من التفكير

في المعاني الصادقة القيمة القوية المبتكرة منسّقة حسنة الترتيب، مع توحّي الدقّة في انتقاء

ابن منظور، لسان العرب، فصل الباء الموحدة، 8/419¹.

الكلمات والأساليب على حسب مواطن الكلام ومواقفه وموضوعاته وحال من يكتب لهم

أو يلقي إليهم»¹.

ثانياً: المسائل البلاغية في سورة طه

تنوعت المسائل البلاغية، والنكات البيانية في سورة طه، وهذا واضح في تفسير ابن الضياء، ومن

جملة هذه الفوائد التي تذكر على سبيل المثال:

1. الاستعارة المكنية: وذلك في "قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: 64] أي: هو جواد

من غير تصور يد ولا غل ولا بسط، والتفسير بالنعمة والتمحل للتشبيه من ضيق العطن والمُسافرة

عن علم البيان مسيرة أعوام".

2. التنكير: وذلك في "قوله تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ﴾ [طه: 69] أي هذا الجنس ﴿حَيْثُ أَتَى﴾

[طه: 69] أينما كان، فإن قلت: لم تُكّر الساحر أولاً وعُزّف ثانياً؟ فالجواب: إنما نُكّر من أجل

تنكير المضاف لا من أجل تنكيره في نفسه كقول العجاج: (في سعي دُنيا طال ما قد مُدَّتِ)

المراد: تنكير السعي لأَنَّهُ مضاف إلى الدنيا".

3. الاستعارة التصريحية: يعرض ابن الضياء للاستعارة التصريحية في "قوله تعالى: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى

جَنَاحِكَ﴾ [طه: 22] إلى جنبك تحت العضد، وجناحه جنباه، والأصل المستعار منه جناح

الطائر، سُمِّيَا جناحين لأَنَّهُ يُجْبِحُهُمَا عند الطيران [35/أ] الاحتراس والكناية: دل على ذلك

قوله: ﴿تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ [طه: 22] والسوء الرداءة والقبح في كل شيء، فكُنِّي به

¹ الدكتور محمد أحمد قاسم، الدكتور محيي الدين ديب، علوم البلاغة «البدیع والبيان والمعاني»، (لبنان: المؤسسة الحديثة للكتاب، ط1، 2003م)، 8.

عن البرص، كما كُنِّي عن العورة بالسَّوءة، وكان جذيمة صاحب الرِّبَاء أبرشَ فكنُوا عنه بالأبرص،
والبرص أبغض شيء إلى العرب، ويهمُّ عنه نَفْرَةٌ عظيمةٌ، وأسماعهم لاسمه مَجَّاجَةٌ، فكان جديراً بأن
يُكْنَى عنه، ولا ترى أحسن ولا أطف ولا أَحَزَّ للمفاصل من كنايات القرآن وآدابه".

4. المجاز: وذلك في "قوله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ أي: لثُرِّي على عيني أي: على وفق إرادتي،
وهذا مجاز، وفي كيفية المجاز قولان، أحدهما: المراد من العين العلم، أي: تُرِّي على علم مني، ولما
كان العالم بالشيء يجرسه عن الآفات نحو الناظر أطلق لفظ العين على العلم. وثانيهما: المراد من
العين الحراسة، وذلك لأن الناظر إلى الشيء يجرسه عما لا يريد بالعين، كأنها سبب الحراسة،
فأطلق اسم السبب على المسبب مجازاً، وهو كقوله: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: 46]،
ويقال عين الله عليك إذا دُعِيَ له بالحفظ والحياطة".

الخلاصة: اعتنى ابن الضياء بالمسائل البلاغية، التي تظهر رونق القرآن الكريم وإعجازه، فأتي بالمسائل
البلاغية المتنوعة، فأجاد وأبدع.

المطلب الحادي عشر: التفسير التحليلي عند ابن الضياء

إنَّ الأسلوب الذي يعتمد عليه ابن الضياء في تفسيره يبنى على عدَّة خطوات، وهي الغالبة على

المؤلفات التفسيرية، وسأذكرها مع مثال واحد من تفسير ابن الضياء، وهي كالآتي:

أولاً: مقدمة للسورة: وتشمل على عدد النقاط:

1. اسم السورة وعدد آياتها وكلماتها وحروفها، وما ورد فيه من نصوص:

قال ابن الضياء: "سورة طه: مكية في قول الجميع، وهي مئة وأربعون أو واثنان، أو مئة وخمسون وثلاثون

آية، وألف وثلاثمئة وإحدى وأربعون كلمة وخمسة آلاف ومئتان واثنان وأربعون حرفاً.

وأما ما ورد فيه من نصوص: قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَرَأَ طه وَيَس

قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِأَلْفِ عَامٍ، فَلَمَّا سَمِعَتِ الْمَلَائِكَةُ الْقُرْآنَ قَالَتْ: طُوبَى لَأُمَّةٍ يَنْزِلُ هَذَا

عَلَيْهَا، وَطُوبَى لَأَجْوَابِ تَحْمِلِ هَذَا، وَطُوبَى لَأَلْسِنَةٍ تَتَكَلَّمُ بِهَذَا».

2. المكي والمدني فيها: قال ابن الضياء: قال صاحب التحرير: وهذه السورة مكية بلا خلاف.

3. فضائل السورة وخصائصها: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أُعْطِيَتْ السُّورَةُ الَّتِي

ذُكِرَتْ فِيهَا الْبَقْرَةُ مِنَ الذِّكْرِ الْأَوَّلِ، وَأُعْطِيَتْ طه وَالطُّوَّاسِينَ مِنْ أَلْوَابِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ،

وَأُعْطِيَتْ فَوَاتِحَ الْقُرْآنِ وَخَوَاتِيمَ السُّورَةِ الَّتِي ذُكِرَتْ فِيهَا الْبَقْرَةُ مِنْ كَنْزِ تَحْتِ الْعَرْشِ، وَأُعْطِيَتْ

الْمُفْصَلِ نَافِلَةً».

ثانياً: إعراب الكلمات القرآنية، الموجودة في النص: ﴿تَنْزِيلًا﴾ [طه: 4] بدل من تذكرة إذا جعل حالاً،

لا إذا كان مفعولاً له، لأنَّ الشيء لا يُعْلَلُ بنفسه، ويجوز أن ينتصب بِنَزَلٍ مضمراً، وأن يُصَبَّ على

المدح، وأن يُنصب بيخشى مفعولاً به، أي: أنزله الله تذكرة لمن يخشى تنزيل الله، وهو معنى حسنٌ وإعرابٌ بين.

ثالثاً: تحليل الكلمات ومشتقاتها، وبيان تصريفها: "قال مجاهد: السِّرُّ: العمل بالذي يُسرّه الإنسان وأخفى منه الوسوسة. وقيل: السِّرُّ هو العزيمة، وقيل: أنّ السر ما حدثت به غيرك حديثاً خفياً، وأخفى منه ما حدثت به نفسك".

رابعاً: أسباب النزول: "وقال مجاهد: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ يَرِيطُونَ الْحِيَالَ فِي صُدُورِهِمْ فِي الصَّلَاةِ بِاللَّيْلِ مِنْ طُولِ الْقِيَامِ ثُمَّ نُسِحَ ذَلِكَ بِالْفَرَضِ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ. وقال مقاتل والضحاك: لما نزل القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم قام هو وأصحابه فصلّوا، فقال كفار قريش: ما أنزل الله هذا القرآن على محمد إلا ليشقى، فأنزل الله تعالى ﴿طه﴾ أي: يا رجل ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ [طه: 2] أي: لتتعب".

خامساً: مناسبة الآيات والسور: قال ابن الضياء: "اعلم أنّ من جملة ما يدلُّ على اتصال هذه السورة بما قبلها هو أنّ عيسى عليه السلام وموسى عليه السلام مشتركان في الغموم والهموم بسبب الولادة، وفي الإنعام من الحضرة الإلهية بعدها في حقهما وفي حق والدتيهما على ما عرف، ومن تلك الجملة أيضاً أنّ المقصود من تلك السورة بيان التوحيد والنبوة والحشر، وفي هذه السورة ما يدل عليها كذلك، ووجه اتصال أول هذه السورة بآخر السورة قبلها أنّه لما كان المقصود بيان هذه الأمور بيّن الله سبحانه وتعالى في آخر تلك السورة أنّه يسرّ ذلك البيان بلسان ليشر به وينذر فقال: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾ [مريم: 97] الآية، وهذا من النعم العظيمة والتشريفات الكريمة في حق الرسول صلى الله عليه وسلم، والرسول بالغ في العبادات ليلاً ونهاراً وأتعب نفسه شكراً لذلك، فخاطبه في أول هذه السورة بقوله: ﴿طه﴾ (1) ما أنزلنا

عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿ [طه: 1-2] ". وقال في موضع آخر: "قال صاحب التحرير: وجه ارتباط هذه الآيات بما قبلها أنه سبحانه وتعالى لما عظم حال القرآن وحال الرسول مما كلفه أتبعه بما يقوي قلب رسوله من ذكر أحوال الأنبياء تقويةً لقلبه في الإبداع، كقوله: ﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: 120]، وكرر قصة موسى لأنَّ المحنة له [13/ب] وفتنته كانت أعظم ليَسَلِّي قلب الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك، ويصبره على حمل المكروه، ويأتسى بموسى عليه السلام بما ناله من قومه من الأذى، فقال: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾".

سادساً: القراءات القرآنية المتعلقة في النص: ﴿طَوَى﴾ [طه: 12] حيث كان منوناً شامياً وكوفي؛ لأنه اسم علم للوادي، وهو بدل، وغيرهم بغير تنوين بتأويل البقعة، وقرأ أبو زيد بكسر الطاء بلا تنوين".

سابعاً: القضايا اللغوية في النص. "وقيل: إنها لغة معروفة في عُكْلٍ. وقيل: في عَكِّ، ذكره العزَنَوِي. وقال قطرب: هو بلغة طَبِيِّ، وكذلك قال الحسن: معنى طه: يا رجل، وقال عكرمة: هو بالسريانية كذلك، وحكى الطبري: أنه بالنبطية يا رجل، وقال في التحرير والتحبير: والصحيح أن هذه الكلمة عربية بلغة عك وعك، ومعناها: يا رجل".

ثامناً: القضايا البلاغية في النص: كقول ابن الضياء: "الأسماء الواردة في القرآن منها ما ليس لانفرادها ثناء ومدح، كقوله: جاعل وفالق وصانع، فإذا قيل: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾ [الأنعام: 96]، صار مدحاً، وأمَّا الاسم الذي يكون مدحاً فمنه ما إذا قرُنَ بغيره صار أبلغ، نحو قولنا: حيٌّ، فإذا قلت: الحي القيوم أو الحي الذي لا يموت كان أبلغ، وأيضاً قولنا: بديع، فإنك إذا قلت: بديع السماوات والأرض ازداد المدح، ومن هذا الباب ما كان اسم مدح، ولكن لا يجوز إفراده كقولك: دليل، وكاشف،

فإذا قيل: يا دليل المتحيرين، ويا كاشف الضر والبلوى جاز، ومنه ما يكون اسم مدح مفرداً أو مقروناً كقولنا: الرحمن الرحيم".

تاسعاً: الفوائد المستفادة من النص: "﴿الرَّحْمَنُ﴾ [طه: 5] على المدح، أي: هو الرحمن ﴿عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: 5] استولى، ونبه بذكر العرش وهو أعظم المخلوقات على غيره".

الخلاصة: تبين من خلال خطوات الأسلوب التحليلي وتطبيق الأمثلة عليه من تفسير ابن الضياء أنّ مفسرنا ابن الضياء كان قد انتهج هذا الأسلوب، وقد كان هذا الأسلوب منتشرًا في تفاسير المتقدمين، وإن لم يكن الاسم الأسلوب التحليلي قد وضع إلا متأخرًا.

الخاتمة

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، فله الحمد وله الشكر،

لقد صاحبت الإمام ابن الضياء أكثر من أربع سنوات، حاولت فيها التعرف على حياته بشغف،

وعلى نشأته والبيئة المحيطة به، كما حاولت التعرف على منهجيته في تفسيره ودراسته، وكانت نتيجة تلك

المدة الزمنية كتابة هذا البحث، الذي كان في مقدمة وأربع فصول، فله الحمد.

وفي ختام هذه الدراسة، وبعد دراسة وتحقيق هذا السفر العظيم من تفسير القرآن الكريم، (تفسير سورة

طه) للعلامة ابن الضياء رحمه الله، أودُّ أن أذكر أهم النتائج والتوصيات التي توصل إليها الباحث.

النتائج والتوصيات

تناولت فصول هذه الدراسة كتاباً من كتب علم التفسير، (تفسير القرآن العظيم) للإمام ابن الضياء، من حيث مصادره ومنهجه، ومادته العلمية في سورة: طه، وأردت أن أذكر أبرز ما توصلت إليه من نتائج، لأذيل بها هذه الدراسة، إتماماً للفائدة:

1. كان لابن الضياء مكانة كبيرة في تأليف العلوم والفنون، فألّف في التاريخ والفقه والتفسير وغيرها، وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلُّ على ثقافته الواسعة، وعلمه الجم، وكثرة اضطلاعها، إفادته ممن كان قبله من أهل العلم.

2. العلامة ابن الضياء مفسّر جامع، وناقل ومقلد حافظ، ينقل الأقوال من كتب التفسير وغيرها، نقل فأبدع في حسن التصنيف والترتيب والعرض لما أورده من الأقوال، وردّ المسائل إلى مصادرها التي اخذ مادته العلمية منها، لكنه كان يقف عند ذلك، فلم يجد الباحث له أي في مسألة أو ترجيح لها.

3. كان ابن الضياء من المدافعين والمناصرين لمذهب أهل السنة والجماعة في العقيدة، فقد كان يورد أقوالهم، وأقوال مخالفيهم، من أهل الفرق كالمعتزلة وغيرهم.

4. تحدّث سورة طه: عن حكمة نزول القرآن الكريم، ثم عن قصة موسى عليه السلام، وجولته مع فرعون، ثم تحدّث عن حياة موسى عليه السلام مع بني إسرائيل، ثم تحدّث عن القرآن الكريم، وعن كونه يقصُّ من أخبار الماضين، وعن جزاء المعرضين عنه، وعن بعض خصائصه، ثم قصة آدم عليه السلام ثم خاتمة تناقش المعرضين، وتقيم الحجّة على المعاندين.

5. يمثّل تفسير ابن الضياء أهمية كبيرة في علم التفسير كغيره من التفاسير، فهو يعنى بشرح المفردات والألفاظ، ملتمّاً فيها باللغة والإعراب مع تعدد الوجوه، والقراءات والعقيدة-لبعض الآيات فيما يتعلق بالصفات وغيرها-، والمسائل الفقهية - وإن كان مقللاً فيها-، والمأثور من النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم والتابعين، كما أنه اعتمد في تفسيره على تفاسير هي مصادر لمن جاء بعدهم، كتفسير: القرطبي والرازي والبغوي والكشاف وغيرهم.

6. جمع ابن الضياء في تفسيره بين التفسير بالرأي والتفسير بالمأثور كمادّة علمية، فهو لم يأخذ من التفاسير بالمأثور بشكل مباشر، لكنّ تفسيره كان مليئاً بالتفسير بالمأثور من تفسير القرآن بالقرآن، وتفسير القرآن بالحديث، وأقوال الصحابة والتابعين.

7. كان ابن الضياء ينقل أقوال الصوفية من تفاسيرهم، كتفسير التستري، وحقائق التفسير للسلمي، وكان ابن الضياء يقبل تفاسير الصوفية إذا لم تخالف الشرع.

8. يصرح ابن الضياء باسم القارئ، وأحياناً أخرى يذكر البلد التي ينتسب إليها القارئ، وأحياناً يترك القراءة مجهولة النسب ((قري))، وأما بالنسبة للقراءة الشاذة: يذكرها دون الإشارة إليها أو التصريح بشذوذها، وقد يأتي بها لفائدة، كالأستدلال على المعنى، ونجده يستخدم العديد من أنواع العلل، للاحتجاج للقراءات.

9. تعرض ابن الضياء في تفسيره إلى بعض القضايا العقدية، في العديد من المواضع، وقد كان يورد رأي أهل السنة والجماعة وغيرهم، من خلال الآيات التي تتصل بالعقيدة، مع البرهان والدليل، وكان يذكر الأقوال لأهل السنة والجماعة ولغيرهم، من غير تفصيل أو تعقب.

10. وسطية ابن الضياء، فهو لا يميل إلى مذهب معين في تفسيره، بل نجده يعرض الأقوال من غير تعصب لأحد، مع أنه حنفي المذهب.

11. اعتنى ابن الضياء بالمسائل البلاغية، التي تظهر رونق القرآن الكريم وإعجازه، فأتي بالمسائل البلاغية المتنوعة، فأجاد وأبدع.

12. بالنسبة لتفسير الآيات في تفسير ابن الضياء، كان منهجه فيه: يذكر الآية، ويبدأ بتوضيح معاني الألفاظ فيها، من خلال اللغة أو الإعراب، ثم يبيّن وجوه القراءات فيها، وقد يذكر أحياناً قراءة شاذة لفائدة، كبيان معنى، ويؤيد ما ذكر بالأشعار، ثم يشير إلى المسائل الفقهية العقدية عند الحاجة إليها.

13. حوى تفسير ابن الضياء على العديد من الإسرائيليات، فقد كان ينقل النصوص من مصادرها من غير تعقيب أو تعليق، وكان يذكرها: باسمها الصريح أحياناً، أو يذكر الخبر مبيناً أنه لم يصح منه شيء، أو يذكره بصيغة تضييف. ولعل وجود الأخبار الإسرائيلية في تفسير ابن الضياء، وكان ذلك بسبب نقله من كتب كثر فيها الأخبار الغير صحيحة، كزهرة الرياض وغيرها.

14. تنوع مباحث علوم القرآن في تفسير ابن الضياء، كالناسخ والمنسوخ، والحروف المقطعة، وغيرها.

15. اعتنى ابن الضياء في بيان معان ألفاظ القرآن الكريم، وكلماته التي تحتاج إلى بيان، واعتمد في ذلك على المعنى اللغوي، وأصلها واشتقاقها، ولغات القبائل، وبيّن الوجوه

الإعرابية في الآيات، وكان يستشهد في الشعر فيبين فيه معنى لفظة أو مستشهداً به للفوائد التي كانت في الآية، أو لتوجيه القراءات.

16. تبين من خلال خطوات الأسلوب التحليلي وتطبيق الأمثلة عليه من تفسير ابن الضياء

أن مفسرنا ابن الضياء كان قد انتهج هذا الأسلوب، وقد كان هذا الأسلوب منتشرًا في

تفاسير المتقدمين، وإن لم يكن الاسم الأسلوب التحليلي قد وضع إلا متأخرًا.

التوصيات.

1. أوصي طلاب العلم بتحقيق التراث والعناية به، في مراحلهم الدراسية، وذلك للفائدة الكبيرة من هذا التراث، من اضطلاع على مصادره، وغزارته العلمية، وللمساهمة في حفظه من الضياع، وإخراجه حلّة جميلة للعالم الإسلامي.
2. أوصي طلاب العلم، وخاصّة الباحثين منهم، بتعلم كل ما يفيد في تحقيق التراث، من برامج الحاسوب، والبرامج التقنية، مما تساعد في إتقان العمل واكتساب الوقت.
3. أوصي إخواني بمتابعة تحقيق الأجزاء المتبقية من المخطوط، والبحث عن الأجزاء الأخرى له إن كانت موجودة على سبيل الخصوص، وتحقيق مخطوطاته عموماً، لتخرج للمكاتب الإسلامية تضيء درب المتعلمين والدارسين.
4. أوصي الجامعات بتدريس كتب ابن الضياء، ومنهجيته في كتبه التي قد ألفها. وعلوم القرآن، والسماح كذلك بخروجها إلى عالم المكتبات؛ لتعم الفائدة وينشر الخير.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

- إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، (بيروت: عالم الكتب، ط1، 1408هـ).
- إبراهيم بن سعيد بن حمد الدوسري، مختصر العبارات لمعجم مصطلحات القراءات، (الرياض: دار الحضارة للنشر، ط1/ 1429هـ).
- إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، (القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، 1404هـ).
- ابن أبي الدنيا أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي، العقوبات، (بيروت: دار ابن حزم، ط1، 1416).
- ابن أبي الدنيا أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي، القبور، (مكتبة الغرباء الأثرية، ط1، 1420هـ).
- ابن أبي الدنيا أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي، قصر الأمل، (بيروت: دار ابن حزم، ط2، 1417هـ).
- ابن أبي الدنيا، أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف، صفة النار، (بيروت: دار ابن حزم، ط1، 1417هـ).
- ابن أبي الوفاء، عبد القادر بن محمد بن نصر الله القرشي، أبو محمد، محيي الدين الحنفي، الجواهر المضية في طبقات الحنفية، (كراتشي: مير محمد كتب خانة، من دون طبعة وتاريخ النشر).

- ابن أبي شيبة، أبو بكر، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي، المصنف في الأحاديث والآثار، (الرياض، مكتبة الرشيد، ط1، 1409هـ).
- ابن إسحاق، محمد بن يسار المطلبي، السيرة النبوية، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1424هـ).
- ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين، أسد الغابة في معرفة الصحابة، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1415هـ).
- ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين، الكامل في التاريخ، (بيروت: دار الكتاب العربي، ط1، 1417هـ).
- ابن الأثير، أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين، اللباب في تهذيب الأنساب، (بيروت: دار صادر، ط3، 1994م).
- ابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري، النهاية في غريب الحديث والأثر، (بيروت: المكتبة العلمية، 1399هـ).
- ابن الجزري، شمس الدين أبو الخير، محمد بن محمد بن يوسف، غاية النهاية في طبقات القراء، (القاهرة: مكتبة ابن تيمية، ط1، 1351هـ).
- ابن الجوزي جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، صفة الصفوة، (القاهرة: دار الحديث، ط: 1421هـ).
- ابن الجوزي جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، صيد الخاطر، (دمشق: دار القلم، ط1، 2004م).

- ابن الجوزي: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1412 هـ).
- ابن السبكي الزبيدي العراقي، تخريج أحاديث إحياء علوم الدين، (الرياض: دار العاصمة للنشر، ط1، 1408 هـ).
- ابن السكيت، أبو يوسف يعقوب بن إسحاق، كتاب الألفاظ، (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، ط1، 1998 م).
- ابن الضياء، محمد بن أحمد بن الضياء محمد القرشي العمري المكي الحنفي، بماء الدين أبو البقاء، تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط2، 1424 هـ).
- ابن العماد، العكري عبد الحي بن أحمد بن محمد الحنبلي، أبو الفلاح، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، (بيروت: دار ابن كثير، ط1، 1406 هـ).
- ابن الفوطي، كمال الدين أبو الفضل عبد الرزاق بن أحمد المعروف الشيباني، مجمع الآداب في معجم الألقاب، (إيران: وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، ط1، 1416 هـ).
- ابن الملقن سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري، طبقات الأولياء، (القاهرة: مكتبة الخانجي، ط2، 1415 هـ).
- ابن حجر العسقلاني أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد، الإصابة في تمييز الصحابة، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1415 هـ).
- ابن حجر العسقلاني أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد، تهذيب التهذيب، (الهند: مطبعة دائرة المعارف النظامية، ط1، 1326 هـ).

- ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد، لسان الميزان، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط2، 1390هـ).
- ابن حجر، العسقلاني أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، (الهند: مجلس دائرة المعارف العثمانية، ط2، 1392هـ).
- ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله، تاريخ دمشق، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1415 هـ).
- ابن عطية الأندلسي، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام المحاربي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1422 هـ).
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي البصري ثم الدمشقي، البداية والنهاية، (بيروت: دار هجر، ط1، 1418 هـ).
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي البصري ثم الدمشقي، طبقات الشافعيين، (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، من دون طبعة، 1413هـ).
- ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجه، (بيروت: دار الرسالة العلمية، ط1، 1430هـ).
- أبو أحمد الحاكم الكبير، محمد بن محمد بن أحمد بن إسحاق النيسابوري الكرايسي، الكنى والأسماء، (القاهرة، دار الفاروق للطباعة والنشر، ط1، 1436).
- أبو أحمد بن عدي الجرجاني، الكامل في ضعفاء الرجال، (بيروت: الكتب العلمية، ط1، 1418هـ).

- أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي، **الموافقات**، (القاهرة: دار ابن عفان، ط1، 1417هـ).
- أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري، **قصص الأنبياء المسمى بالعرائس**، (القاهرة: مكتبة الجمهورية العربية، إهداءات 2000م).
- أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، **أسباب نزول القرآن**، (الدمّام: دار الإصلاح، ط2، 1412هـ).
- أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، **الشافعي، الوسيط في تفسير القرآن المجيد**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1415هـ).
- أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي، **النكت والعيون**، (بيروت: دار الكتب العلمية، من دون رقم وتاريخ طبعة).
- أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي، **أدب الدنيا والدين**، (دار مكتبة الحياة، بدون طبعة).
- أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخي، **تفسير مقاتل بن سليمان**، (بيروت: دار إحياء التراث، ط1، 1423هـ).
- أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، (القاهرة: مكتبة القدسي، 1414هـ).
- أبو الحسنات محمد عبد الحي اللكنوي الهندي، **الفوائد البهية في تراجم الحنفية**، (مصر: دار السعادة، ط1، 1324هـ).

- أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، **الصاحي**، (القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، بدون رقم وتاريخ طبعة).
- أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، **الجامع الصحيح «صحيح مسلم»**، (تركيا: دار الطباعة العامرة، 1334هـ).
- أبو الحسين يحيى بن أبي الخير بن سالم العمراني اليميني الشافعي، **البيان في مذهب الإمام الشافعي**، (جدة: دار المنهاج، ط1، 1421هـ).
- أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، من دون ذكر طبعة وتاريخها).
- أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، (بيروت: دار صادر، ط1، 1972م).
- أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني، **الملل والنحل**، (مصر: مؤسسة الحلبي، بدون ذكر طبعة، 1387).
- أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، **اختصار علوم الحديث**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط2، 1951).
- أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، **الفصول في السيرة**، (بيروت: مؤسسة علوم القرآن، ط3، 1403هـ).
- أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، **تفسير القرآن العظيم**، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1419هـ).

- أبو الفداء زين الدين أبو العدل قاسم بن فُطْلُوبغا السوداني الجمالي الحنفي، تاج التراجم، (دمشق: دار القلم، ط1، 1413 هـ).
- أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، أنباء الغمر بأبناء الغمر، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط2، 1368م).
- أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، (الهند: مطبعة دائرة المعارف النظامية، ط1، 1326هـ).
- أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، نزهة الألباب في الألقاب، (الرياض: مكتبة الرشد، ط1، 1409هـ).
- أبو الفضل القاضي عياض بن موسى اليحصبي، ترتيب المدارك وتقريب المسالك، (المغرب: مطبعة فضالة، ط1، 1970م).
- أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، (بيروت: دار القلم، ط1، 1412هـ).
- أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر، تاريخ دمشق، (بيروت: دار الفكر، 1415هـ).
- أبو القاسم محمود بن حمزة الكرمانلي، لباب التفاسير، (الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، رسائل دكتوراه).
- أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، (بيروت: دار الكتاب العربي، ط3، 1407 هـ).

- أبو القاسم هبة الله بن سلامة بن نصر بن علي البغدادي المقرئ، **الناسخ والمنسوخ**، (بيروت: المكتب الإسلام، ط1، 1404هـ).
- أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي الغرناطي، **التسهيل لعلوم التنزيل**، (بيروت: دار الأرقم بن أبي الأرقم، ط1، 1416هـ).
- أبو المحاسن، يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي، مال الدين، **المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي**، (مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، من دون طبعة، 1984م).
- أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي، **نسب معد واليمن الكبير**، (القاهرة: مكتبة النهضة العربية، ط1/1408هـ).
- أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي، **البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل لمسائل المستخرجة**، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط2، 1408هـ).
- أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي من حديث معقل بن يسار، **شعب الإيمان**، (الرياض: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، ط1، 2003م).
- أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسرُوْجِردي الخراساني، **السنن الكبرى**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط3، 1424هـ).
- أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي المعروف بالبنار، **مسند البنار المنشور باسم البحر الزخار**، (المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم، ط1، 1988-2009م).
- أبو بكر بن أبي داود، عبد الله بن سليمان بن الأشعث الأزدي، **المصاحف**، (القاهرة: الفاروق الحديثة، ط1، 1423هـ).

- أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي، الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، (الرياض: مكتبة الرشد، ط1، 1409هـ).
- أبو بكر بن أبي عاصم وهو أحمد بن عمرو بن الضحاك بن مخلد الشيباني، السنة، (بيروت: المكتب الإسلامي، ط1، 1400).
- أبو بكر بن محمد بن عبد المؤمن بن حريز بن معلى الحسيني الحصني، تقي الدين الشافعي، كفاية الأختيار في حل غاية الاختصار، (دمشق: دار الخير، ط1/ 1994م).
- أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني، المصنف، (بيروت: المكتب الإسلامي، ط2، 1403هـ).
- أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة بن صالح بن بكر السلمي النيسابوري، كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل، (الرياض: مكتبة الرشد، ط5، 1414هـ).
- أبو جعفر الطبري محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري، (بيروت: دار التراث، ط2، 1387هـ).
- أبو جعفر النَّحَّاس أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحوي، الناسخ والمنسوخ، (الكويت: مكتبة الفلاح، ط1، 1408هـ).
- أبو جعفر محمد بن عمرو بن موسى بن حماد العقيلي المكي، الضعفاء الكبير، (بيروت: دار المكتبة العلمية، ط1، 1404هـ).
- أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي البُستي، التقاسيم والأنواع - صحيح ابن حبان، (بيروت: دار ابن حزم، ط1، 1433هـ).

- أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي البُستي، **المسند الصحيح على التقاسيم والأنواع من غير وجود قطع في سندها ولا ثبوت جرح في ناقلها**، (بيروت: دار ابن حزم، ط1، 1433هـ).
- أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، **قواعد العقائد**، (بيروت: عالم الكتب، ط2، 1405هـ).
- أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني، **اللباب في علوم الكتاب**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1419هـ).
- أبو حيان الأندلسي محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين، **البحر المحيط في التفسير**، (بيروت: دار الفكر، ط1420هـ).
- أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السجستاني، **سنن أبي داود**، (بيروت: المكتبة العصرية، ط1، 1430هـ).
- أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري، **كتاب العين**، (بيروت: دار ومكتبة الهلال).
- أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، **الزهد**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط2، 1420هـ).
- أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، **فضائل الصحابة**، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1، 1403هـ، 725/2).
- أبو عبد الله البخاري، **الأدب المفرد**، (الرياض: مكتبة المعارف، الطبعة 1، 1419هـ).
- أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نعيم من حديث معقل بن يسار، **المستدرک على الصحيحين**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1990م).

- أبو عبد الله الحسين بن الحسن بن حرب السلمى المروزى، البر والصلة، (الرياض: دار الوطن، ط1، 1419هـ).
- أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، البرهان في علوم القرآن، (بيروت: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، ط1، 1376هـ).
- أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، (الرياض: دار المنهاج، ط1، 1425).
- أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، البصري، البغدادي المعروف بابن سعد، الطبقات الكبرى، (بيروت: دار صادر، ط1، 1968م).
- أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر بن علي بن حكيمون المصري، مسند الشهاب، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط2، 1407هـ).
- أبو عبد الله محمد بن علي البننسي، تفسير مبهمات القرآن «الموسوم بصلة الجمع وعائد التذييل لموصول كتابي الإعلام والتكميل»، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط1، 1411هـ).
- أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري، معالم أصول الدين، (بيروت: دار الكتاب العربي، 1404هـ).
- أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد العبدري الفاسي المالكي الشهير بابن الحاج، المدخل، (بيروت: دار التراث، بدون طبعة وتاريخ).
- أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي، غريب الحديث، (القاهرة: الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ط1، 1404هـ).

- أبو عبيد القاسم بن سلام بن عبد الله الهروي البغدادي، فضائل القرآن للقاسم بن سلام، كتاب فضل القرآن ومعامله وأدبه، (بيروت: دار ابن كثير، ط1، 1415هـ).
- أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، (بيروت: عالم الكتب، ط3، 1403هـ).
- أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، (بيروت، دار الجيل، ط1401، 5هـ).
- أبو عمر بن عبد البر النمري القرطبي، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، (لندن: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ط1، 1439هـ).
- أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي، الاستذكار، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1421).
- أبو عوانة يعقوب بن إسحاق الإسفراييني، المسند الصحيح المخرج على صحيح مسلم، (المملكة العربية السعودية: ط1، 1435هـ).
- أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، سنن الترمذي، (مصر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط2، 1395هـ).
- أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الرامهرمزي، المحدث الفاصل بين الراوي والواعي، (دار الذخائر: ط1، 2016م).
- أبو محمد حسن بن علي بن سليمان البدر الفيومي القاهري، فتح القريب المجيب على الترغيب والترهيب للإمام المنذري، (الرياض: مكتبة دار السلام، ط1، 1439هـ).

- أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم، (المملكة العربية السعودية: مكتبة نزار مصطفى الباز، ط3، 1419هـ).
- أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بجرام بن عبد الصمد الدارمي، التميمي السمرقندي، مسند الدارمي، (المملكة العربية السعودية: دار المغني للنشر والتوزيع، ط1، 1412هـ).
- أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بجرام بن عبد الصمد الدارمي، مسند الدارمي، (المملكة العربية السعودية: دار المغني للنشر والتوزيع، ط1، 2000م).
- أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، المعارف، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، 1992م).
- أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابي الحنفي بدر الدين العيني، منحة السلوك في شرح تحفة الملوك، (قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط1، 1428هـ).
- أبو محمد مكي بن أبي طالب حمّوش بن محمد بن مختار القيسي القيرواني ثم الأندلسي القرطبي المالكي، الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه، (جامعة الشارقة: مجموعة بحوث الكتاب والسنة - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، ط1، 1429هـ).
- أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، (بيروت: دار العلم للملايين، ط4، 1407هـ).
- أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني، دلائل النبوة، (بيروت: دار النفائس، 1986م).

- أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، (بيروت: دار الكتب العلمية ط ١٤٠٩هـ).
- أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري، التلخيص في معرفة أسماء الأشياء، (دمشق: دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط2، 1996م).
- أحمد السباعي، تاريخ مكة، (الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ط1، 1419هـ).
- أحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، الفوائد، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط2، 1973م).
- أحمد بن الحسين بن علي بن موسى، أبو بكر البيهقي، الدعوات الكبير، (الكويت: غراس للنشر والتوزيع، ط1، 2009م).
- أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، مسند أنس بن مالك، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1، 1421هـ).
- أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري، شهاب الدين النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، (القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ط1، 1423هـ).
- أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي ثم القاهري، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، (بيروت: دار الكتب العلمية، من دون ذكر طبعة، 2012م).
- أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، فتح الباري شرح صحيح البخاري، (بيروت: دار المعرفة، من دون رقم طبعة، 1379هـ).
- أحمد بن علي بن محمد بن علي بن حجر العسقلاني، الغرائب الملتقطة من مسند الفردوس المسمى «زهر الفردوس»، (دبي: جمعية دار البر، ط1، 1439هـ).

- أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، أبو الحسين، معجم مقاييس اللغة، (دمشق: دار الفكر، ط1، 1499هـ).
- أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط1، 1422هـ).
- أحمد بن محمد بن أحمد المظفر ابن المختار، أبو العباس بدر الدين الرازي الحنفي، مباحث التفسير لابن المظفر، (المملكة العربية السعودية: كنوز إشبيلية، ط1، 1430هـ).
- أحمد بن محمد بن إسماعيل الطحطاوي الحنفي، حاشية الطحطاوي على مراقي الفلاح شرح نور الإيضاح، (بيروت، دارالكتب العلمية، ط1، 1418هـ).
- أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، (بيروت، المكتبة العلمية، بدون ذكر رقم وتاريخ طبعة).
- أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي السعدي الأنصاري، شهاب الدين شيخ الإسلام، أبو العباس، الفتح المبين بشرح الأربعين، (جدة: دار المنهاج، ط1، 1428هـ).
- أحمد بن مصطفى المراغي، تفسير المراغي، (مصر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط1، 1365هـ).
- أحمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي، لسان العرب، (بيروت: دار صادر، ط3، 1414هـ).
- أحمد بن موسى بن العباس التميمي، أبو بكر بن مجاهد البغدادي، السبعة في القراءات، (مصر: دار المعارف، ط2، 1400).

- أحمد مختار عبد الحميد عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، (الرياض: عالم الكتب، ط1، 1429هـ).
- إسحاق بن الحسين المنجم، آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان، (بيروت: عالم الكتب، ط1، 1408هـ).
- أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط2، 1998م).
- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري، (بيروت، طوق النجاة، ط1، 1422هـ).
- البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة، أبو عبد الله، التاريخ الكبير، (الرياض: الناشر المتميز للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1440هـ).
- بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى العيني، المقاصد النحوية في شرح شواهد شروح الألفية المشهور بـ «شرح الشواهد الكبرى»، (القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط1، 1431هـ).
- البغوي أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء، معالم التنزيل في تفسير القرآن، (مصر: دار طيبة، ط4، 1417هـ).
- البناكتي، أبو سليمان داود بن أبي الفضل محمد، روضة أولي الألباب في معرفه التواريخ والأنساب، (القاهرة: المركز القومي للترجمة، ط1، 2007م).

- البيهقي أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسرُوْجِردِي الخراساني، **دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1405 هـ).
- التُّستري، أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن رفيع، **تفسير التستري**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1423 هـ).
- تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلِيم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، **مقدمة في أصول التفسير**، (بيروت: دار مكتبة الحياة، بدون رقم طبعة، 1490 هـ).
- تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي المقرئزي، **إغاثة الأمة بكشف الغمة**، (مصر: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط1، 1427 هـ).
- تقي الدين محمد بن أحمد الحسيني الفاسي المكي، **العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين**، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1، 1998 م).
- تقي الدين محمد بن أحمد بن طي الفاسي، **شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 2000 م).
- الثعالبي، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف، **الجواهر الحسان في تفسير القرآن**، (بيروت: إحياء التراث العربي، ط1، 1418 هـ).
- جرير. **ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب**، (القاهرة: دار المعارف، ط3).
- جعفر شرف الدين، الموسوعة القرآنية، **خصائص السور**، (بيروت: دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، ط1، 1420 هـ).

- جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، العلل المتناهية في الأحاديث الواهية، (باكستان: إدارة العلوم الأثرية، ط1، 1401هـ).
- جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، المصنفى بأكف أهل الرسوخ من علم الناسخ والمنسوخ، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط3، 1998م).
- جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1412هـ).
- جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، زاد المسير في علم النفسير، (بيروت: دار الكتاب العربي، ط1، 1422هـ).
- جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي، الدليل الشافي على المنهل الصافي، (السعودية: مكتبة الخانجي، ط1).
- جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، (بيروت: دار الساقى، ط4، 1422هـ).
- حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله القسطنطيني العثماني، سلم الوصول إلى طبقات الفحول، (إستانبول: مكتبة إرسىكا، 2010 م).
- الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسي الأصل، أبو علي، الحججة للقراء السبعة، (بيروت: دمشق: دار المأمون للتراث، ط2، 1413هـ).
- الحسين بن أحمد بن خالويه، أبو عبد الله، الحججة في القراءات السبع، (بيروت: دار الشروق، ط4، 1401هـ).
- خالد محسن حسان الجابري، الحياة العلمية في الحجاز، (مكة المكرمة: جامعة أم القرى، ط1، 1413هـ).

- خالد محسن، الحياة العلمية في الحجاز خلال العصر المملوكي، (مكة المكرمة: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، مكة المكرمة، ط1، 2005م).
- الخطيب البغدادي أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، (الرياض: مكتبة المعارف، 1403هـ).
- الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي، تاريخ بغداد، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط1، 1422هـ).
- د. حسن عت، الأحرف السبعة ومنزلة القراءات منها، (بيروت: دار البشائر الإسلامية، ط1، 1988م).
- د. مساعد بن سليمان بن ناصر الطيار، فصول في أصول التفسير، (المملكة العربية السعودية: دار ابن الجوزي، ط2، 1423هـ).
- الدارقطني، أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي بن مسعود بن النعمان بن دينار البغدادي، سنن الدارقطني، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1، 1424هـ).
- الدكتور محمد أحمد قاسم، الدكتور محيي الدين ديب، علوم البلاغة «البدیع والبيان والمعاني»، (لبنان: المؤسسة الحديثة للكتاب، ط1، 2003م).
- الدكتور محمد السيد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، (القاهرة: مكتبة وهبة، ط7، 2000م).
- الدميري، أبو البقاء، كمال الدين الشافعي محمد بن موسى بن عيسى بن علي، حياة الحيوان الكبرى، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط2، 1424هـ).
- الدواداري، أبو بكر بن عبد الله بن أيك، كنز الدرر وجامع الغرر، (مصر: عيسى البابي الحلبي، 1414هـ).

- الديلمي، أحمد بن علي بن محمد بن علي بن حجر العسقلاني، الغرائب الملتقطة من مسند الفردوس المسمى «زهر الفردوس»، (دبي: جمعية دار البر، ط1، 1439هـ).
- الدينوري، ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم، المعارف، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، 1992م).
- الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَائِمَاز الذهبي، تذكرة الحفاظ، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1419هـ).
- الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَائِمَاز، سير أعلام النبلاء، (القاهرة: دار الحديث، ط 1427).
- الرازي، فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي، خطيب الري، مفاتيح الغيب، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط3، 1420 هـ).
- رمزي نغاعة، الإسرائيليات وأثرها في كتب التفسير، (دمشق: دار القلم، ط1، 1390هـ).
- زاهية قدوره، الشعبية وأثرها الاجتماعي والسياسي في الحياة الإسلامية في العصر العباسي الأول، (بيروت: المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، ط1، 1988م).
- الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الدمشقي، الأعلام، (بيروت: دار العلم للملايين، ط15، 2002م).
- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، جار الله، ربيع الأبرار ونصوص الأختيار، (بيروت: مؤسسة الأعلمي، ط1، 1412هـ).
- الزيلعي، جمال الدين أبو محمد عبد الله بن يوسف بن محمد، تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزمخشري، (الرياض: دار ابن خزيمة، ط1، 1414هـ).

- زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي، (القاهرة: الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، ط1، 2004م).
- زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي، مختار الصحاح، (بيروت: المكتبة العصرية، ط5، 1420هـ).
- زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي، لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف، (بيروت: دار ابن حزم للطباعة والنشر، ط1، 1424هـ).
- زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي المناوي، الفتح السماوي بتخريج أحاديث القاضي البيضاوي، (الرياض: دار العاصمة، ط1، 1409هـ).
- زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري، التوقيف على مهمات التعاريف، (القاهرة: عالم الكتب، ط ذ، 1410هـ).
- السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين، طبقات الشافعية الكبرى، (مصر: هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، 1413هـ).
- السخاوي، شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد، المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، (بيروت: دار الكتاب العربي، ط1، 1405هـ).
- سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الأنصاري الشافعي المعروف بـ ابن الملحق، التوضيح لشرح الجامع الصحيح، (دمشق: دار النوادر، ط1، 1429هـ).

- سعيد أحمد بن صغير أحمد هندي، أثر الاستشراق على المنهج العقدي الإسلامي بالهند (١٨٥٠ م - ١٩٥٠ م) دراسة نقدية، (المدينة المنورة: أطروحة دكتوراه، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1423هـ).
- السلمي، أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين بن محمد بن موسى بن خالد بن سالم النيسابوري، طبقات الصوفية، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1419هـ).
- السلمي، أبي عبد الله محمد بن الحسين بن موسى الأزدي، حقائق التفسير = تفسير القرآن العزيز، (بيروت: دار الكتب العلمية، 2001م).
- سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني، المعجم الصغير، (بيروت: المكتب الإسلامي، ط1، 1405).
- سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني، المعجم الكبير، (القاهرة: مكتبة ابن تيمية، ط2).
- سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني، المعجم الأوسط، (القاهرة: دار الحرمين، 1424هـ).
- سليمان بن داوود سقسيني، زهرة الرياض، مخطوط.
- السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي، الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط1، 1421هـ).
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، طبقات الحفاظ، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1403هـ).

- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، طبقات المفسرين العشرين، (القاهرة: مكتبة وهبة، ط1، 1396هـ).
- شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الرب (حاشية الطيبي على الكشاف)، (دبي: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، ط1، 1434).
- الشعراء الهذليون، ديوان الهذليين، (القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، من دون ذكر طبعة، 1385هـ).
- الشَّعْرَانِي، أبو محمد عبد الوهاب بن أحمد بن علي الحنفي، نسبه إلى محمد ابن الحنفية، لواقع الأنوار في طبقات الأخيار، (مصر: مكتبة محمد المليجي الكتبي وأخيه، 1315 هـ).
- شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف، النشر في القراءات العشر، (بيروت، دار الكتب العلمية، من دون رقم وتاريخ طبعة).
- شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف، شرح طيبة النشر في القراءات، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط2، 1420).
- شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، (بيروت، دار مكتبة الحياة، ط1، 1412).
- شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد السخاوي، التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، (بيروت: الكتب العلمية، ط1، 1414هـ).
- شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزؤغلي بن عبد الله المعروف بـ «سبط ابن الجوزي»، مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، (بيروت: دار الرسالة العالمية، ط1، 1434هـ).

- شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَائِمَاز الذهبي، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، (بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر، ط1، 1382هـ).
- شمس الدين محمد بن علي بن الحسن بن حمزة الحسيني الدمشقي الشافعي، ذيل تذكرة الحفاظ، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط:1، 1419هـ).
- شمس الدين، أبو العون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي، لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرّة المضوية في عقد الفرقة المرضية، (دمشق: مؤسسة الخافقين ومكتبتها، ط2، 1402هـ).
- شمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي، مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1415هـ).
- شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه ابن حبيب ابن حدير بن سالم المعروف بابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1404هـ).
- شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألويسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1415هـ).
- الشيرازي، أبو إسحاق إبراهيم بن علي، طبقات الفقهاء، (بيروت: دار الرائد العربي، ط1، 1970م).
- صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، (بيروت: دار العلم للملايين، ط24، 2000).
- الصفدي صلاح الدين خليل بن أيك بن عبد الله، الوافي بالوفيات، (بيروت: دار إحياء التراث، ط1، 1420هـ).

- صلاح الدين، محمد بن شاکر بن أحمد بن عبد الرحمن بن شاکر بن هارون بن شاکر، فوات الوفیات، (بيروت: دار صادر، ط1، 1973م).
- طاهر بن محمد الأسفراييني، أبو المظفر، التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين، (لبنان: عالم الكتب، ط1، 1403هـ).
- الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي، الدعاء، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1413هـ).
- عادل نويهض، معجم المفسرين «من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر»، (بيروت: مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، ط3، 1409 هـ).
- عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، أسرار ترتيب القرآن، (القاهرة: دار الفضيحة، بدون ذكر رقم وتاريخ طبعة).
- عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، (مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1394هـ).
- عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، الدر المنثور، (بيروت: دار الفكر، بدون ذكر طبعة).
- عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، معترك الأقران في إعجاز القرآن، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1408هـ).
- عبد الرحمن بن عبد السلام الصفوري، نزهة المجالس ومنتخب النفائس، (مصر: المطبعة الكاستلية، من دون رقم طبعة، 1283هـ).

- عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ).
- عبد القادر بن محمد بن عبد القادر بن محمد الأنصاري الجزيري، الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 2002م).
- عبد القاهر بن طاهر بن محمد بن عبد الله البغدادي التميمي الأسفراييني، الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية، (بيروت: دار الآفاق الجديدة، ط2، 1977م).
- عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني المروزي، أبو سعد، الأنساب، (حيدر آباد: مجلس دائرة المعارف العثمانية، ط1، 1382هـ).
- عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، لطائف الإشارات، (مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط3).
- عبد الله بن المبارك المروزي، الزهد والرقائق لابن المبارك، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط2، 2004م).
- عبد الله بن محمود بن مودود الموصللي البلدحي، مجد الدين أبو الفضل الحنفي، الاختيار لتعليل المختار، (القاهرة: مطبعة الحلبي، ط1، 1937م).
- عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي، أبو محمد المصري، الجامع في الحديث، (الرياض: مكتبة ابن الجوزي، ط1، 1416هـ).
- عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله ابن يوسف، أبو محمد، جمال الدين، ابن هشام، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، (دمشق: دار الفكر، ط6، 1985).

- عبد الملك بن حسين بن عبد الملك العصامي المكي، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1419هـ).
- عبد الملك بن قريب الأصمعي، ديوان العجاج، (بيروت: دار الشروق العربي، من دون طبعة، 1416هـ).
- عثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر أبو عمرو الداني، البيان في عدّ آي القرآن، (الكويت: مركز المخطوطات والتراث، ط1، 1414هـ).
- عثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر أبو عمرو الداني، التيسير في القراءات السبع، (بيروت: دار الكتاب العربي، ط2، 1404هـ).
- علاء الدين علي بن حسام الدين ابن قاضي خان القادري الشاذلي الهندي البرهانفوري ثم المدني فالمكي الشهير بالمتقي الهندي، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط5، 1401هـ).
- علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيعي أبو الحسن، المعروف بالخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1415هـ).
- علي بن (سلطان) محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري، المصنوع في معرفة الحديث الموضوع (الموضوعات الصغرى)، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط2، 1398هـ).
- علي بن تاج الدين بن تقي الدين السنجاري، منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاية الحرم، (المملكة العربية السعودية: جامعة أم القرى، ط1، 1998م).
- علي بن عبد الله بن أحمد، أبو الحسن السمهودي القاهري الشافعي، الغماز على اللماز في الأحاديث المشتهرة، (الرياض، دار اللواء، ط1، 1401هـ).

- علي بن محمد بن عبد الصمد الهمداني المصري الشافعي، أبو الحسن، علم الدين السخاوي، جمال القراء وكمال الإقراء، (بيروت: دار المأمون للتراث، ط1، 1418هـ).
- علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني، التعريفات، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1403هـ).
- علي بن محمد بن علي، أبو الحسن الطبري، الملقب بعماد الدين، المعروف بالكيا الهراسي الشافعي، أحكام القرآن، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط2، 1405هـ).
- علي بن محمد، أبو الحسن نور الدين القاري، شرح الشفا، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1421هـ).
- عمر بن رضا بن محمد راغب بن عبد الغني كحالة الدمشقي، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط7، 1414هـ).
- عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، (بيروت: مكتبة المثنى ودار إحياء التراث العربي، بدون ذكر الطبعة).
- عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ، الحيوان، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط2، 1422هـ).
- عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر، الملقب بسبيويه، الكتاب، (القاهرة: مكتبة الخانجي، ط3، 1408هـ).
- الفاسي، تقي الدين أبو الطيب المكي الحسني، محمد بن أحمد بن علي، ذيل التقييد في رواية السنن والأسانيد، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1410هـ).

- فواز علي بن جنيدب الدهاس، المدارس في مكة خلال العصرين الأيوبي والمملوكي، (السعودية: مجلة الجمعية التاريخية، العدد الثاني، يوليو 2000م).
- القاضي عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد نكري، دستور العلماء = جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1421هـ).
- القاضي عياض أبو الفضل بن موسى اليحصبي، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، (عمان: دار الفيحاء، ط2، 1407هـ).
- القرطبي، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، (بيروت: دار الجيل، ط1، 1412 هـ).
- الكواشي، أبي العباس أحمد بن يوسف بن الحسين، التلخيص في تفسير القرآن العظيم، (بيروت: دار ابن حزم، ط1، 1440هـ).
- مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني، موطأ مالك برواية محمد بن الحسن الشيباني، (بيروت: المكتبة العلمية، ط2).
- مالك بن أنس، الموطأ، (الإمارات: مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان، ط1، 1425هـ).
- المتقي الهندي علاء الدين علي بن حسام الدين ابن قاضي خان القادري الشاذلي الهندي البرهانفوري، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، (دمشق: مؤسسة الرسالة، ط5، 1401هـ).
- مجاهد، أبو الحجاج مجاهد بن جبر التابعي المكي القرشي المخزومي، تفسير مجاهد، (مصر: دار الفكر الإسلامي الحديثة، ط1، 1410هـ).

- مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير، **جامع الأصول في أحاديث الرسول**، (بيروت: دار الفكر، ط1، 1985م).
- مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، **القاموس المحيط**، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، ط8، 1426هـ).
- محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، **التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»**، (تونس: الدار التونسية للنشر، 1984م).
- محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور، **معاني القراءات**، (المملكة العربية السعودية: مركز البحوث في كلية الآداب - جامعة الملك سعود، ط1، 1412هـ).
- محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، **تهذيب اللغة**، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط1، 2001م).
- محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله، **التاريخ الكبير**، (حيدر آباد: دائرة المعارف العثمانية).
- محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، **صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري**، (دار الصديق للنشر والتوزيع، ط4، 1418هـ).
- محمد بن أيدير المستعصي، **الدر الفريد وبيت القصيد**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1436هـ).
- محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، أبو جعفر الطبري، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، (بيروت: دار هجر، ط1، 1422هـ)، 5/16.

- محمد بن خليفة بن علي التميمي، معتقد أهل السنة والجماعة في أسماء الله الحسنى، (الرياض: أضواء السلف، ط1، 1419هـ).
- محمد بن خليل بن إبراهيم، أبو المحاسن القاوقجي الطرابلسي الحنفي، اللؤلؤ المرصوع فيما لا أصل له أو بأصله موضوع، (بيروت: دار البشائر الإسلامية، ط1، 1415 هـ).
- محمد بن سعد بن منيع الزهري، الطبقات الكبير، (القاهرة، مكتبة الخانجي، ط1، 1421هـ).
- محمد بن عبد الغني بن أبي بكر بن شجاع، أبو بكر، معين الدين، ابن نقطة الحنبلي البغدادي، التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1409هـ).
- محمد بن علي بن آدم بن موسى الإتيوبي الولوي، البحر المحيط الثجاج في شرح صحيح الإمام مسلم بن الحجاج، (الدمام: دار ابن الجوزي، ط1، 1426هـ).
- محمد بن محمد أبو شهبة، الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، (القاهرة: مكتبة السنة، ط4، 1408هـ).
- محمد بن محمد بن سويلم أبو شهبة، المدخل لدراسة القرآن الكريم، (القاهرة: مكتبة السنة، ط2، 1423هـ).
- محمد بن محمد بن محمد بن الجزري، منجد المقرئين ومرشد الطالبين، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1420هـ).
- محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي، تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1426هـ).
- محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي، محاسن التأويل، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1418هـ).

- محمد طاهر بن علي الصديقي الهندي الفُتني، **تذكرة الموضوعات**، (مصر: إدارة الطباعة المنيرية، ط1، 1343هـ).
- محمد عبد العظيم الزُّرقاني، **مناهل العرفان في علوم القرآن**، (مصر: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط3، 1362هـ).
- محمود بن حمزة بن نصر، أبو القاسم برهان الدين الكرمانى، **أسرار التكرار في القرآن المسمى البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان**، (دار الفضيلة: من غير رقم طبعة وتاريخ).
- مصطفى الخن، **مبادئ العقيدة الإسلامية**، (دمشق، جامعة دمشق، ط9، 1416هـ).
- مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي القسطنطينية المشهور باسم حاجي خليفة أو الحاج خليفة، **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، (بغداد: مكتبة المثنى، 1941م).
- المقرئ، تقي الدين أحمد بن علي، **درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة**، (بيروت: دار الغرب الإسلامي - لبنان، ط1، 1423هـ).
- مناع بن خليل القطان، **مباحث في علوم القرآن**، (الرياض: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ط3، 1421هـ).
- موفق الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي الجماعيلي الدمشقي الصالحي الحنبلي، **المغني**، (الرياض: دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1417هـ).
- ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط1، 1418هـ).

- نجم الدين عمر بن محمد بن أحمد النسفي الحنفي، التيسير في التفسير، (إسطنبول: دار اللباب، ط1، 1440هـ).
- النجم عمر بن فهد محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن فهد، إتحاف الوري بأخبار أم القرى، (المملكة العربية السعودية: جامعة أم القرى، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، ط1، 1404هـ).
- النسفي، أبو البركات حافظ الدين عبد الله بن أحمد بن محمود، شرح العمدة في عقيدة أهل السنة والجماعة المسمى الاعتماد في الاعتقاد. (القاهرة: المكتبة الأزهرية للتراث، ط1، 1432هـ).
- النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، (بيروت: دار الكلم الطيب، ط1، 1419هـ).
- نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري، غرائب القرآن و رغائب الفرقان، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1/1416هـ).
- النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط2، 1392هـ).
- النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف، تهذيب الأسماء واللغات، (بيروت: دار الكتب العلمية عن الطباعة المنيرية).
- الهيثمي أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، (القاهرة: مكتبة القدسي، 1414هـ).

- اليعمري، برهان الدين، إبراهيم بن علي بن محمد، ابن فرحون، **الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب**، (القاهرة: دار التراث للطبع والنشر).
- يعيش بن علي بن يعيش ابن أبي السرايا محمد بن علي، أبو البقاء، موفق الدين الأسدي الموصلبي، المعروف بابن يعيش وبابن الصانع، **شرح المفصل للزمخشري**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1422هـ).
- يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف، أبو الحجاج، جمال الدين ابن الزكي أبي محمد القضاعي الكلبي المزي، **تهذيب الكمال في أسماء الرجال**، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1، 1400هـ).
- يوسف بن علي بن جبارة بن محمد بن عقيل بن سواده أبو القاسم الهُدلي الإشكري المغربي، **الكامل في القراءات والأربعين الزائدة عليها**، (الشارقة: مؤسسة سما للتوزيع والنشر، ط1، 1428هـ).

السيرة الذاتية

أكمل الباحث دراسته الأولية ثم التحق معهد الفتح الإسلامي في الدراسات الإسلامية والعربية/ دمشق عام 2003م، ثم حصل على الشهادة الجامعية من معهد الدعوة الجامعي للدراسات الإسلامية، بيروت عام 2010م، ثم حصل على شهادة جامعية في الدراسات الإسلامية والعربية من كلية الدعوى الإسلامية، ليبيا عام 2013م.

التحق الباحث في كلية الدعوة الإسلامية في بيروت عام 2015م. لإكمال دراسة الماجستير، شعبة الاقتصاد الإسلامي.

التحق الباحث في جامعة مانيسيا لدراسة الدكتوراه، تخصص اللغة العربية لغير الناطقين بها.

الباحث مجاز في قراءة حفص تلاوة بالسند وأخرى ضبط وإتقان/ بيروت 2010م.

الأعمال العلمية:

- دراسة وتحقيق مخطوط واقعات المفتين العلامة الشيخ عبد القادر ابن يوسف الشهير بقدرى أفندي.
- دراسة وتحقيق تفسير القرآن العظيم للعلامة أبو البقاء بهاء الدين محمد بن أحمد بن الضياء.
- دراسة وتحقيق جزء من ديوان فتح المجيب في مدح الحبيب ﷺ للشيخ عيسى البيانوي.
- مشاركة في مؤتمر الملتقى العالمي للدراسات العليا "التكامل المعرفي بين علوم الوحي والعلوم الإنسانية واقع وآفاق، 29-10-2022م.
- قالة التفسير والمفسرون في سوريا في العصر الحديث، مقالة ابن الضياء ومنهجه في تفسير القرآن.
- مدرس اللغة العربية لغير الناطقين بها في مدرسة أناضول إمام خطيب -ولاية سامسون- تركيا.
- مدير القسم الديني في جمعية الخير الإغاثية.
- مدرس مادة التربية الإسلامية في الثانويات السورية.



**İBNU'Z-ZIYA'NIN TEFSİRİNDEKİ METODU:
TAHA SURESİ ÖRNEĞİNDE BİR İNCELEME VE
TAHKİK**

**2023
DOKTORA TEZİ
TAMEL İSLAM BİLİMLERİ**

Musab ALSAFAR

**Tez Danışmanı
Doç. Dr. Tuğrul TEZCAN**